

التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب

افتتاحية العدد

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

كلمة العدد

من أجل ثقافة عربية شاملة

د. علي القيم رئيس التحرير

الإبداع



علي الكفري (تكوينات على جسد امرأة)

كتاب الشهر

قرطاجة مدينة البونيين

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن

حوار العدد مع الروائي نبيل سليمان



الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب

وددتُ أن تكون الندوة الفكرية المرافقة لمعرض الكتاب الدولي في دمشق العام الماضي، بحثاً عن التواصل والتكامل الثقافي بين مشرق الأمة العربية ومغربها، وقد عُقدت عدة ندوات في الوطن العربي لدراسة الموضوع ذاته، ولتصعيد

الاهتمام بالتكامل الثقافي الذي يحققه هذا الحوار الذي ينبغي أن يستمر، فلابد لثقافتنا العربية من أن تخوض حواراً داخلياً عميقاً يواكب دعوتها إلى الحوار مع الثقافات العالمية الأخرى. ولابد من التوقف عند شيوع نظريات تقدم نفسها على أنها الحداثة المنشودة، تدعو إلى القطيعة أو تؤكد وجودها عبر دراسات فكرية بنيوية أو مادية أو تاريخية تريد أن تؤسس الثقافة العربية المعاصرة على مفهوم القطيعة وليس على أساس التواصل والاستمرار والاستقرار. وبعضها يرى أن تطور العلم يخضع لمتغيرات كبرى تجُبّ كلُّ مرحلة فيها ما كان قبلها من مراحل الارتقاء. وهذا كلام مرفوض جملة وتفصيلاً على صعيد الفكر والعلم، لأن حقائق العقل الواقعة في دائرة الثوابت راسخة رسوخ المنطق الإنساني ورسوخ الغرائز والدوافع والنوازع، مع الاعتراف بتغير أشكال التعبير عنها عبر تحديث مستمر. وكذلك العلم هو سلسلة معرفية متراكمة تتناقلها الحضارات، فكيف إذا كان التناقل في داخل الحضارة الواحدة؟

ويبدو أن بعض المفكرين المشارقة والمغاربة قد أسهموا بقصد، أو بغير قصد، في تكوين رؤية تبحث عن الفوارق أكثر مما تبحث عن التواصل والتماهي والتشابه، فهناك من تحدثوا عن اختلاف في الزمان والمكان المغربيين عن مثيليهما المشرقيين. وهناك من اشتغل بالبحث عن الأسبقية والريادة، وهو أمر لابد من أن يصطنع حساسيات لا تحتاج إليها ثقافتنا الراهنة التي تنفتح أمامها آفاق ثقافات الأرض، وطبيعي أن يكون انفتاحها على

جبهاتها الداخلية أرحب وأوسع. ولقد كان هدف ندوتنا أن يتحاور المثقفون من المشرق والمغرب لتوسيع الرؤية المشتركة لمفهوم الوحدة عبر التعدد والتنوع، وهذا المفهوم لا ينكر الخصوصيات الثقافية التاريخية، وهذه الخصوصيات لم تشكل عبر التاريخ كلّه أية قطيعة مدَّعاة. ولئن كنا نريد البحث عن ذروة هذه الحضارة الواحدة فإننا نجدها في الإسلام الذي يشكل البنية الحضارية المشتركة، ورغم كثير من التباين في التجربة التاريخية، وقد حفل تاريخنا الثقافي بمساجلات طريفة حول التبادل المعرفي، فحين جاءت إلى المشرق كتب أبي علي القالي وابن عبد ربه وسواهما من صناع فن الخبر، قال المشرق العربي «بضاعتنا ردت إلينا». وكان أهل المشرق قد حملوا معهم إلى المغرب العربي كل معارفهم يوم حققوا فتوحاتهم، ولكن اختلاطهم بثقافات جديدة في المغرب أتاح لهم تميزاً بات غنى واضحاً في الثقافة العربية.

ويميل بعض المثقفين إلى اختراع فوارق، فهناك من يظن أن المدارس الفكرية التي انتظمت فيها فلسفات المغرب العربي كانت مختلفة تماماً عن فلسفات أهل المشرق، ويحيل بعضهم الفكر المشرقي إلى الشيخ الرئيس ابن سينا وإلى الفارابي وإلى فقه الغزالي وتأثر فلسفة المشرق بالفلسفة الأفلاطونية، بينما يرى أن المغرب العربي يحقق فلسفة ابن رشد وابن طفيل وفقه ابن حزم. وهذه الرؤية تغفل عن كون المدرستين تنهلان من الفكر العربي الإسلامي ذاته. فإذا كان ابن سينا والفارابي الملقب بـ «أرسطو العرب» قد درسا فلسفة اليونان وتأثرا بها وقدما نقداً لها، وأرادا الإفادة من حكمتها في دعم الفلسفة

الإسلامية، فإن ابن رشد فعل الأمر ذاته حين شرح أرسطو. ولئن كان قد نزع إلى الفصل بين الرؤية التأملية الوضعية وبين الرؤية الدينية الوقفية فإن المعتزلة و«إخوان الصفا» قد أسسوا لذلك، ولا أعني بذلك مفهوم الريادة أو السبق، وإنما أعني وحدة المصدر والمنهل، لتأكيد وحدة الثقافة مع تنوعها الثري.

وفي العصر الحديث تألقت في المغرب العربي دراسات فكرية حول تكوين العقل ودراسة التراث، ولكن كثيراً منها كما في المشرق نظر إلى العقل العربي وإلى التراث بعيون المستشرقين الذين كانوا أساتذة للباحثين الذين درسوا في الغرب، وتأثروا بنظريات أوروبية لا تصلح جملة لتشخيص خصوصية الثقافة العربية. وما زلت أرى ضرورة أن يجد الباحثون منهجاً للبحث مستخرجاً من صلب الثقافة العربية. وأزعم أن المدارس البنيوية والمادية والتاريخانية التي هي نتاج فلسفات غربية لم تستطع أن تصل إلى المضامين العميقة للثقافة العربية أو أن تلتقط الوجدان فيها. ولئن كان فلاسفة الماضي مثل الفارابي وابن رشد قد أفادوا من نتاج فكر اليونان، فإن رؤيتهم الموسوعية التي يفتقدها الباحثون المتخصصون اليوم أنقذتهم من الوقوع في الرؤية الأحادية، ومن فخ التنافر بين الميزان والموزون، وأنا لا أطلق أحكاماً اعتقادية وإنما أثير أفكاراً هي بالضرورة قابلة للنقد والنقض، وهذا ما حرصنا عليه في الملتقى ليس لهدف الوصول إلى الفصل بين الصحيح وغير الصحيح، وإنما بهدف الوصول إلى مزيد من التنوع الحيوي، عبر وفرة

من وجهات النظر. كما حرصنا على أن نتأمل تجربة المغرب في مثاقفته مع الغرب، فهو الأقرب إليه في الجغرافية وفي التاريخ، وقد حقق تمسكاً بثوابته على الرغم من تعرضه لاستعمار طويل ولاسيما في الجزائر. واليوم تحقق الجاليات العربية والمغاربية خاصة في أوروبة حضوراً سياسياً وثقافياً متميزاً (فقد وصل كثير من العرب المهاجرين إلى مواقع سياسية مهمة في أوروبة)، وباتت تجربة الاغتراب بين أهل المشرق وأهل المغرب جديرة بالحوار للإفادة من إيجابياتها، ولتأمُّل ما فيها من سلبيات، ولدراسة تفاعل الأمة مع هذه الحالة المستجدة، ولا سيما بعد أن صارت موضع حوار سياسي داخل أوروبة.

كما وجدنا من الضروري أن يتم تأمل نقدي للاستجابة الثقافية بين كل من المشرق والمغرب لتحديات القرن الحادي والعشرين، بهدف توحيد المواقف التي تعزز مفهوم الأمة الواحدة. وقد أشار أحد الباحثين في الندوة إلى أن أهل المغرب لم يشغلهم موضوع الإثنيات أو الطائفية التي تقلق أهل المشرق، ربما لاختلاف طبيعة النسيج الاجتماعي بين الجهتين، مع أن المغرب العربي في تاريخه شهد كل ما يعرفه المشرق اليوم من تنوع جعل ابن حزم يؤلف كتاباً عن «الملل والنحل».

وأجد من الضروري أن تطلع الأجيال الجديدة في المشرق والمغرب على عمق التواصل بين صفحتي كتاب الثقافة العربية لترى الجذور المعرفية التي توحِّد الرؤية العامة إلى درجة التمازج، فلم يكن المؤسسون الكبار لثقافتنا يتوجهون إلى ثقافة مشرقية أو مغاربية، فابن عربي وابن خلدون

وابن البيطار وأمثالهم كثر حتى عصر الأمير عبد القادر الجزائري وما بعده، عاشوا بين مشرق الأمة ومغربها، ليؤسسوا ثقافة عربية إسلامية واحدة في مصادرها الكبرى، متنوعة في إبداعاتها. ولقد عانت الثقافة العربية من فصام غير مسوَّغ في القرن العشرين. وأذكر أنني في الثمانينيات من القرن الماضي شعرت بقسوة جهلنا في المشرق بما يبدع أهل المغرب ولاسيما في الميدان الفكري، فقمت بجولة واسعة في دول المغرب العربي (قبل ظهور الفضائيات) لإجراء حوارات تلفزيونية كان هدفي منها تعريف أهل المشرق بإبداع أهل المغرب، وقدمت عشرات الحلقات التلفزيونية التي عرضت في القنوات العربية التلفزيونية ولقيت نجاحاً في مضامينها. وأعتقد أن ظهور الفضائيات في مطلع التسعينيات قد حقق كثيراً من التواصل، ولكنه في كثير من الأحيان تواصل شكلي تأخذ دراما التلفزيون النصيب الأوفر فيه، ولا يصل بعمق إلى المعرفة الفكرية التي لا يحققها إلا الكتاب، وما يزال الكتاب ضعيف الحضور والانتشار. وأحسب أن إفادتنا من معارض الكتاب في إقامة ملتقيات فكرية تقود إلى الهدف العريض وهو تعميق الحوار داخل الثقافة الواحدة.





كلمة العدد

من أجل ثقافة عربية شاملة

د. علي القيّم
رئيس التحرير

برعاية كريمة من السيد الرئيس بشار الأسد، عقدت في دمشق بين (١٦ و١٧ تشرين الثاني ٢٠٠٨م) اجتماعات الدورة السادسة عشرة لمؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي، وقد نابت عن السيد الرئيس في الرعاية والافتتاح السيدة الدكتورة نجاح العطار، نائب رئيس الجمهورية، التي ألقت كلمة معبّرة، فيها الكثير من الاعتزاز بدور السيد الرئيس الذي يحمل مشعل الثقافة العربية فكراً وتنويراً وإبداعاً وإيماناً



بمعطيات التاريخ والحضارة، وبالأمة العربية من المحيط إلى الخليج، وبالمستقبل المنوّر بالمعرفة، وبالراهن تطلعاً واعياً إلى إشراقة فجر جديد، واستعادة مجد الأيام التي تسنمنا فيها ذروة التاريخ..

لقد دعت الدكتورة العطار زملاء درب الثقافة في الوطن العربي، إلى متابعة الدرب الذي قطعناه معاً، كتفاً بكتف، في عمل مشترك، نتلاقى على أهدافه، ونرسم معالمه، ليكون السبيل إلى تحقيق تقدم يضع أجيالنا في قلب العصر، ويمدّها بالنسغ المحيي دون أن نضيّع الهوية الجامعة، واللغة الموحدة، والثقافة المتجذرة، والثوابت المرتكزة على وعي لحقائق الوجود والإيمان بطاقات الأمة العربية وإمكاناتها..

وأعادت الدكتورة العطار إلى الذاكرة لمحات مما كان في شأن الخطة الشاملة للثقافة العربية منذ المؤتمر الثقافي العربي الأول الذي عقد في عمان عام ١٩٧٦، ووضّحت الخطوط الرئيسة الناظمة للثقافة العربية التي يجب أن تتماشى مع أحدث القواعد العلمية الثقافية من حيث سلامتها وتقدميتها واستلهامها تراثنا الباذخ عراقة، وحداثتنا الصاعدة طموحاً، ورأت الدكتورة العطار أن من حق الأجيال أن تتشكل فكرياً في المناخات العقلية الأشد انفتاحاً على العصر الأكثر تجاوباً مع الأصيل من التراث، وأن تكون في مجرى الحياة الثقافية السليمة التي ترى في الإنسان وتحرره وتقدمه طموحاً مستقبلياً كبيراً، ولفتت إلى أن الدنيا تغيّرت من حولنا، وتزلزلت قواعد ومفاهيم وأسس، ولم يعد الإنسان ملتصقاً بالأرض، بل صار يتحرك في الزمان النجمي، وعلينا جميعاً أن نوسع أفقنا إلى ما بعد نقطة اللانهاية.. صار على الثقافة أن تلعب دورها التغييري الذي لا بد من أن نعيد إليه وهجه وزخمه وأن نعمل على خلق بيئة ثقافية مواتية لهذا

التغيير على مهاد من الفكر المتقدم الذي لا يتنكر لثوابت الأمة، ولا يخشى في الوقت ذاته من الفناء في الحضارات الأخرى، وهو يمدّ جسور التواصل معها، وأن نحمل مسؤولية الإنماء الثقافي، وأن نشرع الأبواب لفتوحات العلم المذهلة ساعين إلى امتلاك التقنيات التي حققتها الكشوفات العلمية الثورية في كل المجالات من المعلوماتية، إلى الالكترونيات، إلى اقتصادات المعرفة، إلى الحواسب والشابكات والأقمار الصناعية والمحطات الفضائية والثورات الرقمية، كي نبقى في قلب ثقافة عصرنا نعيه ونتماشى مع ركبه..

بدوره الدكتور رياض نعسان آغا وزير الثقافة أكّد في كلمته على أهمية التحام الشمل العربي على أرض دمشق، وقال نحن أمة تنشد السلام، والذين يصنعون المستقبل هم المفكرون والمثقفون والمبدعون، مشيراً إلى فشل محاولات البعض في الغرب لصق الإرهاب بالإسلام، لتصوير الإسلام على أنه عنف وإرهاب. وقال: هناك من يريد أن يقسّمنا إلى شيع وطوائف وإثنيّات وأعراق، بينما نحن أمة واحدة، وعلينا أن ندرك أن الاختلاف هو سنة الحياة، وألاّ نخاف من اختلافنا في الرأي، وأن النهوض باللغة العربية هو العنوان الأهم، وهو أن نبقى عرباً، ولا أمة من دون لغة، وأي أمة تفقد لغتها تفقد حضورها وطريقها..

❁ ❁ ❁

لقد شملت وثيقة العمل التي قدمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى مؤتمر وزراء الثقافة في الوطن العربي، تقارير ومشروعات ثقافية، تتناول الأوضاع الثقافية في الدول العربية من خلال «الحولية العربية للثقافة ٢٠٠٥-٢٠٠٦» والعقد العربي للتنمية الثقافية «٢٠٠٥-٢٠١٤» ومشروع العواصم الثقافية العربية وبخاصة القدس عاصمة للثقافة العربية ٢٠٠٩، ومشروع النهوض باللغة

العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة، وهو المشروع الذي أقرّته القمة العربية في مؤتمرها بدمشق ٢٠٠٨، والاتفاقيات الثقافية، مثل: الاتفاقية الثقافية العربية المشتركة، والاتفاقية العربية لحماية المأثورات الشعبية، والاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف، والاتفاقية العربية لتيسير انتقال الإنتاج الثقافي العربي.. كما عرضت المنظمة موضوع تحديث الخطة الشاملة للثقافة العربية الذي تدعمه وتتبناه حكومة الكويت الشقيقة، وطرح موضوع إحداث الهيئة العربية للمسرح، وإقامة مهرجان ثقافي صيني- عربي، يقام بالتبادل بين مدن عربية وصينية، وقد حظيت هذه المشاريع والاتفاقيات على موافقة المؤتمر وأصبحت موضع التنفيذ..

محطات كثيرة يمكن التوقف عندها في وثيقة العمل التي عرضتها «الاليكسو» على مؤتمر وزراء الثقافة العرب، نخص بالذكر منها:

- دعوة الدول العربية إلى العمل على الإعداد الميداني لمواقع التراث الثقافي والطبيعي ذات القيمة العالمية المتميزة في أراضيها، وتقديم ملفات تسجيلها إلى مراكز التراث العالمي، ودعوتها إلى إعداد قوائمها التمهيدية وتحديثها وتقديمها إلى مركز التراث العالمي في الوقت المحدد، فلم يسجّل عام ٢٠٠٧ سوى موقع عربي واحد هو «مدينة سامراء الأثرية» في العراق، وضعت مباشرة على قائمة التراث العالمي المهدد بالخطر، وسجل عام ٢٠٠٨ موقعان عربيان، أحدهما ثقافي هو «مدائن صالح» في المملكة العربية السعودية، والثاني طبيعي هو «سقطرى» في اليمن، ومما يؤسف له أن لا يوجد أي موقع عربي مرشح للتسجيل عام ٢٠٠٩؟!

- قرر المؤتمر العمل على تحديث «الخطة الشاملة للثقافة العربية» التي أقرت بتونس عام ١٩٨٥، ويعد هذا الأمر امتداداً لجهد ثقافي عربي، قامت به دولة

الكويت الشقيقة، وحاجة بالغة لتعزيز العمل العربي المشترك في مجال التراث الثقافي في داخل الوطن العربي، وإبراز الحضور العربي على الساحة الدولية.

- دعوة الدول العربية إلى تعزيز العمل العربي المشترك في مجال التراث الثقافي والحضاري وحمايته وصيانته، وتبادل الخبرات الفنية، وتشجيع البعثات المشتركة للاستفادة من الخبرات العربية، وتقديم الدعم إلى الهيئات المهنية والاتحادات والجمعيات المعنية بالآثار في الدول العربية، وتفعيل دورها لتحقيق الأهداف التي أنشئت من أجلها.

- التراث الشعبي (المأثورات الشعبية العربية) تراث متنوع في المكان والزمان، في الوقت الذي هو فيه تراث حي متطور يعبّر عن الوجدان القومي، لذلك فهو ليس عاملاً ثقافياً فحسب، وإنما يجب النظر إليه باعتباره عامل وحدة ونوعية في آن واحد، وإلى الفنون الشعبية العربية بجوانبها المادية والروحية على أنها وحدة متماسكة في الأسس العامة التي قامت عليها، وفي الأسلوب الذي تؤدى به، وفي المضمون من حيث معناه وأهدافه، والخطة الشاملة للثقافة العربية، حددت سياسة ثقافية عربية دعت إلى البدء في جمع الفنون الشعبية وتسجيلها وتوثيقها في الوطن العربي كله، كما دعت إلى تكوين فرق عمل من الباحثين للقيام بالتسجيل والتوثيق وإنشاء المتاحف الخاصة بهذه الفنون وفق التقنيات والأساليب الحديثة في الحفظ والعرض، وإصدار القوانين والتشريعات اللازمة لصون هذه الفنون وحمايتها، وإجراء الدراسات العملية حولها، وإصدار مجموعات مصورة عن روائع الفنون الشعبية العربية ونشرها والتعريف بها بمختلف اللغات.

- إيلاء الاهتمام بالمشروع الرقمي للتراث العربي، الذي يتطلع إلى إصدار عدّة «مخرجات» تؤكد وجود ذاكرة مشتركة للتراث العربي، فالذاكرة التراثية للأمة

العربية توحّد الأمة، وتدعم الصلات الأخوية بين أبناء الشعب العربي، وتتمركز هذه الذاكرة في العصور العربية الإسلامية، فيبرز المشروع في «المخرجات» الخطوط الزمنية للعصور العربية الإسلامية مثل: العصر الأموي والعباسي والمملوكي والعثماني، فتظهر النماذج المعمارية والعناصر الزخرفية والأشكال الهندسية صلة الربط بين التراث في البلاد العربية، وتعطي بعداً آخر للتراث والثقافة، وتظهره بمضمون أعمق وأوضح، ويتطلع المشروع إلى إصدار كتيّبات لنماذج من مقتنيات المتاحف وسير العلماء العرب، وأهم المدن العربية والتراث الشعبي والصور الضوئية للربط بين مقتنيات المتاحف والمكتبات العربية، وتعزز أهمية الثقافة والتراث العربي بشتى جوانبه..

❀ ❀ ❀

في محور دراسة «الأوضاع الثقافية في الدول العربية» طرحت مواضيع مهمة تتعلق بالعقد العربي للتنمية الثقافية (٢٠٠٥-٢٠١٤) ولعلَّ أبرز موضوعات هذا العقد نجاحاً، مشروع العواصم الثقافية العربية الذي بدأ في إطار العقد العالمي للتنمية الثقافية الذي أقرته «اليونسكو»، وتواصل فيما أقره مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي، في إطار خطط التنمية الثقافية العربية.. فقد حقق مشروع العواصم الثقافية العربية تقارباً وتعاوناً كبيرين بين المثقفين والمبدعين العرب والجمهور في البلدان التي تحتفي بعواصمها الثقافية، كما حقق التعاون العربي المنشود بين الوزارات المسؤولة عن الثقافة في دول الوطن العربي، وقد استجاب هذا العقد إلى تحقيق الأمور التالية:

- وضع الثقافة في محور عملية التنمية في الوطن العربي.
- تأكيد الهوية الثقافية وتعزيزها والحفاظ عليها.

- تشجيع الإبداع وتعزيز المشاركة في الحياة الثقافية في الوطن العربي، وتأهيل الثقافة العربية لمواجهة المستقبل، ومجابهة تحديات العولمة.

- دعم التفاعل والحوار بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى، وتعزيز السياسات والممارسات الثقافية.

- تعزيز التنوع الثقافي في عصر العولمة.

- دعم الموارد البشرية الكفيلة بتحقيق التنمية الثقافية الشاملة والمستديمة.

- تفعيل دور البحوث والدراسات والمؤسسات في رسم السياسات الثقافية.

- إكساب التعاون العربي الثقافي البيني ومع الخارج مزيداً من النجاعة والفاعلية، والارتقاء به من مستوى التبادل إلى مستوى التنسيق والمعرفة والتكامل.

وسوف يتم الاحتفاء بالمدن العربية التالية وفق الترتيب التالي:

القدس٢٠٠٩- الدوحة ٢٠١٠- طرابلس ٢٠١١- المنامة ٢٠١٢- بغداد ٢٠١٣، وقد وضعت الدول العربية برامج عديدة للاحتفال بالقدس، عاصمة العرب التي بزغ فجر الحضارة على أرضها، واغتنى التاريخ من مهدها، ونام الزمان على كتفها لترتقي مهداً للأنبياء وأرضاً للرسالات السماوية والحضارات القديمة.

وقد وضعت الأهداف الاستراتيجية العامة لاحتفالية القدس التي حددت في:

- إعادة الصدارة لمدينة القدس بقيمتها الثقافية وبعدها الحضاري والتاريخي والديني، وحماية معالمها التاريخية والروحية بما يعزز هويتها الثقافية العربية.

- تفعيل الحراك الثقافي في القدس ومحيطها وكسر العزلة الثقافية التي تعيشها المدينة عن واقعها العربي الطبيعي.

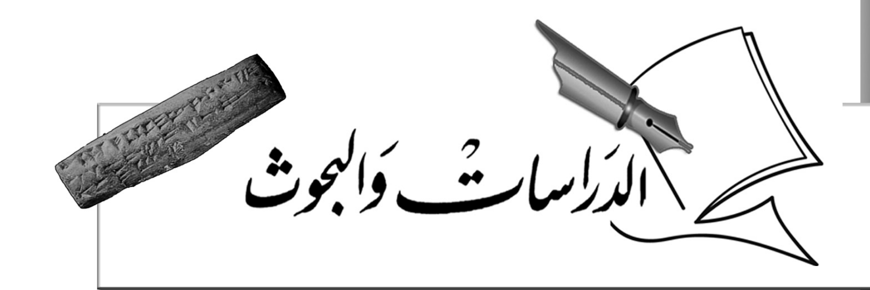
- تأهيل بنى تحتية مناسبة للاحتفاء بالقدس عاصمة للثقافة العربية.

- التنسيق مع الدول العربية لتنفيذ نشاطات وفعاليات ثقافية في عواصمها حول القدس.

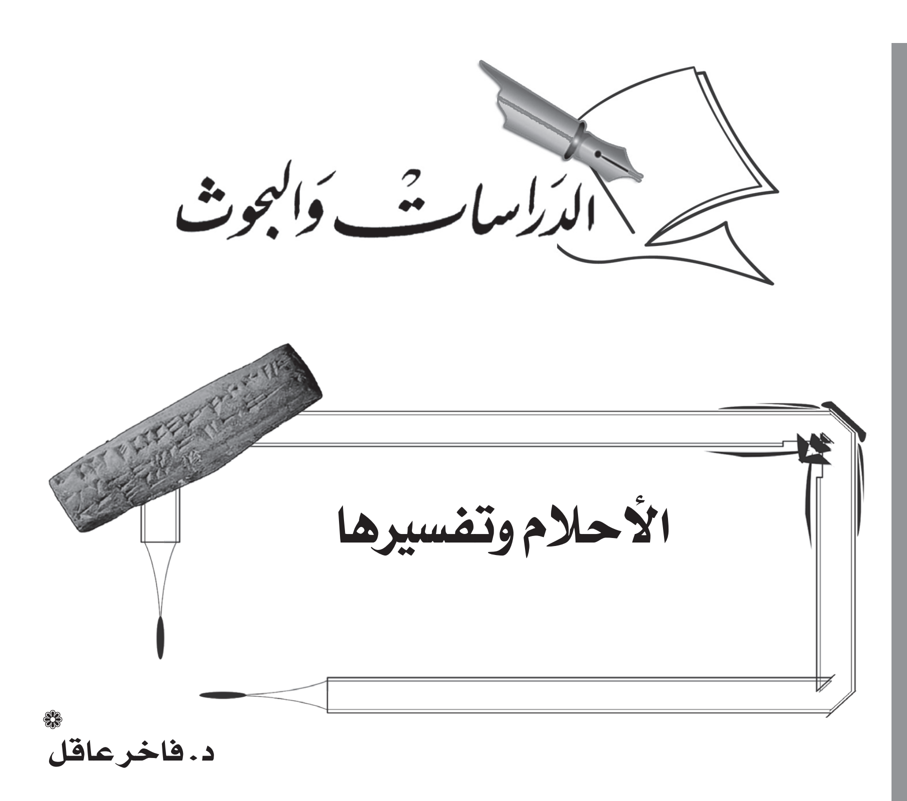
- تنفيذ حملة دولية من أجل تعزيز هوية القدس العربية.

وتم إيلاء موضوع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع اللغة العربية، تنفيذاً (لقرار القمة العربية الذي عقد في دمشق- آذار ٢٠٠٨) الاهتمام الكبير لدعم حضورها محلياً وعربياً وعالمياً، لأنها الوجه الأساسي من وجوه الهوية العربية، وضرورة دعم حضورها في الشبكة العالمية للمعلومات، وفي الوسائل السمعية والبصرية، تصدياً لما تتعرض له لغتنا من محاولات تهميش في ظل العولمة الشرسة، وتم التأكيد على مسؤولية الدولة والمجتمع في استخدام اللغة العربية (لغة رسمية) في مختلف الميادين المعرفية والثقافية والحياة العامة والأنشطة الفنية والإعلامية، والاهتمام بالصناعات الثقافية ذات الطابع القومي وإنتاجها باللغة العربية، والالتزام باستخدام اللغة العربية في المحافل الدولية، وتعليم اللغة العربية لأبناء الجاليات العربية في المهجر، والتعريف بثقافتنا العربية عن طريق تحقيق ونشر روائع الأدب والفكر العربيين، وتوفيرها بأسعار زهيدة، ونشر الثقافة العربية عبر وسائل الاتصال والإعلام..




الدراسات والبحوث





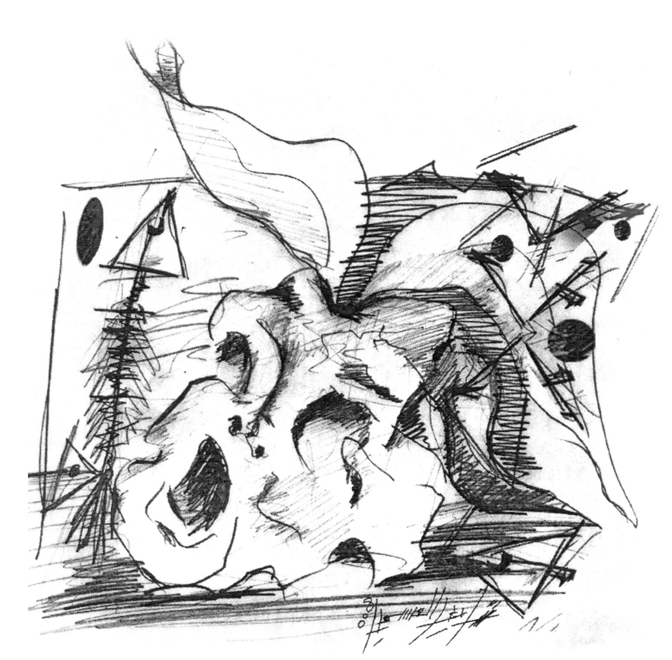
الأحلام وتفسيرها

د. فاخر عاقل*

اهتم الإنسان بأحلامه منذ أدرك أنها أحلام إذ لا شك في أنه بادئ الأمر خلط بين حياة الحلم وحياة اليقظة فاشتبه عليه الأمر حتى ليقال إن كثيراً من الابتدائيين اليوم لا يفرقون بين الحياتين. ولقد اعتقد الإنسان دوماً أن لا بد للأحلام من تفسير ودلالة فنشأ عن ذلك العلم الذي سماه الأقدمون بتفسير الأحلام وهو علم كتبوا عنه كتباً مطولة كثيرة في جملتها كتب «ابن سيرين». ويظهر أن الأحلام التي فقدت أهميتها القرنين الماضيين عند

* أديب ومفكر وتربوي سوري.
العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

العلماء على الأقل بدأت اليوم تستعيد هذه الأهمية وبدأ علم النفس بعد (فرويد) ينظر إليها نظرة أقل ما توصف به الجدية والاهتمام. فما هي الأحلام وما هي أسبابها؟



إذا نام الإنسان هبطت فعالية دماغه إلى مستوى منخفض، وقد تتوقف تماماً خلال النوم العميق جداً. ومن هنا كان قولنا بأن معظم الأحلام المنسجمة لدرجة تساعد على تذكرها إنما تحدث بعيد النوم مباشرة أو قبيل الاستيقاظ مباشرة أو في أوقات أخرى يكون النوم فيها خفيفاً، أي حين تكون الرقابة والمحاكمة غير خاضعة تماماً لإرادة الشخص النائم.

والأحلام تشبه التخيل والإبداع في أنها عناصر ذكريات جمعها الحالم من هنا وهناك ثم ركبها بعضها على بعض وأنشأ منها حوادث لم تمر به قط وكثيراً ما تكون غريبة أو مستحيلة. وتتصف النفس النائمة بأنها تكون في حالة تراخ أي عدم مقاومة ومعنى ذلك أنها أضاعت القدرة على الإيقاف، ولذلك فهي تقبل أي إحساس أو صورة أو فكرة أو محاكمة كانت. فالانتباه والإرادة بمعناها الدقيق مفقودان لدى مثل هذه النفس، وكل شيء مقبول عندها حتى لو كان مستحيلاً، ولذلك فمثل هذه النفس حين تحلم تقبل أن يتحدث صاحبها إلى ميت ويماشيه ويؤاكله! إنها تتصف بالقبول المطلق لكل تفسير يقدم لها أو تعبير يعرض لها.

ثم إن النفس النائمة ينقطع الاتصال بينها وبين العالم الخارجي، أو على الأقل

يخف الاتصال بينها وبين العالم الخارجي إلى حد كبير، والعالم الخارجي يرسل إلى النفس أثناء اليقظة رسائل ضوئية أو صوتية أو غيرها تشعر بها النفس وتفسرها منتبهة إليها لاهية بها عن حياتها الداخلية. أما أثناء النوم وبسبب انقطاع هذا الاتصال أو خفته على الأقل فتأخذ الرسائل الواردة عن عضويتها ومن حياتنا الداخلية أهمية أكبر ولذلك فقد تعبر النفس عن الرسائل الواردة من أجهزتها الهضمية أو التنفسية أو الدموية أو شعورنا بشكل أحلام. وبما أن ذكاءنا هو في الدرجة الأولى أداة للتعبير والتفسير فإن هذه الأداة تدوم على عملها حتى أثناء النوم مع فارق واحد وهو عدم تشددها وضبطها وانتباهها وحسن محاكمتها كما تفعل أثناء اليقظة. وهكذا فإن النفس تترجم الإحساس بالراحة أو الضيق وتجد لكل منهما في الحلم الظرف الذي يجعله طبيعياً، أو على الأقل طبيعياً في نظرها آنئذ، وبما أنها في حالة تراخ فهي أكثر تساهلاً في طبيعة هذه الظروف، وعلى هذا الشكل يصبح عدم الحركة العضوي سبباً في أن يحلم النائم بعدو يهدده وبأنه قد تسمر من الخوف. أما وضع الرأس السيئ فكثيراً ما يكون سبباً في حلم مرعب يرى فيه النائم أنه يشنق أو أن رأسه قد فصل عن جسده بالمقصلة. أما الحلم بأنك تطير في أجواف الفضاء فقد تجد تفسيره في حركة تنفسية وقلبية. وما ذلك إلا لأن الإنسان المتمدد على فراشه يرتفع وينخفض من أسفل إلى أعلى بحركة تشبه خفقان الأجنحة.

أما الآن وقد وصفنا حال النفس النائمة الحالمة فإنه يبقى علينا أن نتساءل عن أسباب الأحلام؟ ويمكننا أن نحصر أسباب أحلامنا في ثلاثة:

١- **المثيرات الخارجية**: التي تثابر رغم ضعفها وإعاقتها على الوصول إلينا، فأشعة الشمس الساقطة على عيني نائم قد تسبب له الحلم بحريق، وصوت الساعة المنبه قد يكون سبباً في حلم يسمع فيه النائم نواقيس تدق أو مطارق تتهاوى على سندان أو أواني تتكسر.

٢- **المثيرات العضوية الداخلية**: التي أشرنا إليها بأنها تقوى أثناء النوم لضعف المؤثرات الخارجية فقد يحلم النائم المعسور الهضم بعدو يأخذ بخناقه. وقد يحلم المريض بالموت..إلخ.

٣- **رغباتنا التي لم ترضها حياة اليقظة**:

وهنا مكان (فرويد) وأضرابه من علماء التحليل النفسي. يرى فرويد أن اللاشعوري (العقل الباطني) مكون من رغبات مكبوتة، رغبات منع من تحقيقها المجتمع وما في المجتمع من عادات وتقاليد وأخلاق. ولكن هذه الرغبات المكبوتة لا تترك المسرح، مسرح النفس، بسهولة وهي إذا تركت ظاهره اختبأت وحاولت أن تدلل على وجودها بطرق خفية رمزية. ويرى فرويد أن حياة الحلم عند الأفراد الأسوياء هي المتنفس الأهم للرغبات المكبوتة. ولكن هذه الرغبات قد لا تجسر حتى في حياة الحلم على أظهار نفسها عارية صريحة فتختبئ وراء رموز بريئة المظهر. ولذلك فالأحلام كلها، في رأي فرويد، تحقيق لرغبات لم يقدر لها أن تتحقق في الحياة العادية. وفرويد بعد ذلك يذهب إلى القول بأن أحلام الراشدين كلها تحقيق لرغبات جنسية أصلية أو مشتقة عن رغبات جنسية أصلية كانت قد كبتت أثناء الطفولة. أما آدلر تلميذ فرويد الذي انشق عنه فيما بعد، فيتفق مع فرويد في أن الأحلام تحقيق للرغبات إنما يرى أن غريزة (تثبيت الذات) أشد أصالة من غريزة الجنس وهو يرى أن الحلم ليس إحياء للماضي البعيد بل تهيؤ للمستقبل القريب.

وأما (يونج) وهو التلميذ الثاني لفرويد الذي انشق عنه وكون لنفسه مدرسة خاصة، فالحلم عنده متصل بمشاكل الحالم الحاضرة ومعبر عن موقف الحالم اللاشعوري من مشاكل حياته. ويبقى لنا نحن قراء علم النفس أن نذكر بأن هؤلاء الجهابذة برغم فضلهم العميم يبالغون فيما اكتشفوا ويبنون كلامهم على الحدس والتخمين أكثر مما يبنونه على التجربة والتحقيق وهما الشرط الأساسي للعلم في وقتنا الحاضر. كما يبقى لنا القول بأن الرغبة سبب هام من أسباب الأحلام وأغلب الظن أنها أهم أسبابه. وقد يحقق الحلم هذه الرغبة بصورة مباشرة فلا يجد الإنسان صعوبة في التفسير. ومثل ذلك أحلام الجائع الذي يرى نفسه جالساً إلى مائدة حوت أطايب الطعام، والمقرور الذي ينغمس حالماً في دفء غرفة تستعر فيها نار موقدة مكتظة بالفحم والحطب. كما أن الحلم قد يحقق الرغبة تحقيقاً رمزياً يترك للمفسر أن يستعمل حذقه وذكاءه لاستكشافه. ولقد حاول القدماء أن يضعوا لهذا التفسير قواعد. وفرويد نفسه يرى أن الدار تدل على جسد الحالم، والملك أو الملكة أو غيرهما من عظام الناس تدل على أبويه،

وأن السفر أو ركوب القطار يدل على الموت إلى آخر ما ذهب إليه.

إنما المهم أن أحلام المريض اليوم أصبحت عوناً هاماً للمحمل النفساني يستعين بها على استكشاف أسباب اضطراب الحياة النفسية عند مريضه وبالتالي على مداواته وشفائه. وإذا كان من الصعب الآن التنبؤ عن مدى الأهمية التي ستكون في المستقبل لتفسير الأحلام وإمكان أخذه شكلاً علمياً، فإنه من الثابت على كل حال أن الأحلام أهمية أكثر مما قد يظن طلاب العلم المتزمتون.

وقبل أن أختم هذا الحديث أحب أن أجيب على سؤال يطرأ على أغلب النفوس وهو: ما مقدار الصحة في اعتقاد العامة بأن الحلم ينبئ عما سوف يحدث في المستقبل؟ والجواب على ذلك هو أنه لا غرابة في أن ينبئ الحلم عما قد يحدث في المستقبل. ونجد تعليل ذلك فيما شرحناه سابقاً عن الرسائل التي تصل النفس من العضوية واللاشعور. فالعضوية التي خلا لها الجو أثناء نوم النفس وانقطاع الصلة بينها وبين العالم الخارجي تجد فرصة مناسبة تستطيع خلالها إنهاء النفس عما تتوقعه من خلل أو ضعف في ذاتها، واللاشعور الذي أجرى حساباته لذاته وتوقع حدوث أمر ما يجد في نوم النفس سانحة يبادر أثناءها إلى إعلام النفس عن حساباته وما يتوقعه. وفي كثير من الأحيان يصح ما توقعته العضوية ويحدث ما حسبه اللاشعور فيتحقق الحلم، وقد يقفز الحلم أو من حوله إلى استنتاجات يوصلون بها أنفسهم إلى مرتبة الولاية أو النبوة.





الأديبة الفرنسية الكبيرة سيمون دو بوفوار

بمناسبة مرور مئة عام على ولادتها (١٩٠٨-٢٠٠٨)

د. كمال فوزي الشرابي ❊

مقدمة

تحتفل الأوساط الأدبية في فرنسا بمرور مئة عام على ولادة الروائية الفرنسية الكبيرة سيمون دو بوفوار (١٩٠٨-٢٠٠٨). وفيما يلي دراسة عن هذه الأديبة وتشمل أربع نواحٍ أساسية:

١- حياتها ومشتمل لأعمالها.

٢- شهادات عنها.

❊ شاعر وباحث ومترجم من سورية

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

٣- دفاعها عن المرأة وبعض أدبها.

٤- علاقتها الغرامية مع الفيلسوف الفرنسي جان-بول سارتر.

١- حياتها ومشتمل لأعمالها:

ولدت في ٩ كانون الثاني ١٩٠٨، وتوفيت في ١٤ نيسان ١٩٨٦، وبذلك تكون قد عاشت ٧٨ عاماً.

تنتمي إلى أسرة كاثوليكية ميسورة. في السادسة من عمرها انتسبت إلى معهد ديني لكنها ما لبثت، في الرابعة عشرة من عمرها أن انسحبت وقد فقدت الإيمان.

حصلت على شهادة الأستاذية في الفلسفة، وقبل ذلك بثلاث سنوات كانت قد تعرفت إلى الفيلسوف الوجودي جان- بول سارتر.

عُيِّنت أستاذه لتدريس الفلسفة، وانطلقت في رحلات كثيرة بشتى أنحاء المعمورة. وفي العام ١٩٤٣ صدرت روايتها الأولى (المدعوة)، فاستقالت من التدريس في الجامعة كأستاذة. وفي العام ١٩٤٥ أصبحت عضواً في اللجنة الأولى لإصدار مجلة (الأزمنة الحديثة) التي كان يتولى رئاسة تحريرها جان- بول سارتر.

استمرت سيمون دو بوفوار في القيام برحلات إلى الكثير من البلدان، وأغراها الأديب الأمريكي نيلسون ألفرن بزيارة الولايات المتحدة. في العام ١٩٤٩ أصدرت روايتها الثالثة بعنوان (الجنس الثاني). وفي العام ١٩٥٤ نالت بروايتها (المثقفون المتنفذون Les Mandarins) جائزة غونكور.

أسهمت أديبتنا في «مؤتمر حركة السلام» الذي عقد بمدينة هلسنكي، ثم سافرت في رحلة إلى بلاد الصين. وخلال الأعوام الممتدة من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٢ انصرفت إلى تدوين مذكراتها وانطباعاتها عن رحلاتها إلى كل من كوريا والبرازيل والاتحاد السوفياتي.

ومع توسع إنتاجها الأدبي أخلى الأدب بمعناه الحميم الصافي مكانه للدراسات والمذكرات فيما عدا روايتين قصيرتين (الصور الجميلة ١٩٦٦) و(المرأة المحنكة)، وهما عملان أو دراستان قصيرتان أتاحا لسيمون دو بوفوار أن تعبر عن فكرها بدقة مع بقائها وفية للوجودية.

في كتابيها (بيردس وسينياس ١٩٤٤) وهو رواية تاريخية، و(سعياً وراء علم أخلاقي يتسم بالازدواجية، ١٩٤٧) وهو دراسة، نعثر على الأفكار التي تشكل أساس أعمالها كلها. تقول: «أن يريد الإنسان الحرية لنفسه معناه أيضاً أن يريد الحرية للآخرين». وتقول

أيضاً: «تتطلب حريتي لكي تكتمل أن تنفتح علــى مستقبل منفتح. إن الأناس الآخرين هم الذين يفتحون لي أبواب المستقبل».

في روايتها (المدعوة) تبدو وكأنها تريــد أن تأخذ بنقيض هذا المبدأ. فالعبارة التوجيهية التي استعارتها من الفيلســوف الألماني هيغل تؤكد «أن كل وعي يتابع موت الآخر» لكن ذلك لا يشكل ســوى المظهر الأول من أعمالها.

في روايتهــا (دم الآخريــن، ١٩٤٥)، وكذلــك في مسرحيتهــا (الأفواه اللامجديــة، ١٩٤٥ أيضاً، تحســب حسابــاً كبــيراً لمسؤولية الإنسان تجاه قريبه، وتعطي الالتزام بالحياة اليومية المكان الأول.

إن علم الأخلاق الإنساني لسوف ينقضي أباديد في تماسه مع التاريخ. وهذا هو إثبات السقوط الذي نجــده في روايتها (المثقفون المتنفذون) وهي روايــة تطرح مأزق مثقفي اليســار وتستند إلى رمــوز: هل يجب فضح وجود معسكرات الاعتقــال السوفييتية مع مجازفة الإضرار بالثورة؟

تبشر هــذه الرواية (المثقفون المتنفذون)



بعمل سيمــون دو بوفــوار الأخلاقي، وهو عمل يتوسع على صعيدين: صعيد أول يتعلق بالاختبار، ويشكل بلا شك الإسهام الرئيس لمؤلفة (الجنس الثاني)، وهو إسهام هائل في دعم الوجودية.

يعتــبر كتاب (الجنســ الثــاني) عرضاً لركائز الحركة النسائية في الدفاع عن وضع المــرأة وحقوقهــا. وهو يمنح هــذه الحركة نهوضاً قاطعاً ودائماً في فرنسا.

من خلال الجزء الأول، وعنوانه (الوقائع والأساطير)، تقدم لنا الكاتبة معاينة مؤداها

ما يلي: «خـلال التاريخ بأكمله، كان الرجل هو السيد Maitre، وكانت المرأة هي العبد Esclave».

في الجـزء الثـاني «التجربـة المعيشة» تقوم الكاتبة بسلسلـة من التحقيقات حول وضع المرأة منذ عهـد الطفولة وحتى عهد الشيخوخة.

قوبل هذا المؤلف (الجنس الثاني) بمناقشات ومهاجمات على العكس من (المذكرات) وقد حظيت برضا الجمهور كله.

تبع هذا الكتاب مؤلَّف عنوانه (مذكرات فتاة رصينة، ١٩٥٧) تبعه (قوة السن، ١٩٦٠) ثم كتاب (قوة الأشياء، ١٩٦٣).

في العـام ١٩٦٤ أصـدرت كتاباً عنوانه (موت في منتهى العذوبة). وفي العام ١٩٧٢ (كل حسـاب تمت تصفيتـه) وفيه تتحدث عن شيخوختها، ويتضمن جواباً موجهاً إلى الجمهور الـذي أقلقته وقضـت مضاجعه دراستها المعنونة (الشيخوخة) الصادرة عام ١٩٧٠.

مارست أعمال سيمـون دوبوفوار تأثيراً قويـاً في مجـرى الآداب الفرنسيـة. ولقد أسهمـت الكاتبـة، وخصوصـاً بدراساتها العميقة الشاملـة في تقدم العلوم الإنسانية على ما هو في الإبداع متخيَّل.

٢- شهادات بعض الكتاب:

- قـال الأديب الفرنسي جـاك لوران: «تقود طريقة السيـدة دو بوفوار في الواقع فقط إلى إعطاء مبررات والتوسع بها بأسلوب سهل يفصح عن الحياة».

- وقال الأديب الفرنسي الكبير فرانسوا مورياك: «سيمون دو بوفوار الإنسانة التقية، التـي نشأت في مدرسة دينيـة، والتي كانت تتناول القربان ثلاث مرات في الأسبوع، قد أصبحـت هذا الخصم في غـير وفاق معنا، ولكن من المستحيل علينا الاّ نمنحه إعجابنا ومحبتنا».

- وقـال الروائي الفرنسـي الشهير فرانسـوا نوريسييـه: «السيـدة سيمون دو بوفـوار، إنها لطالبة خالـدة، وإنها لمتمردة خالـدة. تبحـث في كل مكان عـن البؤس المختبئ، عن الخداع، عن الأحداث الكئيبة، عن اللقاء الذي يغني. إنها لتستطيع أحياناً أن تغظنـا ولكنها قادرة على الدوام أن تؤثر فينا».

وكتـب الكاتب الفرنسي دومينيك أوري: «هنا نحن مـع الشعر ومع الحقيقة. هنا ما من شخص يلجأ إلى الغش والخداع».

٣- دفاعها عن المرأة وبعض أدبها:

أ -الجنس الثاني:

نصل الآن إلى تحليـل بعض أدبها فيما

يتعلق بالدفاع عن المرأة وذلك في كتابها الشهير (الجنس الثاني).

(الجنس الثاني) دراسة نشرتها دو بوفوار عام ١٩٤٩: تبذل الكاتبة كل جهدها للتعريف بالوضع النسائي الحالي، وتدين أسطورة أو خرافة الأنوثة، باعتبارها تزين المرأة بسحر ما إن هو في الواقع سوى سراب يصنعه الخيال، ويحاول أن يجعل المرأة تقبل بالخضوع أو السلبية تجاه الرجل. وتبين أن تحديدات المرأة ليست طبيعية ولكنها تنجم عن الحق والعادات. إن عقدة الخصاء، على سبيل المثال، ليست مخيبة أو محبطة من خلال تقييم الذكورة والنشاط والاستقلال لدى الصبي، بينما يتوجب على البنت خاصة أن تنال الإعجاب مع بقائها محتشمة ومتحفظة. وفي الغلمة أو الشبق غالباً ما يرى الرجل إثارة لقوته الجنسية من دون أن يراعي فردية المرأة ومتعتها.

لا يوجد بين الجنسين علاقة تبادل. ولأن كلمة «الرجل» تشير، في الوقت ذاته، إلى صفتي الذكورة والإنسانية بمعناهما الجنسي فإن المرأة لا تشكل جزءاً من هذه الإنسانية إلا على حيزٍ ثانوي وبفضل الإرادة الطيبة من قبل الرجل.

وإذا حاولت المرأة أن تتخطى وضعها بالاستقلال في المهنة أو الحياة العاطفية، فإن الرجل يجير، وقد هُدِّد في تفوقه، على تقعيد هذا التطلع إلى المساواة. وعلى المرأة عندئذ أن تلجأ إلى السلبية أو الحرمان أو إلى العدوانية. وكلتا الطريقتين منافية للدافع، وذلك لأنهما ضرورتان اجتماعيتان، لا تطلعان معيشيان.

إن المرأة، بالنسبة إلى الرجل، كالشخص الأسود أو كالزنجي بالنسبة إلى الشخص الأبيض: الآخر الذي يجب عليه أن يتقبل كل تدنٍ مقابل تعويض وحيد هو عدم المسؤولية.

وترسم لنا سيمون دو بوفوار تاريخ الوضع النسائي والمظهر الذي يتخذه لدى مختلف أنواع الكتاب (بروتون، كلوديل، د.هـ. لورنس، إلخ) لتبين الأدوار المتناقضة والمكمل بعضها للبعض الآخر، وهي أدوار تضطلع بها المرأة باعتبارها زوجة أو أماً في الترفيه الجنسي أو في الخضوع، في التحفظ أو في التحرر، في التمسك بأهداب الفضيلة أو في التخلص منها، وهكذا فإن المرأة إنما تجد مكانها على الدوام وخصوصاً بالنسبة إلى الرجل، لا بالنسبة إلى ذاتها كامرأة. على أن التطور الاقتصادي والتطور الاجتماعي كان

من شأنهما أن بدأت المرأة بغزو استقلالها سواء على الصعيد المهني أو على الصعيد العاطفي. وإذا كانت المرأة المستقلة قد أجبرت أحياناً على تأكيد وجودها على صعيد التحدي، فإن ذلك يعود إلى أن تطور علم النفس قد تأخر عن هذه البداية بالتحرر. وحدها المساواة بين الجنسين تقود إلى الحرية الداخلية للمرأة. وعلى الجنسين أن يتخليا معاً عن سراب الأنوثة ليبلغا مرحلةً تسمى واقع التآخي.

ب - الصور الجميلة:

نشرت هذه الرواية عام ١٩٦٦: امرأة شابة تدعى لورنس، لها زوج وابنتان وعشيق. تعمل في مجال الإعلانات. لديها مال، وبذلك تستطيع أن تنال السعادة. غالباً ما تتساءل: لماذا أحتفظ بزوجي؟ ولِمَ هذا الشخص بالذات وليس غيره؟ لماذا نعيش؟ لم يعد عشيقها يثيرها أو يشوش أفكارها؟ تصمم على القطيعة معه وتنفذ تصميمها.

الزوج يثير لديها موجات حنان. والدتها ناجحة في عملها، ولكن زوجها سيتخلى عنها، زوجها الذي حسبت أنها ستعيش معه مرحلة الشيخوخة. والدها، غير الناجح في عمله، يبدو لها إنساناً عاقلاً: فهو مكتفٍ بما لديه من أموال، ويبحث عن السعادة في العزلة والتأمل.

على أن عالم لورنس الأم قد تزعزع لأن ابنتها البكر ، كاترين، تتساءل: لماذا هناك أناس يجوعون؟ وتتساءل بدورها: كيف السبيل إلى تفسير ذلك لفتاة في مطلع عمرها؟ يرغب الزوج، واسمه جان- شارل، في عرض ابنته على طبيبة نفسانية قائلاً: ستعيد إليها «صورها الجميلة». لا تريد الابنة ذلك، ثم توافق بعد أن يغريها والدها برحلة إلى بلاد اليونان بمعيته، هذا الوالد الذي سيتاح لها أخيراً أن تكتشف مدى حبه وحنانه..

تميزت الرحلة بالخيبة، وقد ظهر الأب أقل تعلقاً بالحكمة منه بالميول التي يتصف بها إنسان مثقف (وهنا أيضاً تسقط صورة الجميلة لتصبح غباراً).

بعد العودة إلى باريس، تمرض لورنس الأم وترفض أن تتناول أي طعام لتجتاز مرحلة انهيار عصبي اكتنفتها الكآبة والضجر. وفكرت وهي تنظر إلى صورتها بالمرآة: «وهذه أيضاً صورة جميلة تتهاوى». وأكملت وقد شحب لونها وتقلصت ملامحها: «وماذا بالنسبة إلى الأولاد. سيكون لهم حظهم، ولكن أيَّ حظ سيكون؟».

وهكذا تنتهي هذه الرواية، وهي، على أية حال، ليست أفضل ما كتبته أديبتنا

مــن أعمال. على أن أديبتنــا استطاعت أن تعثر علــى لقى كتابية هادفــة استخرجتها من حيــاة الشعب أو من النزعــة اليسارية المتطرفــة التي تؤمن بهــا. وفيما عدا ذلك فإن هذه الرواية الوجودية تهزنا حين يتعلق السرد بعواطف الحنان وبكيفية مرور الوقت أو بسقــوط «الصور الجميلــة» أو بتصوير هنيهات تشرق فيها السعادة وإن تكن سعادة قصيرة عابرة.

٤- علاقتها الغرامية بالفيلسوف الفرنسي جان- بول سارتر

إنهــا لحكايــة رجل قصير أعــور وفتاة طويلة ذات جمال ريفــي، حكاية فيلسوفين انتقلا بالوقت ذاته من مجــال الفلسفة إلى مجال الرواية..

كلاهما مهووس لا بــل مجنون بالحياة، وكلاهمــا يفكــر في نفســه كمــا يفكر في الشخص الآخر، ويتشبث بوجوده.. إنه لحب يتســم باللطــف والإيناس حتــى في مرحلة الشيخوخة.. حكاية يحلــم بها المرء ولكنها غير موجودة.. إنها من كل أعمالهما أكثر هذه الأعمال جدة وأغناها بالمفاجآت.. هل شعرا بأن صورتهما معــاً قد حررت إلى حدٍ بعيد الثنائــي العاشق في فرنسا من نمط الزواج، وأن في فرنســا ذاتها اليوم أكثر من خمسين بالمئة من الشباب والصبايا يرفضون الزواج ويقبلــون بالمعاشــرة الحــرة.. وحين نتوجه بالسؤال إليهــم تكون إجاباتهم كالتالي: «لنا في سارتــر وبوفوار خير قــدوة. أما الزواج فإنه لشيء مرعب! ثم إننا من المنادين بعدم وجود رباط نظامي بــين العشاق، فالرباط النظامي علامة شؤم وهو يقتل الحب».

- «ولكنكم تعيشــون تحت سقف واحد، فرشــاة أسنان كل منكم تجاور فرشاة أسنان الآخر، ولديكم أطفال..».

- صحيــح، ولكننــا سعــداء بحياتنــا، الأفضل أن تدعونا وشأننا..».

وعلى هذا فــإن بوفوار وسارتر لم يعيشا معــاً. كل شيء بينهما بــدأ في العام ١٩٢٤ حين أخذ طالب في كلية التربية، عمره تسعة عشر عامــاً، يحوم حول صبية كانت تحظى بإعجاب من حولها. إنه قصير القامة، بشع الوجه، ومع ذلك فقد استمر في ملاحقتها. خســر الموعــد الأول حــين أرسلــت أختها بــدلاً منها. ومع الزمن استطــاع أن يستأثر باهتمامهــا. وكان بإمكان سيمون دو بوفوار أن تفلت من يده لولا عبقرية التصرف التي بدرت منه: أن يبقيا صديقين، يحبان الحياة والمتعــة والحريــة، مــن دون زواج. ستكون «حبيبته وزوجته مــن دون سقف يظلهما».

وقبلت سيمون بما تملك من روح استقلالية وتهذيب عالٍ هــذا العرض الذي يفوح منه مبدئيــاً عطر أفلاطوني.. ينام كل منهما في مــكان آخر، ويصـــارح كل منهما رفيقه بكل شيء، ويعملان معاً، وهكـــذا تم الاتفاق ثم العمل على تنفيذ هذا الاتفاق بحذافيره.

بأنوثتها المسترجلــة ونظرتها الفاحصة النافذة استطاعت الآنسة سيمون أن تحتفظ بتصرفاتها كصبية وكما تريد وتهوى. وكانت من الجدية بحيث أطلقوا عليها بالإنكليزية اسم «الآنسة قندســCastor» وهو حيوان صغير يبنــي بيته في الــتراب، ويتمتع بفرو ناعم. في البداية كان سارتر مأخوذاً «بالحب الطاغي لقندسه اللطيف». أما هي فلم تكن تبادلــه عاطفته القويــة. ممارسة الحب لم تكن تهمهما كثيراً. وحين ينفصلان ينام هو في أي مــكان وتفعل هــي مثله. وتم الاتفاق بينهما على ما يلي: سارتر يمارس الحب مع النســاء، وسيمون تفعل مثله. ولم يعرف ذلك عنهمــا إلا بعد وفاتهمــا. وكانا في حياتهما ينفيــان وجود مثل هذا التصــرف من قبل أي منهما. ومع ذلك فــإن سارتر كان يحب التنويــع في النساء، وكانت هي تساعده سراً على الوصول إلى بغيته.

يمكــن الوثــوق بذلك كلــه، وخاصة أن سيمـــون قد أشارت إليه في رواياتها. ويمكن التأكــد مــن علاقتهمــا الثنائيــة بالنساء لــدى قراءة روايــة دو بوفــوار (المدعوة).. حيــث نتعرف إلى أسماء مثــل واندا وأولغا ومشاركتهمــا في العمل الجنسي.. ولا يمكن أن ننسى خليلات سارتر الكثيرات: ميشيل، دولوريس، أرليت.. ويصل سارتر إلى مرحلة يجد فيها نفسه محاصــراً بالنساء.. ويحس هذا الرجــل الضعيف المسكــين بالإرهاق. ومع مراقبة سيمــون لتصرفاته فإنها كانت تحرص على لقائه بين الفينة والأخرى.

علــى أن سيمون دو بوفوار لم تكن تكتفي بسارتر وحده إذ لم تلبث أن تعرفت إلى عشيق جديد هو الأمريكي نلسون ألغرين Algren الذي كانت تفخر بأن تناديه زوجها من دون زواج، والــذي احتفظت بالخاتم الذي قدمه لها حتى وهي على سرير الموت. وكانت تشعر معه بالحنــان والعذوبة، إلا أنها بقيت وفية للعهد الذي قطعته بأن لا تنفصل عن سارتر مهما تكن الظروف.. ولكن حدث ذات مرة أن اضطــر سارتر إلى التخلي عن سيمون لفترة قصــيرة برضاها بعــد أن أرهقته عشيقته الأمريكية دولوريس بطلباتها وغيرتها.. وبعد مدة مــن الزمن أصاب الملــل نلسون عشيق سيمون فتخلى عنها وهكذا جرب كل منهما

الحــب على الطريقة الأمريكية، ثم عاد إلى أحضان الآخر..

❀ ❀ ❀

بعد أن تقدمت بهما السن لم تعد ممارسة الحــب تغريهما .مــاذا فعــلا؟ اتفقــا على السفــر معاً إلى كوبا ثــم إلى موسكو.. وكان كل منهما يسجــل انطباعاته الخاصة فيما يتعلق بمحادثاتهما اليوميــة ومشاهداتهما وإعــادة قراءة بعض الكتــب المهمة.. كانت تدغدغ مطالعاتهمــا العين الناقدة لسيمون والعين الحنون لسارتر مع التركيز على بعض الكلام ووجود تيار ثقافي حساس كان ينتقل من أحدهمــا إلى الآخــر.. وكانت سيمون تجد صعوبــة في كتابة الرواية إلا أن سارتر كان يصــر عليهــا بأن تكتــب.. كانت لديه مرونة في التعبير تفوق مرونتها إلا أن ترابط الأفكار لديهــا كان أفضــل. كان ينتقل في كتاباتــه من المسرحية إلى الرواية إلى المقالة الفلسفية/ أما هــي فكانت تكتب كل شيء: حلقات بحوث امتدت من ١٩٤٩ إلى ١٩٧٠، من (الجنس الثاني) إلى (الشيخوخة) مروراً بوفاة أمها و(المذكرات) وكلها تتسم بالترابط المدهش. كان يقفز من نوع إلى آخر، أما هي فكانت تشبه في استمرار إبداعاتها بطلة من بطلات الماراتون.

ومنذ أن تم التعارف بينهما وضعا الأدب في المقام الأول من اهتماماتهما. لكل منهما عمل يقوم به، وحياة يحياها. وبما أن سارتر كان ينقصــه الوقــت فقد لجــأ إلى تناول منبهات للجهــاز العصبــي المركزي تدعى الأنفيتامين Amphetamines في حقبة كان فيها بيع هذه المنبهات غير محظور. وكانا معــاً يشربان كثيراً مــن المشروبات الروحية أو الكحوليــة، وكل منهما يقلق على الوضع الكحولي للآخر. وكانا يشربان في كل مناسبة وفي أي مكان حتــى السكر: في الأعياد، في الليالي الصاخبــة حتى الفجر، في المقاهي، في الملاهي، ويزعمان أن السكر ينمي الفكر! وهكــذا طرق سارتر باب النجاح عام ١٩٣٨ برواية عنوانها (الغثيان) ثم، بعد أحد عشر عامــاً، نشرت سيمون (الجنس الثاني) الذي فجر ثورة حقيقية في وعي معاصريها. ومع كتابهــا (المثقفون المتنفــذون) حصلت على جائــزة غونكور لعام ١٩٥٤، ورفض هو بعد عشر سنوات جائزة نوبــل للآداب. والواقع أن شهرتهمــا قــد استنــدت إلى موهبتهما في الكتابــة وكذلك إلى الطريقــة التي كانا يعيشان بها: لم يكونا يلتقيان بالكتابة بل كانا ملتزمــين معاً بالأفــكار اليسارية المناهضة للاستعمار والفقر والاضطهاد في العالم.

ولم يتبلور هـذا الالتزام لديهما إلا فيما بعـد، بعـد تحريـر فرنسا مـن الاحتلال النازي. أمـا حربهما هما فقد عاشاها بين الأسـرَّة والضباب بلا عمل بطـولي يذكر، اللهـم إلا السعـي وراء لقمـة العيش التي كان الفرنسيـون يجدُّون للحصـول عليها، وإلا الكتابة، وممارسة الحب، والجري وراء الجنس ولا شك في أنـه كان هناك مقاومة ضد المحتـل ولكن مدتهـا لم تطل. وجاءت حرب الجزائر فحركت المشاعر والضمائر. وصـدر منشور الـ١٢١ مثقفـاً عام ١٩٦٠ ليعلن حركـة العصيان المـدني. كما صدر بعـد عشر سنوات منشـور لعام ١٩٧٠ وفيه تحتج النساء ومنهـن سيمون على القوانين التي تمنع الإجهاض. وفي الوقت ذاته التزم الثنائـي سارتـر- دوبوفـوار بالوقوف إلى جانب قضايا عالمية كقضايا الزوج والزوجة روزنبرغ، وفيديل كاسترو، ومحاربي الفيتنام، وثوار أيار ١٩٦٨، والماويين، ومناصري حركة تحريـر المرأة وسواها.. ومـن أجل قضايا ملحة أخرى قابـل سارتر رئيس الجمهورية الأسبـق السيد فاليري جيسـكار- ديستان، وسانـدت سيمـون الرئيس الأسبـق أيضاً السيد فرانسوا ميتران في ترشحه مرتين إلى منصب رئاسة الجمهورية. وفيما عدا هذين النشاطـين لا شيء في تحركهمـا السياسي جدير بأن يذكر.

وبقي كل منهما متعاوناً مع الآخر ووفياً لـه حتى الممات. وفي أحد أيام فصل الربيع من العـام ١٩٨٠ تهافت المصورون ليخلدوا دموع سيمون وحزنها وهي ترمي وردة حمراء مشتعلة بلون حبهما علـى تابوت سارتر في أثناء مواراته الثرى. كان البادئ بالرحيل بلا آلام، ولـو أنه تألم لما توانت عـن العناية به بكل ما لديها من حب ووفاء. وخرق الرئيس فالـيري جيسكار- ديستـان جميع التقاليد حـين أتى ليـزوره في المشفـى ويطيل وقت زيارته.. وخـرج ما يسمى «شعـب سارتر» ليرافق الجثمان حتـى مثواه الأخير. وكانت تظاهرة عامرة بالصبايا والشباب، تظاهرة تشبه الأعياد. كان الجميع متأكدين أن سارتر لم يتعلق بامرأة كما تعلق بسيمون. وتماسكت في أحزانها، وخنقـت آهاتها ودموعها بكل ما تملك من عظمة المرأة المبدعة المتحررة. وفي صبـاح اليوم التالي اضطرت إلى دخول المشفى: لقد أصيبت بالشلل.

حين توفيت بعد ست سنوات لم تخرج أية تظاهرة خلف جثمانها ولم يزرها في المشفى رئيس الجمهورية. كان الناس ينظرون إليها على أنها تشـكل نصف ثنائي رحل النصف

الأول منه منذ سنين، مع أن كتابها (الجنس الثاني) قد أثر تأثير جذرياً في عدة أجيال من النساء الفرنسيات. وحين توفيت كانت على قاب قوسين أو أدنى من جائزة نوبل. ولاشك في أن سارتر كان مسيطراً على حياتها، وكان يسيرها بعبقريته على ما يحب ويهوى. لقد كان الرجل، وكانت هي قانعة بأن تتفتح أنوثتها قرب رجلٍ يحبها ويرعى شهرتها المتألقة على الدوام.

ذات يوم أعلن سارتر لسيمون ، باعتباره لم يرزق بأطفال، أنه سيتبنى فتاة اسمها أرليت إلكاييم تحمل اسمه وتعنى بأعماله. وفيما بعد فعلت سيمون الشيء ذاته إذ تبنت فتاة اسمها سيلغي ديون. كان مافعلاه معقولاً إذ لديهما الآن من يؤنسهما في الشيخوخة ومن يساعدهما في تحمل أعبائها وفي الإشراف على تنفيذ وصاياهما. وتعالت في تلك الأثناء، في السبعينيات، موجة ما تسمى حركة تحرير المرأة وتبعتها حقبة الماويين ووجد كل منهما نفسه محاطاً بالصبايا والشباب: عين سارتر أميناً لسره منظراً مادياً اسمه بيير فيكتور، وعاشت سيمون تحف بها وتدلعها عدة فتيات كانت تسميهن «بناتها». وكان كل ذلك لا يمنع من أن يجري تنافس ونزاع بين الفريقين: فالشباب في رأي الفتيان لديهم خشونة زائدة، والفتيات في رأي الشباب ساخرات لا مباليات. وساءت الأحوال بين الفريقين، وخاصة أن كليهما مصاب بعقدة أوديب، ويسعى إلى التفريق بين الحبيبين. ومما زاد الأمر سوءاً الحوار الذي أجراه بيير فيكتور مع سارتر في مجلة (النوفيل أو بسرفاتور) والذي أنكر فيه الفيلسوف جماع فلسفته. أضف إلى ما تقدم أن قلق (الفتيان) والنظرية القائلة بعدم لزوم الوجود، والالتزام الملحد، كل ذلك انحرف لصالح فكر يهودي صوفي. تبع ذلك شن الحرب الفئوية بين الحرس القديم لمجلة (الأزمنة الحديثة) وتقودها سيمون، وبين سارتر الذي ظل يقاوم وحده، وقد أرهقه الإجهاد. تراه تحرر من قيوده أم لا؟

❀ ❀ ❀

الواقع إن سارتر لم يستطع التحرر من قيوده. في تلك الفترة فقد بصره وأصبح أعمى. تراه يستطيع التفكير بعد أن فقد نعمة النظر؟ لم تعد سيمون تؤمن بذلك. ولحياة هذا الرجل المتهدم رسمت صورة مقلقة ومؤلمة في تحفتها الأدبية (احتفال الوداع): لقد فقد سارتر ملكة التصرف بحركاته الشخصية، كان يجب أن يكون بجانبه من يطعمه بصعوبة لأنه كان يرفض

الطعام ويلفظه من فمــه، وكان لعابه يسيل بشــكل لا شعــوري. إن الكحــول والمنبهات والتبغ قد دمــرت جهاز الأوعيــة الدموية لديه. ومع ذلك لقد كان الشيخ سارتر مرحاً، حنوناً، يتألق حيويــة وثرثرة، متنبهاً إلى كل مفاجآت الشيخوخة، لكن سيمون كانت تراه، باعتبارها زوجة وفية، يخطو خطوات سريعة نحو النهايــة. وإليها كانــت القبلة الأخيرة التــي طلبها منها على سرير الموت وهو يمد شفتيه، وإليها كانــت الكلمة الأخيرة: «لشدَّ ما أحبك، يا قندســي الصغير» وإليها يعود حــق الاحتفال بالوداع الأخير، ومنها الكلمة الأخيرة: «أنت في علبتك الصغيرة –تابوتك الصغير– ولن تخرج منهــا ولن أنضم إليك حتى لو دفنوني بالقــرب منك، ومن رمادي إلى بقاياك لن يكون هناك أيُّ ممر».

بلى، هــي التي تلفظت بهــذه الكلمات المؤثرة بلا تنازل أمام الخلود، أتراها تعيدنا إلى مشهد إيزوت وهــي تودع تريستان(١)؟ كلا! إنها لكلمات حزن نابعة من حنايا القلب لتكون مقدمة كتابها (احتفال الوداع)، وهي تدل على مدى الحقيقة العاطفية التي كانت تربط هذا الثنائي الأسطوري العجيب حتى الأبديــة، أبدية الحب. ولمــن أهدت سيمون كتابها؟ –«إلى الذيــن أحبوا سارتر ومازالوا يحبونه وسيحبونه على الدوام»– وكما لو أن هــذا الإهداء لم يكن يكفي فقد أضافت إليه حــواراً أجرته بينهما في العام ١٩٧٤ لتقوي به أواصر مــا يربطهما من صلات. والواقع أن صوتيهما كانــا شبيهين قليلاً: هو يملك صوتــاً من معدن، يصر قليــلاً، وهي تملك صوت ورقة جافة أتــى عليها منجل، صوتاً فيه دقة حلوة ونفسه قصير. إقرأوا ما كتبته سيمون في حوارها معــه. لقد تكلم بمنتهى اللطف والصراحة فيما يتعلق بالجنس قائلاً إنه يفضل المداعبات والدغدغات باعتبارها تطــول على العمل الجنســي بحد ذاته لأنه قصير، واعترف بصراحة مطلقة أيضاً بأنه كان يحــب النساء وأنه عاش حياته كلها زير نساء..

وماذا عــن لقائهما الأخــير؟ هنا أيضاً فعلــت سيمون ما هو واجب وضروري: فمن خلال رخــام ضريحه زرعــت بعشق ووفاء وإجلال شجــيرة ورد تتميز بلونها المغرق في الاحمرار، شجيرة ورد ذات أشواك تجرح من يمسهــا ، إلا أن جذورها تغوص حتى تصل إلى التابوتين اللذين سيرقدان جنباً إلى جنب. لقد تميزت علاقة الحب بينهما بأنها كانت عقلانية أكثر منها عاطفية. أسكر كل منهما وأمتع عقل الآخر أكثر مما أسكر وأمتع واقع

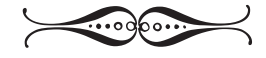
حواســه. كانت سيمون لــه قريبة، ابنة عم، أختاً، أماً، جدة، متعلقة به حتى الموت، هذا الذي كان أهله ينادونه تحبباً «بولو» بدلاً من «بــول»، هذا المدلَّل في طفولته، هذا الحنون الوديع الذي كان على الدوام زائغ الأفكار.

لاشــك في أن زمناً قريباً سيعود ليجمع بين تأثير سارتر و بوفوار من جديد لما قاما به من أعمال رائعــة مشتركة: إبداع حركة تحرير المرأة، جريدة (التحرير) قصب السبق في ممارســة الإسعافــات الأوليــة، السماح بالإجهاض، الدفاع عن السجناء السياسيين في شتــى أرجاء المعمــورة، المحكمة الدولية الأولى لمحاكمــة مجرمي الحــرب ومشعلي نارهــا إلخ.. أضف إلى ذلك أن العالم سيظل يقرأ هذيــن الخالديــن في كتابهما، ونذكر منها (الغثيان)، (الجنس الثاني)، (نقد العقل الجدلي)، (المانــداران)، (كلمات ومذكرات فتاة حسناء السلــوك)، (فلوبير)، (موت في منتهى العذوبة)، ومجلتهما الشهيرة (الأزمنة الحديثة) وكلها تشكل تراثاً مشتركاً يعود إلى كل واحد منهما.

إنهــا لحكاية شــاب لطيــف كان يحب «الحنــان الفعال لليد التــي تدغدغ» و هي أيضــاً حكايــة فتــاة شهوانيــة كانت تحب الحنان أيضــاً. كان هو بشعــاً وكانت هي أقــرب إلى الجمال. وخــلال حياتهما كلها أحب أحدهما الآخــر حب الصداقة. ولقد نجحا في جعل حياتهما حياة زوجين عاشقين عتيقــين، يتشاجران، ويحب أحدهما الآخر مهمــا قوي الشجار، و لا يفترقان، هي تقود خطــاه بساقيها المشلولتــين، و هو مستسلم إليها طوال حياته مع شعوره دوماً بالحرية المطلقة.

الهوامش :

١- تريستان وإيزوت TRISTAN ET ISEUT: أسطورة من القرون الوسطى، عرفت في عدة نصوص فرنسيــة وغـير فرنسيــة (في القرنين الثاني عشر والثالث عشر) وخاصة نصوص بـيرول وتوماس الانكليــزي. وهــي تفتــح في أوروبة موضوع العشق المشؤوم الذي يودي بصاحبــه إلى الموت كمصير وحيد تتحد فيه المخلوقات.







العلامة ابن يوسف السنوسي التلمساني خاتمة المحققين وعمدة المجددين

د. حفناوي بعلي ❁

محمد بن يوسف أبو عبد الله السنوسي الحسني، نسبة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، من جهة أمه لأبيه. ولفظ شريف مشتق من الشرف. والشرف عند النسابين مقسم إلى فرعين كبيرين هما: الحسنيون والحسينيون أبناء علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول عليه الصلاة والسلام. وما يمكن ملاحظته أن الفرع الأول الذي ينتمي إليه السنوسي من ناحية الأم، أي الحسني نسبة إلى الحسن تميز بأقدمية الاستقرار في بلاد المغرب الإسلامي.

❁ كاتب وأستاذ جامعي (كلية الآداب - جامعة عنابة- الجزائر).

العمل الفني: الفنان محمد غنوم.

فالأدارسة زرعوا أقدم بذرة للشرف في المنطقة، بعد توزيع الإرث السياسي من قبل محمد بن إدريس الثاني بين إخوته. أما الشرفاء الجدد فهم دخلوا المغرب في عهد الدولة المرينية والزيانية، كالعلويين والسعديين والصقليين، الذين هاجروا من صقلية في أواخر العهد الموحدي. وأما الشرفاء العراقيون فهم شرفاء حسينيون، قدم جدهم محمد الهادي بن القاسم من العراق إلى بلاد المغرب الإسلامي، في مطلع القرن الثامن الهجري / الخامس عشر الميلادي، وتوزعوا في أقصاه وأدناه وأوسطه. والمسفريون، وهم كذلك شرفاء حسينيون، سكنوا في غرب المغرب الأوسط وفاس والأندلس.(١)

ولد سنة ٨٣٢ هـ، وتوفي بتلمسان سنة ٨٩٥، بعد أن عاش ثلاث وستين سنة. اشتهر بهذا اللقب السنوسي نسبة إلى قبيلة سنوس، وهي قبيلة معروفة بضواحي تلمسان. وفي جنوب غرب مدينة تلمسان، وفي أعالي وادي تافنة ورافده الأساسي وادي الخميس، يقطن سكان « بنو سنوس « . ويبدو أنهم لعبوا بعض الدور، في تاريخ تلمسان تحت حكم دولة بني زيان. فقد كان أحدهم وهو يحيى بن موسى السنوسي في عام ٧٢٨ هـ، قائدا من قادة سلطان تلمسان الكبار.(٢)

وبعضهم يضيف إلى اسم السنوسي صفة الأشعري، نسبة إلى مذهبه العقائدي، أو عبارة «صاحب العقائد»، أو «إمام الموحدين». عاش أبو عبد الله السنوسي في بيت علم وتقوى وشرف ووجاهة. كان والده أبو يعقوب يوسف شيخا صالحا، وزاهدا معروفا بعلمه وخشوعه. أخباره كثيرة، ذكر بعضها تلميذه الملالي في كتابه «المواهب القدسية في المناقب السنوسية»، ونقلها عنه ابن مريم صاحب البستان.(٣)

شيوخ الإمام محمد السنوسي

السنوسي كبير علماء تلمسان وزهادها وعرفانيها الأعاظم في عصرها وعصره؛ عالم في التفسير والحديث وعلم التوحيد. فهو متكلم، فقيه، مفسر، محدث، متصوف، نشأ بتلمسان. أخذ عن والده.

- وتتلمذ في أول أمره على الولي العالم، نصر الزواوي، الذي اشتهر بزهده وورعه، فأخذ عنه كثيرا من العربية ولازمه مدة طويلة. كان هذا الشيخ من أكابر تلامذته الإمام ابن مرزوق. وقد لازمه السنوسي كثيرا وأخذ عنه، ولا نعرف تاريخ وفاته، وإنما نعلم أنه عاش بتلمسان أثناء القرن التاسع للهجرة. وكان الشيخ نصر هذا عالما محققا ناصحا ورعا، وكثيرا ما كان ينهي عن



إعطاء العلـم لغير أهله، يعني المتعنتين لئلا تعطى الحكمة لغير أهلها.

- وتتلمـذ علـى القطب الـولي العالم الحسن أبركان، المتوفى سنة ٨٧٥ هـ. ولازمه كثيرا بمسكنه بباب زير، وكان معجبا بشيخه لتبحره في كل العلـوم، وخاصة منها الفقه. وليس من شك أن دروس الحسن أبركان قد تركت تأثـيرا بليغا. والشيـخ أبركان ينتمي إلى قبيلـة مزيلة التي تنحدر من بني راشد، ومسقط رأسه قرية الجمعة؛ على وادي يسر غير بعيد من مدينة تلمسان. وأمه مصمودية حضرت إلى تلمسـان وتزوجها أبوه، وسكن بها قرية المنصورة زمنا طويلا، قبل أن ينتقل بهـا إلى حي بـاب زير في مدينـة تلمسان. حفـظ الحسن أبـركان القـرآن الكريم في مسقط رأسه، وتلقى العلوم والفنون والعلوم علـى أجلة شيـوخ وعلماء مدينـة تلمسان، أمثال الشيخ إبراهيم المصمودي، والعالم بن مرزوق الحفيد.(٤)

عندما توفي والد الحسـن أبركان رحل إلى المشـرق لأداء فريضـة الحج، ومر على بجاية وتوقـف بها مدة، وأخـذ العلم على الشيـخ عبد الرحمـن الوغليسي. ثم انتقل إلى قسنطينـة ودرس بها علـى الشيخ عبد المراكشي، ومن هنـا انتقل إلى تونس وليبيا ومصر، وبمكة أخذ على الشيخ عبد الهادي. وبقي بالحجاز خمس سنـوات، ثم عاد إلى تلمسـان واستقـر بها مـع والدتـه. وتابع دراسته على الشيـوخ: إبراهيم المصمودي، ويحيـى المطغري، وعيسى أمزيـان. وأتقن

علوم الفرائض والحساب والفقه، والنحو والمنطق، والسيرة النبوية. وتصدى للتدريس فأخذ عليه كل من الحافظ التنسي، ومحمد ابن يوسف السنوسي وعلى التالوتي وآخرين. وبرز في الحديث وعلم الفرائض، والحساب وعلم الفقه.

كان يدرس الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، والمدونة لسحنون، ومختصر ابن حاجب. قضى حياته في العلم والتدريس والزهد، وكان صواما قواما. وأكبره سلاطين تلمسان وأمراؤها، وعلماؤها، وله مكاشفات وكرامات. توفي عام ٨٧٥ هـ.(٥)

– وأخذ السنوسي في مرحلة متأخرة عن الشيخ محمد بن القاسم بن تومرت، جملة من الفرائض والحساب. وكان هذا الأستاذ من كبار فقهاء تلمسان، عالما بالمنقول والمعقول، متشبعا في كل فروع المعرفة وخاصة منها، النحو والحساب والهندسة والفرائض. ولا نعرف تاريخ وفاته وإنما هو من علماء القرن التاسع الهجري. قال عنه السنوسي: كان صالحا حسن الأخلاق سليم الصدر.

– ودرس على البسطي القلصادي، المتوفى سنة ٨٨١ هـ، وهو الفقيه الرحالة صاحب التآليف الكثيرة في الحساب والفرائض خاصة. العالم القلصادي، الأندلسي أصلا. هو أبو الحسن علي القلصادي، ولد بمدينة بسطة؛ من مدن غرناطة سنة ٨١٥ هـ، وفي بسطة المدينة الجميلة نشأ وتلقى دراسته الأولى على شيوخها في مختلف علوم عصره؛ من تجويد وتفسير وحديث وفروع الفقه، وقواعد الحساب الذي له وثيق الصلة بعلم الفرائض.(٦)

خلال إقامته بمسقط رأسه كان يتردد على غرناطة – عاصمة المملكة – وفي عام ٨٤٠ هـ ابتدأ القلصادي رحلته العلمية، فكرع من مناهل المراكز الثقافية الشهيرة في المغرب والمشرق. وتهيأ له أن يغذي طموحه ويشبع نهمه إلى المزيد من المعرفة، ويغترف من ينابيعها الفياضة استعداد كبير، فاتجه إلى تلمسان وهي تعيش أزهى أيامها الثقافية. فأخذ عن أشهر أعلامها، ولم يكن يقتصر في هذا الوقت التلقين على شيوخ تلمسان، بل كان يصرف بعض جهوده على التأليف، ومما ألفه في هذه الفترة «التبصرة الواضحة في مسائل الأعداد» و يعقد حلقات الدروس، ويحضر حلقاته جمع غفير من الطلاب للقراءة عليه والاستفادة منه. وكان ممن قرأوا عليه بتلمسان الشيخ محمد بن يوسف السنوسي، صاحب التصانيف في علم الكلام.(٧)

واصل القلصادي نشاطه الذي لم يعرف الفتــور، ويعد أكثر علماء عصره بالمغرب في عهوده الأخيرة إنتاجــا. وقد اشتهر بتآليفه الكثــيرة، التي تناولت علومــا مختلفة، وكان أغلبهــا في الرياضيــات بلغــت ثلاثة عشر كتابا، وصنف في علم الفرائض ما يزيد عن عشرة كتب، وفي الفقه أربعة كتب، وفي النحو خمســة كتب، كما ألف في العروض والمنطق والنجــوم والتراجم والتصــوف والقراءات والحديث.

– وأخذ القراءات السبع على يد الفقيه يوســف بن أحمد الشريف، فأجازه في ذلك، وفي غيره من سائر مروياته.

– واستوعب كثيرا من علم الاسطرلاب عند العلامة الفقيه محمد بن الحباك. ويعتبر الحبــاك أستاذ السنوسي، أشهر من ألف في علم الاسطرلاب والهندسة. فله منظومة في الاسطــرلاب، أصبحت في نظــر المتأخرين هي ألفية هذا العلــم، التي عليها يعتمدون ويجعلون عليها الشروح والتعاليق، ويلجأون إليها في التدريس، واسم هذه المنظومة (بغية الطلاب في علم الاسطرلاب). ومما يذكر أن الحباك كان أحد شيوخ محمد السنوسي في الحساب وفروعه، وهو الذي ناول تلميذه (بغية الطــلاب) لشرحه، فقام التلميذ بهذه المهمة خير قيام. وقد كان السنوسي معروفا بالشروح والحــذق فيها. وربــط السنوسي بين عمل الاسطرلاب، والقيــام بالواجبات الدينية كالصلاة.

– وتتلمذ للمحقق الإمام محمد بن العباس العبــادي، المتوفى سنة ٨٧١ هـــ بالطاعون ودفــن بالعباد. أحــد أوعية العلــم، فأخذ عنه الأصول والمنطق والبيــان والفقه، كما قرأ عليه الجمل للخونجي. من أكابر علماء تلمسان، تــولى خطة الإفتاء بهــا، وبرز في علمي الفقه والنحو. له من التآليف: العروة الوثقــى في تنزيه الأشياء عن الإلقاء، وشرح لاميــة الأفعال سماه «تحقيق المقال وتسهيل المثال». كما لــه أيضا شرح جمل الخونجي، ومجمــوع فتاوي نقــل الونشريسي والمازوني جملة منها.[٨]

– وسوف تدخل حياته الفكرية من دون شك منعرجا جديــدا، عندما عاشر الإمام أبا القاســم الكباشي، فقرأ عليه إرشاد أبي المعالي للجويني، ودرس علم التوحيد.

– وأخذ عن أبي عبد الله محمد المغيلي الجــلاب، المتوفي سنــة ٨٧٥، مسائل تتعلق بالفقه، وختم عليه المدونة مرتين. كان عالما حافظــا لمسائل الفقه، وقــد كان من جملة تلاميذه إلى جانــب السنوسي، الونشريسي.

لــه فتاوي نقلهــا الونشريســي في «معياره» والمازوني في «نوازله».

- وكان يصاحب أبو عبد الله في معظم أوقاتــه أخاه من أمــه، الحافظ علي محمد التالوتي الأنصاري، إلى أن فارقا الحياة معا في نفســ السنة ٨٩٥ هـ، فقــرأ عليه رسالة أبي زيد. وكان التالوتي من أصحاب الحسن أبركان. وكان فقيها محققا حافظا، ويحفظ الرسالة وابن حاجــب والتسهيل لابن مالك وغيرها. ومن شــدة مخالطته مجالس العلم وأهلــه، وعكوفــه على طلــب المعرفة، فقد اكتسب السنوسي في العلم ثروة معتبرة، وقد أشاد بذلك أحد تلامذته المقربين إليه، وهو أبو عبد الله الملالي.

- وتتلمــذ السنوســي في التصوف على إبراهيــم التــازي، صاحــب وخليفة محمد الهواري، الــذي أسس زاوية بوهران، وجعل يبــث الطريق ومبادئ التصــوف. وهو آخر شيــخ انتهى إليه الطالــب المريد، كان الولي إبراهيــم اللنتــي التازي نزيــل وهران. من مواليد تازة بالمغــرب الأقصى، وكان والده قــد أوكله أبوه إلى الشيــخ أبي زكرياء يحي الوازغــي، الذي اعتنى به كثــيرا. ومن تازة انتقل إلى مدينة تلمسان، وتتلمذ على الشيخ محمد بن مرزوق الحفيد الذي أجازه.

ثم انتقل إلى وهران وتعرف على الشيخ محمد بن عمــر الهواري، ووثــق صلاته به ومنها رحل إلى تونس وتتلمذ على أبي القاسم عبد العزيــز العبدوسي. ثم شد الرحال من هناك إلى الحجــاز لأداء فريضة الحج عبر ليبيــا ومصر. وفي مكة أخــذ على القاضي تقــي الدين بن علي الحسنــي الفاسي علم الحديث، وأجازه. وعندما انتقل إلى المدينة أخذ علــى جماعة من العلماء؛ بينهم الإمام أبو الفتح بن أبي بكر القرشي.(٩)

أتقن الشيخ إبراهيم التازي علوم القرآن، والحديث واللغــة وقواعدها، وعلم الأصول والمنطــق. كما أتقن تجويــد القرآن بصوت جميل حتى صار يضــرب به المثل، وينصت إليه الجميع عندما يتلــوه ويجوده. واشتهر بنظم الشعــر في الزهد والتصوف، وكان له كناش كبير من الأشعار متداول في الحجاز. ولبس الخرقة الصوفية على الشيخين: شرف الدين المراغــي، وصالح بن محمد الزواوي، ثــم على الشيــخ محمد بن عمــر الهواري، عندما عاد إلى وهران. ومن المشرق عاد إلى مدينة تلمسان، بعــد أن أدى فريضة الحج واستقر بها بعض الوقت. وأخذ على جماعة من علمائها؛ أمثال الحافظ التنسي.

ثــم تصــدى للتدريــس فتتلمــذ عليه

السنوسي. وكان لاتصاله بهذا الشيخ التازي تأثير بعيد في حياته الدينية وفي تصوفه، وقد طارت شهرته شرقا وغربا، فجالسه وحظي بإعجاب أستاذه. وكان الولي المربي يدعو إلى التعبد بعقائد التوحيد. ومن مآثره والأعمال الكبرى التي أنجزها إدخال الماء إلى مدينة وهران. المتوفى سنة ٨٦٦ هـ.(١٠)

وأخذ السنوسي وتتلمذ على أبي زيد عبد الرحمن الثعالبي. وهو فخر أئمة علماء الجزائر وصلحائها الأتقياء الورعين، الإمام المجتهد الحجة. ولد سنة ٨٧٥ هـ بناحية وادي يسر، بالجنوب الشرقي من عاصمة الجزائر، وهو موطن آبائه وأجداده الثعالبة. فنشأ نشأة علم وصلاح وتقوى، أخذ العلم بمسقط رأسه ثم ارتحل إلى بجاية، فنزل بها ولازم حضور مجالس علمائها، فأخذ عنهم علما جما، وكان عمدته فيهم الإمام أبا الحسن علي بن عثمان المانجلاتي، والإمام أبا العباس النقاوسي، وأبا القاسم المشدالي، ثم انتقل إلى تونس، فلقي بها جلة من أكابر العلماء، فانتفع بهم؛ منهم الإمامان الأبي والبرزلي تلميذا ابن عرفة، وأبو مهدي عيسى الغبريني. ثم انتقل إلى مصر فلقي بها البلالي وأبا عبد الله البساطي، وولي الدين العراقي فأخذ عنهم. وارتحل إلى بورصة ببلاد الترك، ويمم الحجاز فحج، وأخذ هناك عن علمائها، ثم عاد إلى مصر وتونس، فوافى بها العلامة ابن مرزوق الحفيد التلمساني، فلازمه وأخذ عنه فنونا من العلم جمة، وأجازه بإجازات ثلاث. وأخذ أبو عبد الله الصحيحين على عبد الرحمن الثعالبي، فاستوعب شرحهما، فأجازه أستاذه اعترافا بقدرته على تدريس ذلك.(١١)

غطى عبد الرحمن الثعالبي بشهرته على العصر، والتصق اسمه بالزهد والتصوف. ترك عددا من المؤلفات قد تصل إلى الخمسة عشر تقريبا، في التفسير والمواعظ والتوحيد والفقه. ولم يكن الثعالبي سوى نتاج عصره الذي عاش فيه. وقد أثر الثعالبي تأثيرا كبيرا في ميدان الزهد والتصوف؛ من ثلاثة طرق: طريق تلاميذه، فقد كان مدرسا ناجحا وعالما واثقا من رسالته، ومحدثا مفسرا قويا. والثاني طريق تأليفه، وكان اللاحقون يتفننون في نسخ تآليفه وآثاره ويتوارثونها، وقد أثر في تلميذه السنوسي غاية التأثير.

وتخرج على يد الثعالبي أعلام وصدور؛ منهم حجة علماء الكلام الإمام محمد بن يوسف السنوسي، وأخوه لأمه أبو الحسن

علـي التالوتـي، والشيـخ أحمـد الزروق، ومحمـد المغيلي التلمسـاني، والإمام أحمد ابن عبد الله الزواوي، وابن مرزوق الكفيف.
عكف الشيخ على التدوين والتأليف، وله في ذلك الباع الطويـل. فقد ترك ما يزيد عن التسعين مؤلفا؛ بين رسائل وشروح وحواشي وتعاليق، وكتب مستقلة في الوعظ والرقائق، والتفسـير والفقه والحديث واللغة والتراجم والتاريخ. منها «الجواهر الحسان في تفسير القـرآن»، مذيلا بمعجم لغوي لشرح غريبه. ونزهة الأخيـار في الفقه، وجامع الهمم في أخبـار الأمم، وجامـع الأمهـات في أحكام العبـادات. وكتـاب نـور الأنـوار ومصباح الظـلام، وكتاب الأنـوار المضيئة في الجمع بين الشريعة والحقيقة.[١٢]

مؤلفات الإمام العلامة السنوسي

لقد توج ابـن يوسـف السنوسي ثروته الثقافية بجملة من مـكارم الأخلاق. فكان شديد التواضع، ورقيق القلب عطوفا خلوقا، ميالا إلى الرفق وحسن المعاملة. وكان بسبب هذا المزاج محبـا للأولياء الصالحين، ميالا إلى العزلـة يخلو بنفسه ليستغرق في الذكر. يقـول في هذا السيـاق: «والعاقل الموفق في هـذا الزمن، من جعـل أنيسـه في خلوته، ذكـر مولاه جل وعز، وتـلاوة كتابه العزيز، والنظر في جوامع كلام نبيه صلى الله عليه وسلـم، ونزه عقله، وصرفـه في رياض تلك المعاني».[١٣]

والشاهـد علـى إعراضـه عـن الدنيا وتعاطيـه للزهـد وإخلاصـه لله، امتناعه عـن عطايا الأمراء وكرهـه لمكاتبتهم. لقد عرض عليه السلطان صاحب تلمسان العمل بالمدرسة، التي يشرف عليها أستاذه الحسن أبـركان، فيستفيـد من أجرة، غـير أنه أثر الخلو عن معاشرة عوام الناس.[١٤]

فـكان أبو عبـد الله بهذا كلـه، آية في الصـلاح ورمزا في العفة. ولـه من القبول والهيبة والإجلال في قلوب الخاصة، فضلا عـن العامة ما لم ينله غيره من علماء عصره وزهاده. فقد كانت تجمعه بغيره من العلماء مراسلات من مثل:

الونشريسـي وابـن زكـري والعقبـاني وغيرهـم؛ ومن ذلك أن عبد الكريم المغيلي، قد استشاره حول الفتوى التي أخرجها بشأن طغيان يهود تـوات وتمردهم. فكتب الشيخ السنوسـي رسالة قصيرة، بعـث بها مؤيدا فيهـا مواقفه ومثنيا علـى الفقيه عبد الله التنسي فيما رآه في نفس القضية.[١٥]

وإذا كان عبـد الرحمـن الثعالبـي قد اشتهر بالتأليف في علوم الدين، فإن تلميذه

السنوســي قد اشتهر بكــثرة الشروح وتنوع، وكذا فــاق التلميذ الأستــاذ في كثرة الكتب وتنوع مواضيعهــا. فالسنوسي كاد لا يترك فرعا من فروع المعرفة، إلا ووضع فيه شرحا لمــتن أو تعليقا على منظومــة أو نحو ذلك. وله نحو الأربعين تأليفا فيما يذكر مؤرخوه. وتدل عناوين الكتب التي ألفها أبو عبد الله السنوسي، أنه كتــب في كل فن تقريبا، غير أنــه اشتهر بإمام الموحديــن، فاختص بعلم التوحيد وعلم الكلام.

ومــن مؤلفاتــه مــا هو ضخــم الحجم والمضمــون، ومنها ما شديد الاختصار على شاكلــة رسائل ومقالات. له مــن المؤلفات: عقيــدة أهــل التوحيــد، وتسمــى العقيدة الكبرى، والعقيدة الوسطى وتسمى السنوسية الوسطــى، أم البراهــين وتسمــى العقيدة الصغــرى، أو السنوسيــة الصغرى، شرح أم البراهين. وشرح صحيــح البخاري، ومكمل إكمــال الإكمــال على مسلــم للأبي، وشرح الأسمــاء الحسنى، وشــرح كلمتي التوحيد، ونصرة الشرفــاء. والمقدمــات في التوحيد وشرح المقدمات، ونصرة الفقير في الرد على أبي الحسنى الصغير، ومختصر بغية السالك في أشــرف المسالك للساحلي، وشرح جواهر العلوم للعضد في علم الكلام، والعقد الفريد في حل مشكلات التوحيد. [١٦]

ولــه شرح مختصر حاشية التفتازاني علــى الكشــاف، وشرح الشاطبيــة الكبرى. وشــرح متن الأجرومية، وشــرح التعريف في التصريف. وشرح جمل الخونجي في المنطق، ومختصــر في علــم المنطق، وشــرح مختصر ابــن عرفة في المنطق. وشــرح مختصر بن الحاجب، وشــرح السنوســي الوغليسية في الفقــه. وألــف السنوسي مختصــر الروض الأنف للسهيلي، وشرح المرشدة لابن تومرت، واختصار الرعاية للحارث بن أسد المحاسبي، وشرح إيساغوجي في المنطق، ومختصر الأبي على مسلــم، وشرح أبيات الإمــام الإلبيري في التصوف، والمقــرب المستوفى شرح على الحوفية، وأم البراهين في العقائد، والحقائق في تعريفــات مصطلحــات علمــاء الكلام، والمنهــج السديــد في شرح كفايــة المريد « لامية الجزائري، أو المعروفة بـ«الجزائرية». وشــرح السنوسي أيضــا منظومة محمد بن عبد الرحمن الحوضي المعروفة بـ (واسطة السلوك). [١٧]

يعد السنوسي مــن أكابر علماء عصره، تفوق في مختلف العلوم من معقول ومنقول. وبرع بشــكل خاص في المجــال الاعتقادي والتصوف، لكنــه اشتغل أيضا بعلوم المنطق والهيئة والطبيعة والحساب والجبر. فله في

هذا المجال «شرح مقدمات الجبر والمقابلة» لابن ياسمين. وابـــن ياسمين، هو أبو محمد عبد الله بن محمد بـــن حجاج، المتوفي سنة ٦٠١ هـ من أهل فاس، وينتمي إلى بني حجاج، أهل قلعة فندلاوة بالمغرب الأقصى. والتحق ببلاط الخليفة الموحـــدي يعقوب المنصور، بمراكش، ثـــم بابنه الناصـــر. وكان قد نبغ في علوم شتـــى، من منطق وفلك ورياضيات وغـــير ذلك. وألف أرجـــوزة في الجبر، كانت من أشهر التآليـــف في الرياضيات في سائر أنحـــاء المغرب. وقد تناولها كثير من العلماء بالشرح؛ منهم الإمـــام محمد السنوسي. وله أيضـــا أرجـــوزة أخرى في أعمـــال الجذور. وتوفي ذبيحـــا في منزله بمراكش، سنة ٦٠١ هـ. [١٨]

الشيـــخ السنوســـي. . تلاميذه ومكانته بين معاصريه

- ومن تلاميذ العلامة الإمام السنوسي: أبـــو عبد الله المـــلالي، صاحـــب «المواهب القدسية في المناقـــب السنوسية». فقد كتب سيرة أستـــاذه محمد بن يوســـف السنوسي، وأطال في ذلك حتـــى أصبح الكتاب لا غنى عنه، ليس فقط لفهم حياة السنوسي، ولكن لفهم عصر السنوسي أيضا. وقد كثرت نسخ «المواهـــب القدسية»، لأنها كانـــت متداولة بحكم شهرة السنوسي نفسه، وكثرة مؤلفاته وتدريسها شرقا وغربا من العالم الإسلامي. ولم تكن تنقص الملالي روح المنهجية العلمية أيضـــا، فقد قسم كتابـــه إلى مقدمة وعشرة أبـــواب، فـــكان الكتاب بعـــد المقدمة، على النحو التالي: في التعريف بأشياخ السنوسي، وفي مكاشفاتـــه وكراماته، في عمله وشمائله وزهـــده، في تآليفه، في تفســـيره لكلام أهل الحقيقـــة، في أوراده وأدعيتـــه، في وفاتـــه، وأخيرا فيما قاله من الشعر وما قيل فيه.

وقد اعتمد الملالي في كتابه على مصادر كثـــيرة، ولكـــن أهم مصـــدر له هـــو الشيخ «السنوســـي» نفسه، فقـــد سمع منه مهمات المسائل، التـــي أشكلت على كثير من العلماء الأعيـــان في زمانه. ومهمـــا كان الأمر فإن «المواهـــب القدسيـــة»، يعتبر مـــن أهم كتب التراجـــم الخاصـــة بأحد العلمـــاء، رغم ما فيـــه من تأثـــر بالتصوف وإغفـــال للعوامل الاجتماعية والثقافيـــة الأخرى، التي أثرت في شخصيـــة السنوسي. وواضح من الكتاب أن اتجاه الملالي كان نحو التصوف. فقد ركز فيـــه على جانب التصوف عنـــد السنوسي، بينما كان السنوســـي - على رأي سعد الله - من علماء الظاهـــر والباطن. وقد انتصر لأهـــل الحقيقة أو الباطـــن في رده على أبي

الحسن الصغير، وحبذ استعمال السبحة من شعارات أهل التصوف. وقد أثر السنوسي في معاصريه بدعوته ودفاعه عن أهل التصوف، كما كان تلميذه الملالي نعم الخلف في هذا الاتجاه. فقد أثر الملالي أيضا في الجيل اللاحق؛ أمثال ابن مريم صاحب (البستان).[١٩]

وتتلمذ للسنوسي أحمد العبادي، الذي وضع أيضا ترجمة قصيرة للسنوسي. عاش العبادي في تلمسان الزيانية ورحل إلى فاس الوطاسية، وأنه تولى التدريس في جامع الفرويين باقتراح من السلطان. كتب رسالته عن السنوسي بطلب من بعض علماء فاس سنة ٩٢٨. فالذي لاشك فيه أن العبادي كان يعرف عن السنوسي الكثير؛ بحكم معرفته الشخصية له، وبحكم تتلمذه على الملالي، وأخيرا بحكم عيشه في تلمسان، التي كانت تحفظ للسنوسي ذكريات كثيرة يعرفها العام والخاص.[٢٠]

- وتتلمذ على السنوسي أحمد بن زروق، المتصوف المشهور، المتوفى سنة ٨٩٩ هـ. قال عنه السنوسي بأنه أخذ عنه أحمد زروق علما جما، وأخذ عنه أدبا وسرا. والزروقي: هو أحمد بن أحمد بن عيسى البرنسي الفاسي، المشهور بزروق. من أهل فاس بالمغرب، تفقه ببلده وقرأ بمصر والمدينة، وغلب عليه التصوف فتجرد وساح، وتوفي في تكرين من قرى مسراتة. له تصانيف كثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير، وانفرد بجودة التصنيف في التصوف، من كتبه: شرح مختصر خليل في فقه المالكية، والنصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية، والقواعد في التصوف، وإعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتمكين، وله عدة شروح للحكم العطائية، والحوادث والبدع، والكناشة، ورحلة، وشرح رسالة أبي زيد القيرواني، والوظيفة الزروقية. توفي سنة ٨٩٦ هـ.[٢١]

- وأخذ عنه العالم الأصولي الشاعر ابن عبد الرحمن الحوضي، وقد أعجب الشيخ السنوسي بنظمه في العقائد حتى شرحه. وشرح السنوسي أيضا منظومة محمد بن عبد الرحمن الحوضي المعروفة بـ (واسطة السلوك)، وهي في التوحيد. والحوضي قسم عمله إلى فصول، فكان هناك فصل في حكم العقل، وآخر في الصفات، وثالث في ما يجوز من أفعال الله تعالى، ورابع في بعث الرسل، وهكذا. وللحوضي أيضا كتاب في التصوف سماه (الوسائل العظمى للمقصد الأسمى).

- ومن تلامذة الإمام السنوسي محمد ابن أحمد، المعــروف بابن صعد الأنصاري، الأندلسي أصلا التلمســاني دارا. أخذ عن علمــاء تلمسان؛ كالحافــظ التنسي ومحمد ابن العباس والإمام السنوسي، ثم ارتحل إلى المشرق وتوفي بمصر سنة ٩٠١ هـ. وكان ابن صعد من العلمــاء والفقهاء المخلصين، وهو صاحــب «النجم الثاقب فيمــا للأولياء من المفاخــر والمناقب». ويبدو أن ابن صعد كان من أهل الشريعة والحقيقــة، ومتأثرا بتيار العصــر الجــارف نحو التصــوف والزهد، والاعتقــاد في المشيخــة. وقــد استفاد ابن مريم من كتاب «روضة النسرين»، الذي يؤرخ للعلماء والأولياء في كتابه «البستان في أولياء وعلماء تلمسان».[٢٢].

وينســب له كتاب آخــر في التراجم وهو «روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين»، الذي اختصر فيــه «النجم الثاقب»، وترجم فيه لمحمــد الهواري، وإبراهيم التازي، فقد توسع في سيرتهما، وتوسط في سيرة الحسن أبركان، وأحمد الغماري. ثم إن هذه التراجم تتخللهــا استطرادات كثــيرة، وفي توسع في الكرامــات وسير أهل البيــت وشرفهم. وفي الموضوعــات الدينية والاجتماعية المختلفة، التي تتخللها آيات وآحاديث كثيرة. اتبع ابن صعد التسلسل التاريخــي للذين ترجم لهم حسب تاريخ وفاتهم؛ فبدأ بالشيخ الهواري، وثناه بالشيخ أبركان، وثلثهما بالشيخ إبراهيم التازي، وختم بالشيخ أحمد الغماري.[٢٣]

- وتتلمــذ وأخذ عــن السنوسي أحمد ابن الحاج البيدري، المتفقه الشاعر المشهور، الــذي نظم عقائد الشيخ في قصائد رائقة. أصله من تلمسان، وأخذ أيضا عن ابن زكري والحافــظ التنسي، ومــن في طبقتهم حتى صار علامة بلا مدافع. له مشاركة في عدة فنون من نحــو وبلاغة ولغة، وفقه ومنطق. وكان معاصــرا لابــن غازي وكانــت بينهما مكاتبة. وكانت وفاته حــوالي عام ٩٣٠ هـ. قد خلف ابن الحاج تآليف ومسائل وتعاليق في فنــون وكلام محقق علــى الرسالة، ومن مصنفاته «شــرح السينية لابن باديس»، كما له شرح البردة للبصيري.[٢٤]

- وتتلمذ على الشيــخ السنوسي محمد ابن محمد بن العباســ: كان يدعى أبا عبد الله نشــأ بتلمسان، وأخذ عن علمائها ولازم منهم بالخصوصــ السنوسي، والكفيف بن مرزوق، وابن زكري والحافــظ التنسي. ثم رحل إلى فاســ وأخذ عن ابن غازي وغيره، وعــاد إلى تلمســان وكان علــى قيد الحياة عــام ٩٢٠ هـ. كان لابن العباس مشاركة في

أكثر العلوم، وخصوصا في النحو والفقه، له مجاميع وفوائد ومرويات وأبحاث، كما له شرح المسائل المشكلات في مورد الظمآن.[٢٥]

- وممن تتلمذ على الشيخ السنوسي محمد بن محمد بن مرزوق، المعروف بالكفيف. ولد بتلمسان عام ٨٢٤ هـ، وهو ولد بن مرزوق الحفيد. درس على السنوسي وقاسم العقباني، وأبي الفضل ولد الشيخ عبد الرحمن الثعاليبي وغيرهم، وارتحل إلى الشرق فأجازه بمصر شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني. ودخل مكة فأخذ عنه الفقه والأصول والعربية والمنطق، ثم رجع إلى تلمسان فأخذ عنه جماعة؛ من جملتهم ابن أخته الخطيب بن مرزوق وابن العباس. وكانت وفاته عام ٩٠١ هـ، قيل عن ابن مرزوق الكفيف إنه كان «علم الأعلام وحجته».[٢٦]

- ومن أخذ وتتلمذ على الشيخ السنوسي محمد بن أبي مدين: هو أبو عبد الله محمد ابن أبي مدين التلمساني منشأ ودارا. حاز قصب السبق في المعقول والمنقول، خصوصا في علم الكلام، وكان على قيد الحياة قرب عام ٩٢٠ هـ. كان ابن أبي مدين علما من أعلام الإسلام، فهو محيي ما درس من علوم الشريعة، ولولا هو لتلاشى علم الكلام، بل علم المعقول من المغرب كله.[٢٧]

وممن أخذ عن الشيخ محمد السنوسي محمد بن يحي المغراوي المنشأ والدار، من أولاد يعقوب أمغار من ذرية سبيمان بن عبد الله الكامل. تفقه على الإمام السنوسي وغيره من علماء تلمسان، وذكره ابن مريم في «البستان»، وهو الفقيه العرف الناسك المحقق المتصوف؛ ذو الكرامات العالية والأخلاق المرضية. أما علوم الظاهر فله فيها أوفر نصيب، جمع من فصولها وأصولها السهم، لا يتحدث في علم إلا ظن أنه لا يحسن غيره. أخذ العلم بتلمسان وحصل التوحيد والفقه على الشيخ محمد السنوسي، والأصول والمنطق والحساب والفرائض، وفرع في المعقول والمنقول. شارك غيره في العلوم الظاهرة، وانفرد بالعلوم الباطنية، بل زاد على الفقهاء بحل المشكلات لاسيما في التوحيد والتفسير والحديث. وله شرح على أرجوزة أبي زيد عبد الرحمن الرقصي، وهو الذي أوصل التوحيد لبني راشد.(٢٨)

إن عصر الإمام محمد السنوسي المتكلم الصوفي المنطقي بالقرن التاسع الهجري، قد حفل بطائفة كبيرة من أعلام الفقه والتصوف والأدب؛ في تلمسان وبجاية

وقسنطينـــة، وبونة والجزائـــر وغيرها من حواضر المغرب الأوســـط. فنبغ في تلمسان العلامـــة بـــن مـــرزوق وصاحـــب التآليف المتعـــددة. والإمام قاسم بن سعيد العقباني، والإمـــام الفاضل الشهير بابن زاغو، والإمام الحافظ المـــؤرخ الأديـــب التنســـي، والعالم الحافظ زكري، والإمـــام العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلـــي، والعالم الصوفي الكبير شيخ السنوســـي الحسن بن مخلوف أبركان، والعالم الرياضي الحباك.

ونبـــغ في وهران الشيـــخ الصوفي الكبير محمـــد الهـــواري، والصوفي الكبـــير تلميذ السنوســـي إبراهيم التـــازي. ونبغ في بجاية جماعة كبيرة من الأعلام منهم: أبو الفضل محمـــد المشـــدالي، والإمام محمد بـــن أبي القاسم المشدالي، والشيخ سليمان الحسناوي البجائي، والإمام أبو مهدي عيسى الغبريني قاضي الجماعة بتونـــس، والإمام أحمد بن محمد الغبريني. ونبـــغ في قسنطينة الأديب الشاعـــر شهاب الدين أحمـــد القسنطيني، والإمـــام محمد بـــن مبـــارك القسنطيني، والأديـــب الشاعر أحمد الخلـــوف صاحب المدائـــح النبويـــة. ونبغ في مدينـــة الجزائر العلامة عبـــد الرحمن الثعالبـــي، والأديب الكاتـــب الشاعـــر محمـــد بن عبـــد الحليم التجيبـــي، والأديب المتكلـــم الشاعر أحمد ابن عبد الله الجزائـــري، صاحب المنظومة «اللامية / الجزائريـــة»، التي قام بشرحها الإمام السنوسي، سمـــاه «المنهج السديد في شرح كفاية المريد».

وإذا مـــا قمنا بإحصـــاء العلوم والفنون التـــي درسهـــا السنوسي علـــى شيوخه، أو درسهـــا هـــو نفسه فيما بعـــد، أو التي ألف فيها، أو التلاميذ الأعلام الذين تلقوا عليه العلم وأخذوا عنـــه. توصلنا إلى أن العلامة الإمام السنوسي، استطـــاع أن يستوعب كل علوم وفنون عصـــره رواية ودرايـــة، وبحثا وتحقيقا وتأليفا.

كمـــا تقودنا إلى علمـــه الواسع وشهرته، وتدلنـــا على سعة اطلاعه التـــي أبداها في فتاويه وفي عقائده الثلاث، وفي تفسيره وفي الفقه والحديث. كما تستوقف النظر جهوده في علم التوحيد والـــكلام، وكذا في تصوفه وكتبه ورسائله. وأيضـــا من خلال مشائخه الأعـــلام الصوفية من مثل: الحسن أبركان، والتازي، والغماري. وتلاميذه من مثل: أحمد زروق حامل لواء الزروقية والشاذلية.

وإذا كان معاصـــروه ومترجمـــوه، قـــد وصفـــوه بحفظ الحديـــث وروايته والتأليف فيه، وأخـــبروا كذلك عن تبحـــره في الفقه

والتفسير والمنطق وتآليفه وشروحه. فإنهم حرصوا كل الحرص على إظهار إمامته وعلمه في العقائد والتوحيد، وكذا تألقه في علم التصوف، فأطلقت عليه نعوت وألقاب، من مثل: إمام الموحدين، والمجددين، وعمدة المحققين، وغيرها.

وهكذا يظهر بوضوح أن معاصريه، قد لاحظوا إلى جانب إلمامه الواسع بعلوم عصره، التي كانت متداولة في زمانه في معاهد العالم الإسلامي، نبوغه وبروزه في علم الكلام بالدرجة الأولى، وفي التصوف في المرتبة الثانية، فهو غزالي عصره ومصره، الذي جمع بين علم الكلام والتصوف. ومما لاشك فيه أن السنوسي قد احتل منزلة مرموقة بين معاصريه، مع أن أكثرهم قد بلغ مرتبة عليا في العلم والتعليم، وفي الفتوى والتوحيد والتصوف. وكان له قدم راسخة في التأثير على الأجيال اللاحقة. وقد استطاع بالفعل أن يؤسس مدرسة بالغرب الإسلامي، عرفت بـ «المدرسة السنوسية» الأشعرية. يظهر ذلك من خلال فتاويه التي شارك بها الحافظ التنسي والمغيلي في قضايا العصر، وكذا من خلال الأقوال التي أوردها له الونشريسي في «معياره».

وإذا رجعنا إلى كتب التراجم التي تناولت السنوسي بالتعريف والإشادة والتنويه، فإننا نجدها تنعته بالحجة والمحقق، أو العارف والنحرير، أو الموحد والحبر، والبحر الفهامة العلامة وهكذا. وهذا يدل على تأثير أعمال ومؤلفات الشيخ السنوسي؛ في عصره وفي العصور المتتالية وفي نفوس الناس وإلى يوم الناس. لقد وصف أحمد بابا التنبكي في كتابه (المنهاج)، وهو أحد المعجبين بالسنوسي وشارح «أم البراهين»، أن السنوسي قد امتاز في عصره بالمشاركة في جل العلوم والفنون، وخص عن غيره بحسن العقيدة والصلاح. قال أحمد بابا: «.. لقد ذكر عن الشيخ أحمد بن داود الأندلسي، أنه سئل حين خرج من تلمسان عن علمائها، فقال: العلم مع التنسي، والصلاح مع السنوسي، والرئاسة مع ابن زكري».[٢٩]

السنوسي.. شهرته في العالم الإسلامي

وهكذا كانت مؤلفات محمد بن يوسف في العقائد هي المصدر المحلي لدراسة علم الكلام، وقد اصطبغت هذه المؤلفات بالصبغة الأشعرية الصوفية. ورغم أن السنوسي كان يجمع بين علمي الظاهر والباطن، فإن شارحيه ومحبيه ودارسي مؤلفاته قد مالوا تبعا لروح العصر، إلى علوم الباطن. وقد أصبح كل من خالف هذا

التيار يتهم بالتجسيم والاعتزال والإيمان بظواهر النصوص. ومن ثم قد يحكم عليه بالكفر أو الزندقة.

سيطرت مؤلفات محمد السنوسي في التوحيد وعلم الكلام سيطرة تامة على الدارسين. ولم يكن ذلك مقصورا على المغرب الأوسط / الجزائر وحدها، بل تجاوزها إلى معظم الأقطار العربية والإسلامية. حتى أصبحت تشكل ظاهرة في حد ذاتها، وكأن الفكر الإسلامي قد توقف عندها فلم يبرحها، وشكلت قطب الرحى والمسار والمدار في مسائل التوحيد وعلم الكلام. كما أن منظومة أحمد عبد الله الجزائري، المعروفة باسم (المنظومة الجزائرية)، ورغم سهولتها وقربها من عقول الدارسين، فإن شرح السنوسي عليها، هو الذي حببها للعلماء والطلاب على حد سواء. وقد أخذ هذا الشرح «المنهج السديد في شرح كفاية المريد» شهرة واسعة، ليس في المغرب الأوسط / الجزائر فحسب، بل في العالم الإسلامي أيضا، إذ لا تكاد تخلو مكتبة قديمة منها.[٣٠]

ويمكن القول بدون مبالغة، إن دراسة التوحيد في المعاهد الإسلامية لأكثر من أربعة قرون، كانت تقوم على إنتاج السنوسي.

لقد اتصل الشرق الإسلامي بالعقائد السنوسية مع المقري صاحب نفح الطيب، فقد حمل معه مصنفات الإمام السنوسي في التوحيد إلى الشرق، وبرع في تدريسها وتلقينها لأهل مصر، حتى قيل «إن العقائد فن أهل المغرب»، وطلب منه أن يصوغها في منظومة. وعن طريق محشي أم البراهين يحي الشاوي وصلت السنوسية إلى مصر، وتفرغ لدرسها وشرحها.[٣١]

إن إيمان السنوسي بالمسؤولية التاريخية ودوره في حفظ العقيدة والدفاع عنها، وصدقه وحرارة لهجته، كل ذلك حفظته له الأجيال التي جاءت من بعده. إذ وجدت في مؤلفاته خير زاد في التلقي، وأفضل دليل في التحصيل؛ فانكبت عليها قراءة ودراسة واستظهارا وشروحا، وتلقفتها دور العلم ومعاهده في شرق العالم الإسلامي وغربه. ولم تكن كتب السنوسي مجال اهتمام الدارسين في دور العلم المشهورة فحسب، بل كان العلماء الدعاة يوغلون في الصحراء الإفريقية، بإيمانهم «أم البراهين» يرون في تعليمها للمسلمين قربى إلى الله، لأنها تحفظ العقيدة من أن يدركها شوب أو نقص. وكان نظام الشهادات معروفا في السودان على عهد الأسقيين. إذ كان الأستاذ كلما أنس من

أحد طلبته تمكنــا كافيا في مادة من المواد، التي درسها الطالب على يده. أعطاه إجازة بخط يده، بعد أن يلازمة سنوات من الطلب والدرس. فيختم عليه مثلا صغرى السنوسي والكبرى بشرحها، فيمنحه الإجازة في عقائد السنوسي.[٣٢]

ولنضــرب مثالا على ذلك ومدى اهتمام العلمــاء بمؤلفات السنوســي، فهذا الشيخ محمد المصــري دار بربر، الــذي ذهب إلى الســودان وانتشر علمه هناك، وكان من أهم الكتب التي صاحبته في تلك الرحلة العلمية الشاقة «أم البراهين». وهناك عالم آخر سبقه هو الشيخ محمد عدلان الشائقي، حج وحمل معه إلى وطنه السودان كتب السنوسي.

وبلــغ من اهتمــام أحد العلمــاء هناك بــأم البراهين، أنه لم يكتــف بشرح واحد لأم البراهــين، بل كتب فيها أربعة شروح. أما في الجزائر فقــد كان للزوايا اليد البيضاء في حفظ كتب السنوسي فقــد أولتها عنايتها، ورأت فيها الملاذ بعد تحفيظ القرآن الكريم لحفظ العقيدة الإسلامية.[٣٣]

كان بعض المحققين يقرؤون «أم البراهين» للناس في مجلس واحد كل جمعة، ويحكمون بضرورتهــا للمبتدئ. ولم تزل هــذه النادرة والفريدة التي جاد بها الزمان، تشع وتتلألأ لأكثر من خمسة قرون، وتزداد شهرة ورواجا. وظلــت تشكل أساس التعليم بوجه خاص في علم التوحيد، ليس في الجزائر فقط، ولكن في معظــم البلدان الإسلامية، ولم يبرح طلبة العلــم عاكفين على حفظهــا واستظهارها، ودراستهــا في البيوت والمساجد ودور العلم. وطبعت العقيدة الصغرى «أم البراهين» عدة طبعات في عدة عواصم، بعد أن استنسختها الأجيال إلى الآن. واشتهرت بـ «أم البراهين» لأنها كما يــرى بعض الباحثين: جامعة لكل البراهــين المشتتة التي نثرهــا السنوسي في مصنفاته، ولأنها زبدة ركائز علم الكلام، أو لب الحجج التي وضعها المتكلمون الأشاعرة منذ أن بدأ التوحيد في النضج.[٣٤]

وانتشــرت العقيــدة السنوسية حتى في الأوســاط الأجنبيــة، وخاصــة في القــرن التاســع عشــر الميــلادي. فقد نقلهــا إلى الألمانيــة الأستاذ وولف، ونشرها بلايبزيك. وتولى الأستاذ دونيس لوسياني ترجمتها إلى اللغة الفرنسيــة مع تعليقات هامة، ونشرها بالجزائــر. والمستشــرق الفرنسي لوسياني، هو الذي تــولى الإدارة الفرنسية في حكومة الجزائر، أثناء العهد الاستعماري. وكان من خبراء الاستعمار البارزين، ومن المستشرقين المهــرة، الذيــن أتقنــوا العربيــة والبربرية

وترجموا منهــا إلى الفرنسيــة، بالاستعانة ربما بعلمــاء الجزائر. فقــد ترجم عقائد السنوســي في علــم الــكلام، وترجم كتاب «الحوضــ» عن البربرية، وهو في الفقه على غــرار رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وترجم السلــم المرونق في المنطــق للأخضري. وقد نشر بعض هذه الترجمات في أعداد «المجلة الإفريقية».[٣٥].

فهرس :

المصادر والمراجع كما وردت في البحث

(١) - ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب، مطبعة السعادة مصر - ١٣٢٩ هـ

(٢) - أبو عبد الله محمد السنوسي: المنهج السديد في شرح كفاية المريد، تحقيق مصطفى مرزوقي.

(٣) - أبـو القاسـم محمد الحفنـاوي: تعريف الخلف برجـال السلف، الجـزء الأول، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر -١٩٩١.

(٤) - أبـو القاسـم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، والثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت - ١٩٩٨.

(٥) - أبـو القاسـم سعـد الله: أبحـاث في تاريـخ الجزائـر، الجزء الرابـع، دار الغـرب الإسلامي، بيروت - ١٩٩٦.

(٦) - أحمد زروق: الكناشة، تقديم وتحقيق علي فهمي خشيم، المنشأة الشعبية للنشر، مصراتة، ليبيا - ١٩٨٠.

(٧) - أحمد زروق: شرح على متن الرسالة لأبي زيد القيرواني، دار الفكر، بيروت - ١٩٨٢.

(٨) - أحمـد الـزروق: عـدة المريد الصـادق، تحقيق ودراسـة إدريس عـزوزي، منشـورات وزارة الأوقاف، المملكة المغربية، مطبعة فضالة المحمدية - ١٩٩٨.

(٩) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مطبعة السعادة، مصر - ١٣٢٩ هـ.

(١٠) - إسماعيل العربي: دولة الأدارسة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

(١١) - بلهاشمـي بـن بـكار: مجمـوع النسب والحسـب الشـرف والأدب، مطبعة بن خلـدون، تلمسان، الجزائر - ١٩٦١.

(١٢) - جمـال الديـن بوقلـي حسـن: الإمام ابن يوسـف السنوسي وعلـم التوحيد، المؤسسـة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٥.

(١٣) - الحاج محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر - ١٩٩٥.

(١٤) - خير الدين الزركلي: الأعلام، معجم في مشاهير الرجال والنساء، الجزء الأول، دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٨٠.

(١٥) - عبد الحميد حاجيات: مساهمة المغرب العربي في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، مجلة الأصالة الجزائر، العدد ٨١، مايو، يونيو - ١٩٨٤.

(١٦) - عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر - ١٩٧١(٧) - عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مطبعة الترقي دمشق -١٩٦١.

(١٧) - ألفرد بل: بني سنوس ومساجدها، ترجمة محمد حمداوي، دار الغرب وهران، الجزائر - ٢٠٠١.

(١٨) - محمد السنوسي: شرح العقيدة الوسطى، دار التقدم، تونس.

(١٩) - محمد ابن صعد الأنصاري: روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق يحي بوعزيز، المكتبة الحديثة للفنون المطبعية، الجزائر - ٢٠٠٤(٨) - محمد ابن صعد الأنصاري: روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق يحي بوعزيز، المكتبة الحديثة للفنون المطبعية، الجزائر - ٢٠٠٤.

(٢٠)- محمد بن عبد الكريم المغيلي: مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر - ١٩٦٨.

(٢١) - محمد بن محمد بن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر - ١٩٨٦.

(٢٢) - محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، الجزء الأول، المكتبة السلفية، القاهرة - ١٣٤٩.

(٢٣) - مصطفى محمد الغماري: مقدمة تحقيق شرح أم البراهين في علم الكلام، لأبي عبد الله السنوسي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر - ٢٠٠٢.

الهوامش:

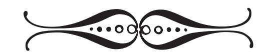
١- دولة الأدارسة، إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر - ١٩٨١، ص: ٦٥. وانظر: مجموع النسب والحسب الشرف والأدب، بلهاشمي بن بكار، مطبعة بن خلدون، تلمسان، الجزائر - ١٩٦١، ص: ٢٩٩

٢- بني سنوس ومساجدها، - ألفرد بل، ترجمة محمد حمداوي، دار الغرب وهران، الجزائر - ٢٠٠١، ص: ١١٥.

٣- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، محمد بن محمد بن مريم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر - ١٩٨٦، ص: ٢٤٤، ٢٤٧

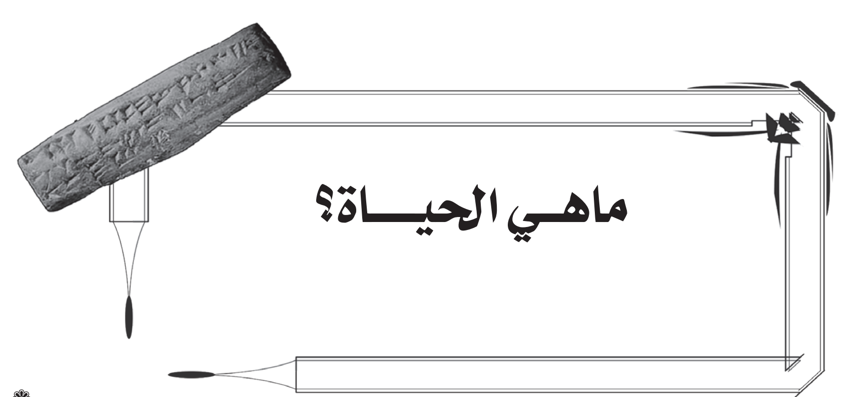
٤- روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، محمد ابن صعد الأنصاري، مراجعة وتحقيق يحي بوعزيز، المكتبة الحديثة للفنون المطبعية، الجزائر – ٢٠٠٤، ص: ١٢٦.
٥- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف ، الجزء الأول، المكتبة السلفية، القاهرة – ١٣٤٩، ص: ٢٦٢. وانظر: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، محمد بن محمد بن مريم، ص: ٧٤
٦- الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب، ابن فرحون، مطبعة السعادة مصر – ١٣٢٩ هـ، ص: ١٨٥
٧- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مطبعة الترقي دمشق -١٩٦١، ص: ٢٦٥.
٨- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، محمد بن محمد بن مريم ، ص: ٢٣، ٢٤.
٩- روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، محمد ابن صعد الأنصاري، ص: ١٤٣.
١٠-روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، محمد ابن صعد الأنصاري، ص: ١٥٤.
١١-تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم محمد الحفناوي، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر – ١٩٩١، ص: ٧٣.
١٢-تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم محمد الحفناوي، الجزء الأول، ص: ٧٥.
١٣-شرح العقيدة الوسطى، محمد السنوسي، دار التقدم، تونس، ص: ١٢٦.
١٤-البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، محمد بن محمد بن مريم، ص: ٢٤٠.
١٥-مصباح الأرواح في أصول الفلاح، محمد بن عبد الكريم المغيلي، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر – ١٩٦٨، ص: ٢٥.
١٦-تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم محمد الحفناوي ، ص: ٢٠٧.
١٧-البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، محمد بن محمد بن مريم، ص: ٨.
١٨-مساهمة المغرب العربي في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، عبد الحميد حاجيات، مجلة الأصالة الجزائر، العدد ٨١، مايو، يونيو – ١٩٨٤، ص: ٦٨.
١٩-تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله ، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت – ١٩٩٨، ص: ٧٦.
٢٠-تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، الجزء الثاني، ص: ٣٥٩.
٢١-الأعلام، معجم في مشاهير الرجال والنساء، الجزء الأول، خير الدين الزركلي، ص: ٩١. وأنظر: الكناشة، أحمد زروق، تقديم وتحقيق علي فهمي خشيم، المنشأة الشعبية للنشر، مصراتة، ليبيا – ١٩٨٠، ص: ٥، ٦. وأنظر: شرح على متن الرسالة لأبي زيد القيرواني، أحمد زروق، دار الفكر، بيروت – ١٩٨٢، ص: ٤، ٥. وانظر عدة المريد الصادق، أحمد الزروق ، تحقيق إدريس عزوزي، فضالة المحمدية – ١٩٩٨، ص: ٣٩٠.

٢٢-تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم محمد الحفناوي، ص: ١٧٤.
٢٣-روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، محمد ابن صعد الأنصاري التلمساني، ص: ١٣.
٢٤-باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، الحاج محمد بن رمضان شاوش، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر - ١٩٩٥، ص: ٤٤.
٢٥-تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم الحفناوي، ص: ٣٤٧.
٢٦-البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، محمد بن محمد بن مريم، ص: ٥٢، ٥٣.
٢٧-باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، الحاج محمد بن رمضان شاوش، ص: ٤٤٣.
٢٨-مجموع النسب والحسب الشرف والأدب، بلهاشمي بن بكار، المطبعة الخلدونية، ص: ٣٨١.
٢٩-نيل الابتهاج، بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، مطبعة السعادة، مصر - ١٣٢٩، ص: ٣٥٣.
٣٠-المنهج السديد في شرح كفاية المريد، أبو عبد الله محمد السنوسي، تحقيق مصطفى مرزوقي، ص: ١٠، ١٢.
٣١-تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم محمد الحفناوي، ص: ١٨٨.
٣٢-مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر - ١٩٧١، ص: ١٤٧.
٣٣-مقدمة تحقيق شرح أم البراهين في علم الكلام، لأبي عبد الله السنوسي، مصطفى محمد الغماري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر - ٢٠٠٢، ص: ١١.
٣٤-الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، جمال الدين بوقلي حسن، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر - ١٩٨٥، ص: ٨٢.
٣٥-أبحاث في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، الجزء الرابع، دار الغرب الإسلامي، بيروت - ١٩٩٦، ص: ٢٠٧.









ماهـي الحيــاة؟

د. كامل درويش*

هـذا السؤال، يبدو لي، بمقدار ما هو خاص، بمقدار ما يخلو من جواب محدد. منذ أن تواجد البشر ومن يفكر، كان عليهم وضع مثل هذا السؤال. والجميع عرفوا سريعاً: بأنه باكراً أو متأخراً مقدر عليهم الموت. وكل واحد منهم لابد أنه قد شاهد حيوانات أو بشراً من الأموات. وكل واحد قد عرف أن الحياة هي حالة عابرة. وكل واحد قد رغب في معرفة ممّا هو الكون. والمؤلم بشدة والخاص في الصعوبة أنه لم يكن من المستحيل تحديد ماهية الحياة إنها

* طبيب ومترجم سوري

العمل الفني: الفنان دلدار فلمز

تقريباً مثل الزمـــن.. وكل واحد لديه الفكرة البديهية عن ماهية الزمن لكن حينما يتوجب إجراء تحديده: يندر التوصل إليه..

حينمـــا يتكلـــم الناســـ عـــن الحياة في علاقتهـــا مع الموت، يكون النـــادر منهم من يتكلم عن علاقتها مـــع الأشياء غير الحية، مثلاً: مع الجبال، الصخور، الرمال، المياه.. إلـــخ بالنتيجة في العلـــم: الفصل بين الحي وغير الحي هو شيء حديـــث نسبياً. وحتى القـــرن الثامن عشر كانت تدرس الحيوانات والنباتـــات، مع دراســـة مقارنـــة لأشكالها مـــع التصنيف. وهنـــا طلع علينـــا التاريخ الطبيعي..

ولم يكن إلا في بداية القرن التاسع عشر، أن الكثـــير من المفكرين ومنهم «لامارك» قد أخذوا بالاهتمـــام بخواص الكائنات الحية، مـــع مقابلتها مع الأشياء غير الحية، ومن ثم راحوا يستعملون مصطلح علم الحياة -علم البيولوجيا-. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن ظهـــور مصطلح -علـــم البيولوجيا- قد تزامن مع ظهـــور الرومانسيـــة. وقد ابتدأ التكلـــم عن الأحياء في فـــترة أول انتحار في الأدب للشاب «فيرتر».

ولوقت طويل قام العلماء والفلاسفة في البحث لتوضيح ماهية الحياة..

إن فكرة الحياة كانـــت قد أوحت وجود كيان أو قوة تتمتع بخصوصية خاصة.

وكان يعتقـــد أن المـــادة الحيـــة كما كان التكلـــم عنها حينـــذاك تختلف عـــن المادة العادية بكيان أو قوة تعطيها خواص خاصة. وقد جرى البحث قرونـــاً عن اكتشاف هذا الكيان أو القوة الحية.

الحقيقة هـــي ســـيرورة processus تعضّـــي للمـــادة. وليست موجـــودة أبداً في كيان مستقل بالإمـــكان توصيفه. يمكن إذن القيام بدراسة هـــذه السيرورة أو التعضي- وليس دراسة الفكرة المجردة للحياة هي التي يمكن القيـــام بتوصيفها، والقيـــام بتحديد ماهيـــة العضوية. يمكننـــا البحث في إنشاء خط الحدود بين الحي وغير الحي، لكن ليس هناك من «مادة حية» بل هناك الكائنات التي تؤلف الكائنات الحية. وهذه المادة ليست لها الخاصية الخاصة، التي لم تكن للأجسام غير الحية. إذا كان المبدأ الإحيائيvitalisme هو المبدأ الذي يفصل الروح عن الجسد قد استـــدام لزمن طويـــل. وإذا كان حتى بداية القـــرن العشرين، العديد مـــن البيولوجيين قـــد تبنوا فكـــرة القوة السريـــة التي تعطي الحياة للكائنات الحيـــة وذلك وبكل وضوح لأن النظريـــة التي عارضتهـــم لم تكن تملك

كفاية الإقناع. وبالنتيجة أولئك الذين كانوا يعتبرون أن الكائنات الحية ليست أساساً من طبيعة مختلفة عن المـادة غير الحية، كانوا يعتقـدون مع ديـكارت أن العضويات – مع إمكانية استثنـاء الإنسان- ليست إلا عبارة عـن آلات. الواضح كل الوضـوح أن موديل الآلة المطبق على الإنسان هو على قدر كبير مـن عدم الكفاية: لم يسبـق أن تم رؤية لآلة تبنـي نفسها بنفسها أو تحـاور ذاتياً أو أن تـزود نفسها بالطاقة التـي تحتاجها، ومع ذلك، فإن هذه الفكرة لم تترك نهائياً إلا إلى وقت حديث.

وإن الضربـة الأولى والمهمة التي وجهت للمبـدأ الإحيائي -فيتاليزم- كانت من قبل الكيميائيين، حيث كانت الأجسام الحية وغير الحيـة يعتقد أنها مـن طبيعة مختلفة وكان يعتبر أن الكيميائيين لم يكن بمقدورهم صنع مكونـات الكائن الحي، المسمـاة بالأجسام العضويـة، لكن عـام ١٨١٨ نجح فريديك فوهلـر Frederik wohler في المختـبر في تركيـب مـادة عضوية+البولة ureé - انطلاقاً من مركبات معدنية. وقد كان ذلك هـو البرهان على إمكانيـة تحويل المركبات غير العضوية في المختبر إلى عضوية.

نهايـة القرن التاسع عشـر كان بالنسبة



لعلـم البيولوجيـا مرحلـة استثنائيـة من الخصوبة هي فترة النظريات الكبيرة.

نظرية باستور في الجراثيم، العضويات الدقيقة، كان قد تم اكتشافها في نهاية القرن السابـع عشر ويعود ذلـك لاختراع المجهر- الميكروسكـوب- لكن ولزمـن طويل لم يكن يعـرف ماذا تعمل هذه العضويات وأين يقع ترتيبها. وكان الأمر فقط، مع باستور الذي استطـاع توضيح دورها في أمراض الإنسان والحيـوان إضافـة إلى بعض الصناعات كالخمـيرة والبيرة. عدا عـن ذلك فقد بين باستور أن الجراثيـم تولد من جراثيم وبأن التوالد الذاتي لم يعد له أي وجود بالمطلق.

النظريــة الخليويــة مــع شلايــدن Schleiden في النباتات وشوان Schwan في الحيوانــات تقــول بــأن كل العضويات مؤلفــة من خلايا وأن الخليــة هي الوحدة الأولى في تأليــف الكائن الحي. وهي أصغر عنصــر يحتوي علــى كل خصائص الكائن الحــي. والتناسل يأتي من عملية الإخصاب أي أنه عبــارة عن اتحاد يجري بين خليتين جنسيتين: الحيوان المنوي والبيضة. وأن نمو الجنين يأتي انطلاقاً من البيضة الملقحة التي تشكلت بواسطة الانقســام المتعدد للخلايا ومــن ثم تمايزهــا إلى خلايــا متخصصة: (عضلية، عصبية، كبدية إلخ..).

نظرية التطور مــع داروين: العالم الحي ونحــن أنفسنا من ضمنه هــو نتيجة لتاريخ الأرض.

والأنواع الحيوانية يشتــق الواحد منها من الآخــر بآلية متطورة مــن قبل داروين دعيت للانتخــاب الطبيعــي Selection naturelle.

في نهاية الحساب جميع الكائنات الحية تأتــي من واحد، أو من عدد قليل جداً منها أي مــن عضويات بدئية، يعنــي ذلك أصل الكائن الحي.

في بدايــة القرن العشريــن ولد نظامان جديــدان: الكيمياء الحيويــة وعلم الوراثة Genetique. تبحــث الكيمياء الحيوية في تحليل المركبات واستجابات الخلية. وبفضلها وجــدت الاختبــارات طريقهــا إلى كيمياء الكائن الحــي، وهي تحلل عدداً ضخماً من التفاعلات نسبياً. وتتابع التحولات لمكونات ولاحتياطي الطاقة التي تنشط مواد البناء. حينما نجري تحليــلاً لمركبات الخلية نجد أن هــذه مكونة من ذرات على نوعين: ذرات صغيرة وذرات على درجة من الكبر. الذرات الصغــيرة مؤلفــة من سلسة مــن السلاسل Sequences المتتابعة.

وفي كل مرحلــة من هــذا التتابع هناك زمــرة من الذرات تضــاف أو تحذف. وكل تفاعل يجــري تتحطم بشكل نوعي بواسطة أنزيم -خميرة- خاص.

تصنــع الــذرات الكبيرة بشــكل شديد الصعوبة. وهي بوليميرات - مكاثير- مشكلة من تكــرار نفس التفاعــل. وفي كل مرحلة يضــاف النمط نفسه من الــذرة الصغيرة. هذه البوليميرات تضــم مئات حتى الآلاف من الرواسب، وهي تحتوي على نوعين يلعب كل منها دوراً أساسياً في الخلية: الحموض النووية وهي البوليميرات مما تدعى من قبل الكيميائيين الأســس البورينية Puriques

والبريميدينيـــة Pyrimidiques وعددها أربعة: تحتوي علـــى نوعين اثنين: الحمض ديذوكســ ريبونوكليـــك (ADN) Acide desoxyribonucleique الـــذي يضمن الحفاظ على الخلية وعلى إصدار التعليمات إليهـــا. والحمضــ ريبونيوكليـــك Acide ribonatleique (ARN) الـــذي يعمـــل على نقل المعلومات ضمن الخلية.

البروتينـــات هي عبارة عـــن بوليميرات -مكاثـــير- للحموض الأمينيـــة التي يوجد عشـــرون نوعـــاً منهـــا. وتقـــوم البروتينات بتحديـــد بنية الخليـــة وفي تشكيل الخمائر -الأنزيمـــات- الوسائـــط في التفاعـــلات الكيميائية.

أصالة الكائنات الحية تقيم في الخمائر: في وظائف الخمائر الحفازية Catalyseur ويعود الفضل إلى الدقة والفعالية والتخصص في الحفـــاز الخمائري الذي يتمكن من نسج شبكة. تقع جميع العمليـــات الكيميائية في الغطـــاء الجزيئـــي للخلية. هـــذه الفعالية الخمائريـــة -الأنزيمية- مشاركـــة لوجود البروتينات. إذا كانت الكائنات الحية لها من سر فهـــذا دون شك يعود إلى طبيعة ونوعية البروتينات التي يتوجب التفتيش عنها.

والمجال الجديـــد الآخر هو علم الوراثة Genetique وقـــد ولـــد بـــولادة القـــرن الماضـــي ونما معه أعمال «ماندل» التي قام بهـــا ونشرت في عـــام ١٨٦٠ لم تستحوذ على الاهتمام الكبير.

لكـــن قد أعيد اكتشافها في بداية القرن العشرين من قبل العديد من علماء البيولوجيا وفي زمن مشترك. وقـــد قادت إلى فكرة أن السمـــة Caractere التي نراها إن هي إلا مضمرة في جزيء Particule لا يرى أبداً، بل هـــو مخبأ في قلب الخليـــة هذا الجزيء أطلق عليه اسم مورثة - جين Gene-

ومنذ ذلك الوقت تابع علم الوراثة بحثاً مضنيـــاً في محاولة لفهـــم ماهية الجينات، وظائفها، خواصهـــا، وكلما ازدادت معرفتنا كلما ازداد الوضوح أن الجينات تقع في قلب كل خلية وفي كل عضوية وبأن الجينات هي مضمر كل علم وراثة.

الثلـــث الأول مـــن القـــرن العشرين كان مشغولاً بالبحث عن الطفرات Mutations لـــدى جميع الحيوانـــات والنباتـــات وأيضاً بالتصالب بين العضويات المختلفة بالطفرات العديـــدة. وأن بيان أن جيناً ما يشغل موقعاً محـــدداً على كرومـــوزوم خاص يعـــود لعام ١٩١٠. اصطفـــاف الجينـــات الخطي على كروموزوم والخارطـــة الجينية مع الدفعات

Marqueurs العديــدة قد تم نشرها عام ١٩١٣.

وبقدر ما حصــر علماء الوراثة أبحاثهم علــى دراسة العضويات المعقــدة وبقدر ما علمــوا الجينات التي تحكــم سمات الشكل المورفولوجي أو السلوك. لكن في نهاية أعوام ١٩٣٠ ظهرت لدى علماء الوراثة اهتمامات بالكيمياء الحيويــة، والتحليل الجيني، هذه الاهتمامات امتدت إلى العضويات الدقيقة. حيث فتــح الطريــق للكشف عــن جينات تحــدد التفاعــلات الكيماويــة الحيويــة. وأصبح مــن الممكن تشريح طرق الاستقلاب Metabolisme، في بنــاء نظم التفاعلات المتتابعــة وفي تبيان المحفز لكل مرحلة التي يلعــب البروتين فيهــا دور المحفز وكيف أنه مرتبط بوجود جين مخصص.

خــلال كل هذه الفــترة، الجينات كانت تبدو «كائنات ذات عقل» بنى خيالية موجهة نحــو عمليــة معروفــة. وليس هنــاك من شخص استطاع رؤيتها، وليس بالإمكان من تنقيتهــا، ولا من وضعهــا في زجاجة، كانت تتمثــل في غالب الأحيــان كلآلئ Perles افتراضيــة تنظمها خيوط افتراضية تتوافق مع الكروموزومات.

مــع الأعمال التــي أبانت أن الحمض AND هو الحامل للسمــات الوراثية لدى البكتيريات والفيروسات. كانت الجينات حتى ذلــك الوقت عبارة عن بنــاء فكري صرف، ومن ثم راحت تأخذ الكيان والقوام.

في منتصف القــرن العشرين ظهر تبدل جديــد في طريقــة النظــر إلى العضويات الدقيقة الحية.

هذا التحول الــذي توافق مع ولادة علم الجيولوجيا الذرية والذي هو جزء من فكرة تفيــد أن التجريــب أتى فقــط للدعم بعد أن صــوب ضربته. الفكرة كانت بأن خواص الكائنات الحية توجب الضــرورة تفسيرها ببنيــة وتفاعــلات الــذرات التــي تكونها. هــذا المفهوم يعــود إلى فصيل مــن علماء الفيزياء (الفيزيائيين) وبالخاصة إلى برنال، نيلزبوهلر، ديلبروك وشرودينفر: الذين يرون أي تفسير بيولوجي يجب أن يكون له قاعدة ذرية، إيجــاد قوانين جديــدة نتجنب فيها الاستناد إلى الفيزياء –لا يمكن اكتشافها إلا عند الكائنات الحية– كما قيل هذه القوانين حتى اليوم لم يستطع أحد التوصل إليها.

وكان التفســير الأول الــذي ظهر هو في علم الأمراضــ –الباتولوجيــا– في دراسة هيموغلوبين فقر الــدم المنجلي. لكن كانت على كل حال هي معرفــة البنية الذرية للـ:

ADN هـــي التـــي برهنت بشــكل صاعق الأساســ الحقيقي الذي منــح الفيزيائيين تأسيســ علم البيولوجيا الــذري، مع البنية التي تقــدم بهــا كل من واطســون وكريك Watson & Crick هـــي التي أتت الحل لخواص ذرة-كانــت أكبر الأسئلة التي كانت مطروحة أمام الإنسانية- ألا وهي الوراثة.

علــم البيولوجيا الذري، منذ البدء، ركز أبحاثه عل البنـــى الأكثر بساطة: البكتريات والفيروسات، ميــزة البكتريات أنها انطلاقاً مــن بكتيريا واحدة يمكــن في ساعات قليلة الحصول علــى مجموعــة متجانسة تحوي المليــارات العديدة من الأفــراد. وبالعكس يمكــن انطلاقاً من مجموعة تحوي مليارات من الأفــراد أن نعزل طفرة خاصة نستطيع منها تخيل وسط زرعي انتخابي يسمح بتكاثر هذه الطفــرة وحدها. ومن هنا تأتي أهمية هذه البكتريات لدى علماء الكيمياء الحيوية وعلماء الوراثة: في حــين أنه بعد ما حققه العــالم باستور من أعمــال، لم يكن هناك من اهتمام بالميكروبات-الجراثيم- إلا في الدور الذي تلعبه في أمراض الإنسان والحيوان أو في الصناعة. ومن هنا كانت أهميتها في هذه الحقول فقط. وخلى ذلك- راحت دراستها بيولوجياً على طريق الإهمال.

في أواسط القرن العشرين صار واضحاً تماماً أن البكتريات مؤلفة من نفس المركبات التي تؤلف جميع الكائنــات الحية الأخرى وكذلــك فإنهــا كبقية العضويــات الأخرى تمتلك جينات متوضعة على كروموزوم.

الأعمــال التي أنجزت في أواسط القرن العشرين تشير على وحدة بنية ووظيفة العالم الحــي. ولدراسة العديد مــن المسائل تبدو البكتيريات حينئــذ كمادة خاصــة دراسية بالخاصة. أما من جانــب الفيروسات التي هــي كائنات من الصغر بحيث يتعزز رؤيتها حتى بالمجهــر البصري ولكن فقط بوساطة المجهر الإلكتروني. وقد بقي التساؤل ولزمن طويل فيمــا إذا كانت الفيروســات كائنات حية أم لا.. حاليا الجــواب واضح وهو.لا. إنها ليست عضويات حيــة.. حيث إنها إذا وضعــت في معلق زراعي فإنهــا لا تستطيع القيام بالاستقــلاب ولا إصدار أو استعمال الطاقــة، ولا النمو أو التكاثــر أو أي شيء أخرمــن الوظائــف العامــة للكائن الحي. والفيروسات محرومة من أي تجهيز خمائري (أنزيمي). ولا تستطيع التكاثر إلا في حضن خلية أخرى حيث تخترقها في عملية الخمج (Infection) باستخدامهــا لمصلحتهــا الجهاز الأنزيمي لهذه الخلية.

بقيــت البيولوجيا الجزئيــة مدة طويلة محصورة في دراسة البكتيريات والفيروسات. أما العضويــات المتعددة الخلايا فقد بقيت خــارج تصويب مثل هــذا التحليل. وكان الـ AND يمثل عقدةً يتحــدى إمكانيات علم الوراثــة الجزيئي، ثــم ازداد شيئــاً فشيئاً الفهــم في التعامل مع هــذا الـ AND وقد انوجــدت الوسيلــة التي تستطيــع تقطيع الخيــوط الطويلة وفي النقاط المنخبة ثم في إعادة لحم هذه الخيــوط وفي إدخال قطع أخرى في الكرومــوزوم (الخيط الصبغي). جميع هــذه المداولات معروفــة تحت اسم الهندسة الوراثيــة Genie genetique. وهكذا أصبح في الإمــكان مداولة الكميات الهائلة من الـ AND المحتواة ضمن الجين Genome للعضويات المعقدة..

ولم تمضــ إلا سنــوات قليلــة إلا وقــد تم تحــول تام في الطريقة التــي صار فيها الاعتبــار لدراسة الكائنــات الحية ودراسة وظائفها وخط تطورها.

طريقةالتفسيرالجزيئيMoleculaere قد ربحــت الفــروع الأكثر تنوعــاً في علم البيولوجيــا والبيولوجيــا الخلويــة، وعلم الفيروسات وعلم المناعة والفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضــاء) وعلم البيوجيا العصبي والغــدد الصم إلــخ.. وفي المرحلة التي تلت والتي نعاصرها نحن الآن، هذه الطريقة في رؤية العالم الحي قد قدمت في معظم حقول البيولوجيــا حصــاداً هائلاً مــن المعطيات الجديدة، إنها مرحلة التنقية والاستكشاف. وإن الجهــود التكنولوجية التي لا سابق لها قد أدت إلى تنقية الطرق المستعملة في تحليل الجزيئات الكبيرة Macromoleculares والحموض النووية والبروتينات.

يصعب على طالب مبتــدئ حالياً، وهو يدخل للمــرة الأولى إلى المختبر، أن يتصور الحالــة التي كانــت عليها منــذ عشرين أو خمســة وعشرين سنــة دراســة البروتينات وخاصــة الحموضــ النووية.. اليــوم هذا الطالب نفســه يمكنه أن يتعلــم في أسابيع قليلة طريقة تقطيع الجينــوم لأية عضوية كانت إلى قطع عديدة، وأن يعزل هذه القطع وينتقي الجينات التــي يريدها. وأن يصنع منها كتلاً وسلاسل Sequences ثم في أن يجمعهــا مع أي قطعة أخرى من الـ AND لأيــة جينة كانــت. وأن يحقن الجينة ضمن أيــة خلية وحتى في نــواة البيضة الملقحة.. باختصــار: في أسابيع معدودة يستطيع هذا الطالب المذكور أن يتعلم كيفية التلاعب في المخــبر حتى في جزيء الوراثة.. والمذهل في

رؤية هذه الكروموزومــات، هذه التي كانت تعتبر حتى آخر لحظة أشياء ليس بالإمكان ملامستها، هــي في الواقع والحقيقة أشياء واقعة تحــت المداولة الدائمــة، وإن جزيء الوراثة هو موضع تلفيق: يعد، يقطع، يطاول، يقصر، يلــوى.. باختصار نستطيع القول إن وجودنا على هذا الكوكب الأرضي لم يكن إلا نتيجة تلاعب كوني هائل.

في الوقــت الحاضــر لا يوجــد أي عالم بيولوجيــا يضــع في مجال الشــك أن العالم الحــي كما نراه من حولنا بأنه نتيجة لتطور استدام مليارات عديدة من السنوات.. وهذا الواقع الحالي قد تم تقبله من قبل الكنيسة الكاثوليكية. ولا يوجد شيء مما تعلمناه منذ مئــة سنة وبالخصوص في مــا يتعلق بنتائج البيولوجيــا الجزيئية يمكــن تفسيره بدون نظرية التطور..

في البيولوجيــا هنــاك عــدد كبير من التعميمــات لكن إلى جانب النذر اليسير من النظريات التي من ضمنهــا نظرية التطور التي تتمتع بالكثير من الأهمية على البقية. وذلك لأنها تجمع ضمــن المجالات المتنوعة كتلــة مــن المشاهــدات التي لولاهــا تبقى منعزلة، وذلك لأنها تضم بينها جميع النظم التــي تهتــم بالكائنات الحيــة، لأنها تشيد نظاماً لمختلف التنوعات الهائلة للعضويات وتوحدها بتراصــن مع باقي العالم الأرضي.. باختصــار إنها تقدم تفســيراً سببياً للعالم الحي ولتنوعاته المختلفة. ولكن إذا كان العالم البيولوجي كله متقبلاً حالياً لدور التطور في تكوين العالم الحي، فــإن هناك خلافات لا تزال موجودة على بعض الوجوه في الآليات اللاعبــة.. وهذا شيء طبيعي في أية نظرية علميــة كونها تثير النقاش في التفاصيل وفي إفساح المجال لأبحاث جديدة..

يعطي علم البيولوجيا الجزيئي إيضاحاً لكثــير من الأسئلــة التي تنطــرح في صدد التطور. هنا نورد استدعاء اثنين منها فقط. أول الأسئلة هو في معرفة كيف أن جزئيات مختلــف العضويات هــي متنوعة، وقد كان الاعتقاد ولوقت طويل أنها مطلقة الاختلاف حتى أن ذلك الاختلاف هو أساسي في طبيعة ذراتهــا التي تعطــي للعضويــات خواصها الخاصــة بمعنــى أن الماعــز لهــا جزيئات الماعــز وللحلزونيات جزيئــات الحلزونيات – وأن جزيئــات الماعــز هي التــي أعطت الماعــز خصوصياتها.. شيئاً فشيئاً وبمقدار مــا انصلحــت وسائــل تحليــل البروتينات والجينات وبمقدار مــا نمت دراسة العديد من العضويات الشديــدة الاختلاف راحت

تدريجيـــاً تظهر القرابة فيما بينها بشكل لا اختلاف عليه بالإطلاق حالياً..

الجينات والبروتينات ليس أي واحد منها ينشأ متفـــرداً، وإن رأي تحسس خاص لنوع معـــين، بل إن هناك البنى متقاربة جداً، من أي نـــوع كان إلى أي نوع آخر. وحتى في أي نوع كان يشاهد غالباً بنى متقاربة جداً تقوم بوظائف مختلفة جـــداً خلا ذلك نجد كثيراً من قطـــع السلاسل الشائعة متداخلة ضمن سلاسل مختلفة عنهـــا.. جينات وبروتينات هي في غالب الأنـــواع فسيفساء (موزاييك) مشكلـــة من تجمـــع لبعضـــ العناصر ومن بعض الحوافز يحمل كل واحدة منها موقعاً استكشافياً. هذه الحوافـــز تتواجد بأعداد محـــدودة: ١٠٠٠ و٢٠٠٠. هذه الاندماجات مـــا بين الحوافز هي التي تعطي للبروتينات تنوعاتهـــا اللانهائيـــة. وإن اندمـــاج بعض الحوافز مع بعضها البعض هو الذي يعطي للبروتين خواصه النوعية.

- وإن عنصـــر الأساس هو ذلك المنطوي مباشـــرة ضمـــن كيمياء الخليـــة وهو الموقع الاستكشافي المتواجد في حقل بروتيني.

الاستكشاف الجزئي قد ظن في البداية أنه محدود في التفاعل بين الأنزيم وبين مادة الأساس، أو بين مولد الضد والجسم المضاد Antigene & Aticorp. حالياً يعزى له الـــدور الأول في كل سلسلة الظواهر. بلمرة البروتينـــات Polymerisation من أجل تشكيل البنى: كبروتينات العضلات وخلايا الهيـــكل العظمـــي والريبوزومـــات وغلاف الفيروسات، والتفاعل الحاصل بين البروتين بين الـ DNA في تعديل نشاط الجينات.

والتفاعل بين المستقبلات Recepteurs والروابط Ligands في كل سلسلة الظواهر كما في نقل المعلومـــات أو التفاعلات داخل الخلايا والتلاحم الخليوي إلخ..

وهنـــاك عدد مـــن مواقـــع الاستكشاف الجزيئي تستمر دون تبدل على طول مرحلة التطـــور بشـــكل أننـــا نجدها تقريبـــاً لدى جميـــع العضويات مهما كانت درجة تنوعها واختلافها.

نرى هنا التبـــدل الذي جرى في نوعيته النظرة إلى التطـــور الكيماوي الحيوي، وكم كان ينظر إلى كل جينة وإلى كل بروتين كشيء منفرد ناجم عن متوالية Squence فريدة مـــن النوكليؤبتيدات والحموضـــ الأمينية، وكل منهـــا لم يكـــن بمقـــدوره أن يتشكل إلا بتخلـــق جديـــد. ولكن هـــذا التخلق هو في نفســـ الوقت علـــى درجة كبـــيرة من عدم احتمـــال تخلقه. لكن وجـــود عائلات هامة

مــن البروتينات ذات البنى المتطابقة وتشكل بروتينات موزائيكية التنوع مشكلة من دوافع موجــودة ضمــن بروتينات متعــددة. ومن خلال هذا العمل المدهش لعملية التطور قد حافظت البروتينات علــى دوافعها النوعية وعلى مواقعها الفعالــة رغم كل الاختلاف المورفولوجي الهائــل، كل ذلك يدل على أن التطور يسلك طريقاً مختلفة تماماً عما كان يعتقد حتى ذلك. فعلياً إن التطور الكيماوي الحيوي يبدو أنه يعمل حسب مبدأين يختص الواحد منهما في تخلق ذرات جديدة والآخر في عملية الانتخاب فيها.

القســم الخــلاق في التطــور الحيوي الكيماوي لا ينجــم إطلاقا من لا شيء، بل إنــه يتطلب صنع الجديــد القديم. وهو ما سمينــاه الترتيــب الجزيئــي Bricologe moleculare. الجينــات الأولى عليها أن تتشــكل انطلاقــاً من المتواليــات القصيرة للنيكليوتيدات ثلاثــين أو أربعين منها: هذه القطــع تأخذ مباشرة بالكــبر إما بالتواصل فيما بينها وإما بمضاعفة الواحدة منها مرة أو مرات عديــدة. نجد بالنتيجة في العديد من الجينات آثار لواحدة أو لاثنتين أو لثلاثة أو حتى للعديــد من المضاعفــات المتوالية متنوعــة على درجات مــن الأهمية تكثر أو تقل.

التضاعــف إمــا أن يكــون في قطعــة الــ AND أو في الجينــات بكاملهــا وهي تبــدو كأكــبر موديلات للترتيــب الجزيئي. وبالتضاعفــات المتتابعة تتشــكل العائلات المتعددة للجينات كتلك التي للهيموغلوبنات. والعديد مــن عوامل التعديــل أو الجينات من عائلــة الغلوبينات المناعيــة. التي تملأ وظائف متجاورة كالتعرف على antigens مولدات الضد والالتصاق الخلوي أو توجيه المحاور.

النموذج الثاني مــن إنتاج الجينات، هو إعــادة تجميع القطــع السابقة التواجد من أجــل تشكيل جينات موزائيكيــة، هنا أيضاً يتدخــل الانتخــاب. وكانت هنــاك مفاجأة حادة قــد ظهرت لــدى البروتينــات وهي ديمومة أو ما يقارب عدم المساس على طول مجرى التطور لدوافع الاستكشاف النوعي. هذا الاستقرار بالرغم من التنوعات الهائلة التــي بين الأنواع. يفسر بالضغوط الشديدة الملقــاة على مواقــع الاستكشاف والتي هي الأساس في كل التفاعلات الجزيئية وبالتالي في كل الفعاليات الكيماوية الخلوية لضرورة المحافظة على نوعيه التفاعلات الجزيئية، ومن هنا تأتــي العطالة الواقعة على مجرى التطور وهــي الواقعة أيضــاً تحت الفعل.

هذه العطالة تنطبق على قطعة جينية وعلى قطعة مشفرة أو الإيكزون -العابر-أي الذي يعبر- والــذي يحدد هذا الموقع المستكشف، وهي تنطبق على القطع غير المشفرة للجينة أو الانــترون -الداخلي- وليســ بالتحاور: لطبيعــة القطع التــي تجــاور الايكزون - العابر- المسبب.

إذن الانترونـــات -الداخليـــة- وقطع الـ ADN المجــاورة بإمكانهـــا أن تتنـــوع بكل حرية. ومن هنا يأتي طراز التركيب الجزئي بإعـــادة تجميع قطع الـAND والإيكزونات لتشكيل الجزيئات الموزاييكية.

مرة أخـــرى تلك إذن عملية ضم عناصر بعدد محدود يؤدي إلى تنوع شديد في البنى لتشكيل المكونات الخلوية الأساسية. التطور الحيوي الكيماوي لا يرتكـــز إلا ثانوياً على الطفـــرات الشيء الـــذي كان يعتقد سابقاً. ويعزى قبـــل أي شـــيء إلى تضاعف قطعة الـــADN وإلى تجمعها. في هـــذا التطور تتواجـــد نقاط ثابتة حقيقيـــة، جذر مشكلة من مواقع الاستكشـــاف النوعية حول قطع الـــADN التـــي تشفرها، تتنـــاول بحرية تتسع أو تضيق كأنها نوع من رقص الباليه. وإن القطـــع الأخـــرى من الـــADN -في هذه الأحـــوال- والبنـــى الأساسية، ومواقع الاستكشاف تتواجد في كل العضويات في بنى يمكن أن تكـــون في كل مرة مختلفة الواحدة مـــن الأخرى. إن مجموع العـــالم الحي يشبه بهذا الشكل نوعاً مـــن مصنع هائل، القطع نفسها يمكن فكها وإعـــادة تركيبها بأشكال مختلفة وبطـــرق تعطي أشكالا مختلفة. لكن في الأساس تبقـــى العناصر ذاتها دائماً هي التي قيد الاستعمال.

البنية الموزاييكيـــة للجينات والبروتينات تعطيهـــا إمكانيات التفاعلات المتعددة فيما بينها. وإن تشكل المركبات البروتينية -والتي هي أحياناً بالغة الحجم جداً- تزيد أيضاً عن هذه الإمكانيات مـــن أجل تحقيق العمليات الأساسية في الخلية نفسها وأيضاً لتفاعلات بينية -بـــين الخلايا مع بعضهـــا البعض- متعددة. وبذلك توضـــع مجمعات نوعية في موقع الفعالية، وهذه هي بالخاصة الحال في العمليـــات المسؤولة عن الانقسام الخلوي أو التفاعلات البينية -بين الخلايا- أو في بعض المراحل من التكـــون المورفولوجي. الجينات كمجمـــع والتـــي تؤمن مثل هـــذه العمليات مرتبطة بالاستكشافات الخلوية التي تشارك بشكل ضيـــق في محاصيلها. مجمع الجينات التي تحكـــم الانقسام الخلوي هـــي نفسها التي عند الخمائر Levures وعند الإنسان

أيضاً. وقد احتفظت بوظائفها وبقسم جيد من بناها على مدى التطور الذي امتد على مدى أكثر مــن خمسمئة مليــون عام وهي التي تقوم بهذه الوظيفة كما لو كانت معايير معيرة في هندسة بناء جميع الخلايا.

وما ذلك أيضاً إلا كبناء بأحجار معايرة تتحكم بها مجاميع الجينــات وهو المشاهد في عمليــة النمو الجنيني للعديد من الأنواع الحيوانيــة وأيضاً لدى جميــع العضويات والحشرات بالخاصــة التي تبدو وهي تنمو تحت شكل قطع متكــررة. أي قطع معيارية عديدة الخلايا. متطابقــة بدئياً تماماً. ثم تأخــذ بالاختلاف بعضها عــن بعض فيما بعد تشكل تدريجي تحت تأثير مجموعة من الجينــات المعدلة كتلك المتجانسة. دور هذه الجينات هو في تعديــل النظم التي تسيطر علــى تطــور المعيــارModule النمطي. وهي بهذه الصورة تحــدد المنطقة المحددة تمامــاً وتعطي لكل قطعة هوية خاصة. وكل واحــدة من هــذه المناطق في هــذه القطع تحدد باتحاد العديد من الجينات المتجانسة Homeogene التي تعمل بالتوازي في كل خلية بعينها. وبنفس الشكل، التباين النهائي الــذي يعطــي الأنمــاط الخلويــة المتباينة المشاهــدة في الجسم تستعمــل مجموعات الجينات المحفوظة والتي تعمل بتناغم كبير. مثلاً من أجل انتباج خلايا عضلية أو خلايا عصبية لــدى العضويات المدروسة بدءاً من الديــدان وصولاً إلى الكائــن البشري، العالم الحــي يشمل البكتريــات والحيتان. أي من الأصغر إلى الأكبر..

الفيروســات والفيلة تعيشــ في مناطق القطبين في حــرارة -٢٠ تحت الصفر لكن جميع هــذه العضويات تمثل وحدة واضحة من البنــى والوظائف. ما يميز الفراشة عن الأسد والدجاجة عــن الذبابة هو الأقل في الفروق في المكونــات الكيماوية عما هو في التعضي وفي توزع هذه المكونات.

بين الأنواع المتقاربــة: الفقاريات مثلاً، الكيمياء هي نفسها. وما يجعل فقارية مختلفة عــن الأخرى هو الفرق في زمن الظهور وفي الكمية النسبية لمحاصيل الجينات في مجرى تطور الجنين وليس في الاختلافات الصغيرة المشاهدة في بنى هذه المحاصيل.

في الطبيعة التعقــد يولد من الاندماج. اندماج الجزيئات هو الــذي يولد الذرات. واندماج الذرات والآتومات Atomes يولد العضويــات. وهي السيرورة نفسها المضمرة في تكويــن الجينات والبروتينــات.. اندماج القطع التي لــكل واحدة منها وظيفة نوعية

والتي تعيد تجميعاً لانهاية له في لعب الأدوار المتنوعة. وإن عدداً قليلاً من هذه القطع في الـAND يكفي هكـذا في تكوين عدد كبير من الجينات.

هنالـك مفاجـأة يجب الكشـف عنها وهـي: إلى أيـة نقطة جـرى الحفاظ-في مجرى التطور- ليس فقـط على بروتينات البنـاء كالهيموغلوبينات في الكريات الحمر والأكتينات والميوزينـات في بنية العضلات أو في البكتيريـات، والمواد القرنية في الشعر والأظافر وأيضاً ليس فقط على الأنزيمات -الخمائر- كالببسين والتربسين التي تدخل في عملية الهضم المعوي، أو السيتوكرومات التي تدخل في عمليـة التنفس، ولكن أيضاً بروتينات التنظيم التي تدير مثلاً نمو الأجنة وتحدد شكل الحيوان.

هنالـك مثـالان يكفيـان في تبيان هذا الحفاظ المدهش لهذه الجزيئات لدى الذبابة التـي تتمتع بماض سحيـق جنيني: فقد تم الكشف عن الجينات التي تؤمن في البيضة تحديـد محور مستقبل الجنين، ثم تلك التي تحـدد مصير وشـكل كل واحـدة من هذه القطـع. ومما يدهش حقاً أن هذه الجينات نفسها قـد تمـت مشاهدتها لـدى جميع الحيوانات المفحوصـة واحدة بعد الأخرى، الضفادع، الديدان، الفئران والإنسان.

من هنا ومنذ ما يقارب من خمس عشرة سنة قد تمّ التعرف علـى أن الجينات التي وضعـت مخطط موقع الكائـن البشري هي نفسهـا التـي تعمل لـدى الذبابـة أو لدى الدودة. هنـا يجب التقبل بـأن الحيوانات الموجودة حاليـاً على هذه الأرض تهبط من عضوية واحدة وهي التي عاشت منذ ستماية مليون سنة وتحتوي على نفس البطارية من الجينات.

هنالك مثال لا يقل إثارة وهو ما يخص العيـون المبنية علـى أسس مختلفـة جداً، خاصـة العـين ذات الوجوه المتعـددة لدى الحشرات، والعين ذات البلورة عند رأسيات الأرجل والحيوانـات الرخوية وكذلك عند الفقاريات. ومهما يكن الاختلاف بين هذين النمطين من العيون، فهي تستخدم في بنائها نفس الجينات في ترتيب هذا البناء بأشكال مختلفة في إعطاء هذه الأعضاء والتي تقوم بالوظيفة نفسها لكـن في هندسات مختلفة جداً. في مجرى القـرن العشرين كان هناك الانتقال من مفاجأة إلى أخرى إلى نقطة أنه في السنـوات الخمسة عشرة قد برزت رؤية الكائن الحي رؤية كاملة الجدة.

وهنا نريد أن نناقش مسألة أخرى، إنها مسألـة مرعبـة والتي تأتي لتكـون حاشية

لنظريـــة التطور: وهي مسألـــة أصل الكائن الحـــي. من جهة قـــد تبين شـــكل ثابت أن التوالـــد الذاتي لا وجود له وفي كل الصعد. بعد ذلـــك لم تعد أية ذبابـــة تولد من خرقة بالية، بل إن الحي يأتي من الحي، وكل خلية تأتـــي من خلية أخرى، مـــن جهة أخرى كما يرى داروين أن الأنواع يأتي الواحد منها من الآخـــر، وأنها تأتي جميعها من نوع واحد أو من عدد قليل جداً من العضويات الشديدة البساطة، ومن هنا يأتي السؤال، كيف كانت قد تشكلت العضوية الحية الأولى؟..

المأخـــوذ به حاليـــاً أن الأرض كانت قد تشكلـــت منذ أربعـــة مليـــارات ونصف من السنـــوات. وكم من آلاف الحـــوادث المؤلفة المستقلـــة تماماً عن بعضهـــا البعض.. التي كان يمكن لأي حـــادث منها ألا يقع، توجب عليه أن يتحقق من أجل خلق الكون.. مجرتنا نحن والنظام الشمسي والأرض مع الشروط اللازمة لتكوين الحياة، شروط لا تتواجد في بقيـــة كواكب النظام الشمســـي: الماء، البعد عن الشمس الذي يساعد بشكل مناسب أن يكون لا شديد الحـــرارة ولا شديد البرودة. من أجل طرح السؤال عن أصل الحياة، كان على علماء البيولوجيا أن يكشفوا عن جميع منابع تصوراتهم.

يبدو أن الكائن الحي قد ظهر بسرعة لا بأس بها، المحتمل في أقل من مليار سنة بعد تشـــكل الأرض، في تشـــكل ما يمكن تسميته بالبكتيريا البدئيـــة. ومن يقول بالحي يقول بالإنجاب وإعطاء أنسال. لكن جهاز الإنجاب كمـــا نشاهده حالياً لـــدى العضويات الأكثر بساطة، لدى البكتريـــات المتواضعة يكشف تعقيداً مرعباً وذلك لأن استنساخاً مفرداً لـ DNA يحرك عـــدداً كبيراً من البروتينات. وإن تخليق كل واحدة من هذه يتطلب عدداً وتنوعاً ضخماً جداً مـــن الجزيئات الكبيرة Macromolecules. وهـــذا كلـــه مـــن أجـــل استنساخ وحيد فقـــط من الـ ADN دون أن نتكلم عن «أي من الوظائف الأخرى والتفاعلات الكيماوية التي تتحقق في داخل الخليـــة البكتيريـــة المعاصـــرة. إذن إن مثل هـــذا النظام مرفوض من أن يكون قد خرج مسلحاً من مطبـــخ جوبيتير. من هنا جاءت الضرورة في تصور سيناريوهات تقل أو تكثر استساغتهـــا وقبولهـــا من خلالهـــا يتم بناء تدريجي لمثل هذا التعقيد المعقد.

حســـب السيناريـــو الحـــالي: الكائنات الحيـــة، كما نعرفهـــا والتي يســـود فيها الـ ADN كان قـــد سبقه في البداية الـ ARN الحمض الريبونوكليك وهو الذي قد دفعها

إلى القيـــام بوظائفها وعلى المستوى ذاته في عملية الإنجاب وكذلك في التحفيز لقيامها ببعضــ الاستجابـات وغني عــن القول إن احتلال الـ ARN مكانه في هذا العالم الحي والعبــور إلى عالم يحتلــه الـ ADN ينطوي على عدد كبير من المراحل غير متوقعة.

وفي الإمــكان أن ندقق بعض الوجوه من هذه السيناريــو وأن ننقي بعض الفرضيات ولكن الكثير منها غير قابل لإعادة البناء في المخبر ولا لأي تحقيق تجريبي. بعبارة أخرى إذا كان يبدو جلياً أن الميكروبات والفطريات والنباتات والحيوانات والبشريات، باختصار نحــن الكائنات الحيــة الأخــرى بأننا قد نزلنا جميعاً من بعضــ البكتيريات البدئية Proto Bacterie لسنــا بعــد على عتبة معرفة تفاصيل الوجه الحقيقي الذي يمثله جدنا المشترك.

حينما نأخذ بعين الحسبان مسألة أصل الحياة، يجب أن نتقبل أنه في فترة ثمانية أو تسعماية مليون سنــة كان هناك الآلاف من الحوادث التــي كانت كل واحدة منها تحمل احتمالية عدم حدوثها قد تتابعت كي تفسح الطريق أمام أرض بدون حياة إلى حياة عالم من الـ ARN ومن ثم إلى عالم من AND. الواضــح بديهياً مثل هــذا التاريخ سيكون بالنسبــة لمن هــم ليسوا مــن ذوي الاطلاع على درجة قوية مــن الصعوبة في تقبل بأن عملية الخلق التي كما جاءت بالأوبانيشاد أو التيفوني أو العهد القديم وأيضاً في الكتابات الأسطورية والتي هي أقرب بكثير إلى الفهم العام من كتابات علماء البيولوجيا الكيماوية وعلماء البيولوجيا الجزيئية.

أما في خصوص هؤلاء الأخيرين، الذين هم أمــام مسألة على درجة مــن الصعوبة تواجه عــدم الحل قبل الوقت الطويل، فقد لجــؤوا إلى عرض ثــلاث نظريات ممكنة: منهــم وهم ليســوا بقلة يعتــبرون أن ظهور الحياة على الأرض رغم احتماليتها الضعيفة يفضلون وضــع فرضية مع أنهم ليسوا على أتم الاقتنــاع بها وهي أن نوعــاً من البذور الشاملــة Panspermie لجراثيــم حيــة كانت قد أتــت إلى الأرض على متن سفينة فضائيــة أرسلت من كوكب بعيد على درجة من الحضــارة أكثر تطوراً مــن حضارتنا ، وهذا يعني أنهم أعادوا المسألة خطوات إلى الوراء هذا هو الرأي الأكثر ندرة.

الفئة الثانية يرون أن ظهور الكائن الحي على الأرضــ والذي هو علــى درجة كبيرة من احتمال عدم الحــدوث إلا لمرة واحدة. وهذا الحدث قد تم من تتابع وقوع حوادث

وحوادث والتـــي كل واحدة منها كان يمكن ألا تتحقق وأن لا يكـون بالتالي لأية فرصة لظهور عالم حي على الأرض. هؤلاء العلماء أنفسهم لديهم أيضـاً التوجه نحو الاعتقاد باحتمـال أن ليسـ هنـاك لوجـود سكان وخاصة لسكان عاقلين في أية منطقة أخرى من هذا الكون.

وأخـيراً هناك فئـة ثالثة مـن العلماء الذيـن يتبنون اتجاهاً آخر شديد الاختلاف ويعتبرون أن كل المراحل المسؤولة عن ظهور عـالم الـ ARN انتقـالاً إلى عالم الـ ADN وهي عبارة عن تفاعلات كيماوية عادية وليس باستطاعتها إلا أن تحدث إذا كانت المناسبات كافية والتي أعطاها لها الزمن، بالنسبة لهم الأحياء ليس بإمكانهـم إلا أن يتكونوا على الأرضـ، عبر ذلك، وهـم الحساسون لآراء علماء فيزيـاء النجوم الذين يرون أن الكون يحوي العدد الكبير من الكواكب التي تتمتع بخواصـ شبيهة بتلك التـي للأرض، وهم يرون أنه يجـب أن يتواجد في الكون العدد الكبير من بؤر الحيـاة وحتى إمكانية وجود الحياة العاقلة.. في الوضع الحالي للمعرفة، الاختيار بـين الاختيارين الأخيرين هو قبل كل شيء مسألة ذوق. البعض يفضلون حراثة الاستثناء الـذي يمثل بحياة محصورة فقط في كوكبنا الأرضـي وكنتيجة لذلك فردانية الوعي الإنساني..

والآخـرون وهم على العكس من أولئك، يفضلون الاعتقـاد بابتذالية الكائن الحي، حيث يفكرون أن الخصائص على الكواكب الأخرى، لا يمكن أن تكون مختلفة جداً عما هـي في الكوكب الأرضـي، ولديهم الاقتناع مـن جهة أخرى بأنه حينمـا تتوضع الحياة مـرة ما على سكـة فلا بد حينئـذ من أن تّوصل إلى الوعـي. وهم يبذلون الجهود في إيجاد الدوافع للدخول في احتكاك مع بقية الحضـارات التي، كما يعتقـدون يجب أن تحتل بقية المناطق من الكون.

حتـى اليـوم الحـالي، لم نستطـع بعد الحصول علـى أي أثر لأيـة علامة جاءت من مجرتنـا أو المجرات الأخرى. في سلسلة مـن المراصـد الموزعة في شتى بقـاع العالم تبـذل الجهود مـن أجل الكشـف عن مثل هذه العلامـة مستخدمة موجـات متنوعة الأطوال، حتى الآن كانت سدى. يجب القول إن هنـاك الأسئلة الطويلـة. حديثاً كان قد توجه الاهتمام علـى مذنب يمكن أن يصل مـن كوكب مارس، والـذي يمكن أن يحتوي علـى بنية تذكر بتلك البنيات الحية المغالية في القدم التي علـى الكوكب الأرضي، لكن

الوثائق المقدمة لم تكــن مقنعة مطلقاً، هذا الموضوع يبدو أنه نوع من الدعاية التي تبنتها وكالة ناسا NASA الفضائية الأمريكية من أجل مشروعها المنطلق نحو كوكب مارس..

نرى أن العلم ابتداءً من عقد إلى عقدين قد أخــذ يخفض من طموحاتــه في صدد الأسئلة التي نضعهــا والأجوبة التي يبحث عنها. عمليــاً انطلاق العلــم المعاصر يعود تاريخــه إلى المرحلة التي حلت فيها الأسئلة المحــدودة محل الأسئلــة العامة. وذلك بدلاً من التساؤل: «كيف تمت عملية خلق العالم؟ مــن أي شيء صنعت المادة؟ ما هي الحياة؟» حيــث توجهــت التساؤلات: «كيــف تسقط حجرة؟ كيف يجري الماء ضمن أنبوب؟ كيف يجري الــدم في البدن؟» هــذا التحول كان لــه نتيجة أخاذة وذلــك لأن الأسئلة العامة لم تتلــق ســوى أجوبة محــدودة، في حين أن الأسئلة المحدودة قــد قادت إلى أجوبة أكثر فأكثر عمومية. وهــذا ما ينطبق على العلم في وقتنا الحاضر. ولذلك لا يجري التساؤل اليوم عــن الحياة في المخابر، ولا عن حصر حدودهــا، بل تبذل الجهــود فقط من أجل تحليــل الأجهــزة الحية، بناهــا، وظائفها، تاريخها..

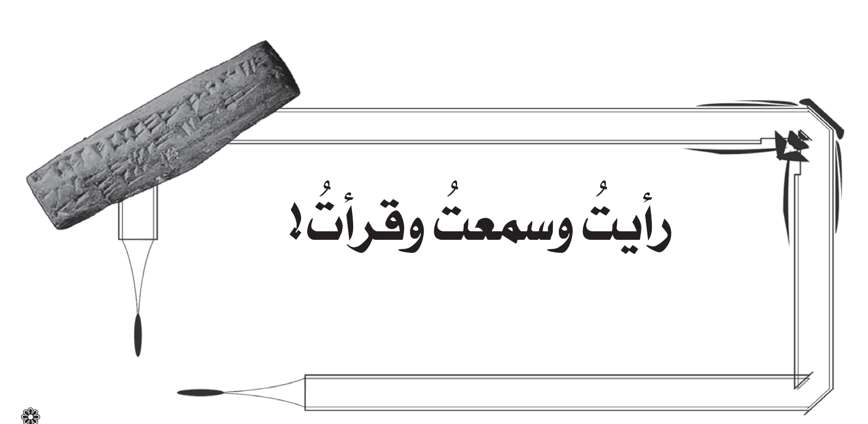
إذن يجب عدم طرح الأسئلة على العلماء في صــدد تحديد الحياة، لكن كل واحد منا يعــرف ما هي الحياة لا بــل ويعيشها، وكل واحــد منا يعرف كم هــي هشة، وكل واحد منا يعرف من خلالهــا لانهائية الإمكانيات والمتنوعــات المدهشة، وكل واحد منا يعرف أنــه لا يوجــد في الدنيا أغلى مــن الحياة وحتــى إنها الشيء الغــالي الوحيد في هذا العالم، وبأن إعطــاء الحياة أو بالأحرى نقل الحياة إلى طفل هو العمل الأكثر عمقاً الذي يستطيع إنجازه الكائن الإنساني.. وكما قال مالرو: «الحياة لا تساوي شيئاً ولكن لا شيء يساوي الحياة».

المراجع:

- **محاضرات الأستاذ فرانسوا جاكوب في جامعة المعارف الشاملة، كانون الثاني لعام ٢٠٠٠.**
- Qu est ce que la vie par Francois Jacob،1 Janvier 2000







رأيتُ وسمعتُ وقرأتُ!

د. عبد الكريم الأشتر*

.١.

وقفتُ يوماً في حيّنا القديم، فرأيتهم يمدُّون في أرض الشارع بُسُطاً كثيرة، فسألتهم عنها فقالوا: «رجل يُقبل على حصانه، بعد قليل، فيستلقي الناس أمامه، فيدوسهم بحصانه، فما يقع الحافر على عضو إلا شفاه»!

ورأيت قريباً لي، أعرف أنه يشكو وجعاً في صدره، يسارع فيلقي بنفسه في الطريق. ثم أقبل صاحب الحصان، وقد خمّر رأسه بخمار أبيض، فأخذ يدوس الناس على أقفيَتهم، ومن حوله رجال يضربون بالدفوف.

* أستاذ جامعي وأديب وباحث سوري.
العمل الفني: الفنان مطيع علي.

فلما مضى نهض قريبي وأقبل عليّ يريد أن يريني أنه لم يلحق به شر. وثنى يده على جنبه وأطلقها، وتحسس صدره، وأراني أنه يتنفس نفَساً صافياً مريحاً!

ثم علمت، في اليوم التالي، أنه أمضى ليلة سيئة. وسمعته يقول:

- هل تصدق؟ لقد خالجني الشك وأنا مستلقٍ على الأرض، فوقع الحافر على الجنب الأيسر فآذاه! فآهٍ لو لم يخالجني الشك!

.٢.

وقرأتُ في موسوعة حلب المقارنة للعلاّمة الأسدي «خير الدين»، هذا الكلام[1]: «إن أنسَ لا أنس أنَّ عمتي كلفتني، وأنا بن ست سنين، أن أرمي، تحت الحَلّة، طبقاتٍ من الكتب الخطية المعفّنة في المغارة، فالتهمتها النّار دون أن أعرف موضوعها أو أهميتها»!

وسمعتُ ممن كان على صلة بالشيخ راغب الطباخ: أنه، بعد أن أتم طبع موسوعته التاريخية (أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء) اضطُرّ أن يبيع نسخها لبعض الباعة ليصرّوا في أوراقها مواد بضاعتهم، فقد أعياه كساد الكتاب!

.٣.

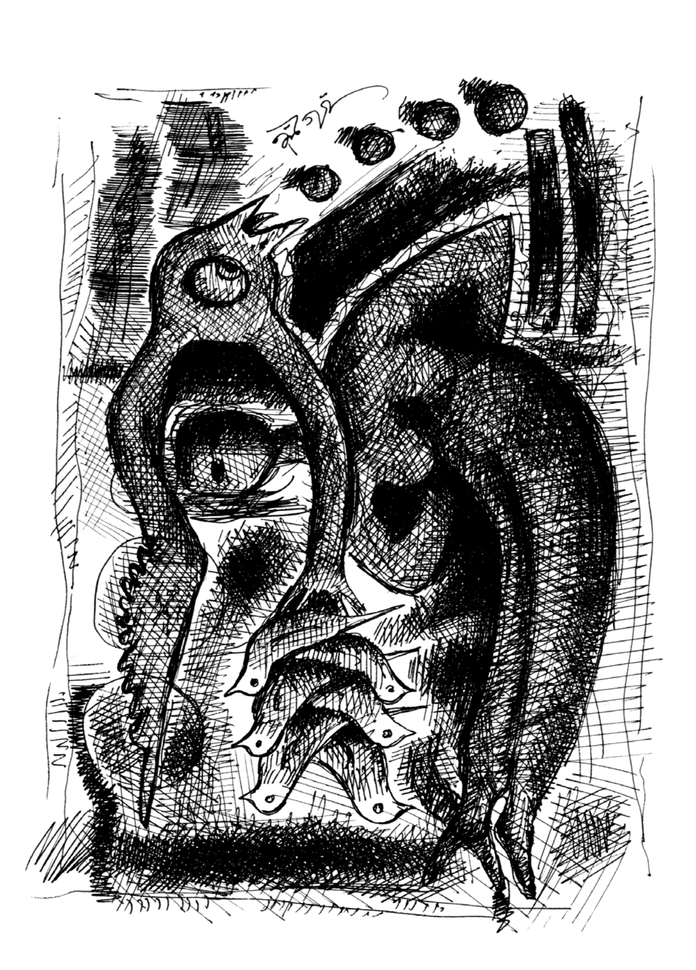
وقرأتُ في كتب التاريخ أن الإفرنج «في حروب الإفرنج» لما حاصروا بيت المقدس، وضيّقوا عليه الحصار، هاجموه من بعد، وكانت حاميته من الجنود المصريين (زمن الفاطميين) تقدَّر بنحو ألف رجل. ثم لما دخلوا المدينة أعملوا السيف في رجالها ونسائها وأطفالها حتى شوهدت أكوام الجثث والأرجل والأيدي في الطرق!

وقرأتُ فيه أيضاً: أن الإفرنج دعَوا حامية حيفا، بعد سقوطها، إلى أن يلجأ رجالها إلى صليب نصبوه، وقالوا لهم: إنه ملجؤهم الأمين. فلما اجتمعوا حوله قتلوهم عنده دون رحمة!

.٤.

وقرأتُ في كتب التاريخ أيضاً: أنَّ المؤرخين قدَّروا عدد القتلى في وقعة صِفّين (قرب الرَّقة) بين الإمام علي ومؤيدي خلافته، وبين معاوية ومناصريه، بسبعين ألفاً. وقدروا عدد القتلى في وقعة الجمل بين الإمام وناقضي بيعته بخمسة عشر ألفاً. هذا كله ولمَّا يمضِ على وفاة الرسول ثلاثون عاماً!

وقــدَّر المؤرخــون أيضاً عدد الكتب التي ألقاها التتار في دجلة، حــين استولَــوا علــى بغــداد، في منتصــف القرن السابع للهجرة، وعــدد المخطوطــات التي هُرِّبت من بلادنا إلى مكتبــات الغــرب، ومــا ضاع منهــا، وما أتلفْنــاه منهــا، بمئات مئات الألوف!



.٥.

وسألني أحد الناس: مــا «دعــوة الإسلام» التــي عظَّموهــا هذا التعظيم، ولم يكن مثلها في التاريخ؟ فقلت:

- هي على مثال قولهــم «قبة الإسلام» ويريدون بهــا «البصرة»، و«سهــم الإسلام» ويريــدون بــه تحيتــه المعروفــة: «السلام عليكم». و «خضاب الإســلام» ويريدون به «الحنَّاء».

فأمــا «دعوة الإسلام» ففي التاريخ: أنها وليمة الحسن بن سهل التي أولمها، ليلة دخل المأمون على ابنته بــوران. فقد امتد حفلها أربعين يوماً!

.٦.

وفي التاريــخ مع هذا الخــبر: أن رجلاً سمعوه ينشد، وهو متعلق بأستار الكعبة:

«**يا ربِّ! إني سائل كما ترى**

مشتمِلٌ «شَميلتي»[٢] كما ترى
والبطن مني جائع كما ترى
فما ترى يا ربَّنا في ما ترى»؟

.٧.

وفيــه أيضــاً: أن عبد الملــك بن مروان كان أبخر[٣]، فتزوج امــرأة من بني هاشم، فسألته يوماً أن يستعمل السِّواك[٤]، فاستاء منها عبد الملك فطلّقهــا. فتزوجــت ولد عبد الله بن عباس (مــن الهاشميين) وكان أقرع، فكانت القلنسوة لا تفارق رأسه.

فوجَّه إليه عبد الملك جارية، وقال لها:

– «اكشفي رأسه بين يديها».

ففعلت.

فقالت لهــا زوج الهاشمــي: قولي لعبد الملك:

– «هاشمــي أصلع أحــب إليّ من أمويّ أبخر»!

-٨-

وفيــه: أن بثينــة، «محبوبة الشاعر العذري جميــل»، وقفت بباب عبد الملك بن مروان، وقد كبرت. فلما أذن لها رآها امرأة نحيلة. فقال لها:

– ويحــكِ يــا بثينة! ما الــذي رآه فيك جميــل حتى قال فيك ما قــال من الشعر؟

فقالت:

– هو الذي رأتــه الأمة فيك حين ولَّتك أمورها!

.٩.

وحدثوني، ونحن في مصــر، أن الأستاذ سامي الدروبي، زار يوماً الدكتور طه حسين في منزله، فأخذ الرجل يثني على ترجماته، وأخــذ سامي الدروبــي يخاطب طه حسين بلقبــه العلمي. فما لبــث أن بدا على وجهه ضيق أحسّ به الدروبي. ثم لما خرج أسرّ إليه أمين أعمال طه حسين أنه كان يحسن به أن يخاطبه بلقب: «معالي الباشا»!

وكنت رأيت، كتابــاً للدكتور طه حسين، أضيف إليه، في موضع التأليف، على جلدته لقب «الباشوية»، بعد أن منحه إياه الملك!

.١٠.

وزارني يومــاً رحالــةٌ شــاب ينتسب إلى وطني، وقد هجر بيته وأهله، وقطع طرقات العــالم ماشياً على قدميه، ليثير انتباه الناس إلى آلام الأطفــال الأبرياء الذين تذهب بهم حــروب الكبار وأطماعهــم، ويقتلهم الجوع والمرضــ بمئــات الآلاف، ويعذِّبهم الخوف من ظــلام المستقبل، وتحجبهــم عن عيون

العالم قِلةُ المبالاة بهم وبمعاناتهم، شعرت أنه يمثل روحاً جديدة في الحياة العربية، على امتداد أرضها، وأننا قادرون على أن نحمل همّ الإنسانية فوق همومنا القومية، أو من خلالها، قادرون على أن نغامر بأنفسنا لنحمل إلى شرفاء العالم كلمة شريفة.

فما أدري كيف اتصلت، في ذاكرتي، صورة هذا المواطن، بصورة إحدى الفتيات الفرنسيات التي رأيتها تُمضي ليلها في شوارع باريس، تلصق على الجدران أوراقاً كبيرة تدعو إلى نصرة القضية الفلسطينية، لعمق إحساسها بروعة الحق وواجب الدفاع عنه.

.١١.

وزرت يوماً الآثار البيزنطية في (باره) بقرب أريحا، مصيف حلب، فرأيت الآثار تنتشر في مساحة واسعة، أحسب الأيام اقتطعت أجزاءً منها. فهي إذن مدينة كاملة تشخص فيها أعمدة وجدران وسقوف. ولكنها غارقة في الأشواك. فما مضيتُ خطواتٍ فيها حتى بدأ يصعب عليّ أن أرفع قدمي وأضعها!

فذكرت أني مشَيت يوماً، في مثل هذا الصباح، في «جنّة العَريف»، وهو البستان الملحق بقصور الحمراء في غرناطة، فكأني أراها يوم أخلاها أصحابها من بني الأحمر، خضراء نظيفة تجري فيها المياه من كل صوب، وتحفّ بها الأشجار العالية. فكيف إذن لا تقوم مثل هذه الموازنات في نفوس غيرنا من الناس؟

لقد تُطمس طرق رومانية كاملة (في السويداء)، وتضيع أعمدة أبواب تاريخية ضخمة في زحمة الدكاكين والبيوت المتراكمة فوقها (في باب أنطاكيّة في حلب. وحول الجامع الأموي بدمشق).

.١٢.

وفي أسواق الخليج العربي رأيتُ العربية تغالب عن نفسها. فأكثر من رأيت يتحدثون الأردية أو الملبارية أو البلوشية أو لغة غيرها. فإذا تحدثوا إلى الناس استسهلوا المفردات الإنجليزية، أو صاغوا الكلمات العربية المكسَّرة وركَّبوها على نحوٍ أصبحت الصحافة في الخليج تتناقل صوره أحياناً. فأي زمان أعجب من هذا الزمان: أن تجد العربيةُ نفسها غريبة في دار أمها وأبيها!

.١٣.

وفي بعض شوارع بومباي في الهند، رأيت

عرباتٍ صغيرةً يركبهـا الناس، ويجرُّها، في موضـع الدابة تماماً، رجـال من لحم ودم، لهم عقول وأرواح، يركضون بعرباتهم وسط الزحام، ويشقُّون لها الطريق بأيديهم أحياناً. وقفت أتأملهم والعرق يتصبب من وجوههم وصدورهـم العارية: هـؤلاء أبناء الحضارة العريقة؟

الآن أفهـم لِمَ هرب بـوذا بإنسانيته من ترف الحياة في قصر أبيه إلى الغابات.

وأفهم معنـى النُصُب الرائع الذي رأيته في إحدى ساحات طهران: شجرة مبنية من الحجر، تمتد غصونهـا إلى السماء، تكتب، في صفحـة الفضاء الممتـد، كلمتين: «الله أكبر»!

.١٤.

قـال لي أحد المستشرقـين الألمان يوماً، وأنـا أجول معه في بعض كنائس «ايرفورت» القديمة التي كانت تنطلق منها الدعوات إلى تجييش قوات الإفرنج وإرسالها إلينا:

«نعـم! لقد كنا نحـن مصيبتَكم في يوم من الأيـام. ولكنكم اليـوم تواجهون أوخم المواجهـات، وأكثرهـا استخفافـاً بالقيـم الإنسانية، وأشدها حقداً على من يسمونهم «الجوييـم» وهم، في عُرْفهـم، كل البشَر ما عداهم!»

.١٥.

وحضـرتُ في القاهرة مجلسـاً، في بيت الشيخ محمد أبو زهرة، وهو من شيوخ مصر المعدودين. كان حاد الذكاء، كثير العلم، منوع المعرفـة. وكان عذباً لطيفاً كـريم النفس، مبسوط اليد، نظيفاً، جميل الكُسْوة. عرف أني أكتب في أدب المهجريين، فأخذ يستعيد معـي بعض كتابـات جبران خليـل جبران، ويستخلص منها بعض خصائص أدبه. ورآني مشدوهاً أنظر فيه، كأني أقول لنفسي:

ومن أيـن لهذا الشيخ الفقيـه أن يكون اتصل بمثل جبران! فقال:

- قـرأت في صباي الأجنحـة المتكسرة (من كتب جبران)، وحفظت شيئاً من شعره. كان معذَّباً، وأنا أحب المعذَّبين!

وكان في مجلسه رجـل لطيف السمات، يحمل على أذنيه نظارة صغيرة. وعرفنا أنه يعمـل في المحامـاة، وكان إخواننا في مصر يسمونه علـى الدارجة الشائعة آنذاك: «أبو كاتو»[٥] فانطلق الشيخ الجليل يسأله أمامنا عن ولده «كاتو» وزوجه «أم كاتو» وبقية أفراد الأسرة، إخـوة «كاتو» وأخواته، حتى فاضت

عيون الحاضرين من الضحك!

١٦.

ورووا عن عمر بن عبد العزيز، حين بلغه أن ابنــه بالمدينة اشترى خاتمــاً قيمة فَصِّه ألف درهم، فكتب إليــه: «عزمتُ عليكَ إلاّ بعت خاتمكَ بألــف درهم، وجعلتَها في ألف بطن جائعــة، واستعملت خاتَمــاً من فضةٍ ونقشت عليه: رحم الله امرءاً عرف قَدْره!»

١٧.

وفي أخبار أبي منصور الحلاج (المتصوف المعروف)، أنهم دخلــوا عليه يوماً، فوجدوه قــد ركز رأسه إلى الأرضــ، ورفع رجليه في الهواء. فسألوه:

- لِمَ تتخذ هذا الوضع المقلوب؟

فأجاب:

حتى أرى الأشياء في وضعها الصحيح!.

الهوامش:

الهوامش:

١- ج١ ص٣١٣.

٢- كساء من شعر.

٣- لفمه رائحة.

٤- لتنظيف الفم والأسنان. وكان يُتخذ من شجر الأراك الطيب الرائحة.

٥- من الكلمة الفرنسية avocet)).





الدراسات والبحوث



ثقافة الأطفال

الاعتبارات - الأسس - المفاهيم - المصادر

د . أحمد أبو موسى ❊

لقد أولت التربية الحديثة ثقافة الطفل اهتماماً خاصاً انعكس على جميع أنــواع الفعاليات التربوية، وبصورة خاصة علــى فعاليات التربية الطلائعية فأضحــت الثقافة مفتــاح الفرد إلى الحياة، ووسيلتــه في التكيف معها، من هــذا المنطلق أولت منظمة طلائع البعــث الثقافة الأهمية الكبرى من خلال برامجهــا ونشاطاتها بقصد بناء شخصية الطفل بنــاء قومياً اشتراكياً وفق المفاهيــم العلمية والأسس السياســة والاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع العربي.

❊ كاتب وأستاذ جامعي ورئيس منظمة طلائع البعث (سورية).

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

وتقوم هذه المفاهيم والأسس على معرفة دقيقة بعالم الطفولة بجميع مقوماتها العقلية والنفسية والجسدية والتي تتمثل بالمعطيات الحضارية المعاصرة والمتطورة وينطبق ذلك على قول أحد المربين أن هناك ثلاثة أشياء تكون شخصية الطفل هي:

أن حياة الإنسان تجري ضمن مثلث أضلاعه هي الجسم والنفس والمحيط. فالجسم يحيا بالثقافة والنفس تنمو بالثقافة والمحيط ينتعش بالثقافة.

- اعتبارات ثقافة الطفل:

هناك اعتبارات تخضع لها ثقافة الطفل وقد حددها أحمد نجيب وفاخر عاقل بأربع نقاط وهي:

أ- الاعتبارات التربوية وتشمل:

١- سن الطفل: ويقصد به مراعاة خصائص الأطفال عند تقديم المادة الثقافية بما يتلائم والعمر الزمني، فطفل في السادسة من العمر لا يرى في مسرحية «هملت» لشكسبير والتي تناقش فكرة التردد والانتقام إلا رجالاً يتحركون على المسرح أمامه.

٢- النمو اللغوي: ويقصد به استخدام اللغة الخاصة بالطفل والمأخوذة من القاموس اللغوي الذي يمتلكه، وقد قام عدد من العلماء في أنحاء العالم بتجارب لمعرفة هذا القاموس، فمنهم (فاخر عاقل) من البلاد العربية و(موسى بريل) و(سمث) من البلاد الأجنبية ممن توصلوا من خلال التجارب إلى أن حصيلة الطفل في السنة الأولى، ثلاث كلمات، وفي الثالثة (٨٩٦) كلمة، وفي السادسة (٢٥٦٢) كلمة..إلخ.

صحيح إننا لم نستطع أن نعد النتائج العلمية لهذه التجارب إذ يتمثل نمو مفردات الطفل في بلادنا باختلاف الظروف والبيئات، لكنها تعطينا فكرة صحيحة عن تطور المفردات التي يستخدمها الطفل في مراحل نموه المختلفة.

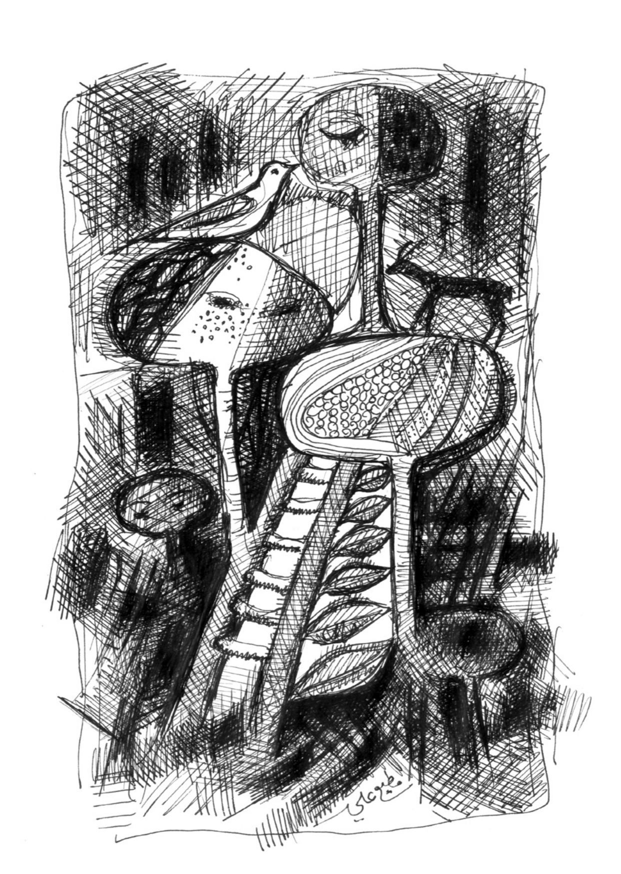
وهناك عامل الجنس، فالبنات كما يقول (ديفيز) تسبق الأولاد الذين يجارونهم في العمر في النمو اللغوي وخاصة ما بين الخامسة والعاشرة من العمر أضف إلى ذلك بيئة الطفل ومستوى الوالدين وظروف المدرسة التربوية والمستوى العقلي والعوامل الفيزيولوجية المتعلقة بأعضاء النطق والسمع للطفل.

٣- مراعاة تميز اللغة العربية: علينا ألا ننسى الفرق بين اللغة العامية التي تعلمها الطفل في بيته، ولا يزال يسمعها في مجتمعه واللغة الفصيحة التي نريد منه أن

يتعلمها في المدرسة ويتعلم بها المواد الأخرى. وواجب علينا أن نرتقي بلغة هذا الطفل تدريجياً وتشجيعه على توخي الفصحى في كلامه وكتابته.

ومن ناحية ثانية، إننا نتعرض لمشكلة صور الحروف العربية، إذ لكل حرف أكثر من صورة واحدة تبعاً لاتصاله وانفصاله، وتبعاً لموقعه في الكلمة، وهناك مشكلة الحركات التي هي اختصار لحروف المد الطويلة.

وأخيراً مشكلة حرفي الواو والياء، تارة حرفان صامتان وتارة صائتان.



٤- التلقي الموضوعي: عندما يصل الطليعي إلى المستوى الجيد من المعرفة والاطلاع والثقافة التي تؤهله للاعتماد على نفسه واستخدام معارفه وإطلاق الأحكام العامة بموضوعية، وفي هذا وصوله إلى مستوى فكري على درجة مناسبة من القدرة على التجريد.

ب- الاعتبارات الفنية:

١- العامة: ويقصد بها مراعاة القواعد الأساسية في فن الكتابة للأطفال بصفة عامة سواء أكانت قصة أم مسرحية أم قصيدة.

٢- الخاصة: وتتعلق بنوع الوسيط الذي ينقل الثقافة إلى الأطفال. (كتاب، مسرح، سينما .. إلخ). ولكل وسيط ظروفه وإمكاناته الخاصة التي يجب أن تراعى.

جـ - الاعتبارات التنظيمية:

وتعني أن التنظيم شرط أساسي لنجاح أي عمل تقوم به، فتنظيم ثقافة الطفل ضرورة لابد منها للوصول إلى ما نهدف إليه

من الثقافة المقدمة للأطفال مثل إجراء مسابقة بين الطليعيين. لابد من الإعداد المسبق والمنظم لتلك المسابقة التي تشمل الإعداد الجيد للأسئلة والأجوبة والتحكيم.. إلخ).

- مراعات التلقي عند الطفل: ونقصد به تهيئة الجو المناسب لجعل الطليعي مستعداً لتقبل المعلومات كافة، وتحريك الحوافز المناسبة عنده وله أنواع، ومنظمة الطلائع لا تألو جهداً في رعاية ذلك والمثال على ذلك يتبدى في مستويات التلقي التالية:

أ- التلقي الترابطي: ويرتكز على التكرار وتسلسل المعلومات وربطها بالخبرات السابقة أي التدريب المستمر.

ب- التلقي الفيزيولوجي: بواسطة استخدام الوسيلة التعليمية والمادة المشوقة القائمة على الإثارة والاستجابة به كما قررها المربي (ثورندايل) حيث أن الطفل يتعلم ما يرضى به، ويحبه ويبتعد عن كل فعالية لا تلبي رغباته، مما يهيئ له حالة نفسية تساعده على التعلم.

جـ- التلقي الاندماجي: ويتم عندما يرى الطفل في شخصية ما ميوله ومثله أو عندما تنال، هذه الشخصية إعجابه، فيتأثر بها لدرجة الاندماج والتقليد، لذا علينا أن نجعل الطليعي متعلقاً بنا حتى نصل معه إلى هذه الحالة فسرعان ما يلبي ما نطلبه منه وفق ما نريد.

المعطيات والأسس الواجب توافرها في ثقافة الطفل:

بعد معرفة الاعتبارات التي تخضع لها ثقافة الطفل وأهم الوسائط الثقافية التي تنقل المادة الثقافية لطفلنا العربي، بقي أن نحدد المعطيات والأسس الواجب توفرها في ثقافة الطفل بما يتلاءم وتجربة التنظيم الطليعي.

١- وعي طبيعة ثقافة الطفل:

لقد شهد القرن العشرين اهتماماً واسعاً بدراسة الطفل لمعرفة العوامل المؤثرة والمتفاعلة في تكوين شخصيته وسلوكه بصورة عامة ولم يكن الطفل في الماضي موضوع اهتمام الدراسات العلمية اعتماداً على الرأي القائل «إن الطفل رجل صغير»، أي ليس بين الطفل والراشد من فوارق إلا في درجة في حين تبين أن الأطفال ليسوا راشدين صغاراً لهم ما للراشدين من صفات عقلية وعاطفية وحسية وخيالية بصورة مصغرة، بل لهم صفاتهم الخاصة بهم، وأن عملية نمو الطفل عملية مستمرة ومتكاملة لكونها تمر بمراحل مختلفة

السرعة والاتجـاه. وهناك خصائص معينة لا تظهـر إلا في فترات محـددة من مراحل النمو وأخرى تضمر وتتنحـى وثالثة تأخذ اتجاهاً جديداً، وعليه فقد نظر إلى الطفولة اليوم علـى أنها مرحلة تطـور وما هي إلا سلسلة من عمليات التكيـف وإعادة تنظيم العلاقـات في البناء التكويني والنمو العقلي وفي الشخصيـة بصـورة عامـة وعلى هذا مـا دام الأطفال ليسوا رجـالاً صغاراً فإننا نستطيـع القـول ينبغي أن تكـون للأطفال ثقافة خاصة بهم هي ثقافة الأطفال وثقافة الأطفال ليسـت تصغيراً أو تبسيطاً للثقافة العامة السائدة في المجتمع بل هي كيان خاص لـه ملامحه المتميزة والتـي تختلف نوعاً لا كماً عن ثقافة الراشد أي تثقيف الأطفال لا يعني أن ينقل الكبار إلى الصغار كل مفردات الثقافة العامة بشكل مبسط بل يعني أن ينقل الكبـار للصغار ما يلزمهم منها وما يتناسب مع قدراتهم، ويلبـي حاجاتهم، ويساعدهم على الانتقـال إلى مرحلة النضج. وفي هذه المناسبـة نرى من الضـروري أن نؤكد على الحقائق التالية:

أ- إن مـا يميز طبيعـة ثقافة الطفل هو التوجه التربوي والتنظيمي الصحيحان لحياة الطفل.

ب- التثمـير الأنجـع لثقافـة الطفل يتوقـف على مسؤولية المربي ومدى التزامه بالأهداف المرجوة.

جـ- ثقافة الطفل تنبع من صلب العملية التربوية الهادفة إلى تلبية احتياجات الطفولة من النواحي النفسية والاجتماعية.

٢- إيمان المؤسسات الثقافية والتربوية بثقافة مستقلة للأطفال تستند إلى الحقائق التالية:

أ- النظـر إلى الثقافـة كخدمـة تقدم للأطفال.

ب- التعزيز مـن التثقيف بشكل يكون للمنظمة الدور الكبير في هذا التعزيز.

جـ- تخطيـط البرامـج والمشروعات الثقافية على مستوى مركزي.

د- تعميـم ثقافـة الطفـل وضمـان انتشارها.

٣- الاهتمام بالثقافة القومية الاشتراكية القائمة على:

أ- التوجـه إلى الأطفـال كجيل جديد ينبغي تسليحه بالفكر القومي الاشتراكي.

ب- ربـط الثقافـة الحديثـة بمناهج التعليم.

جـ- الاعتماد على الأصيل من التراث وتجسيده لربط الحاضر بالماضي والانطلاق به إلى مستقبل أفضل.

د- التأكيد على الثقافة التي تحرر الأطفال من التربية التقليدية القائمة على الخرافة والتفكير الغيبي.

هـ- توفير جو ديمقراطي للطفل يكفل له حرية المناقشة العلمية الصحيحة.

٤- جعل الوسائط الثقافية تلبي احتياجات الطفل بمراعاة خصائص النمو عند الأطفال تستجيب لحاجاتهم في التعبير والاطلاع والإبداع وتستند إلى الحقائق التالية:

أ- الاستجابة لرغبات أطفالنا وميولهم.

ب- تنويع المادة الثقافية.

جـ- البحث عن أدوات إيصال جديدة من روح العصر تغري الطفل وتجذبه.

د- نشر وسائل ثقافية «دوريات . كتب . مسرحيات . ألعاب . أفلام . أشرطة فيديو كاسيت . أقراص ليزرية .... إلخ» تخاطب الطفل العربي.

٥- توفير المنشآت والأمكنة التي تساهم في ممارسة النشاط الثقافي وتعتمد على:

أ- استيعاب أكثر عدد من مجالات الأنشطة.

ب- تأمين اللوازم والأجهزة بما يتناسب والمنشأة.

جـ- تؤمن إشراك أكبر عدد من الطليعيين في مكان المنشأة.

د- تستوفي جميع الشروط من الناحيتين التقنية والفنية.

٦- توفير حوافز معنوية ومادية تحث الفنيين من الأدباء والكتاب والفنانين والمثقفين على التفرغ لثقافة الطفل وتتمثل في النقاط التالية:

أ- تشجيع التأليف الأدبي والكتابة للأطفال في الشعر والقصة والمسرحية والأغنية.

ب- تشجيع البحث الأدبي والفكري والتربوي في مسألة تربية الطفل وتثقيفه.

٧- تأهيل الأطر القيادية والفنية المتخصصة في مجالات ثقافة الطفل ويتم عن طريق:

أ- دورات التأهيل القيادي كدورات هيئات التدريب العليا.

ب- دورات التأهيل والاختصاص.

جـ- عقد مؤتمرات وندوات وحلقات البحث المتخصصة حول شؤون التربية

الطليعية عامة وثقافة الطفل خاصة.

د- افتتاح دورات ثقافية للمشرفين على مستوى الفروع، تنظم فيها: المطالعة والعروض السينمائية والاستماع والموسيقى واللقاءات الثقافية الدورية.

٨- التدابير الواجب توافرها في ثقافة الطفل:

أ- التشريع: وهي العمل على إصدار القوانين والأنظمة والتشريعات الكفيلة بدعم ثقافة الطفل وحمايتها.

ب- التوجيه: وهو العمل على تقديم ثقافة ملتزمة وموجهة لأطفالنا ضمن سياسة تربوية هادفة.

جـ- التنسيق بين المنظمات الشعبية والمؤسسات الثقافية.

د- ممارسة رقابة فعلية وجادة على المادة الثقافية المقدمة للأطفال عبر وسائط ثقافة الطفل.

هـ- العمل على استمرارية تطوير ثقافة الطفل بما يستجيب ومعطيات التجربة الطليعية وتحقيق تطلعاتها وأهدافها، ويتكامل مع مستجدات العصر ومتطلبات التربية المدرسية.

لاشك في أن تدبير ثقافة الطفل مرهون بخصوصيتها القائمة على اعتبارات تربوية وفنية مختلفة مما يفيدنا في تحديد الأسس الكفيلة بتطوير واقع ثقافة الطفل، أي أن لوسائط ثقافة الطفل اعتبارات وخصائص تختلف عن أجهزة الثقافة الموجهة للكبار. وسنذكر هنا بعض الملاحظات انطلاقاً من حقيقة مفادها أن تقاليد الثقافة الشعبية لاتزال هي السائدة في استمرار قوى الموروث الشفهي غالباً والمكتوب نادراً، والحق أن كل رجل أو امرأة مسنة هو مكتبة حية، وتفوق هذه المكتبة في غناها وتأثيرها مجمل الجهود المبذولة في هذا الشأن ينبغي التفريق بادئ ذي بدئ بين أدب مؤلف وأدب شعبي من جهة. وأن نقر بفاعلية الأدب المترجم وغير المعد للطفل العربي من جهة أخرى.

أما وسائط ثقافة الطفل الأساسية كالمسرح والسينما والإذاعة والتلفزيون والصحافة فهي تحتاج إلى عناية قصوى تؤسس لها أولاً وتضمن فعاليتها ثانياً.

إن مثل هذا الاعتراف لا يقلل من أهمية السعي للنهوض بثقافة الطفل، بل يؤكد من جديد جدارة البحث في آفاق هذه الثقافة قياساً لوظيفتها. لذا، لابد من تدبير لوسائط ثقافة الطفل في القطر العربي السوري يأخذ في اعتباره أن شؤون المستقبل العربي تبدو اليوم، وبإلحاح أكبر

مرهونــة بإعداد الطفل العربي، إنها مسألة تتجــاوز حدود الحــوار العقائدي إلى تغيير الظروف التاريخيــة الراهنة، هكذا، تصبح ثقافة الطفل قضية نضالية ينبغي أن تكون لها منزلتها في الاهتمام والتقدير، لأن جيلاً جديداً يتصدى للقــوى القاهرة التي تعوق المستقبل العربي بمباشرة التغيير يحتاج إلى ثقافة قادرة على تنمية الشخصية وإكسابها القيم والمبــادئ النضالية لكي يكون الطفل العربــي هو الأمل في ظــلام التاريخ الممتد إلينا.

إن واقع الحــال يؤكد الأزمة: إنتاج أدب يمــد وسائل الإعلام والثقافة بما يساعدها على أداء دورهــا ليتخطى حدوده الراهنة، مخاطبة أقلية قارئة هي القادرة على الشراء وعلى التمتع بالوسائــط والارتباط بأحلام هذه الأقلية وليتخطى جذوره المبتورة بالتراث عــبر إحياء الأدب العربــي الشعبي الملفوظ والمكتــوب بإحلال - الخيــال - محل الخرافي - في أساليــب الكتابــة الجديــدة كما يدعو الكثــير من المختصين ولا يمكــن أن يتحقق مثل هــذا النتاج إلا في ظــل تدابير تضمن تحقيق الغايات المرجوة: السعي لإنتاج أدب يحمل خصوصيتنا القومية والحضارية، لأن أداء وسائــل الإعلام لدورهــا بحيث تكون تثقيفيــة وتربوية لا يرتبط بالإنتاج في فنون أدب الطفل وحده، بل في الإجابة على أسئلة الثقافــة القومية الاشتراكيــة أو على أسئلة رسالتــه بتعبير اصطلاحي، فلا أدب أطفال بــلا رسالة، إنه تعليمــي أساساً، وهكذا، لا تنفصــل وسائط أدب الطفل عــن أساليب تدبيره.

إن كــون أدب الأطفــال موجهاً وحاملاً لدلالالته التربوية يحتــم النظر في أساليب التوصيل والانتشــار، وهو ما نسميه بعملية تدبــير وسائــط ثقافــة الطفــل: أن نعيد النظــر في خصائص الكتابة بمــا يتناسب وطبيعة الوسيط الإعلامي المسرح، الإذاعة، التلفزيــون، الصحافــة، الأغنيــة، اللوحة، السينما.. إلخ.

وتشــكل هــذه المراعــاة أساســاً متيناً في التوجــه إلى الطفــل أي تركيــب البنية الأدبيــة والفنيــة وفق اعتبــارات الوسيط الثقافي، فالوسائــط تقوم على مادة مكتوبة مقدمة بأسلــوب الوسيط. إن تدبير وسائط الثقافة يعنــي مناخاً لتوفير مــادة تثقيفية ترفــد التربيــة السياسية للفكــرة القومية الاشتراكية، ولا يكون منــاخ بدون إجراءات وقوانــين تكفــل التنفيذ وتضمــن الانتشار لجميــع أطفال القطر دون استثناء وما هذه

الإجراءات والقوانــين إلا عون تحتاجه كل ثقافة أصيلة.

- وسائط ثقافة الطفل:

وهـــي مجموعـــة الأجهـــزة والأساليب باعتبارها وسائط الأطفال إلى أدبهم، وأهم هذه الوسائط:

أ- الصحافة بأنواعها.

ب- الكتاب.

جـ- المسرح.

د- السينما.

هـ- الإذاعة.

و- التلفزيون.

ز- أساليب اللقاء (الاستضافة/ الزيارة/ المنابـر/ الحديـث المباشـر/ المسابقـات والألعاب/ حلقات البحث..إلخ).

ط- اللوحة.

- اعتبارات ثقافة الطفل:

لثقافـة الطفـل خصائـص تملي على المربي بعضـ الاعتبارات، وقد أوجز أحمد نجيب هذه الاعتبارات فيما يلي:

أ- الاعتبارات التربوية والسيكلوجية، وتتعلق بالنواحي التالية:

مراحـل النمو عند الأطفـال وعلاقتها بخصائصهـم بما في ذلـك الفروق الفردية والبيئة الاجتماعية.

- مراحل النمو اللغوي عند الأطفال بما في ذلـك مشكلة القاموسـ المشترك للطفل ومراعـاة السمات المميزة للغـة العربية أو أساليب الكتابة ومواقف الأطفال منها.

ب- الاعتبارات الفنية العامة:

مما يتعلق بخصائص فنون أدب الأطفال كالقصة والقصيدة سواء في الفكرة أو البناء أو السـرد أو الصـراع أو الشخصيـات أو الحوار أو الأوزان أو التذوق.

جـ- الاعتبارت الفنية الخاصة:

مما يتعلـق بخصائـص الوسيط نفسه كالكتـاب أو الإذاعة أو المسرح أو التلفزيون، ولـكل وسيط طبيعة فنيـة ينبغي مراعاتها لدى مخاطبة الأطفال.

- مفهوم الثقافة الطفلية:

هي مـا يصنعـه الكبـار مـن الثقافة بمختلف فنونهـا ووسائطها الطفلية بقصد التوجيه للأطفـال للتأثير فيهم مراعين من خلال هـذا التوجيه اعتبارات ثقافة الطفل بما يجعله عملاً تربوياً.

- ومصادر الثقافة الطفلية هي:

١- فنـون الأدب الشعبي: وهي متنوعة منها: الحكاية الشعبية والأساطير والأمثال والأغاني والأهازيـج حيث يمكن للكاتب أن

يقدم للطفل ثقافة مستوحاة من أحد هذه الفنون أو من بعض عناصرها.

٢- الأدب التعليمي: ويقصد به كل أعمال الأدب التي تهدف إلى توسيع مدى المعرفة العلمية أو النظرية، وسمي تعليمي، لأنه يهتم بالمعارف والأفكار أكثر مما يهتم بالنواحي الفنية.

٣- التجربة الإنسانية: وهي ما كونه الكاتب من انطباعات فردية أو اجتماعية أو إنسانية حيث يعتمد على معاناته وخبرته أو معاناة مجتمعه والإنسانية جمعاء.

ويلعب الخيال دوراً كبيراً في إنتاج ثقافة طفلية في التعبير عن تجربة كأن يصور الكاتب حدثاً جديداً ابتدعه من خياله أو حياته اليومية أو يستمده من حياة الآخرين.

٤- التاريخ: ويعتبر مصدراً لإبداع أدب الأطفال إذ يعود الكاتب غالباً إلى الماضي ليستعيد أحداثه ووقائعه البارزة، ويبعث شخصياته من جديد.

ولثقافة الأطفال طبيعة معينة تظهر في الاعتبارات التي تراعيها وأشرنا إليها:

١-الاعتبارات التربوية والسيكولوجية فيما يتعلق:

أ- بمراحل النمو عند الأطفال وعلاقتها بخصائصها بما في ذلك الفروق الفردية والبيئية والاجتماعية.

ب- بمراحل النمو اللغوي عند الأطفال بما في ذلك مشكلة القاموس المشترك للطفل ومراعاة السمات المميزة للغته.

٢- الاعتبارات الفنية العامة فيما يتعلق بخصائص فنون أدب الأطفال:

سواء في الفكرة أو البناء أو السرد أو الصراع أو الشخصيات أو الإيقاع أو الخيال.

الكاتب الذي يؤلف قصة للأطفال عليه أن يعاين خصائص القصة الموجهة للأطفال، وهي ما نسميه الاعتبارات الفنية العامة مما له علاقة واضحة بنظرية أدب الأطفال. وهذه القصة لا يمكن أن تقدم عبر وسيط ثقافي آخر (مثل المسرح والسينما . الإذاعة . الصحافة) إلا بعد إعادة كتابتها بما يتوافق مع خصائص هذا الوسيط.

وهنا تثار مشكلات إيصال أدب الأطفال إلى الأطفال باعتبارهم جمهوراً خاصاً يحتاج إلى دراسة موسعة لضمان التأثير فيهم.

مصادر ثقافة الأطفال

يقسم علماء النفس الطفولة إلى مرحلتين:

١- مرحلة الطفولة الأولى، وتمتد من

الولادة حتى سن السادسة، ويطلق عليها اسم «مرحلة ما قبل المدرسة» أو «مرحلة الطفولة المبكرة».

٢- مرحلة الطفولة الثانية، وتمتد من سن السادسة حتى المراهقة، ويطلق عليها أحياناً اسم «مرحلة الطفولة المتأخرة».

يقع العمل التربوي في المرحلة الأولى، على عاتق الأسرة، وقد تساعدها مدرسة الحضانة وروضة الأطفال، أما في المرحلة الثانية، فيشترك في هذا العبء المجتمع والمنزل والمدرسة والشارع مع الأسرة، لن نتمكن في هذا البحث المحدد، أن ندرس دراسة تفصيلية دور المجتمع أو الأسرة أو المدرسة في تربية الطفل في النواحي الجسمية والخلقية والوجدانية والاجتماعية والعقلية، فذلك عمل طويل نجده في بطون الكتب، لكننا سوف نتحدث حديثاً بسيطاً.. ربما يكون مضمونه معروفاً لدى الكثيرين. حول نقل ثقافة المجتمع والإنسانية إلى الطفل منذ البداية حتى نهاية مرحلة الطفولة الثانية، أي حتى سن السادسة عشرة.

الأسرة هي الخلية الأولى التي تعمل على نقل الثقافة وتعليم اللغة وتنمية العقل في مرحلة الطفولة الأولى أما في مرحلة الطفولة الثانية: فيكون التعاون بين المدرسة والمجتمع وتتحمل الأسرة وكل مؤسسة من هذه المؤسسات الثلاثة مسؤولية تربية الطفل، وأي تقصير فيها يسبب خللاً في تكوين شخصية الطفل. وهكذا ننظر إلى عملية التربية على أنها شاملة كلية تشمل جميع الجوانب الجسمية والعقلية والخلقية والاجتماعية والنفسية والبدنية. وإذا قمنا بتجزئتها فذلك من أجل تسهيل البحث والدراسة.

بدايات النمو العقلي واللغوي:

تعد السنة الأولى والسنة الثانية من مرحلة ما قبل المدرسة بالغتي الأهمية، لما يحدث فيهما من نمو جسمي وعقلي ووجداني يكون أساساً في كل ما يلي من نمو، إذ ينمو الطفل جسمياً، في هاتين السنتين، إلى ثلاثة أمثال وزنه عند الولادة مثلما ينمو دماغه نمواً لا يعادله أي نمو في السنوات الأخرى. يتصل الطفل بالعالم الخارجي، عند ولادته، عن طريق حواسه، غير أن حواسه تكون ضعيفة في بداية الأمر. ففي الأيام الأولى من حياته لا يشعر بالفرق بين الضوء والظلام، ولكنه ما يلبث أن يتعلم ذلك بالتدريج فيدرك درجات الضوء، ويتعلم كيف يثّبت بصره في الأشياء القريبة والبعيدة، وفي نهاية الشهر الرابع يدرك الفروق الكبرى بين الأصوات

المختلفة للنمو العقلي، ولهذه المرحلة صلة وثيقة بقدرة الطفل على المشي والكلام، واتساع معرفته بالأشياء، ونمو حواسه المختلفة. كل ذلك يزيد بخبرته الشخصية ونموه العقلي، كما أن نمو اللغة مظهر من مظاهر النمو العقلي، فقد دلت التجارب على أن الأطفال المتخلفين في النمو اللغوي متخلفون في الذكاء فيقصد بالنمو العقلي نمو القدرات والاستعدادات العقلية المختلفة كالقدرة على التذكر والمحاكمة والتصور والتعميم والتجريد وما أشبه. ويتصف خيال الطفل في هذه المرحلة بأنه غير مقيد بالواقع، ويبدو ذلك في حديثه وفي رسمه وفي ألعابه، فيتحدث مثلاً بأنه رأى وحشاً في الشارع البعيد، ويضع الماء في فم لعبته ليسقيها، أو يغطيها لتنام، أو ليقيها من البرد، وكذلك عندما يرسم رجلاً مثلاً، فإنه قد يرسم له عشرة أصابع في اليد الواحدة، وإذا رسم شجرة وطفلاً بجانبها، فإنه قد يرسم الطفل أطول من الشجرة، أو قد يرسم اليد اليمنى، التي تمتد لتلقط الثمرة، أطول من اليد اليسرى التي لا تعمل شيئاً، وهكذا نجده يبالغ في رسم بعض أجزاء الشيء أو الشخص المرسوم، ويغفل بعض الأجزاء، وهذه هي السمة الأساسية التي تطبع خيال الطفل في هذه المرحلة، وتبعده عن التقيد بالواقع، وتدفعه نحو التحلل بعيداً بنشاط وفعالية، يضاف إلى ذلك ما نراه عند الطفل من اهتمام بنفسه وتركيز على ذاته وتسخير الآخرين لأهوائه وفضوله وحبه للاستطلاع.

يعيش الوليد في دائرة ضيقة تضم بعض المنبهات المحدودة، الداخلية أو الخارجية التي تؤثر في جسمه مثل الجوع والألم والجرأة والتغذية والثياب والأغطية وغيرها من الأشياء التي تحتك بجسمه مباشرة، لكن هذه الدوائر حوله ما تلبث أن تأخذ بالاتساع تدريجياً، لتخرج عن نطاق جسمه، حينئذ يبدأ بالاتصال بالعالم الخارجي عن طريق الحواس. وهنا يشرع باكتساب اللغة، ويأخذ بربط الرموز اللفظية للأشياء وبالأحداث فيعبر عن خبراته وحاجاته لغوياً، وبذلك يكون قد بلغ مستوى مناسباً من القدرة على الفهم وعلى استنباط المعاني من الخبرات، ولا ننسى أن المعاني، عند الأطفال «وحتى عند الراشدين أحياناً»، تختلف باختلاف خبراتهم وظروف حياتهم.

فقد تثير كلمة واحدة معنيين عند طفلين، فكلمة «كلب» مثلاً تعني حيواناً أليفاً عند طفل، وتعني حيواناً مخيفاً عند آخر،

ويرجــع ذلك إلى أن مــا اختزنه الطفل وما اكتسبه الطفل، يترك فيه أثراً انفعالياً يؤثر في سلوكــه واتجاهه ومواقفــه إزاء الأشياء وفي المعــاني التي تدل عليهــا، لذا كان من واجــب المدرسة أن تصوب مفاهيم الأطفال الخاطئة، وتكــون عندهم مفاهيم صحيحة عــن العــالم المحيط بهم، عــن طريق العمل وفحص المحسوسات، لأن القدرة على التعلم النظري تتطلب القدرة على التفكير المجرد.

ولا يستطيع الأطفال، قبل نهاية الطفولة الثانيــة، اكتســاب القــدرة علــى استعمال الألفــاظ المجــردة وإبــراز العلاقــات بين الأفــكار المختلفة والتعبير عــن أوجه الشبه والاختلاف بينها.

قامت دراسات عديدة، في أوروبا وأمريكا، لتحديد مفــردات الأطفال في مراحل النمو المختلفة. ومن أوسع التجارب في هذا المجال مــا قام به سمث الذي وجد أن تقدم الطفل في الكلام يكون سريعاً جداً في الفترة الأولى من بدء تكلمه، وتكــون حصيلته اللغوية في السنة الأولى من حياته، ثلاث كلمات فقط، وتصل في السنة الثالثة إلى ٨٩٦ كلمة ، وفي السنة السادسة إلى ٢٥٦٢ كلمة.

وقال سمث: إن نمو المفردات عند الطفل يختلف باختلاف محيــط أسرته والظروف التربوية التي تُهيأ له في المنزل والمدرسة. أما «تيرمان» فقد قدر عــدد المفردات اللغوية، ابتــداءً مــن السنة الثامنة مــن العمر على النحو التالي:

العمر بالسنوات	معدل المفردات
٨	٣٦٠٠ كلمة
١٠	٥٤٠٠ كلمة
١٢	٧٢٠٠ كلمة
١٤	٩٠٠٠ كلمة
١٦	١١٧٠٠ كلمة
١٨	١٣٥٠٠ كلمة

ومهما يكن من أمر فإن من الصعب جداً أن نعرف بصورة دقيقة الكلمات التي يتألف منها قاموس كل شخص، وقد اشتغل كل من «ثورندايك» و«تيرمــان» و«بياجيه» وكثيرون آخرون، في هذه المسألة، غير أن النتائج التي توصلــوا إليهــا لا تعدو أن تكــون تقديرات عامة في معظم الأحوال.

لا نستطيــع أن نزعــم أن نتائــج تلــك التجــارب والدراسات تمثل نمــو مفردات الأطفال في بلادنا نظراً لاختلاف الظروف والبيئات، لكنها على كل حال، تعطينا فكرة تقريبية عن تطور المفردات التي يستخدمها الطفل في مراحل نموه المختلفة، كما تبين لنا أن الطفل، قبل التحاقه بالمدرسة، قد يتمتع

بــثروة لغوية جيدة يجب أن يعمل المعلم على تنميتها وإغنائها باستمرار، وأن يبذل جهده لتصحيح ما عند هذا الطفل من أخطاء في اللفظ أو في المعنى.

يُرجع علماء النفس والمربون التفاوت بين الأطفال، من حيث الــثروة اللغوية ومستوى نمــو المهــارات اللغوية عندهــم إلى عوامل عديدة منها:

- المستوى العقلي للطفل:

فالأطفال الأذكياء يتكلمون قبل أترابهم متوسطي الذكاء.

- العوامل الفيزيولوجية:

كما هي الحال عنــد الأطفال المصابين بعاهات سمعية أو عيوب في أعضاء النطق.

- عوامل الجنس:

من المؤكد أن البنت تسبق الصبي، الذي يماثلها في العمر، في النمو اللغوي.

- عامل السن:

إذ كلما ارتقى الطفل بعمره ارتفع مستواه اللغوي لعلاقة السن بالنضج.

وأخــيراً هنــاك عامل هام جــداً يلعب دوراً بعيــد الأثــر في هذا المجــال، ألا وهو محيط الطفل ومستــوى أسرته الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتربوي.

وهنا نحب أن نشير إلى نقطة هامة جداً وهي أن التعبير الشفهــي سهل على الطفل في المدرســة بالقياس مع التعبــير الكتابي، لهــذا نجــد أن مناهج المدرســة في مرحلة التعليم الأساسي تعتني في الصفوف الثلاث الأولى بالتعبير الشفهي، ثم تتدرج مع الطفل في التعبــير الكتابــي من الجمــل القصيرة والعبارات المقتضبة النافعة إلى الموضوعات المطولــة، وتلح هذه المناهــج على أن يجعل المعلم هــذه الموضوعات منتزعــة من واقع التلاميذ، ودائرة حول خبراتهم، وتشترط أن يكون المعلم مشجعــاً لتلاميذه، حكيماً عند تصحيح أخطائهــم، كي لا يجعلهم يشعرون بالإخفاق والإحباط أو بكره درس التعبير.

وثمة ملاحظة أخرى تنتج عن الملاحظة السابقــة وتتلخــص فيمــا يلــي: يظهر أن البحوث الحديثة التي جرت لتعيين المفردات تبين أن أطفال المدارســ يعرفون عدداً من المفــردات أكبر جداً مما كان يظــن سابقاً، ففي الدراســات التي تم فيهــا اختبار ٤٤ طفلاً ظهر أن الكلمات التي يعرفها الأطفال تتراوح ما بين «٦٠٠٠» كلمة و«٤٨٠٠٠» كلمة «وأن هذه الكلمــات، في الصف الثاني عشر تتراوح ما بين «٣٦٧٠٠» كلمة أو «١٣٦٥٠٠» كلمة. والمعدل الوسطي «٨٠٣٠٠» كلمة.

ورغم أن تعلم عدد كبير من المفردات يعد

من أهم واجبات الطالب وأن الواجب الأهم يزداد فهماً لمعاني الكلمات التي يعرفها من قبل، إن العدد الكبير من آلاف الكلمات التي لا يعرف منها سوى معانيها الغامضة لا يزيد في قدرتـه على التفكير والمحاكمة إلا قليلاً، لذلك كانت مشكلة العناية باللفظ «حفظ الكلمات فقط من غير إتقان الأفكار» شغل المدرسين الشاغل، ولاسيما أولئك الذين يدرسون في المدارس الثانوية وفي الجامعات. إن الطلاب يحتاجون إلى التعلم من أجل الفهم أكثر من حاجتهم إلى التعليم أو أي شيء آخر.

ويتيسر الفهم بالمخزون الثقافي والانتباه للأفكار، وليس لتكرار الكلمات فقط. إن ما تقدم يقودنا إلى مسألة نمو المفاهيم اللغوية الذي يعد من أهم مظاهر النمو العقلي، والمفهوم هو فكرة عامة تشمل كل ما يمكن أن يوحيه للفرد إحدى الأشياء أو الرموز أو المواقف. والرمز اللفظي، الذي يمثل إحدى المفاهيم لا تنحصر دلالته في شيء خاص بعينه، بل تتناول عدداً كبيراً من الأشياء. وتتخذ مفاهيم الأطفال الأولى، على العموم، شكل وجه الشبه في الحجم العام أو مجمل الشيء.

وتتألف لغة الطفل الأولى من أسماء، وما إن يستعمل الاسم للدلالة على أكثر من شيء واحد، من جنس واحد، حتى يكون هذا الاسم قد اتخذ الإطار العام للمفهوم. والأسماء المجردة تنمو في مرحلة ثانية، لكنها أصعب من الأسماء المحسوسة تحولاً إلى مفاهيم.

وقد قام «بياجيه» بكثير من التجارب على نمو التفكير بالمفاهيم لدى الأطفال، وكرر أن المفاهيم تتكون في الطفولة الأولى، ووجد أن الأطفال الصغار يفكرون بالأشياء ذاتها والأشخاص أنفسهم والحوادث عينها، ولا يفكرون بالخصائص التي تشترك فيها هذه الأشياء أو الأشخاص أو الحوادث.

وبعبارة أخرى هم يفكرون بالأفراد لا بالمجموعات أو الفئات، لذلك يجدون التعميم صعباً، وهم لا يكتسبون القابلية على إدراك العناصر المشتركة وعلى تكوين المفاهيم الصحيحة إلا عندما يأخذون في النضج. ورغم إن تأليف المفاهيم قد يبدأ بصورة بدائية في الطفولة الأولى فإننا نلاحظ إن الفرد لا يستطيع، على العموم، إنماء الأفكار الأكثر تعقيداً وتجريداً إلا في مرحلة متأخرة جداً. لذا كانت مفاهيم مثل: الإحسان والديمقراطية والكبرياء والمروءة... وأمثالها لا تعني شيئاً إلا قليلاً للأطفال

الذين يملكون عمــراً عقلياً دون الثانية عشرة أو الثالثــة عشرة. لكن عملية التعلم بالمفاهيم، ســواء كانت بدائية أو معقــدة جداً تعد جزءاً هاماً ودائماً تقريباً من تربية الفرد وتعليمه في جميع المراحل: من السنوات التي تسبق المدرسة الابتدائية إلى الدراسة العليا في الجامعة.

المراجع :

- آرثــر غنيتــس (وآخــرون): علم النفس التربــوي. الكتاب الثاني. مكتبة النهضــة المصرية. القاهرة (١٩٥٤).
- أبو رية، جمال: «ثقافة الطفل العربي»، دار المعارف، «سلسلة كتابك»، القاهرة، ١٩٧٨.
- أبو موسى، د.أحمد: «الطفل في النثر الفني السوري»، دمشق، ١٩٨٦.
- أبوهيف، د.عبدالله: «التنمية الثقافية للطفل العربي»، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١.
- الشماع، صالح: «ارتقاء اللغة عند الطفل»، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢.
- الفيصل، سمر روحي: «قصص الأطفال في المدرسة الابتدائية السورية»، د.ت.
- جعفــر، د.عبــد الرزاق: «المربــي السوفياتي مكارنكو». رسالة جامعيــة (١٩٥٦). «الحكاية الساحرة»، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٥.
- شرايحة، هيفاء: «أدب الأطفال ومكتباتهم»، مركز هيا الثقافي، عمان، ١٩٧٨.
- صالح، علي: «لغة الاتصال ووسائل الإعلام»، الكويت، ١٩٨٠.
- عالم الفكر (مجلة): عدد خاص بالطفولة، الكويت، ١٩٧٩.
- عبــد المنعم الزيــادي: بين الطفولة والمراهقة (طريقك إلى السعــادة. سلسلة سيكولوجية) الشركة العربية للطباعة والنشر. مطبعة مصر. الطبعة الأولى أيلول /١٩٥٧/.
- عــدة مؤلفــين: «استراتيجيــة تطوير التربية العربيــة»، المنظمة العربية للتربيــة والثقافة والعلوم، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلام، ليبيا، ط١، ١٩٧٩.
- فئــة مــن المدرســين: أصــول التربيــة وعلــم النفــس. الجــزء الأول. ١٩٦٥-١٩٦٦. مطبعــة الإنشاء. دمشق.
- كراسات هيئة التدريب المركزية لطلائع البعث.
- واريــن، أوســتن (ورينيه ويليــك): «نظرية الأدب»، ترجمة د.محي الديــن صبحي ومراجعة د.حسام الخطيب، منشورات المجلس الأعلى لرعاية العلوم والفنون والآداب، دمشق، ١٩٧٢.
- ويلسن، ن. بوتر: التربية وسيكولوجيا الطفل ط٢ ترجمة أديب يوسف. المطبعة التعاونية بدمشق (١٩٥٨).









ستيفن فيليبس وإشكالية العواطف والأخلاق

د. غالب سمعان ❊

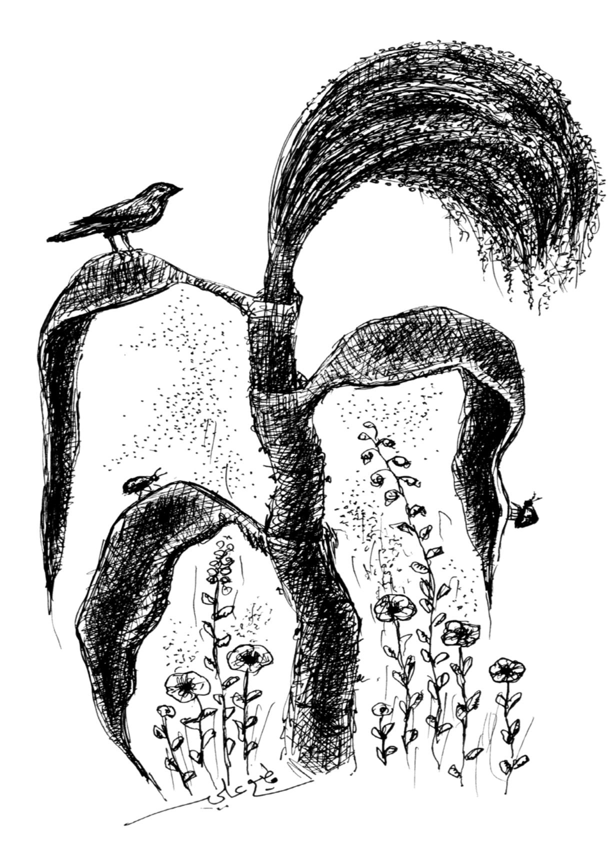
يتطـرَّق الكاتب الإنكليزي ستيفن فيليبس (١٨٦٤-١٩١٦) Stephen Phillips في مسرحيته (باولو وفرانتشيسكا) إلى حكاية الحبِّ العميقة التي ربطت بينهما، ووحَّدت بـين مصيريهما، في هذه الحياة، وفي الحياة ما بعد المـوت، والواقع أنهما نموذجان أخلاقيَّان، ينتميان إلى مقياس الخير والشر، غير أنهمـا يحكّمـان العاطفة على حسـاب العقل، ويستجيبـان للإغراء، ويعترفـان بأن لقاءهما، وانفرادهما معا، خطيئة أخلاقية تستوجب العقاب.

❊ كاتب سوري

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

ومما هو معروف عن هذا الكاتب الإنكليزي، إبداعاته الشعريــة التي لاقت رواجا كبيرا، وجملة مسرحياته التــي تضمَّنت بالإضافة إلى (باولو وفرانتشيســكا) كلا من (نيرون) و(أوليسيســ) و(خطيئــة داود) و(هــيرود: تراجيديــة). وكان الشاعــر الإيطالي دانتي أليجيــيري (١٢٦٥-١٣٢١) Dante Alighieri قد أشــار إلى هذين العاشقين في مؤلفه (الكوميدية الإلهية)، وتحديداً في الأنشــودة الخامســة من جزئهــا الأول أي (الجحيم)، ومنذ ذلــك الحين توقف أدباء، ومؤلفــون موسيقيــون كثــيرون، عند هذه الحكاية المؤثرة، ويبدو أن الكاتب الإنكليزي ستيفــن فيليبس قــد تأثر هــو الآخر، بما تنطــوي عليه هــذه الحادثة مــن عواطف جامحــة وأهــواء، لم يتمكَّــن الحبيبــان من كبحها، بل انساقا وراء الإغراء المتولد عنها، بالرغم مــن أن فرانتشيسكا متزوجة، ومن أن باولــو هو الأخ الأصغــر للزوج جوفاني، الأمــر الــذي أدى إلى مقتلهما على يد هذا الأخير، بعدمــا ضبطهما معاً. ومما يتصف به هذا الزوج افتقاره للجمال، وخشونته في بعض الأحيان، والأهم من هذا أنه أكبر سنا مــن فرانتشيسكا بكثير، وأن الــزواج لم يتمَّ بناء على موافقتهــا القلبية الخالصة، وأما باولــو فإنه شــاب أقرب إلى سنهــا، وأكثر جمالا من أخيه. والمأثور عن دانتي تعاطفه مع هذين العاشقين، وتوقفه في مكانهما من (الجحيــم)، واستماعــه لحكايــة حبهما، وكيفية وقوعهما في شرك الخطيئة، إكراما لهمــا، وهــذا التعاطف يقوم علــى حساب تعاطفه مع الزوج الــذي أقدم على قتلهما، صونــا لكرامته وشرفــه، وبالرغــم من أن «الأنشــودة الخامسة» تتوقــف عند أولئك الذيــن غلَّبوا العاطفة على العقل، وانساقوا وراء شهواتهــم وملذاتهــم، فــإن الشاعــر الإيطالي يعتبر خطيئة «باولو وفرانتشيسكا» أقــلَّ خطــورة، وربما أمكن اعتبــار موقفه صائبــاً، بالنظــر إلى أن العاشقين يمتلكان حسَّا أخلاقياً ناجزاً، ويعترفان بخطيئتهما، ويتقبــلان كلَّ مــا حــلَّ بهما مــن عقاب، وعزاؤهمــا أنهمــا باقيان معــاً إلى الأبد، بالرغــم من عذابهما الذي لا أمل في توقفه وانتهائه، وبالطبع هناك فارق، بين أن يكون المــرء أخلاقيــا، وواقعا في حيِّــز الرذيلة، وعالما أنه ملعــون، دون أمل في النجاة، وأن يكــون، باعترافه، غــير أخلاقــي في أدائه الحياتــي، الذي يعتــبره بوهيميًّــا طبيعيًّا، كالشاعــر الفرنسي شــارل بودلير (١٨٢١-١٨٦٧) Charles Baudelaire وأن

يترافــق أداؤه اللاأخلاقي، مع اعتقادات غير إيمانية، وهو ما يعني أنه استطــاع الخروج من نطــاق الرذيلــة والتطهــر والفضيلــة، بالمعنــى المألوف، وأصبح مصيره في العالم الآخر، إشكالية مبهمة. وبالرغم من أن جــبران خليل جــبران (١٨٨٣-١٩٣١) اعتــاد الانفــراد مــع حبيبتــه سلمــى كرامــة، بعد زواجهــا مــن رجــل منتكــس الأخــلاق، بعيــدا عــن أنظار المتطفلين، على ما يرويه لنا في كتابه (الأجنحة المتكسِّرة)، فإن حبَّهما بقــي روحيًّا، ولم يتجاوز الــروح إلى الأحاسيس ومتعها، إلا قليــلا جدا، ومــا من شيء يمنــع من ناحيــة عمليــة، اندفاعهما وراء الأحاسيــس ومتعها، أو تجاوزهما لمعطياتها روحيّــا، انطلاقــا مــن أنهما ينفــران من الحواســ، ويتطلعان إلى عالم الروح، وجبران خليل جبران اندفع وراء الرغبوية الشهوانية أثنــاء حياته، ولم يتطرَّق إليهــا في كتاباتها، وهــو ما يعني أنــه أسقطها مــن حساباته، باعتباره كائنــا روحيّا، مكــين التكوين من



الناحية الروحيــة، وبالرغم من كل ما يقال عن عظمة هذا الكاتب الصوفي، فإن القارئ يشعر بقدر مــن الخداع، عندمــا يعلم أنه انساق وراء الرغبوية الشهوانية أثناء حياته، في أحيــان كثيرة أو قليلة، ولا يشعر أن كاتبا كالروائــي السوري حيدر حيدر، قد خدعه، فقــد صــوَّر الحياة ومــا فيهــا، والحوافز البشريــة الطبيعية، وتطــرَّق إلى الرغبوية الشهوانيــة، وفي الوقت ذاته، دافع عن المتع

الدنيويــة، وعن الحريــة والطوباوية، التي تعني بناء عالم نظيف من النواقص والأدران. وفي مسرحيــة (باولــو وفرانتشيسكا) يشعر العاشقــان كلاهما، بأنهمــا سائران باتجاه الوقوع في شرك الإغــراء، وما يستتبع ذلك من خطيئة تستوجب العقاب، وهما يحاولان الفرار من قدرهما المشؤوم، ومما يفكر فيه باولو، درءا للمعصيــة، وخيانة أخيه الأمير جوفاني، الذي وثق ثقة شاملة بإخلاصه له، الابتعاد عن الأســرة، والسفر خارج المدينة، أو الإقدام على الانتحــار، أما فرانتشيسكا فإنهــا تتودَّد إلى زوجها لئلا يتركها وحدها، وهي تسأله عن أخبــار القتال الدائر، وعن إمكانيــة اضطــراره لمواصلــة المعارك ضد خصومــه، وكل هــذا خوفــا مــن إمكانية إقدامهــا على قبول الانفراد بحبيبها باولو. والإغراء هنــا مرتبط بالجمــال والشباب والحواس، والعاشقــان يفشلان في مقاومة انجــذاب كل منهما إلى الآخــر، ويسقطان، وثمــة صراع أخلاقي لــدى كل منهما، وهو صــراع عنيــف يهــدف إلى كبــح الدافــع السيكولوجي، الــذي يقودهما إلى الخطيئة والتهلكــة، والواقع أن الأمثلــة الزهدية في العــالم، تفترضــ قيام صــراع أخلاقي، بين الدوافع البشرية، والأخلاقيَّات الكابحة لها،

وهــذه النوعية من الصــراع، تميِّز النماذج السيكولوجيــة الأخلاقيــة، الواقعــة داخل ثنائيــة الخير والشــر، وفي ديوانــه (همس الجفــون) وتحت عنوان «العــراك» يفترض الكاتب الصــوفي اللبنــاني ميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨) أن الطبيعة البشرية تنطوي على إمكانية قيام صراع أخلاقي، يستبطنها مــن الداخل، بين الملاك والشيطان، أي بين قيمتــي الخــير والشــر، ووفــق الفيلسوف الألمــاني فريدريك نيتشــة (١٨٤٤-١٩٠٠) Friedrich Nietzsche فــإن هــذه الطبيعة البشرية، التي تنتمــي إليها أكثريَّة سكان العــالم، غير سليمة بالضــرورة. ومن منظور عقلاني، فإن ما وقع، يقدِّم انطباعاً بــأن هذيــن العاشقين قد أحــبَّ كل منهما الآخر، حبا عاطفيــا شهوانيا عظيما جدا، وأنهمــا توحَّــدا مــع الشهوانيــة الحسية، وانتفت لــدى كليهمــا، إمكانيــات التقدم باتجاه الحقائــق الأخلاقيــة الروحية، أي أنهما افتقدا القدرة على إنجاز تقدم روحي ماورائــي سماوي، أو سقراطي أو أفلاطوني أو أفلوطينــي، وبالرغم من هــذا كله، فإن الإصرار على إلقائهمــا في جهنم الحمراء، ينطوي علــى عداء للأحاسيســ، والدوافع البشريــة الطبيعية، وعندما يطلع المرء على

رواية (صورة دوريان غراي) للكاتب الأيرلندي أوسكار وايلد (١٨٥٤-١٩٠٠) Oscar Wilde أو على مسرحية (ماكبث) للكاتب الإنكليزي وليم شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦) William Shakespeare فإنه يتفهَّم معنى أن يفشل البطلان دوريان غراي، وماكبث، في الفرار من حالة الالتصاق أو التوحُّد مع الشر الكلي، وأن يكونا ممن شاءت الأقدار أن يُعانيا العذاب الأبدي في جهنم الحمراء، أما «باولو وفرانتشيسكا» فإنهما أقل ميلا إلى ارتكاب ما يُدعى بالشر أو الرذيلة منهما، وربما انطوى أداؤهما على فضيلة ما. ومن ناحية أخرى، فإن هناك من الأدباء من اختبر حالة أقرب ما تكون إلى التوحُّد مع الشر، وإلى التوحُّد مع الخير، كأبي نواس العباسي (٧٦٢-٨١٣) وأوسكار وايلد الفيكتوري، وأكثر من هذا، فإن انطواءهم على الشر، وانصرافهم إليه، أمكنهم في الواقع من الانطواء على الخير، وانطلاقهم باتجاهه، وهذه الحقيقة تعني فيما تعني، أن «باولو وفرانتشيسكا» قد أنجزا بالرغم من كل شيء، قدرا محددا من الارتقاء الروحي. وفي بداية (الكوميدية الإلهية) يشعر دانتي أليجييري بأنه ضائع في غابة مظلمة، ويلمح نورا على أعلى التل أمامه، وعندما يبدأ تسلقه، تعترضه وحوش ثلاثة، ترمز إلى الكبرياء والشهوة والجشع، وتعرقل انتقاله من حيز الرذيلة إلى حيز الفضيلة، وهنا يتدخل الشاعر الروماني الأخلاقي الماورائي فيرجيل (٧٠-١٩ ق. م.) Virgil وينتشله من ورطته، ويقوده عبر طبقات الجحيم والمطهر، حيث يلتقي حبيبته وملهمته بياتريتشي، ويواصل معها الرحلة عبر طبقات الفردوس، إلى أن ينتهي برؤية النور الإلهي، والانطواء التام على حالة المعرفة والفضيلة، وهذه الحقائق تعني أن الفكر الأخلاقي الماورائي الزهدي، يتضمن في الواقع «الجحيم والمطهر والفردوس» ومن الناحية الواقعية، وبصرف النظر عن أية اعتبارات أو اعتقادات ماورائية، فإن كلَّ من يختبر الرذيلة، ويتطهَّر منها، ويقدر على إدراك الفضيلة، ينتمي إلى هذا النظام المعرفي، وهذه الظاهرة موجودة في حياة أدباء عالميين، كليون تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠) Leo Tolstoy. ويبدو أن كتابا كالإنكليزي وليم شكسبير، قد تفوقوا على هؤلاء الأدباء، لمجرَّد أنهم كانوا أعظم من أن يتورطوا فيما يدعى بالرذيلة، وأن يتطهروا، ويتمكنوا أخيرا، من إدراك

الفضيلـــة، ويبـــدو أن الفـــارق الوحيد بين دانتي أليجيـــيري، وكل من العاشقين «باولو وفرانتشيسكا» إنما يقتصر على انتقاله من الجحيـــم إلى المطهـــر والفردوس، في حين أنهما لم يتمكّنا من تجـــاوز الجحيم، ويبقى أن المشـــروع الذي أنجـــزه الشاعر الإيطالي بالرغـــم من عظمته، من منظور سيكولوجي أخلاقي، ماورائي شعبي، يُعاني من نواقص معينة، فقد تطلـــب مجهودا أخلاقيا جبارا، أي أن الميـــل إلى اقتراف الرذيلة، يبقى ميلا جبـــارا، هو الآخر، في مثل هذه الحال، التي تذكِّر بالنمـــاذج السيكولوجيـــة الأخلاقية، كالشاعر اليوناني القديم هيزيود Hesiod على أن الفيلســـوف الرواقي سينيكا (٤ ق. م.-٦٥) Seneca أقـــرَّ بـــأن الانتقـــال من الرذيلة إلى الفضيلة شأنٌ ينبغي له أن يكون يسيرا، وحبَّذا لـــو استطاع الناس أن يكونوا كأبي العـــلاء المعـــري (٩٧٣-١٠٥٨) الذي اتصف بالفضيلة، وبـــدت إمكانية انحداره باتجـــاه الرذيلة غير قائمة أبـــدا، وأكثر من هذا، فإن مفاهيمه الأخلاقية بدت متطورة، وأرقى مما لـــدى دانتي أليجيـــيري، وليون تولستوي، وأضرابهمـــا. وربما أمكن اعتبار الشاعـــر الإنكليـــزي وليم بليـــك (١٧٥٧-١٨٢٧) William Blake ممـــن ينتمـــون إلى النوعية البشرية التي انتمى إليها دانتي أليجيـــيري، ففـــي ديوانـــه (أغـــاني البراءة والخبرة) يعتـــبر أن البراءة في مطلع الحياة، قائمـــة في الطبيعة البشرية، وأنها على قدر مـــن الهشاشـــة، الـــذي يمنعها مـــن البقاء والاستمرارية، وهكذا فإن الاندفاع في طور الخبرة، ومـــا يرافقه من مُعاينة الرذائل، في العـــالم الواقعي الـــبرَّاني، والواقعي الجوَّاني للإنسان، يفسح المجال أمام إمكانية التقدم باتجـــاه إدراك نوعيـــة من الـــبراءة الأرقى، والأعظـــم شأناً. ومـــن الواضح في مسرحية (باولـــو وفرانتشيسكا) أن هذه المرأة عاشت في الطـــور الأول مـــن حياتهـــا، في أجـــواء أخلاقية طاهرة داخل الدير، واعتادت على الصلاة والغناء والتطريـــز، وعندما التقت باولو سقطت في طور الخبرة معه، ولم يقدرا أبداً على التحـــرر من إسار الحب الشهوي، الذي أسقطهما، وأقام بينهما رابطة أبدية. وممـــا امتدحـــه الشاعـــر الرومانتيكـــي الإنكليـــزي بيرسي شيلـــي (١٧٩٢-١٨٢٢) Percy Shelley في مؤلفه (إبيبسيكيدون) الحـــب العظيـــم، ســـواء أكان أفلاطونيا أم مُلتهبـــا، وهذه الحقيقة تطـــرح إمكانية أن يكون أمثـــال مجنون ليلى، ممن انطووا على رغبـــة ملتهبة، وغير قابلـــة كي تصبح واقعا

ملموسا. وبالإضافة إلى القصيدة المذكورة، كتب بيرسي شيلــي (جوليان ومادالو) وأبان فيها إشكالية الجنــون الناجمة عن الحب، عندما تطغــى العاطفة على العقل، دون أن يكــون الإغــراء الحســي، أي الرغبويــة الشهوانية، شأنا يستبطنها من الداخل، وفي جملة إبداعاتــه الشعرية، اعتقد بأن الحب يُكوِّن الإرادة الجوهرية، التي ينطوي عليها العــالم، وأنــه يدفــع الكائنــات والمظاهــر الطبيعية كلها، باتجــاه التلاقي، ويستنزف قواهــا، وأمام هذه الحال، يلفت الانتباه إلى أن العقــل السليــم، الــذي يعنــي إحــكام السيطرة علــى العاطفة، يدفع باتجاه حالة إنسانية جوانية أفضل. ومن قصائده الهامة التي تناولــت موضوعة «الحــب» قصيدته التــي حملت عنوان (فلسفــة الحب) وفيها يدعــو إلى تلاقــي المحبــين، الــذي يعني انتماءهــم إلى القانون الكوني المقدس، وثمة إشــارة حسيــة رغبوية في هــذه القصيدة، وفيهــا دليل على أنها تتجــاوز نماذج دانتي أليجيــري، التي اعترضت علــى الرغبوية الشهوانيــة تماما، وعلى افتراض أن النظام المعرفي الأفلاطــوني الذي اعتقد به بيرسي شيلــي، عمَّ العالم، وانتشر فيــه، فإن مصير «باولــو وفرانتشيسكا» لن يكــون في جهنم الحمراء، والواقــع أن اعتقاد بيرسي شيلي بــأن إرادة الحب تحرك العــالم، وتستبطنه، قد دفعت بــه في مؤلفاته كافة، إلى محاربة الطغيان والكراهيــة، وإلى الإشادة بالمثالية، والقيم الأخلاقية الرفيعة، دون أن يكون في دعواته الراديكاليــة الثورية، امتداح للعنف وإراقــة الدماء، وهو ما يتوافق مع ما انتهى إليــه الكتّاب كالروسي ليــون تولستوي، في روايته الهامة (الحــرب والسلم) فقد جعل العلاقات الاجتماعية والأسرية القائمة على أساس الحب، أعظــم من أية مطامح أنانية بشريــة، تدفع باتجاه الحــروب والسيطرة، وإراقــة الدمــاء، وهو يتوافــق أيضا مع ما انتهــى إليه باولو، عندمــا تخلى عن قيادة الفرقة العسكرية، واكتشف بأن الحب أثمن مــن أي أداء قتالي حربي، علــى أن بيرسي شيلي فيما يتعلق بالحب، انتهى إلى الانتقاص من قدر الشهوات، وهو ما يتوافق مع الفكر الأخلاقــي الماورائــي، ويبــدو أن الشاعر الرومــاني لوكريتيوســ (٩٦-٥٥ ق. م.) Lucretius الذي تبنى الفلسفة الأبيقورية، القائلة بأن المتعــة هي الخير، قد عانى من تلــك الإشكالية، التي تتغلــب فيها العاطفة على العقل، واقترح كيفيات معينة للخلاص مــن آلام الحب وأوجاعــه، على أنه لم يتنكر

أبـدا للشهوة، بالمعنـى الأخلاقي الماورائي، ومـا مـن شيء يمنـع أن يكـون تنظيره في عموميَّاتـه، إنجـازا فكريـا، وسيكولوجيا أخلاقيـا، بالمقارنـة مـع ما أعلنـه دانتي أليجييري، وما أدركـه بيرسي شيلي أخيراً. وإنـه لمن الغريـب أن يعتقد جـبران خليل جـبران بالحـب كالشاعر الإنكليـزي، وأن يهاجم الطغيان والكراهية، دون أدنى إشارة منـه إلى الرغبوية الشهوانيـة، بالرغم مما يقـال عن اندفاعـه وراءها، أثنـاء حياته، والواقـع أنـه روحـاني كبـير، وأن هـذه الروحانية ليست بالضـرورة شأنا إيجابيا، وهـي في أفضل الأحوال، تؤدي من الناحية الواقعيـة، إلى استنكار الرغبـة، والاحتفاء بها، كارتكاس لاستنكارهـا، أي إلى ظاهرة العلاقات الغرامية القائمة في الخفاء، وإلى تنظيمات اجتماعية فيكتورية، تعرقل ارتقاء الإنسـان، وممـا أعلنه الفيلسـوف الألماني فريدريـك نيتشـة (١٨٤٤-١٩٠٠) Friedrich Nietzsche أنـه يفضـل أن يكـون شهوانيا، على أن يكـون قديساً، وإنه لمـن الواضح أن جبران خليل جبران قد أقام تفرقـة كـبرى أو انفصامـا، بـين الدوافع الجسدية، والتطلعـات الروحية المتسامية، وأنه أسقط الرغبويـة الشهوانية من حياته الوجدانية، حتى عندمـا تكون واقعا ذاتيا، لا يود الاعتراف بـه أبدا، وفي كل الأحوال، فإن أداءه يتفق مع تطلعات الرواد الروحيين، الذين أنكـروا الحواس، واعترفـوا بالروح وحدها. وإن الاعتراف بالحواس ومتطلباتها، والمتع المتولـدة عنها، يدفع باتجـاه اعتبار «باولـو وفرانتشيسـكا» في مرتبة أرقى من تلـك التـي أدركها جـبران خليـل جبران، وأمثاله، ممن أرادوا التنكر للكيان الإنساني الحسي، وللدنيـا، ومكوناتها الواقعية. وفي هـذا السياق، اعتبر الشاعر الفرنسي ألفرد دو موسيـه (١٨١٠-١٨٥٧) الحـب عاطفة إنسانية سامية، واعترف بالشهوة، واستبعد حالـة القداسـة، بالمعنى الـذي يأتي على الشهوة تماما، وينفيها، وكمثله فعل الشاعر اللبنـاني إيليا أبو ماضـي (١٨٨٩-١٩٥٧) عندما أقـرَّ عاطفة الحـب، والشهوة التي تستبطنهـا. وعلـى خـلاف «باولـو وفرانتشيسكا» فإن الراهب أناندا والمنبوذة براكريتـي في مسرحيـة (المنبـوذة) للكاتب الهندي رابندرانات طاغور (١٨٦١-١٩٤١) Rabindranath Tagore ينجحـان في اجتيـاز امتحان الإغـراء، ولا يسقطان في الخطيئـة، سقوطـا تامـا، وثمـة توصيف للمعانـاة الناجمة عن الصراع السيكولوجي

الأخلاقي الجواني، مــن مثل امتقاع الوجه واكفهــراره، وامتلائــه بالأســى والحــزن واليأســ، أو شحوبه نتيجــة للألم والمخاوف الكبيرة. وفي هــذه المسرحية تطالعنا طائفة مــن المفاهيــم الأخلاقيــة الماورائية، ذات الحضــور الفاعــل في الــذات البشريــة، فالنماذج البشرية المذكورة، والمتمثلة في الأم وابنتها براكريتــي، والراهب البوذي أناندا، تعــترف بكل تلــك المفاهيم، اعترافــا قلبياً شاملاً، وهــي تنطوي عليهــا، وتتخذ منها دليــلاً يقودهــا في رحلة الحيــاة. والمنبوذة براكريتــي، تنتمي إلى الطبقــة الدنيا، وفق التقسيم الهندوســي للطبقات الاجتماعية، وهو ما يعنــي اقترافها الآثام في حياتها، أو حيواتها السابقة، وعودة انبعاثها في الحياة كي تتطهر من ذنوبها، وهي تحيا مع والدتها حيــاة عاديــة، غير أنهــا تتمــرد في قرارة نفسهــا، على واقعها الأليــم، وتتوق للتحرر من فكــرة كونها منبــوذة، وكانــت الديانة البوذية قد اعتبرت البشر متساوين، وأبطلت نظام الطبقات، غير أنهــا أبقت على فكرة الذنــوب، وضــرورة التطهر منهــا، وفكرة تناســخ الأرواح، وإمكانية العودة إلى الحياة الدنيــا، المرتبطة بالمعاناة، حتى يتمكن المرء من التطهــر مــن ذنوبه، وعندهــا يحدث الانطفــاء، ويصــل إلى مرحلــة النيرفانــا Nirvana. وإن لقــاء براكريتي مع الراهب البوذي أناندا، ومخاطبتــه إياها، وإكرامها، ودعوتهــا إلى تجنــب استهانتهــا بنفسها، يجعلهــا على حد تعبيرها، تتحرر من إرثها، الذي أورثها الألم، وسبَّب لها معاناة أكبر مما تقدر علــى احتمالــه، ولا تتوقف تداعيات لقائها بالراهب عند هذا الحد، إذ إنها تقع في غرامــه، ويقع هــو الآخــر في غرامها، ووفــق المفاهيم التي تعرضها المسرحية، يتم توصيف الحدث على المستوى السيكولوجي الأخلاقــي، بأنــه استجابة لنــداء الرغبة، واستسلام مطــرد أمام الإغــراء، وانحدار باتجاه الخطــأ الأخلاقي، واحتداد المعاناة، ويبــدو أن استجابة براكريتــي للرغبة التي تحركها من الداخــل، تمَّت على حساب أي تدخــل فاعل من الأخلاق، التي تلعب الدور الكابــح في مثل هذه الأحوال، وحتى يتم لها مبتغاها المتمثل في استجابة الراهب أناندا، وخضوعــه للإغــراء، واستسلامــه أمــام مفاتنهــا، ورغباتهمــا المضطرمــة، فإنهــا تطالــب أمهــا ذات البنيــان الأخلاقــي التقليــدي، بأن تتدخل، وتحــاول استخدام تعاويذهــا، والسحــر الذي أتقنــت فنونه، قصد التأثير على أناندا، وإنزاله من عليائه،

وإجبـاره علـى الاستسلام للإغـراء، وهو يدخل في صـراع ذي طبيعة أخلاقية، وثمة توصيف للحـال التي يكـون عليها، عندما تكـون أخلاقـه قـادرة على كبـح الرغبة، كالإشـراق والضياء، أو عندما تكون الرغبة علـى وشك الانتصـار، وتحييـد الأخلاق جانبا، من مثل الأسى واليأس والألم العميق. وفي نهايـة المسرحيـة يتمكـن أخـيراً، من الانتصار على الشهوة التي ألمَّت به، وهددت حياتـه الروحيـة، تهديـدا مباشـرا، وهو يستعين ببـوذا، ويتمكن بعونـه من اجتياز امتحان الإغـراء الذي مرَّ بـه، وبراكريتي تتراجع هـي الأخرى، وتعترف بأنها اقترفت إثما، وهـي تفرح لأنها لم تقـع مع الراهب أنانـدا في الخطيئة، أما أمهـا فإنها تلقى حتفها، لأنهـا استخدمت التعاويذ والسحر، كي تصرف الراهب عـن صرامته وتنسكه، وبراكريتـي تفضل الراهـب أناندا على بن الملك الصياد، الذي أحبها، وأغراه جمالها، لأن التركيـز هنا على الجمـال والحواس، وليس على الأخـلاق أو الجمال الأخلاقي، ومع ذلك فإن هذه الظواهر لا يتم تجاوزها لدى توصيف العلاقـة الناشئة مع الراهب، فالجمـال والحواس والإغـراء تظل فاعلة، وفي نهايـة الأمـر يبـدو أن البطلـة قـد احتفظـت بـكل الموروثـات الأخلاقيـة الماورائيـة، وأنهـا حققت تقدُّمـا طفيفا، عندما تجـاوزت إمكانية استهانتها بنفسها، وشعورهـا الدائـم بأنها تنتمـي إلى طبقة موسومـة بالنجاسة والخطيئة، التي تتطلب التكفـير الدائم عنها. وبالرغم من أنه كاتب تحرري، فإن هنري إبسـن (١٨٢٨-١٩٠٦) Henrik Ibsen في النرويـج، يصـف في مسرحيته (بيت آل روزمر) العلاقة الغرامية الناشئة بين البطل روزمر التحرري، والبطلة ربيـكا التي تتصرف بطريقة تحررية أيضا، ويُهاجم الشهوة، وإمكانيـة تغلب العواطف والأهـواء على العقل، وهو ما يعني أن اتباع التيـارات التحررية كاعتقادات، كروزمر، أو كأداء سلوكي، كربيكا، أو كاعتقادات، وكأداء سلوكي، كهنري إبسن، غير قادرة في الواقع، وبالرغم مـن ادعاءاتها، علـى إحداث أي تغيـير في المفاهيـم الأخلاقيـة الماورائية المألوفة، وهو ما ينتقص من قيمة إبداعاتها، إلى درجة معينـة. وفي الاصحاح الرابع من (إنجيل يوحنا) يلتقي السيد المسيح Jesus Christ بامرأة زانية في السامرة، في الوقت الذي يكون فيه تلاميذه غائبين عن الأنظار، وهـو يحدثها عـن استسلامهـا للشهوات الحسية، أو مـا يدعى بالمتع الدنيوية، وعن

الارتقاء الروحي، ومملكة الله الروحية الماورائية، التي تتعارض وتتنافر مع الدوافع البشرية، وأخيرا يتمكن من إقناعها بأن أداءها غير أخلاقي، وأمام اكتشافها لما ينطوي عليه حديثه من معرفة روحية، فإنها تقرر أنه نبي، وتصرِّح أمام الآخرين بأن هناك من استطاع إدراك مكنوناتها، وأنه لهذا السبب نبي، دون أدنى ريب، ومما يسترعي الانتباه بالفعل، أن يلتقي كائن روحي بآخر حسي، وأن يكتشف كل منهما حقيقة الآخر، دون أدنى قدر من المشقة. وفي كل الأحوال، يسعى البشر إلى الاستمتاع بالحياة الدنيا، وربما كانت المتعة، وإدراك القوة، الشيئين الوحيدين اللذين يُحرِّكان البشر، أثناء حياتهم على الأرض، وهذه الحقيقة تعني أن نماذج كطرفة بن العبد (٥٤٣-٥٦٩) الذي اعترف في الجاهلية بالمتعة، وبإرادة القوة، وكأبي الطيب المتنبي (٩١٥-٩٦٥) في العصر العباسي، الذي انطلق من الواقع، وانتهى به، واعترف أيضا بالمتعة، والقوة الأرستقراطية، الباعثة على متعة أسمى، من تلك التي اختبرها باولو وفرانتشيسكا، والراهب أناندا وبراكريتي، أكثر إدراكا للحقائق البشرية، وقدرة على إعلانها، وفي الوقت الذي ترافق فيه اعتراف طرفة بن العبد بالمتعة، باعتدال حقيقي، وباعتقادات لا تستلهم الماورائيات، ولا تستنكر الرغبوية الشهوانية، فإن اندفاع أبي نواس، وأوسكار وايلد، وراء المتعة، تجاوز الحدود، إلى درجة التوحد مع الشر الكلي، وترافق مع اعتقادات ماورائية سليمة. ومن ناحية أخرى، فإن كون نموذج المفكر الفرنسي جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨) Rousseau من الناحية السيكولوجية الأخلاقية، وبصورة عامة، أقرب ما يكون إلى نموذج أناندا وبراكريتي، وباولو وفرانتشيسكا، ليس شأنا باعثا على الارتياح، وهو يضع علامة استفهام أمام نوعية التنظير، الذي يستطيع تقديمه إلى العالم، أمثاله من المفكرين. ونحن في مسرحية الكاتب الهندي موجودون في حيِّز الرغبات والشهوات، والملذات الناجمة عنها، وبطريقة أو بأخرى، يتم اختزال الكائن البشري إلى مجرد رغبات، أي أنه كائن رغبوي بطبيعته، وفق هذه الرؤية الفكرية التي تحاول تفسير الحياة البشرية، ووضع منهاج يتخذه الناس دليلاً في رحلتهم الحياتية، والرغبة مرتبطة بالمعاناة، وليس فقط باللذة، وهي مرتبطة ارتباطا غير قابل للانفصام بالخطيئة، التي تتطلب

العقاب الإلهي، غير أن المسعى المتضمن نفي الرغبة، يحتاج إلى أن يدافع عن نفسه، وعن وجوده كمنظومة لها وجودها القوي في النفس البشرية، وطريقة الدفاع هذه تتلخص في إطلاق العنان للرغبات، مع الإبقاء على كل المفاهيم الأخلاقية، كالخطيئة والإثم، والثواب والعقاب، وهناك من الأدباء من دافعوا عن الإغراء دفاعا قويًّا، فالشاعر عمر أبو ريشة (١٩١٠-١٩٩٠) يمتدح معبد كاجوراو الهندي، وما فيه من تماثيل، تمثل الرغبات البشرية الجنسية، الطبيعية والخيالية والشاذة، وامتداحه هذا إنما هو امتداح للمسار الأخلاقي الماورائي، المتمحور حول الرغبة والمتعة، والذي اعتاد نفي الرغبات، أو إطلاق العنان لها، وتقديم خطاب ملتبس حول هذا الشأن، فالخطاب الرسمي يكافح الرغبات، أما الخطاب الآخر، وهو رسمي أيضا، في ظروف وأجواء معينة، فإنه يدعو إلى الاستسلام لها:

وشقية قيل اجتباها واصطفاها كاهنانْ
فتنتهما فتباريا في حبِّها يتناحرانْ
وتناسيا فيها هوى شيفا فما يتعبَّدان
فإذا هما مسخان في صدر الجدار مقيَّدان
والبدعة الحسناء بينهما تعض على البنان!
وذؤابتاها حيَّتان بجيدها مشدودتان
ومجال نهديها خضيب طوَّقته عقربان!

واللافت أن تجربة الكاهنين، والبدعة الحسناء، مماثلة للتجربة التي اختبرها «باولو وفرانتشيسكا» وهما كاهنان أيضا، وكل ما هنالك أنهما استسلما للرغبوية الشهوانية تماما، كالكاهنين الهنديين، ومرة أخرى، يبدو أن من يقترف هذه النوعية من الأخطاء، إنما هم المالكون للتكوين السيكولوجي الأخلاقي ذاته، وعلى افتراض أن هذا التكوين هو تكوين الإنسان في كل زمان ومكان، فالنتيجة التي تترتب عليه، تقتضي أن يكون أي كائن بشري كاهناً، في قرارة نفسه، والواقع أن النماذج التحررية، كالرومانتيكيين التحرريين في انكلترة، من أمثال لورد بايرون، وجون كيتس، وبيرسي شيلي، في مطالع القرن التاسع عشر، قد أحرزوا تقدما ما، عندما أسقطوا فكرة الخطيئة والإثم بدرجات متفاوتة، ومع ذلك فإن إمكانية تجاوزهم للطبيعة الكهنوتية، بدت غير يسيرة أبدا. ويبقى الشاعر الرومانتيكي عمر أبو ريشة نموذجا أخلاقيا ماورائيا، وفي أشعاره إصرار كبير على الرغبات والشهوات، وهو لا يستطيع تصوُّر القداسة، كنفي حقيقي للرغبة، وبالرغم

من هذا الفهم، فإنه استمر على ولائه التام للدين، وفيما يتعلق بالعاطفة والعقل، فإنه ذلك الشاعر الموجود تماما، في حيِّز القلب، وحتى عندما يكون هناك نفي للرغبات، فإننا نكون في حيز القلب، وليس العقل، أي أن دانتي أليجييري، وجبران خليل جبران، وبيرسي شيلي، ولوكريتيوس يجانبون الدقة، عندما يسمُّون هذه الحالة عقلا سليما، فالعقل هنا هو القلب ذاته، والواقع أن نموذجا كالفيلسوف الديني غوتاما بوذا Gautama Buddha (٥٦٣-٤٨٣ ق.م.) يبقى في كل الأحوال، داخل نطاق القلب في طوري حياته، التي اتصف الطور الأول منها بالانجراف وراء الشهوات والملذات، والطور الثاني بالتنسك والتأمل وقهر الرغبات، وإن انفصال العقل عن القلب واستقلاله، يهدد بالفعل، هذه المنظومة المعرفية، التي تركز على القلب البشري، ورغباته وشهواته، وهي ظاهرة يمكن رصدها لدى مفكرين كأبي العلاء المعري، الذي امتلك هو الآخر قلبا ومشاعر وعواطف عميقة، أي أن بروز العقل لا يترافق أبدا مع أي تراجع عاطفي، كما يتوهم البعض. ومما يفتقر إلى الصواب أن يصف عمر أبو ريشة تهربنا من رغباتنا وشهواتنا، والتزامنا بالأعراف الاجتماعية الأخلاقية، بأنه نوع من الجبن، وأن هذا التهرب وذاك الالتزام، هما الأقنعة التي نتخفى وراءها في حياتنا، غير أن جبران خليل جبران الذي انطلق على مسار كذاك الذي انطلق عليه غوتاما بوذا، وهدف إلى نفي الرغبات والشهوات، اعتبرها الأقنعة الحقيقية، وسعى جاهدا كي يتحرر منها، على ما أورده في خاطرة «المجنون» التي افتتح بها كتابه (المجنون) فالحقيقة هي الروح وحدها، وما عداها كله أقنعة، وهذه التناقضات قائمة في جوهر هذه المنظومة المعرفية، وهي تؤدي إلى سوءات فهم أبدية، وإلى مداولات لا تنتهي أبدا، فعمر أبو ريشة وهو نموذج أخلاقي ماورائي، ينساق وراء الدنيا، وأحمد الصافي النجفي (١٨٩٤-١٩٧٧) وهو أخلاقي ماورائي، يهجر المتع الدنيوية، وعلى الأتباع دائما أن يدفعوا ثمنا ما، وأشيع ما يتعرضون له، هو تجربة الحرمان العاطفي، فالتعاليم الأخلاقية المتداولة ترفض الرغبات والشهوات، وتجعل من الأخلاق نقيضا لها وكابحا، وفي قصيدة (معبد كاجوراو) الهامة يؤبِّد الشاعر المضمون الذي يقدِّمه المعبد الهندي، وهو يعتبر الانطلاق وراء الإغراء الدنيوي شجاعة وجرأة، أما مقارعتها وكبتها، فإنه

نوع من الجــبن، أي أن الاستجابة للإغراء، تعني إبعاد الأقنعة التي يتخفى وراءها المرء في حياتــه، وهو بهذا يكشف حقائق الحياة، ويجعلهــا في مكانة أرفع، أما رفض الإغراء فإنــه يــؤدي إلى امتهانها، وهــذا التصوُّر يتناقض مع ما يحدث في مسرحية (المنبوذة) فاستجابة الراهب أنانــدا للإغراء، يترافق مع امتهانــه لذاته، وانحداره، أما مقارعتها والانتصــار عليها، فإنه يترافــق مع ترفعه وتساميــه ومجده، وعمــر أبو ريشــة يُقدِّم تصوره بالرغم من أن «معبد كاجوراو» يُقدِّم صورة عن الإنسان في تدنيه وتساميه، وهذا التناقضــ الــذي يحكم المنطــق الأخلاقي العــربي، ينتمي إلى جوهــر هذا المنطق من الداخــل، وعادة ما يــؤدي إلى صراع ذاتي، فالموقف لا يرى نقيضه، باعتباره منتميا إلى المســار ذاته، وهو يدخل في صراع معه، لكنَّ من يقدر على النظر مــن خارج المسار، إلى كافة مُكوِّناته، سيكون بإمكانه رؤية المواقف المتناقضــة، منتمية كلهــا إلى المسار، أي إن امتداح الرغبات ورفضها، موقفان ينتميان إلى المســار ذاتــه، وإن نفــي الرغبــات أو الانطلاق وراءهــا، ينتميان أيضاً إلى المسار ذاتــه، وبــذا ليس ذلك الرجــل الذي نفى الرغبــات، إلى أن توصل إلى وأدها، والظفر بالنيرفانــا، بل هو أيضــاً ذلك الرجل الذي انطلق وراءها، في الطــور الأول من حياته.

ولقد حــاول دعاة كثيرون تقــديم النصائح المتعلقة بالتجارب، التي قد يتعرض لها المرء في حياتــه، والتي تجعلــه يقع تحت سيطرة الإغراء، والخطأ الأخلاقي، ومع ذلك فإنهم هم أنفسهم لم يتمكنوا من الالتزام بحكمتهم حتــى النهاية، ومما هو مأثــور عن الشاعر اليوناني القديم هيزيــود Hesiod وقوعه في غــرام امرأة شابة، بالرغم من تقدُّمه في السن، وبالرغــم من حكمته الأخلاقية التي نظمها شعرا في قصيدته (الأعمال والأيام)، وقيام إخوة الفتاة بالانتقام منه، وقتله، على مــا يرد في بعض الروايات، التي أشارت إلى سيرة حياته، وبالطبع فإن مثل هذه الحوادث مــا تزال ممكنة الوقوع دائمــاً. وكمثله فإن الفيلسوف الصيني كونفوشيوس (٥٥١-٤٧٩ ق.م.) اعــترف بمــا للإغراء مــن سلطان، واعتــبر الأخلاق كفيلة بإيقــاف الإغراءات الدنيويــة عند حدها، وعندما حاول تطبيق مشروعه الأخلاقــي في الولايات الصينية، اعتمد خصومه على النساء، وطاقتهن على الإغراء، وبالفعل تحققت أهدافهم، وفشلت محــاولات كونفوشيوســ لتطبيــق المبادئ الأخلاقيــة، ويبقــى هــذا الداعيــة، أمتن

كتكويــن سيكولوجي أخلاقــي زهدي، من هيزيود. والمــرء بالرغم من كل شيء، يشعر بالارتياح حيال تصرف الزوج جوفاني، الذي أقــدم على قتل زوجتــه العاشقة وعاشقها، الــذي هو أخوه باولو، أما أن يتمكن العاشق من قتل الــزوج، والاستئثــار بالزوجة، فهو ممــا يجعل المــرء يستشعر غيابــا للعدالة، بالرغــم من أن علاقة الحــب تكون عميقة بين العاشقــين، ومن ذلك مــا فعله البطل في روايــة (فاسينــوكان) للكاتــب الفرنسي أونوريــه دو بلزاك، عندمــا أقدم على قتل الزوج، الذي فاجــأه مع زوجته. ومن ناحية أخــرى، فإنه مما يدعو للأســف أن يطلب جوفاني إلى شقيقه الاعتنــاء بزوجته، دون أن يتنبَّــه إلى إمكانيــة وقوعهما في حبائل الغــرام، وكمثله فإن البطــل شارل في رواية (مــدام بوفاري) للكاتــب الفرنسي الواقعي جوستاف فلوبير (١٨٢١-١٨٨٠) Gustave Flaubert يطلــب إلى رودلــف الاعتنــاء بزوجتــه، وإخراجها من حالــة السأم التي ألمَّت بهــا، دون أن يتنبَّه إلى العلاقة الناشئة بينهما، ومما هو لافت أن الزوجة العاشقة، تبدأ حياتها في الدير، كالبطلة فرانتشيسكا، وأن عواطفها، وعواطف كل النماذج البشرية التي يعرضــ لها جوستــاف فلوبير، ليست سيكولوجية أخلاقيــة بالمعنى الموجود لدى دانتي أليجيــيري، وستيفن فيليبس، وهو ما يعني أن الطبيعة الأخلاقية الماورائية أخذت في التهرُّؤ مــن الداخل، دون أن تكون قادرة علــى تطوير ملكاتها، بــأي اتجاه ذي شأن. وإن اندفاع الإنسان وراء الإغراء، يترافق مع الانحدار والتــدني والإسفاف، أما اندفاعه وراء نفي الإغــراء، فإنه يترافق مع الكبرياء والتسامــي، لــدى النمــاذج السيكولوجية الأخلاقيــة الزهدية، المؤمنة أو غير المؤمنة، وبالرغــم مــن أن الشاعــر الفرنسي شارل بودلير قــد عبَّر عن طبائع الإنسان، واعتبره مخلوقــا يتنقل بين التسامــي والتدني، فإنه ابتعد عن المفاهيم الأخلاقية الماورائية، التي أوردها الفلاسفة والحكماء والشعراء، كعمر أبي ريشة. ومما هو ظاهر لدى أبي الطيب المتنبــي، تمكنه مــن تجاوز حالــة التدني، بالمعنى القائم لــدى باولــو وفرانتشيسكا، وأناندا وبراكريتي، ولــدى عمر أبي ريشة، وإدراك نوعية مــن التسامي لا تتماشى مع النوعية الروحية، التي امتدحتها الفلسفات الزهدية، بل مع الأداء الأرستقراطي الإرادي المترفع، وأكثر مــن هذا، فإن إحساسه بقدر من التــدني، غير ناشئ عن انحدار أخلاقي بالمعنى المألوف، بقدر ما هو ناشئ عن مجرد

الانصــراف إلى الاستمتــاع الدنيوي، على طريقة امرئ القيس (٥٠٠-٥٤٠) وعمر بن أبــي ربيعــة (٦٤٤-٧١١) وبالرغم من هذه الحقيقة، فإن إمكانيــة انقلاب الشهوة إلى عفة لدى أبي الطيب المتنبي، غير موجودة، فالمتعة تبقى على ما هي عليه مدى الحياة، من حيــث حقيقتها وطبيعتها، وهو ما يعني أنه نموذج بشــري أرقى، جسديًّــا ونفسيًّا. وفي مقابل هذا، فإن إمكانية انقلاب نموذج عمر بن أبــي ربيعة إلى نموذج مجنون ليلى، إمكانية قائمة، وأغرب ما في الأمر، أن تكون عفة هذا المجنون، فضيلة عالمية، وأن تكون عفة أبي الطيب المتنبي، وأبي العلاء المعري، مزعومة، وغير روحيَّة. ومن النماذج الأخرى التي أوردها الكاتب الإنكليزي ستيفن فيليبس في مسرحية (باولو وفرانتشيسكا) شخصية لوكريتسيا، ابنة عمــة الأمير جوفاني، التي تحــاول تقديم النصح لــه، وتسهِّل اكتشافه لحقيقــة العلاقــة الغراميــة الناشئــة بين زوجته وأخيه، غــير أنها تتعاطف أخيرا مع فرانتشيسكا، تحت تأثــير تودداتها المتتالية كي تترفق بها، وتحــاول إنقاذها من قدرها الأليم، ولوكريتسيا أرملة عاقر، وهي تتمنى في قرارة نفسها أن تكون حياتها التي شارفت علــى الانقضــاء، حافلة بالحــب، وتكوين الأسرة وإنجاب الأبناء، غير أن قدرها فرض عليها أن تحيــا كأرملة وكعاقر، ولقد عبَّرت الشاعرة البلغارية بلاغا ديمتروفا (١٩٢٢-٢٠٠٣) Blaga Dimitrova في مقطوعة شعريــة قصــيرة حملت عنــوان (أن تكوني امرأة)، تعبيرا موفقا عن معاناة المرأة، التي تنقضي حياتها دون معاناة ناجمة عن الحب والأمومة، وكل ما يهمُّ المرأة، ويكوِّن عالمها:

أن تكوني امرأة هذا ألم:
تتألمين حين تصيرين صبية،
وحين تصيرين حبيبة تتألمين،
وتتألمين إذ تصيرين أمًا.
ولكنَّ ما لا يطاق على الأرض،
هو ألم أن تكوني امرأة،
لم تعرف هذه الآلام كلها.

واللافت في العلاقة الغرامية التي وحَّدت مصيري العاشقين باولو وفرانتشيسكا، أنها تنتمــي إلى ظاهــرة الحب الشهــوي، وهــي أبعد مــا تكون عن الظاهــرة النقيضة، أي ظاهرة الحب العــذري، ومما هو هام هنا، الإشــارة إلى تلــك المقولة التــي تعتبر قوة الإنســان الحقيقية مقرونة بإرادته، وقدرته على كبح دوافعه، أي أن القوة الحقيقية هي تلــك القوة التي تمكِّننا مــن الانتصار على دوافعنــا، واجتياز التجــارب المتعلقة بأنواع

الإغــراء، التي يتعرض لهــا المرء في حياته، ووفق هــذه الرؤية فإن باولــو لم يملك قوة كافيــة على المستــوى السيكولوجي الذاتي، كتلك القوة التــي أبداها في ميادين القتال. وفي هــذا السيــاق يبدو جليًّــا، أن الشاعر الجاهلــي عنترة بن شــداد العبسي (٥٢٥-٦١٥) كان قويًّا تماما على المستويين، أي في ميدان المعارك، وعلى المستوى السيكولوجي الذاتي، والواقع أن أخلاقه كانت قادرة على حمايته مــن اقتراف الخطأ الأخلاقي، وهو يُفاخر بالعفة التي يتصف بها، وبقدرته على الانتصار على الإغراء كإمكانية قائمة:

أغشى فتاة الحي عند حليلها
وإذا غزا في الجيش لا أغشاها
وأغضُّ طرفي ما بدتْ لي جارتي
حتى يُواري جارتي مأواها
إني امرؤٌ سمحُ الخليقة ماجدٌ
لا أُتبعُ النفس اللجوج هواها

والحكايــة التــي يُعيد ستيفــن فيليبس كتابتهــا دراميا، تقع أحداثهــا على خلفية من الحروب التي شهدتهــا إيطاليا في تلك الآونة، ومن العلاقات الغرامية الناشئة بين الجنــود ومحبوباتهم، وهي علاقات تتفاوت في نوعيتهــا، ومــدى رقيِّهــا وانحدارهــا، وبالرغم من أن علاقــة الحب التي جمعت بين باولو وفرانتشيســكا، تنتمي إلى الحب الشهوي، فإنهــا لا تتنكر أبــداً للروحانية، والإخلاص الشامل، وثمة أحاديث ترد على ألسنة العاشقات عن قــوة الحب وسلطانه، وكيفيات الحد من جبروته، وهذه الإشارات تــدل علــى أن عالمهنَّ متمحــور حول هذا الشــأن، دون غــيره من الشــؤون الحياتية، علــى أن النص المسرحــي ينتمي بأكمله إلى السيكولوجيــة الأخلاقية، التــي تفرِّق بين الصواب والخطأ، وتعترف بالثواب والعقاب، وفقــا لما يفعلــه كل إنسان. وعلــى المستوى العاطفــي يُشابه الانشغــال بأمر الحب، في هذه المسرحية، مــا أورده الشاعر الروماني لوكريتيوســ في قصيدتــه (عــن طبيعــة الأشيــاء)، والتي يتحــدث فيها عن سلطان الحبِّ، وعــن كيفيات النجاة مــن تأثيراته، وهناك من يعتقد أن حدة عواطفه واندفاعه، قد أدَّيــا إلى انتحاره، على أنه ما من إشارة في قصيدته إلى الخطيئة والعقاب والثواب. والظاهــرة ذاتها لها حضورها في بعض من حكايــات الحب لدى أدبــاء ومشاهير، ومن ذلك العلاقــة التي ربطت الشاعر الفرنسي ألفرد دو موسيــه (١٨١٠-١٨٥٧) Alfred de Musset بالكاتبة جورج صاند (١٨٠٤-١٨٧٦) George Sand ففــي عــدد من

رسائلهما المتبادلة ثمة إشارات إلى التخبط العاطفي، والسلطان الذي يمارسه الحب على كل منهما، وعدم قدرتهما على إيقاف تأثيراته، ونتائجه المؤلمة. وبالمثل فإن المأثور عن الشاعر الإنكليزي جون كيتس (١٧٩٥-١٨٢١) John Keats اندفاعه العاطفي العميق، ومما يقال في هذا السياق، أن وقوعه في غرام فاني بروان، وعدم تمكنه من إتمام الزواج منها، قد ساهم في تأزم أحواله، وزيادة معاناته جراء المرض، وجملة من العقبات التي اعترضت مسيرته الحياتية، وفي أشعاره امتدح الجمال وقدرته على إثارة الحواس، وأكثر من هذا فإنه دافع عن الإغراء، واستعمل طاقة الخيال من أجل زيادة قوة الإثارة وتعميقها، واكتفى في قصيدته (إنديميون) بالتحدث عن الجمال والمتعة والحب، وهذا كله يتناقض تماماً، ظاهريًّا على الأقل، مع طبيعة الطرح الذي قدَّمه دانتي أليجييري، والذي أبقى عليه الكاتب ستيفن فيليبس دون تغيير هام في الجوهر والمضمون. على أن دفاع جون كيتس عن الإغراء والجمال والحواس، غير قادر على الإساءة إلى المثال الزهدي، وهو نوع من تخفيف النظام المعرفي على مستوى النظرية والتطبيق، وفي هذه الحالة يتخلص المرء من المفاهيم القبليَّة، ومع ذلك فإنه يظل ممثلاً للمثال الزهدي، لأنه يحتفظ بالمثالية الأخلاقية، على المستويين الفكري والسيكولوجي، وثمة فارق بين جون كيتس، وعمر أبي ريشة، عند هذه النقطة، فالشاعر عمر أبو ريشة عندما يمتدح الإغراء، فإنه يحافظ على المفاهيم كلها، وعلى الاعتقاد الإيماني، وهو يكشف حقيقة هامة مؤداها أن نفي الرغبة يعني أننا نحيا في حيِّز الرغبة، وفي هذا إشادة بالرغبة، ولا بد من وجود شاعر أو كاتب أو مفكر، يمثل هذه الحقيقة الجزئية، التي تنتمي إلى المثال الزهدي، باعتباره الحقيقة الكلية، التي تنطوي على إمكانيات متناقضة ظاهريًّا، لمن يرصد الظاهرة من الخارج، وكليًّا للأتباع الذي يعجزون عن رصد المثال، ورؤية حقائقه، بالرغم من أنهم أتباعه، فالتابع غير قادر دائماً وأبداً، على رؤية حقائق المثال الكليَّة، أما جون كيتس فإنه يتخفف من المفاهيم الأخلاقية، ويُحافظ على جوهر المثال الزهدي. وعلى غرار المسرحيات الإغريقية، أورد ستيفن فيليبس شخصية أنجيلا، التي تتنبأ بالأحداث القادمة، والتي تحذِّر الزوج جوفاني، وتكشف له الحقائق كلها، وهي امرأة مسنة وضريرة، ومالكة لبصيرة عميقة،

والواقع أن أقوالها ليست أكثر من الهواجس التي يشعر بها الزوج جوفاني، في قرارة نفسه، ومثلما افتقرت شجاعته الضارية، وميزاته الإنسانية والجمالية، للقدرة على اجتذاب فرانتشيسكا، فإن ميزات عنترة بن شداد العبسي فشلت في اجتذاب عبلة، التي داومت على النفور منه، في الوقت الذي داوم فيه على إعلان وفائه لها. والواقع أن كل الأحداث المتوالية في مسرحية الكاتب الإنكليزي، تبدو وكأنها قدر مكتوب، وما من إمكانية قادرة على وقف تمظهراته، وثمة إشارة من أحد رفقاء باولو، إلى أن القتال يجعل الفارس قادرا على تجاوز الرغبوية الشهوانية، وربما أمكن الادعاء بأن هذه الظاهرة أمكنت عنترة بن شداد العبسي من أن يكون عفيفا بقدر معين، على أنها أكثر جلاء لدى أبي الطيب المتنبي، الذي أعلن أن ما يرغب فيه، وما تشتهيه نفسه، إنما هو الاندفاع في ميادين البطولة، وليس الاكتفاء بالحب على طريقة باولو، الذي تخلى تماما عن إرادة القتال، واستبدل بها إرادة الحب الرغبوي الشهواني، فأصبح نموذجاً بشرياً كالشاعر الفرنسي ألفرد دو موسيه، دون إغفال الفروقات بينهما، وثمة اعتراف لدى جوفاني بأن العاشقين اللذين قتلهما، يستحقان الإكرام، وأن جنازتهما ينبغي لها أن تكون أشبه ما تكون بالعرس الحقيقي، الذي يستدعي الابتهاج والفرح، وهذه الحقيقة تعني أنه، والسيدة لوكريتسيا، أرقى بكثير من النماذج الإنسانية المنتكسة الأخلاق، التي صوَّرها جبران خليل جبران في مؤلفاته، ففي (الأرواح المتمردة) وتحت عنوان «مضجع العروس» يموت الحبيبان بعدما فرقتهما الوشايات الآثمة، وتقوم سوسان بدفنهما، والاحتفاء بهما، في الوقت الذي يقرر فيه الكاهن أنهما ملعونان، وأن جهنم الحمراء ستكون مثواهما الأخير، ويبدو أن تقديرات ستيفن فيليبس قد فاقت مثيلاتها لدى جبران خليل جبران، فقد تنبَّه إلى إمكانية انتصار الحب في داخل لوكريتسيا على الكراهية، وإلى إمكانية اعتبار جوفاني لما قام به إثما خطيرا، ولما قام به العاشقان تعبيرا عن حب عميق وحقيقي، وجدير بأن يحتفي به المرء، وأن عقابه سيكون في جهنم الحمراء، أثقل وطأة من عقابهما، وهو ما يتقبله هو الآخر، باعتباره قدرا مكتوبا. ويبقى أن البشرية تحتاج إلى اعتراف بالحب الرغبوي الشهوي، وإلى تجاوز للعراك العنيف المأساوي، بين الدافع

البشري الذي يمثل الشر، والقيمة الأخلاقية التي تمثل الخير، وهو شأن لم يستطع جبران خليــل جبران، أو دانتـــي أليجييري، أو ليون تولستــوي، أو عمـــر أبو ريشـــة، أو ستيفن فيليبس، التبشير به للأسف.

الهوامش:

١- ستيفن فيليبس، باولو وفرانتشيسكا، ترجمة: د. غبريال وهبة.

٢- دانتي أليجييري، الكوميدية الإلهية، ترجمة: د. حسن عثمان.

٣- مجموعة من المؤلفين، دليل القارئ إلى الأدب العالمي: شارل بودلير، هيزيود، سينيكا، لوكريتيوس.

٤- جبران خليل جبران، المؤلفات العربية: الأجنحة المتكسرة، المجنون، الأرواح المتمردة.

٥- ميخائيل نعيمة، ديوان همس الجفون، المؤلفات الكاملة.

٦- فريدريك نيتشة، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيسي.

٧- د. رمسيس عوض، أوسكار وايلد، صورة دوريان غراي، تراث الإنسانية.

٨- وليم شكسبير، ماكبث، ترجمة: خليل مطران.

٩- حنـا الفاخـوري، تاريخ الأدب العربــي: أبو نواس، أبو العلاء المعري، أبــو الطيب المتنبي، طرفة بن العبد، امرؤ القيس، عمر بن أبي ربيعة.

١٠-ليون تولستوي، البعث، دار الهلال. الحرب والسلم، دار أسامة.

١١-د. عبد الوهاب المسيري، مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنكليزي: وليم بليك، بيرسي شيلي.

١٢-ألفرد دو موسيه، لا مزاح في الحب، ترجمة: نور الدين خضور.

١٣-إيليا أبو ماضي، الديوان، تأملات، دار العودة.

١٤-رابندرانات طاغور، المنبوذة، ترجمة: حسن عبد المقصود حسن.

١٥-هنري إبسن، بيت آل روزمر، ترجمة: د. أحمد النادي.

١٦-القديس يوحنا، إنجيل يوحنا، الأصحاح الرابع.

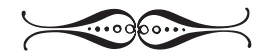
١٧-جان جاك روسو، الاعترافات، ترجمة: خليل رامز سركيس.

١٨-عمر أبو ريشة، الديوان، معبد كاجوراو، دار العودة.

١٩-مجموعة مؤلفين، الموسوعة العربية، غوتاما بوذا.

٢٠-عيسى فتوح، أحمد الصافي النجفي، الكويت، آذار ١٩٨١.

٢١-د. محمد سليم سالم، هيزيود، الأعمال والأيام، تراث الإنسانية.
٢٢-د. حسن شحاتة سعفان، كونفوشيوس، الكتب الخمسة، تراث الإنسانية.
٢٣-جوستاف فلوبير، مدام بوفاري، دار أسامة.
٢٤-أونوريه دو بلزاك، فاسينوكان، وزارة الثقافة، ترجمة: ميشيل خوري.
٢٥-بلاغا ديمتروفا، الآداب الأجنبية، ترجمة: ميخائيل عيد، خريف ١٩٩٣.
٢٦-د. علي درويش، ألفرد دو موسيه، الليالي، تراث الإنسانية.
٢٧-د. نظمي لوقا، جون كيتس، إنديميون، تراث الإنسانية.







إديسون العرب
حسن كامل الصباح العالم الغائب

مهند معروف صالح *

يعتبر حسن كامل الصباح أحد نوابغ العرب في القرن العشرين وأحد كبار المخترعين العالميين، توصل بدأبه واجتهاده وشغفه بالعلوم الرياضية إلى درجة كبرى في حقل العلم والكهرباء، حتى إنه استطاع أن يتبوأ مراكز مرموقة في كبريات الشركات الكهربائية العالمية، وأن ينتزع الثناء من أكابر رجال الاختراع والهندسة.

* باحث وكاتب فلسطيني.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

وقـد أطلقت عليه الصحف الأمريكية، لقب (أديسون الصغـير) و(أديسون الشرق) ومنحـه معهـد المهندسـين الكهربائيـين الأمريكيين لقـب (فتى العلـم الكهربائي) وذلك عـام / ١٩٣٢م/،[1] بالرغم مما لهذا اللقـب من أهميـة عظمى في حقـل العلم الكهربائي.

إنَّ هـذا العبقـري اللبنـاني قـد شغل العالم والعلوم وهـو من أولئك الذين أبدعوا فأعطـوا، فرفع اسم أمتنـا عالياً وهو أحد قلائل جاد بهم التاريخ فأغنوه وبنوا مستقبل البشرية.. مهاجر رائـد سافر بطموحه إلى الغرب، على أمل أن يعود بانياً للشرق.. عقل منفتح خلاق متطلـع إلى المستقبل متمسك بتراثه، وفيٌّ لمهده الأول.. فأهملته الأمة التي بقي وفيا لها، فدفعه ذلك الوفاء إلى الوقوع في فخ الاستغلال الأمريكي البشع.

نعم إنـه حسن كامل الصبـاح الذي ما فتئنا نسمع عنه بضع كلمات فقط: (لبناني سافر إلى أمريـكا، له عشرات الاختراعات، مات بحـادث سيارة)!. لكنه في الواقع أكثر مـن ذلك فالباحث في سيرتـه يفاجئه: عالم مفكـر باحث لـه فلسفة خاصـة وأراء في عدد من المجـالات العلمية و الحياتية، وفي السطـور الآتية جولة في رسائله وكتاباته في محاولة لسبر أعماق ذلك العبقري علنا نفيه شيئـاً من حقه أو نسلط أضواء جديدة على دراسة تلك الشخصية الفذة.

ولد حسن كامل الصباح في بلدة النبطية، جنوبي لبنان في /٢٢آب ١٨٩٤/ ونشأ في بيت علم وأدب و تمتع منذ حداثته بنباهة وذكاء فطري وتلقى علومـه الابتدائية في مدرسة النبطية وفي عـام /١٩١٤ / التحق بالكلية السوريـة الإنجيليـة (الجامعـة الأمريكية لاحقاً) في بيروت لدراسة الهندسة الكهربائية فأظهـر مقدرة فائقة في حـل أشد المسائل الرياضيـة تعقيداً وكان حينها قد تمكن من اللغتين الفرنسيـة والإنكليزية ثم استدعي في /٢١شباط ١٩١٦/ للخدمة الإلزامية في الجيش التركي حيث خدم هناك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وفي أثناء خدمته تلك استفاد من التعاون التركي – الألماني، فتمكن من اللغتين التركية والألمانية وتعمقت خبرته في الأجهـزة الإلكترونية، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى عُينَ عام (١٩١٩) مدرساً لمادة الرياضيات في المدرسة السلطانية في دمشق ثم مدرساً للرياضيات في المدرسة التجهيزية هناك، حيث يروى أنَّه قد برهن على وجود الله بطريقـة رياضية جبرية أثارت الدهشة

والإعجاب في جميع الوسائط الدينية والعلمية على حدٍ سواء.[٢]

وفي عام (١٩٢٠) عُيِنَ أُستاذاً للرياضيات في الصفوف الثانوية وفي جامعة بيروت الأمريكية.لكن ميله الجارف للاستزادة من الرياضيات دفعه إلى التخلي عن عمله في الجامعة والسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام /١٩٢١/ حيث دخل معهد (ماساتوتستس) الهندسي وذلك بعد أن اجتاز بنجاح فائق جميع الامتحانات النظرية والعلمية التي أخضع لها، وها هو يحدد أهداف تلك الرحلة في رسالة إلى خاله الشيخ أحمد رضا مؤرخة في / ١٦تشرين الأول ١٩٢١/ يقول فيها : (..فلا أرى بداً من الذهاب إلى ديار الغرب، فإن سنتين هناك تكفيان لأن أكون أقدر مهندس بين مهندسي تلك الديار.. هذا عدا عما يمكن القيام به من التعهدات الكبرى في سورية والجبل.. وإن توزيع قسم من مياه الليطاني على القرى حتى الساحل وأستخرج قوة كهربائية من القسم الآخر ..).[٣]

إذاً فالمهمة مقررة مسبقاً في ذهن حسن



الصباح إنها حقاً وبكل المعاني مهمة سامية وطموح رائد فهذا العالم لم ينوي الذهاب إلى أمريكا للكسب المادي فقط، بل جر الاستفادة إلى بلده الأم وهو يقرر مسبقاً العودة حتى قبل أن يتوجه إلى أمريكا، وكل هذه الطموحات والأمنيات لم تكف في إقناع بعض الأثرياء أن يقرضوه ٦٠٠ليرة بشروط قاسية جداً، حتى يستطيع إكمال دراسته، وهذا ما أشار إليه بقوله لذويه (إن ملوك العرب مشغولون بالسياسة أما من جهة

التقدم العلمي وجلب المخترعين إلى ديارهم فهم في غنى عن ذلك) رسالة مؤرخة في ٢٦/ كانون الأول ١٩٣٤/ .(٤)

وفي اليوم التالي لوصله إلى أمريكا التحق بجامعة (إلينوي) حيث حاز شهادة جدارة في العلوم (M.A)، ثم انتقل منها إلى جامعة (أوربانا) حيث نال شهادة أستاذ علوم في الهندسة الكهربائية كل ذلك وهو يكابد الأمرين ويواجه ظروف الحياة الصعبة وحيداً في محيط غريب وعلى الرغم من كل ذلك كان من الأوائل بشكل دائم ما أوجد له عداوات وأحقاد من أولئك (الناقمين على الأجنبي الذي تفوق عليهم).(٥)

هذه الغربة والمرارة أجبرته في ٢٠/آب ١٩٢٣/ على توقيع اتفاقية مجحفة مع إحدى أكبر الشركات الأمريكية وهي شركة (جنرال إلكتريك) الكهربائية ونصت تلك الاتفاقية بحسب رسالة الصباح المؤرخة في ٢٦/ نيسان ١٩٣٠/ أن يرسل (...علماً إلى دائرة التسجيل بجميع الاختراعات التي يتوصل إليها.. وتبقى الاختراعات ملكاً للشركة.. وأن يتقاضى دولاراً واحدا مقابل كل اختراع) مع العلم أن الشركة دفعت مبلغ ربع مليون دولار على تسجيل أحد تلك الاختراعات.. وينقل الصباح عن أحد المهندسين الأمريكان قوله في نفس الرسالة (... لو لم يكن الصباح مستخدماً في الشركة لابتاعت منه هذا الاكتشاف بما لا يقل عن نصف مليون دولار..).(٦)

رغم ذلك الإجحاف عين الصباح في هذه الشركة بصفة مهندس ممتاز وعندما بدأ أولى اختراعاته خصصت الشركة له مختبراً خاصاً به، وأعطته مكتباً ألحق به عدداً من المهندسين المعاونين، ثم أخذت شهرته تتسرب إلى المجتمع الأمريكي، لاسيما عندما وضع هندسة جديدة للكهرباء، فقد حاز إعجاب رئيس المؤسسة الكهربائية المعروفة باسم (أم .أي. تي) ورئيس شركة (وستنكهاوس) الكهربائية وكذلك إعجاب العالم الفرنسي الرياضي الشهير (موريس لوبلانك) ورئيس الولايات المتحدة (هوبز) الذي بعث إليه برسالة تشيد بنبوغه وذلك رداً على رسالة منه (أي الصباح) يقترح فيها بعض الحلول الكفيلة بحل مشكلات البطالة، و مشاكل الولايات المتحدة الاقتصادية.(٧)

واصل الصباح جده وعمله حتى برز بين أقرانه وذاع صيته ومنح في / ٢٥ كانون الأول ١٩٢٣/ رتبه (فتى العلم الكهربائي) وهذه المرتبة كما يقول في رسالة بتاريخ ١/ تشرين الأول ١٩٢٣/ (... هذه المرتبة

أرفع بكثير من مرتبة دكتور.. إذ إن حامل شهادة دكتور، لا تمنح له إلا بعد أن يصرف عشرة أعوام في ممارسة مهنته..)[8]، وهكذا سطع نجم الصباح عالياً، فحملت الصحف أخباره ومحاضراته ومقالاته وسجلت (جنرال الكتريك) معظم اختراعاته في كبرى دول العالم كي لا يحق لأحد استغلالها، وبنتيجة ذلك انهالت عليه العروض والدعوات والشهادات من كبرى الشركات والجمعيات والشخصيات العالمية لا سيما ألمانيا وروسيا وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا ومن بعض الشخصيات العربية في وقت لاحق.

وعندما أعلن العالم المهندس (ألبرت) أن نظريات الصباح العلمية متينة من الوجهة العلمية أخذت مختلف الشركات العالمية تطبق نظرياته،[9] وفي عام /١٩٣٢/ انتدبته (جنرال إلكتريك) لتمثيلها مع المؤتمر العالمي للكهرباء والمنعقد في باريس، فاشترك فيه بما أخذه بعنوان (تأثير الدارات الكهربائية على الأقواس المنعكسة في مقومات القوس الزئبقي)[10] وهكذا فإنَّ الصباح أكثر من مجرد مخترع وعالم رياضي فحسب، بل كان مفكراً عروبياً إسلامياً واجتماعياً، يهتم بالدراسات الأنثروبولوجية والنفسانية، وله آراء قيمة في الدين والمجتمعات الإنسانية والمرأة والمعرفة والأمراض النفسانية والأخلاق والفلسفة وقد بث آراءه هذه في جملة من الرسائل التي كان يبعثها إلى أهله ومعارفه في الوطن ولذالك فإنا سنعرض في جولةً سريعة لبعض آرائه من خلال تلك الرسائل وتحت العناوين التالية:

تمسكه بمبادئه الدينية:

ويظهر ذلك من خلال عدد كبير من رسائله إذ قلما نجد رسالة منها إلا وفيها استشهاده بآيات قرآنية أو أحاديث نبوية وتأكيد على التزامه بتعاليم الدين الإسلامي، وينقل أصحابه أنه كان شديد الإيمان ومن المحافظين على تأدية الفروض والشعائر، ذلك الأمر أدخله في سجالات عديدة نُشر بعضها على صفحات الجرائد والمجلات حيث أثبت كما قال في رسالة مؤرخة /١٧ أيلول ١٩٣٢/ (... أن محمداً (ص) بالنسبة للإنسانية ((كأينشتاين)) بالنسبة للعلوم. وكان يرى في أبحاثه وتجاربه سبيلاً كي. يعظم الله. وكان دائم الدعوة إلى الطلاب.. إلى التفكير في عظيم خلق الله بالتجارب العلمية..).[11]

وله كذلك كتابات علمية وتجريبية في تبيان مضار الخمر والتدخين وسائر المحرمات، ويروي أساتذة وتلامذة مدرسة

دمشــق كما ذكرنا سابقــاً، أن الصباح أثبت لهم وجــود الله بطريقة رياضيــة مما أثار الإعجــاب والدهشة في الأوســاط الدينية والعلمية.

واللافت في آرائه الدينية حرصه ودعوته للوحدة بــين المذاهب الإسلاميــة أما خير وسيلة إلى ذلك كمــا أعلن في رسالة بتاريخ ١٦/ تشريــن الثــاني١٩٣٢/ (... فتح باب الاجتهاد.. فإن التاريــخ برهن أن الاجتهاد كان مــن أهم الأسباب المانعــة للتفرق، ولو اتفق المسلمون على ذلــك لاجتمع شملهم.. ولعلَّ هناك من يقوم بهذا المشروع..).[١٢]

وهكــذا نظر الصبــاح إلى الدين نظرة علميــة عقلية، فآمن بما جاء بــه، ثم ارتد إلى المذاهــب الإسلاميــة يعمــل في النظر علــى أسباب الشقاق بينهــا، فوجد أن ذلك كله راجع إلى قصور العقل وتقييده، فالعقل ينبغي أن يكون القوة العليا أو المرجع الأعلى لفضــ كل خلاف فكري ينشــأ أو يطرأ بين المسلمين، وإذا ما احتكم المسلمون إلى العقل وعملوا بمــا يُفضــي أو يَفضي بــه فإنهم يُؤمنون وحدتهم الفكرية.

وكان الصبــاح يــرى أن حقائق العلم لا تتناقضــ وحقائق الدين بل علــى العكس، فــإن حقائق العلم تؤيد وتثبت حقائق الدين والجهــل وحده هو الذي يصــور غير ذلك. فالعلم إذا ما تجرد صاحبه عن الهوى، يقود في النهاية إلى اللين فيقول في إحدى كتاباته (إن الاعتقادات الدينيــة وعلى الأخص ما يتعلق بالقدرة الإلهية منطبقة تمام الانطباق علــى العلــم الطبيعي الصحيــح.. بل كلما فكــرت عندما كنت نطفة لا أملك ولا يملك لي أبواي ضراً ولا نفعا، كانت النواميس التي تمثل مشيئة الباري هي وحدها التي تكفلني وتجعلني أنمو مادة وعقلاً..).[١٣]

أما عــن إيمانــه الشديد فيقــول أحد أصدقائــه كمال جبر ضومط: (خطر لنا أن نتعشى أنا والصباح عشــاءً شرقياً، فجعلنا من أنفسنــا طهاة وحضرنا الطعام، ولما أتى العشاء قام الصباح لأداء فريضة الصلاة.. وكنت أسمع شهيقه وهو في سجوده).[١٤]

آراؤه في الفلسفة والأخلاق:

كتــب عنــه أحــد أصدقائــه (هوبال) وهــو من أصــل فارسي في جريــدة (ورلد) الأمريكيــة قائــلاً: (كان مــع انصرافه إلى معالجــة الرياضيات. شديــد الولع بالأدب والفلسفة وله فيها نظريات قيمة).[١٥] وفي رسالة إلى والــده يقول الصبــاح: (...وقد رغب إلى صديــق أمريكي صادق عاقل بأن تطبع مقالاتي الفلسفية بشكل كتاب...).[١٦]

وستتنــاول آراءه في الموضوعــات السابقــة الذكر حتى يتسنى لنا معرفته كمفكر عربي اجتماعي بعد أن عرفناه كعالم رياضي.

المعرفة:

يرى الصباح أن المعرفة تكون في إعمال النظر والتجريد العقلــي من المبادئ الأولى المركزة بالفطــرة في العقل البشرية فالكون الطبيعــي في رأيه عبارة عــن عالم منضبط تحكمه جملــة من النواميــس الإلهية، فهو كالكتــاب الرياضي المنظم الذي لا محل فيه للغموض، متى فهمنــا رموزه أمكننا عندئذ فهم جميع حقائقه، فالنواميس الإلهية هي التــي أرادت أن تكــون القوانــين الطبيعية كما هي عليــه، وهذه تتماشى وفق المبدأ أو الغايــة المرسومين لهــا، وبالتالي فلا يمكن أن يكــون أو يقــوم تعارض بــين النواميس الكونيــة والظواهر الطبيعية، لأن النواميس الكونية هي التي تضبط الظواهر الطبيعية وتحكمهــا، والظواهر الطبيعيــة لا يمكنها التفلت من ذلك الأمــر وإلا عمت الفوضى وكان الدمار. لذا فإن المعرفة الإنسانية عند الصباح كلما تقدمت في مجال الاكتشافات، كلما وضح للعقل لأنه لا تعارض بين القوانين الطبيعيــة والنواميس الإلهيــة، وبهذا فلا حدود لنطاق المعرفة الإنسانية، ومهما تقدم العقــل البشري في حقــل المعرفة فإنه يبقى مدعوماً من قبل الإرادة الإلهية ذاتها إلى أن يتابع جهوده في هذا المضمار.

والســؤال الذي يطرح نفســه كما يقول الصباح: إذا كان العقــل أو الإنسان مدعواً مــن قبــل الله إلى معرفة الكــون وأسراره وقوانينه ونواميسه، وإذا كان لا حدود لطاقة العقل في معرفة الكــون الطبيعي وقوانينه، فهل هــذا يعني أن العقل قــادر أيضاً على معرفــة ما وراء الطبيعــة أو معرفة حقيقة النواميــس الإلهية التــي تهيمن على الكون وتحكم مختلف ظواهره ومظاهره ؟

فيجيــب الصباح وهو العالم الرياضي أن قــدرة العقل على المعرفــة تقف عند حدود الله، فالله خــارج نطاق المعرفة لعقليته لأن الله الخالق للكون ونظامه ومصدر كل علله، وهو خارج هذا الكون ونظامه وسلاسل العلل فيــه، وذلك فإن ما يجــري على الكون من سنن لا يجري على الله، وإذن فإن الله خارج عن نطاق العلم ومعرفة العقل، وإنما يستدل عليه من خلالهــا باختصار،[١٧] إن الصباح يــرى أن العلم والدين صديقــان لا عدوان أحدهمــا يستدل على الآخــر، وأن العلم لا يمكن كما يتصور البعضــ خاطئاً، أن يحل محل الدين، وهو يؤيــد دائماً حقائق الدين

ويدل علـى صحة مبادئه ونواميسه، فيكتب حول ذلـك (إن الاعتقـادات الدينية وعلى الأخص ما يتعلق بالقـدرة الإلهية منطبقة تمام الانطباق على العلم الطبيعي الصحيح، لأن القرآن يحتوي على نصوص كثيرة تحث المؤمنين علـى التفكير في خلـق السماوات والأرض، ومـا النواميس التي يتمشى عليها الكون إلا كلمـات الله وإرادته، وإني أعرف مـن تجاربي إني كلما فهمت ناموساً طبيعياً من النواميس التـي تتمشى عليها الكهارب (الإلكترونيـات) أعظمت حكمـة الله وزاد إيماني...).[١٨]

الأخلاق:

يربط الصبـاح الأخلاق الفاضلة بالعلم وهذا ما يذكرنـا بمذهب الفلاسفة الرابط بـين الفضيلة والمعرفـة فهو يـرى أن من زاد علمـه وكثرت معرفتـه، حسنت صفاته وجملـت أخلاقه وفعالـه، ومن حصل على إحـدى العلـوم والمعـارف وجـب أن يكون متخلقاً بأعلى الأخـلاق وأسماها، والرجل العاقـل هو الذي يحكـم العقل في عواطفه حتى تستقيـم أفعالـه، لأن العاطفة تجلب الشـرور والعقـل لا يجلـب إلا الخير (... الرجل الحقيقي هو الذي يتمكن من تسيير عواطفه وراء عقلـه ويقيدها بقيد حديدي مـن قـوى الإرادة وتصميم العقـل، ولتكن غايتك في الحيـاة تقويـة جسمك وذهنك وجميع قواك العقلية..) من رسالة بعثها إلى أحد طلابه.[١٩]

وقد عرف الصباح بين أصدقائه بالأدب الجم واللطـف الزائد واللسان العفيف مما يثبت تطبيقه لآرائه على نفسه تطبيقاً علمياً إضافة إلى أن هذه الآراء هي ترجمة طبيعية لذاتـه السامية، فهو قد تسامى على نزوات الشبـاب وكان على حد قولـه (... نظيف السيرة، رغم تحرش الفتيات أثناء الدراسة) رسالة مؤرخة / ٨ حزيران ١٩٢٣ /.[٢٠]

وكان دائم الانتقـاد للعادات والأخلاق الأمريكيـة وصعوبة التعامـل معها بالنسبة لشخص شرقي

(سيدي الوالد إن الشعب في البلدة التي أعيش فيهـا منحط وسافـل لدرجة تفوق الوصف، والمعيشة فيهـا صعبة جدا، وبنوع خاصـ على من يتمسك بأهـداب الفضيلة والعفـة، نظرا لسوء أخـلاق أهلها وريائهم ومداولة الكلام الساقل والأفكار البذيئة بين جميـع طبقاتهم. قبـح الله الديمقراطيات التـي على شاكلتهـا وأسـأل الله ألا يطيل بقائي بهـا) /٤ آذار ١٩٢٥/[٢١] وفي رسالة أخـرى: (تكاد نفسي أن تزهق من بقائي في

هذه البلدة. فإن أهلها الساقطين لهم أدمغة البراغيث، وأخلاق القرود، وألسنة حادة لا يجردوها إلا على من كان غريبا وحيدا مثلي. ولهذا فأراني بحاجة ماسة إلى فرصة أسبوعية اصرفها خارج البلدة. وعسى أن يخرج الله من العسر يسرا. وقد ثبت لي ألان أن الرئيس الذي اشتغل معه ومن حوله جماعة ساقطي الأخلاق. ولو علمت ذلك منذ البدء لما مكثت هنا ولما قبلت الوظيفة، ولكني الآن كبالع الموس لا يمكنني أن أترك العمل ما لم أترك أثرا يذكر، ويكون عونا لي في طلب شغلا آخر.) تاريخ/١١ حزيران ١٩٢٥/[٢٢] وهذا يقرر إن من ينتقد هذا السلوك البشري بالنسبة للأخلاق، لابد أن يحمل روحا سامية وأخلاقا راقية وقيما نبيلة. فالصباح لا يطهر أو يعصم الشرق الذي ترعرع فيه ولكنه يقارن بين أخلاق عالم المهجر وموطنه كما يقول في رسالة أخرى (ومساوئ الغرب تفيض كثيراً على مساوئ الشرق) / تاريخ ٣٠كانون الأول ١٩٢٩/[٢٣] لكنه على الرغم من ذلك كله بقي صامداً حيث يقول: (إن القدرة الإلهية تعصمني من الإثم...) تاريخ /١٣ تشرين الثاني ١٩٣٣ / [٢٤] أما تواضعه فيتجلى في رفضه أن يخاطبه أهله وأصدقاؤه في مراسلاتهم بألقاب عالية (فاكتبوا الأستاذ كامل الصباح بلا بك ولا أفندي) تاريخ / ١ تشرين الثاني ١٩٢٣/ .[٢٥]

المجتمعات الإنسانية:

يرى الصباح أن الإنسان مخلوق اجتماعي يتأثر بالبيئة التي يعيش فيها، فيكتسب عاداتها وتقاليدها ويكون سلوكه تبعاً لذلك من نتاجها. وكان يرى أن كثيراً من حالات الإنسان النفسية كحالهم، مثلاً، ناتجة عن تفاعل الجسم وتأثيره على النفس، وأن معظمها وليد التخيل والتوهم ليس إلا... (إن كثيراً من الحالات النفسية مسببة عن تقلبات جسدية بسيطة، وأكثرها ناشئ عن محض التصور والتخيل، وأن كثيراً من الهموم والأقدار لا أساس لها من الصحة إلا في التصور والتوهم) إحدى كتاباته في عام / ١٩٣٢/[٢٦] في إحدى الجرائد الأمريكية.

انتماؤه القومي العروبي:

لم يكن الصباح كغيره من النخب التي بهرت بأنوار الحضارة الغربية حتى فقدت عقلها و انتماءها وراحت تتحدث وتتصرف كأنها فقدت حتى هويتها واستعاضت عنها بالهوية المسخ التي أثبتت التجارب والوقائع أنها حتى لا تفيد أصحابها بشيء متى اهتزت الساحات الإقليمية والدولية فكانت هذه

المسوخ رهناً بيد التقلبات المزاجية السياسية وهذا ما ثبت بعد /١١ أيلول ٢٠٠٠/، لذلك فإن محافظة العالم الصباح على تراث الجدود دليـل على ثبات شخصيتـه وعمق اقتناعه بمـا يحمل فكان صمـوده الثقافي والفكري أمـام أضواء الحضـارة الغربيـة الباهرة. فقـد كان يفخـر دائماً بقوميتـه وعروبته كما يقول أحد المهندسـين الأمريكان وكان كلـه محافظاً على الزي العربـي التقليدي، فـكان لا يرى في العطل والأعياد إلا مرتدياً (العقـال والكوفيـة) فهـا هو يقـول: (... سيدتي الوالدة: إنني بشوق زائد لمخاطبتك فالحقيقـة إن ذلـك الشعور الـذي جعلني أحب بلادي، حتى ترابها وأحجارها.. فإني لا أزال أذكـر أيـام الطفولـة... أذكر كرم التين) تاريخ /٢٩ تموز١٩٢٣/ (٢٧) كما كان للصبـاح آراء سياسيـة تعكس تمسكه بحب وطنه وأمته ولذلـك ساهم مع مجموعة من أصدقائه في دعم الحركات الاستقلالية في الوطن العربي ومـن رسائله في هذا المجال (قاتـل الله الفرنسيين مـا أشد همجيتهم، سدد الله خطـا المجاهديـن لتحرير أمتنا وطرد هؤلاء الطغـاة من الوطن) / ٨ أيلول ١٩٢٥ /(٢٨) كذلك كان دائم السعي لاستثمار اختراعاته في مصلحـة أمته، فها هو يكتب قبل شهور من وفاتـه: (إني أتحضر لإتقان فن الطيران ،وأتوجه بعدهـا إلى السعودية أو العراق وأؤسس هناك معملاً للطيران) / ٢٦ حزيـران ١٩٣٤ /(٢٩) وكذلـك اختراعه للبطاريـة التي تحول الصحارى العربية إلى جنة خضراء مـن دون أن ننسى حديثه عن الهدف الأساس من سفره إلى أمريكا.

اللغة العربية:

وأحـد مظاهر محافظته علـى عادات الشرق تمسكه بلغة الشرق أي اللغة العربية، فالمراجـع لرسائلـه يرى أسلوبـه البلاغي الرفيع وعباراته المسبوكـة وكثرة استشهاده بالأشعـار العربيـة والأقـوال المأثورة حتى النـادر منها وذلك إن دل علـى شيء فعلى سعة اطلاعه، كل ذلك على الرغم من إتقانه للغـات أجنبية عدة: الفرنسيـة والتركية و الألمانيـة وفي أواخر سنين عمره كان يدرس اليونانية والروسية. ولعل ذلك كله يعود إلى أنـه نشأ في بيت علم وأدب كما مر معنا فها هو يكتب (...كان خـالي الشيخ أحمد رضا كثير الاهتمام بدرسـ الحقائق الكونية ... وكان للغة العربيـة وآدابها المنزلة العليا في نظـره... فأصبحت أنا بحكـم الطبع أنظر إلى آداب العرب وعلومهم نظرة طموح وأمل

وكان ذلك مبدأ قوميتي الشديدة).[٣٠]

نظرته إلى المرأة:

كانــت نظــرة الصبــاح للمــرأة نظرة قدسية، ولعلَّ الذي ساعد على نظرته تلك، محبته العظيمــة لأمه التــي كان يتصورها مثالاً للعطــف والطهارة والمشاعر الإنسانية الرقيقة. وقد ظن من خلال تغلبه على بعض المصاعــب التي كانت تواجهه، أن رضى أمه عليه، فضلاً عن دعائها له، هو الذي يشفع به دائماً عند الله، فينجيه من كيد الخصوم، ويجعــل النجاح حليفه، حتى إن حبه الغامر لأمــه دفعه إلى تمثل الوطن من خلالها فهو يحب الوطــن لأنها فيه ومنــه. (الوطن في عرقي هو أنت.. لقــد تغلبت على صعوبات جمــة ولم أحلم في التغلب عليها. وذلك ليس بمقدرتي بل للعنايــة الإلهية، فلا تعدميني رضاك ودعاك) / ١١ أيار ١٩٢٨/.[٣١]

في تربية الأطفال:

يقــول في إحــدى رسائلــه (...المقياس الحقيقي لذكاء الطفل هو الحركة الفكرية، وأعني بذلــك أن يشاهد ويقيس ويستنتج.. وإني لا أرى أن يــدرب الطفل على المناقشة والجــدال.. لأن ذلــك يضعف فيــه غريزة الاستقصــاء وتحــري الحقائــق ويمرنــه علــى الخــداع والزيغ العقلــي) / ٢٢ تموز ١٩٢٤/.[٣٢]

آراؤه العلمية واختراعاته:

لم يكن الصباح مجــرد مخترع (مخبري) أي صاحب علــم قائم على التجارب المادية والاختراعات فحسب، بــل كان عالماً مفكراً له آراء عميقة في دنيا العلم وصاحب فلسفة قائمة على الفيزياء والرياضيات وذلك جعله خصماً قوياً للآخرين حتى قال أحد العلماء الأمريكيين (كان الصبــاح بيننا كالمعلم بين أطفاله، يلعب بآرائنا ونظراتنا كما يشاء..) ويقول آخــر: (كان الوحيد بيننا الذي تجرأ علــى مناقشة آراء ((أينشتاين)) نفسه)،[٣٣] والمعروف أن النظرية النسبية كانت ولا تزال صعبة على الفهم إلا للقليلين، وخصوصاً في ذلك الوقت حين كانت نظرية حديثة مجهولة، فكيف بالصباح الذي انتقدها وقتها.

وكان كذلك مــن السباقين إلى استيعاب النظرية الذريــة والتي كانت في حينها طور النشوء فــأدرك أسرارها وتنبــأ بمستقبلها فأشار إلى (اليوم الــذي يستطيع فيه العلم أن يسيطر على نشاط العناصر المشعة ليس بعيــداً.. وذلك يثبت أن العقل البشري يسير في طريقــه للسيطرة على المــادة واستغلال الطاقــة الكامنة فيها..) /تموز ١٩٣٣/ [٣٤] وتابع: (يمكن استغلال هذه القوى في سعادة الإنسانية ورفاهية الجنس البشري) /شباط

/١٩٣٥/.(٣٥)

أمـا اختراعاته التي ناهـزت السبعين اختراع (٦٦ اختراع بمفرده وعشرة مشتركة مع آخرين). أي بمعدل اختراع واحد كل شهر ونصف وذلك إنجاز يخرج عن نطاق المعقول وسجل عام /١٩٢٨/ خمسة اختراعات وفي عـام /١٩٣٠/ سبعة اختراعـات وفي عام /١٩٣٣/ ثمانية اختراعات وفي عامه الأخير عام /١٩٣٥/ واحد وثلاثون اختراعاً!(٣٦) ونـترك للقارئ تقدير الأمـر، لو قدر لهذه الفرصة أن تكتمل.

ومـن هـذه الاختراعـات نذكـر منها وأهمها:

١- جهـاز ضبط الضغـط / ١٩٢٧/ وهو يعين مقدار القـوة الكهربائية اللازمة لتشغيـل مختلف الآلات، ومقـدار الضغط الكهربائي الواقع عليها.

٢- جهاز لنقل التيار المتبدل في المقوم الزئبقـي الفردي / ١٩٢٨/ وهو يعمل على ضبـط انتقال القوة الكهربائية في المقومات الزئبقيـة بدقة متناهية، كمـا يخفض من تأثير الفيضـ المغناطيسي علـى اللوحات المعدنية في الدارة الكهربائية الثنائية.

٣- جهاز التلفزة /١٩٢٨/ يستخدم تأثير انعكاس الإلكترونيات عن فيلم مشعع رقيق في أنبوب الأشعة المهبطية (الكاثودية) وهو جهاز إلكتروني يمكن من سماع الصوت في الراديو أو التلفزيون ورؤية صاحبه في آن معاً.

٤- جهاز للتلفـزة / ١٩٢٩/ يستخدم الشبكـة الكهروضوئيـة كضابط في أنابيب الأشعة المهبطية.

٥- جهاز نقل المناظر والصور/١٩٣٠/ وهو يستخدم اليوم في التصوير الكرهوضوئي وهـو الأساس الـذي تركز عليـه السينما الحديثـة ولا سيما (السينما سكوب) فضلاً عـن التلفزيون إذ إنه ينقل المناظر المتحركة والساكنـة بوساطة إطـلاق موجه من النور المكهرب التـي تنعكس بدورهـا على الآلة التي أطلقتها.. وبوساطـة الشبكة المعدنية القائمة داخل الجهـاز والتي تعكس الموجة الكهروضوئيـة أيضاً لتظهـر المناظر بشكل أوضح.

٦- جهاز للتلفزة يحول أشعة الشمس لتيار وقوة كهربائية/١٩٣٠/ وهو يعمل على تحويل أشعـة الشمس إلى طاقـة كهربائية مستمرة ويضعها في خزانات، وكان الصباح يأمل من وراء هذا الاختراع أن يحول الشمس في الصحـارى إلى طاقـة تعمـل على زرع الحيـاة في هذه الصحارى فضلاً عن تغذية الأقطار العربية كلها مدنها وقراها المتناثرة

بالطاقة اللازمة.

٧- جهاز التلفزة اللاقط بوساطة أنبوب شعاع الإلكترونيات /١٩٣٥/.

٨- جهاز(الاسيلوغراف) للأشعة (الكاثودية) الذي يسجل حادثات كهربائية تستمر أقل من جزء من المليون من الثانية /١٩٣٥/.

٩- الضوابط التي تحول دون انفجار القوس الكهربائي في المقوم الزئبقي /١٩٣٥/.

١٠- ولعل أهم اختراعات الصباح هي استخدامه شعاع الكهرباء لبث صور الأشخاص والأشياء على جناح الأثير، واختراعه البطارية الشمسية لتحويل أشعة الشمس إلى طاقة كهربائية حيث صناعة الأقمار الصناعية والمركبات الفضائية تقوم على التزود بالطاقة بوساطة نور الشمس، واهتمامه بهندسة الطيران وأمله أن يؤسس مصنعاً للطيران في إحدى الدول الإسلامية، هذا فضلاً عن اهتمامه بتصنيع بعض الأدوية التي تساعد على شفاء بعض الأمراض الجلدية ومنها دواء يصبغ جلد الوجه بالسيولة اللازمة و تمنح البشرة النعومة.[٣٧]

وكعالم رياضي بحث الصباح بحثاً مستفيضاً في الجوهر الفرد، فأبان في أبحاثه صحة نظرية أسلافه العرب المسلمين الذين شغلوا بتحويل المعادن الخسيسة إلى معادن شريفة، وترك آراء قيمة في هذا المجال.[٣٨]

وفاته:

في عز ذلك السطوع وفي أوج ذلك العطاء امتدت يد الموت إليه في حادث سير في /٣١ آذار ١٩٣٥/ ولا يزال الغموض يلف ذلك الحادث حتى الآن بسبب عدم وضوح ظروفه وملابساته، لاسيما أن الصباح كان يتفاوض مع أحد الزعماء العرب على بناء مزارع لتوليد الطاقة الشمسية لتحويل الصحراء العربية إلى جنة خضراء كما ذكر في رسالة بتاريخ / ٧ كانون الثاني ١٩٣٥/ وكان يعتزم السفر للمباشرة بذلك المشروع.[٣٩]

ولكن اللافت في هذا الأمر أنه وقبل وفاته بيومين كتب إلى أهله (..إني أجتاز الآن مرحلة صعبة وخطيرة وأسأل الله تعالى أن ينجيني من أعداء ألداء يكيدون لي...) / ٢٩ آذار١٩٣٥/[٤٠] وهكذا خبت من سماء العلم تجربة لم يقدر لها أن تتم فهذا ((الفتى العاملي)) كان يسمو بسرعة في تلك السماء، فمن يلقي نظرة على عدد اختراعاته وسرعة تواترها يستطيع تقدير تلك الخسارة، ومات -رحمه الله- وهو يعمل في خدمة العلم في

الغرب دون أن تفتنه تلك الحضارة أو يفتتن بها وقضى خالي الوفاض دون أن ينال في رغبته غير الحسد منه والكيد له ودون أن ينال من أمته إلا الصدود والإهمال. وهذا الرئيس الأمريكي يبعث له إكليلاً من الزهور تكريماً له عقب استشهاده كتب عليه (من الحزين فرانكلين روزفلت).[٤١]

كما بعث رئيس شركة (جنرال الكتريك) إلى أهله رسالة يقول فيها: (لقد برهن الأستاذ حسن كامل الصباح أثناء خدمته لشركتنا على أنه من أعظم المفكرين الرياضيين في البلاد الأمريكية وإن وفاته خسارة كبيرة لعالم الاختراع).[٤٢]

المصادر:

١-مجلة العلم والتكنلوجيا/العدد الخامس_حزيران ١٩٦٨.

٢-عبقري من بلادي/يوسف مروة – مؤسسة النعمان – بيروت- بدون تاريخ.

٣-المصدر السابق.

٤-المصدر السابق.

٥- المصدر السابق.

٦- المصدر السابق.

٧- المصدر السابق.

٨- المصدر السابق.

٩- المصدر السابق.

١٠- المصدر السابق.

١١- المصدر السابق.

١٢- المصدر السابق.

١٣-من أعلام الفكر الفلسفي الإسلامي/د.مهدي فضل الله- مؤسسة النعمان- بيروت- بدون تاريخ.

١٤- المصدر السابق.

١٥- المصدر السابق.

١٦-عبقري من بلادي/يوسف مروة – مؤسسة النعمان – بيروت- بدون تاريخ.

١٧- من أعلام الفكر الفلسفي الإسلامي/د.مهدي فضل الله- مؤسسة النعمان- بيروت-بدون تاريخ.

١٨- المصدر السابق.

١٩- المصدر السابق.

٢٠- عبقري من بلادي/يوسف مروة- مؤسسة النعمان- بيروت- بدون تاريخ.

٢١ المصدر السابق .

٢٢- المصدر السابق.

٢٣- المصدر السابق.

٢٤- المصدر السابق.

٢٥- المصدر السابق.

٢٦- من أعلام الفكر الفلسفي الإسلامي/د.مهدي فضل الله- مؤسسة النعمان- بيروت- بدون تاريخ.

٢٧- عبقري من بلادي/يوسف مروة - مؤسسة النعمان - بيروت- بدون تاريخ .

٢٨- المصدر السابق.

٢٩- المصدر السابق.

٣٠- جريدة صوت الأحرار/٣١ نيسان ١٩٣٢/ .

٣١- عبقري من بلادي/يوسف مروة - مؤسسة النعمان - بيروت- بدون تاريخ.

٣٢- المصدر السابق.

٣٣- من أعلام الفكر الفلسفي الإسلامي/د.مهدي فضل الله- مؤسسة النعمان- بيروت- بدون تاريخ.

٣٤- مجلة العلم والتكنلوجيا/العدد الخامس__حزيران ١٩٦٨/.

٣٥- المصدر السابق.

٣٦- المصدر السابق.

٣٧- المصدر السابق.

٣٨- من أعلام الفكر الفلسفي الإسلامي /د.مهدي فضل الله- مؤسسة النعمان- بيروت- بدون تاريخ.

٣٩- ملحق جريدة النهار /٢٥ تشرين الأول ١٩٩٤/.

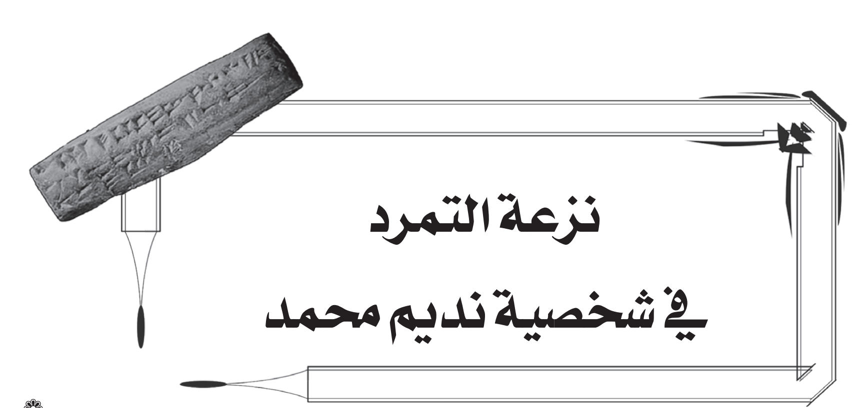
٤٠- عبقري من بلادي/يوسف مروة - مؤسسة النعمان - بيروت- بدون تاريخ.

٤١- المصدر السابق.

٤٢ - المصدر السابق.







نزعة التمرد في شخصية نديم محمد

حسين حمدان العساف ❊

بطاقة تعريف

ولـــد الشاعر (نديم محمـــد) في قرية (عين الشقـــاق) أو(عين الشقيق) التابعة لجبلة عام ألف وتسعمئة وسبعة. طويل القامة، نحيف الجسم، لم يكن على حـــظ من الوسامة، وإنما كان به تشويـــه أو دمامة، تثير سخرية إخوته منـــه. دخل (الكتّـــاب)، ودرسَ علوم الدين على يد الشيـــوخ، ثم تابع دراسته في فرنســـا، فنال إجازة في الأدب الفرنســـي من جامعة السوربون في باريس

❊ كاتب سوري.

العمل الفني: الفنان دلدار فلمز.

في العـــام ألف وتسعمئة وتسعة وعشرين، ثم نال الإجازة العامة في الحقوق بسويسرا عام ألف وتسعمئة وواحد وثلاثين، ولدى عودته إلى بلـــده عُين مديراً لناحيـــة (الشيخ بدر) التابعة لمحافظة طرطوســ، ثم تنقل داخل مـــلاك وزارة الداخلية، ثم عـــين خبيراً في وزارة الإعلام، وشـــارك في ندوات إعلامية في عدة دول. تعرّضـــ لصدمتين في حياته: وفاةِ أبيه ثم وفاه أخيه الصغير الذي أشرف بنفسه على تربيته، وأصيب بالسل، ثم تماثل للشفـــاء، ثم تعّرضت رئته لمرض، فاستؤصل جـــزء منها، ثـــم أصابه مرضـــ البروستات، أجريت له عدة عمليات جراحية، وأحيل إلى التقاعـــد أواخر الستينيات، تزوج ولم يعقب، وضـــرب الشلل زوجه، فماتـــت قبله بحوالي ثلاث سنوات.

شعره يعكس حياته

شعـــره دخان وعطـــر ومعانـــاة وألم. إنه (يغرفُ من قلبه، ويُعطي من دمه) كما وصفه مرة أبوه. وهذا ما تؤكده قصائده، له دواوين كثيرة جداً، بعضهم يزعم أنها تجاوزت المئة، منهـــا ديـــوان: (الرفاق يمضـــون) و(صراخ الثأر) و(فراشات وعناكب)، وله عدة دواوين بعنـــوان: (من حصاد الحـــرب)، ترجم عدد منها إلى اللغات الأوروبية، لاسيما الفرنسية، ولكن أشهر دواوينـــه (آلام) بأجزائه الثلاثة الـــذي يتألف من سبعـــة وسبعـــين نشيداً، يصفـــه الشاعر بأنه: (كـــون لاتساق شعري حافـــل بالتعايش العاطفي) بـــثّ فيه روحَه وآلامَه، وأزجى أناشيـــده للناس، وفيه نتف من النـــثر الشعري أو الشعـــر المنثور يصف فيها طبيعة قريتـــه، ويشير بعبارات خاطفة قليلـــة عن شخصه ومجتمعه اعتمدت عليها في هـــذا المقال، وأنا أقـــدِّر أن هذا الديوان وحده يؤهله أن يكون في عداد كبار الشعراء الرومانسيـــين في الوطن العربي، ورغم ذلك يجهلـــهُ اليوم أكثرُ أبناء بلده، ولمّا يمض على رحيله إلا سنوات قليلة، ويبدو أنَّ جهل الناس لـــه ولشعـــره كان الثمن الـــذي دفعه بسبب سلوكـــه وموقفه من المجتمع والسياسة. دفع هذا الثمن حيّاً وراحلاً. فضلاً عن زهده في الشهرة وعزوفه عن الأضواء.

وصفه الطبيعة وتعلقه بها

ويبدو لنا من قصائـــده تعلقه بالطبيعة لاسيمـــا طبيعة قريته الجميلة التي وصفها، وأكثر من وصفها، وأبدع فيه حتى صار هذا الوصف أحد مكونات مشهده الشعري، فقد حبـــا الله قريته التي أبصر فيها النور طيب المناخ وجمال المنظر وبساطة الحياة وصفاء العيش، فارتمـــى بأحضانها، وغدت بمثابة

الرئة التي يتنفس منها، والملاذ المريح الذي يلجأ إليه، فقريته تقع على سفح رابية تحيط بها سلسلة من التلال والجبال، وحواليها أكثر من نبع مـــاء ومصيف، تابعة لمنطقة (جبلة) في محافظة اللاذقية، تبعد عن مدينة (جبلة) اثني عشر كيلو متراً شرقاً، جوها لطيف منعش صيفاً، وبارد ماطر شتاءً. يصور نديم محمد موقـــع قريته نثراً تصويـــراً مشخصاً أقرب إلى الشعر، يقول: (قريتي التي تشبه ناطورة كـــرم لاطيـــة في سفح رابية، تميـــع ساقاها الرخوتـــان في سهلٍ منطلـــقٍ، تحسبهُ الفازع الهارب، وقد تخوَّفَ عثاراً، فامتد ساعداه، وتقوسا، وانفرجـــا يميناً ويساراً)، ثم يصور مشهداً آخر في قريته نابضاً بالحياة واللون والصوت والحركة:

ضيعتي
قصة الينابيع
والطيرِ
وهمس الغصون
للنسمات
ضيعتي
لوحة
من الفجر والليل
وناي الأعراس والرقصات.

وتمتـــد حواليهـــا سلسلـــة متواليـــة من الغابـــات، تكسو التلال وسفوحَ الجبال حللاً



جميلـــة من الاخضـــرار المتمـــاوج بمختلف أشجار السنديان والبلوط والحور والصنوبر وغيرها ما يؤنس العينَ، ويبهجُ القلب، فيقول في قصيده له بعنوان: (غاباتنا)

غاباتنا المردُ الحسانُ، الخضرُ، أعراسُ التلال
العاصرات زنودُها من ريفنا خَمْرَ النضال
كم عَطَّرَتْ غدواتِنا بالوحي من أفقِ الجمال
كم فرَّحت دمنا بدفْءِ العودِ أو بردِ الظلال
كم سَهَّلتْ عيشَ العيال، وفرَّجَتْ كربَ العيال

ويستعرض مشاهد أخاذة من حياة قريته التقطهـا بعدسة مصور بـارع نتخيلها الآن ماثلة أمامنا: الريفَ، الماءَ، الحورَ، السنابلَ، صفير الفلاح، القبرات، الخروف:

هي
في ريفها
منابتُ أفراح
وحسن
جوانباً وتخوما
ماؤها الشّهدُ
ليُلها النغَمُ
الخمرُ
لتحيي مُنىً
وتجلو غموما.

فهـو يعشـق طبيعـة قريتـه وريفهـا الجميل:

أعشق الحورَ
والذرا
والدوالي
طفراً في ظلالها
وجثوما
وجنى سنبل
ونارَ شواء
ودخاناً
يطير منها
غيوما.

ويشبه تصاعـد دخان نـار الشواء إلى الجـو بالغيوم، ثم يصور لنـا صفير الفلاح ومحراثه يفلِقُ خد الأرض:

وصفير الفلاح
والكوز.. في
الأرض
إلى أصل
أذنه
مطموما
وكأني أراه
يفلقُ خَدَّ
الأرض
محراثُهُ
مجداً عزوما

ثم يصور القـبرات، وهنَّ يتبعن خطوط محراث الفـلاح بحذر ليلتقطن حبَّ البذار، لاحظ دقة ألفاظه المعـبرة ورشاقة عباراته الشاعرة، لاحظ استخدامه الفعل (تزاقت) في مقطعـه التالي: (فتزاقـت وراءه قبرّات) كم كان دقيقـاً وموحياً لـك بصوت القبرة وتهيئتها للحركة؟.

فتزاقت وراءه
قبراتٌ
يتأثرن
خطوه المرسوما

حَذِراتٌ
يلحظن قدّامه
الحبَّ
فيكثرنَ
فوقه.. التحويما.

ويصور الطفلــة الفاتنة الوجه والخيمة المنصوبة فوق (تل) يتراكض حولها الأطفال، والخــروف الحلو(يثغثــغ) انظــر إجــادة استخدامه الفعــل (يثغثغ) لصوت الخروف في هذا المشهد المتحرك:

وخروفٌ حلوٌ
يثغثغ جَوْعان
فيرتدُّ صوته ترنيما

لكن هــذه الطبيعــة الجميلــة للضيعة والريــف لم تستمر كما أرادهــا الشاعر، ولم تعد تحافظ على جمالها وهدوئها، وبساطة إنسانها الذي كان (نديم محمد) يعهده فيها، وعاشــ ذكرياته في أجوائهــا النقية، وإنما أخذت طبيعة الإنسان والقرية والريف تتغير شيئاً فشيئاً نحو الأسوأ، وأخذ يتسرب إليها التلــوث والفساد، واعتــداء الإنسان عليها، وهذا ما استنكــره الشاعر الذي كان يدعو باستمرار إلى المحافظة على البيئة:

أين ريفي؟
وداعة
وحياءً
أين ريفي
وجهاً طليقاً
وسيما
أين إنسانه
العفيف كبسم الورد
والضوء
رونقاً
وشميما؟
كان ريفي
قلباً طهوراً
من الرّجس
وحُباً يسمو به معصوما
مسخوه تحللاً
وشيوعاً
وأحالوه.. نقمة
وشتيما
أنبتوه
قطيعة
وخصاماً
وجَنَوه
تزلفاً
ونميما
أين كانت
عيني ؟
ومن بَدّل

الريحان
فيها .. نفاية
وهشيما

❀ ❀ ❀

نزعته إلى التمرد

إن لجوء الشاعــر إلى الطبيعة الجميلة التــي تحيط بقريته وإكثــاره من وصفها في قصائده لا يعبر عن حبه لها فحسب، وإنما يعبر أيضاً عن تذمره من مجتمع تمرد عليه، عجز أن يتلاءم معه، فأعرض عنه، وارتمى بحضــن الطبيعة. وقد عــرف عنه مجتمعُ قريتــه نزعةَ التمــرد منــذ أن كان صغيراً، وكان شيوخ الدين يخشون على مجتمعهم من تمرده، فعشية سفــره إلى (مونبيليه) وقفوا بوجــه أبيه مطلقــين صرختهــم: (كفرٌ هو تعلــم اللسان، بخسٌ هو طعامُ الغرباء، ابنك خائس). وفي فرنسا تأثر نديم محمد بالحياة الجديــدة والأفكار التنويريــة، ورأى الفرق كبيراً بين مجتمــع ضيعته والمجتمع الجديد الــذي عاش فيه، بين حياة الغرب التي تنزعُ إلى التجديد والتقــدم واحترام حرية الفرد وحيــاة الشــرق المحافظةِ علــى كل ما هو قديم المتعصبةِ لعاداتهــا وتقاليدها، وحين عــاد إلى بلــده مندفعــاً إلى التغيير بنشاط الشبــاب ناقماً على الجهل ثائراً على واقعه المتخلف المريض، اصطــدم بمجتمع قريته المحافظ الذي وجد في هذا القادم إليه من فرنسا خطــراً على عاداته وتقاليده وقيمه، أراد مجتمعــه أن يحميها من تمرده فأقصاه جانباً، وشــدّد عليه الخناق. واتخذت نزعة التمــرد في شخصية نــديم محمد مظهرين بارزيــن في سلوكه، المظهــر الأول استهتاره بعادات مجتمعه واستخفافــه بقيمه، تجلى هــذا بوضوح في مجونه مــن خلال علاقته بالمــرأة وإدمانه على الخمرة والمظهر الثاني تمرده على الاستغلال والظلم والاستبداد

١- استهتــاره بعــادات مجتمعــه واستخفافه بقيمه:

وهنا يبرز دور المرأة في حياة نديم محمد، فيســأل سائل: كيف نظر نــديم محمد إلى المرأة؟ وكيف كانــت علاقته بها؟ المرأة هي المكــون الهام في مشهده الشعري، وهي عند شاعرنا إمّــا صاحبة يتمتع بها، ثم ينصرف إلى غيرها، أو حبيبة يخفق لها قلبه، فيميل إليهــا، وتحفل قصائــده بعلاقاتــه بالمرأة الصاحبــة العابرة أكثر من المــرأة الحبيبة، ويأتــي حديثــه عنهــا مترافقاً مــع وصفه الطبيعــة. انظر الآن إلى وصفه هذا المشهد الصباحي الباكــر بقريته في قصيدته (عالم يفيــق)، فإنه ما كاد قرص الشمس يرتفع

من مرقده، ويصعد إلى السماء متسعاً قليلاً قليلاً، ثم تتدفق أمواجُه لتغمر الكون ضياء ونوراً حتى يغدو الناس إلى أعمالهم، وتغدو جارة الشاعر الصغيرة تسوق خرافها إلى وادٍ سحيق أمّا المترفون، ومنهم صاحبة الشاعر، فـكان لا يوقظها من نومهـا في غرفته إلا لسعات شمس الضحى، فيقول:

كسلى! جناحُكِ أغرقته الشمس بالموج استفيقي
ضمّي الحرير على (غمام الزهر) في سفح الشروق
العالمُ الفرحانُ، يومىء بالمودة للمفُيق
والخادم السمراء، تنقرُ بابنا بيد شفوق
جاءت (بقهوتنا) وكأسينا وبالوجه الطليق
وثلاث وردات كعادتها على طبق أنيق
وهناك جارتُنا الصغرةُ، والخرافَ على الطريق
شعراتها البرصاء، تسبح في القميص من الشقوق
فرحانة، وتهم تصعد في السماء مع الرحيق
وخرافها تنسابُ جارية إلى الواد السحيق

في هـذه القصيـدة تبدو المـرأة، وهي المكـون الآخر الهـام في مشهـده الشعري كسلى، أضناها السهر، وهي تذكرنا بصاحبة امرئ القيس التـي كانت لا تستيقظ بثوبها الحريـري الرقيق إلاَّ عنـد الضحى، وحين تفيق كانت تضوع من فراشها روائحُ المسك:

وتضحي، فتيت المسك فوق فراشها
نؤوم الضحى، لم تنتطق عن تفضل

ومعروف أن الشاعر الجاهلي امرأ القيس كان أنفق في الشطـر الأول من حياته كثيراً مـن أموال أبيه الملـك في القصف والمجون والشراب، فـكان يلاحق النساء، من غير أن يدفعـه إليهن حبٌّ مخلص أو شوق صادق أو عاطفة متأججـة بقدر ما كان يدفعه إليهن طيش الشبـاب الماجن الباحـث عن المتعة والجنـس. لذلـك كان يقتحـم المخاطر في سبيل صاحبته أو حبيبته، فيفاجئها شخصه ليـلاً في مخدعهـا، أو يزاحمهـا نهـاراً في هودجها ليبلغَ منها مراده ·وكان امرؤ القيس يصف في شعره مفاتنَ صاحبته وعلاقته بها وصفـاً حسياً يخدش الحياء، ولم يكن (نديم محمد) بحاجة إلى تعريض نفسه إلى مخاطر امـرئ القيس حتـى يصـل إلى صاحبته، فالحيـاة اختلفـت، وكان بوسعـه أن يظفر بصاحبتـه متى شاء، وفي أي مكان بل تبيت في غرفته أيضـاً كلاهما ماجن خليع مبذر طائشـ، يبحث عن اللـذة والمتعة، وتضيء القصيدة السابقة (عـالم يفيق) جانباً مادياً في حياته، ففي منزلـه تقيم خادمة مهذبة على حـظ من الذوق والجمـال، تنقر باب غرفته نقراً خفيفاً عند استيقاظهما صباحاً لتقدم لهما فنجاني قهوة وكأسي ماء وثلاث وردات. وشاعرنـا نديم محمد نشأ في كنف

أســرة إقطاعية، لم يكن المال عنده إلا وسيلة لقضاء الحاجات، فلم يحرص عليه أو يسع إلى جمعه، وإنما كان ينفقه بلا تردد في لهوه ومجونه، وفي مرحلــة شبابه ورجولته يفجر تأثره بحياة الغرب بركان جنسه المكبوت في مجتمعه المحافظ، فينسف معتقدات مجتمعه وآدابه العامــة، وينزعُ عن المرأة ثوب السترِ، ويصفها وصفاً فاضحاً، ويرى المرأة في هذه المرحلة من حياته امتداداً لشخصية الرجل ذائبــة فيها، مخلوقة لمتعتــه وإشباع غريزته المتعطشــة إلى الجنس، وليســت مخلوقاً له كيانٌ مستقل وشخصيةٌ ذاتُ إرادة. من هذا الجانب كان شاعرنا ينظر إلى المرأة، ويعترف في قصيدته (شفتان) أنه جرب الحياة، وسلك مختلف طرقِها، فقارف الذنوب، وأسرف في المجون وغرق في الموبقات:

باللّه، جَرَّبتُ الحياةَ، وسرت في كلِّ الدروبِ
باللّه، قارفتُ الذنوبَ، وضِعْتُ في غمر الذنوبِ
باللّه، ذقت، وما شبعتُ من البعيد، من القريب

وفي استخفــافٍ ظاهر بــالآداب العامة يعلن نديم محمــد أنه داعية للمجون واللهو والشــراب، داعيــاً المــرأة إلى الانحــراف والتمرد على قيم مجتمعه ومعتقداته، إذا لم أقل داعيــاً إلى الإباحية، وفي قصيدته (في خيمتي) يقول:

في خيمتي ما شئتِ، من طُرَفِ السعادةِ والنعيم
علقتُ في أحنائها قمراً، ومن كلِّ النجوم
وملائكاً بشراً وفردوساً يُطلُّ على جحيم
في خيمتي خبزُ الحياةِ وخمرُها بيدي كريم
للصائمين الجوع
والندم الكثير
فلا
تصومي.

وهــو يلاحق النساء في كل مكان مغامراً سعيــاً للظفر بصيدته، ويتعقب في قصيدته (خَفَــر) فتاة شقــراء فاتنة في ظــل دالية، فيقول:

في ظلِّ دالية، وفي أرجوحةٍ، فُرِشَتْ بدفلى
حوريةٌ شقراءُ في حسن الضحى، وأظن أحلى
تصغي إلى موّال راعيةٍ، بجنب العين كسلى
أمّا أنا فأشدّ مئزرَها إليَّ، وقد تدلى
وألمُّها بيدي، إلى صدري فتغرق فيه خجلى
يا حسنَه خَفَرُ الأنوثة، ليته، لا كان، يبلى
أو ليتَ يومَ الطيبّات، وقد تولىّ ما تولىّ

ولم تسلــم مــن حبال غوايتــه حتى ابنة الاثني عشــر عاماً، ففــي قصيدته (الورد المجرّح) يقول:

قُبَلٌ على شفتين عهدهما بثديهما قريبُ
قللٌ صغار، كالنميلات الصغار، لها دبيب
زرعت بهنَّ فمي، وما تحت الفم البنتُ اللعوب
عشرٌ وواحدة سنينَ وأشهر.. عمر عجيب

فالمرأة عند نديم محمد مخلوقة للمتعة، يلهو بها ليلتــه، ثم يستبدلهــا بأخرى، كما تستبدلــه هي بآخر في الليلة القادمة، يقول في قصيدته (ضيف):

خمرٌ وقيثار، وليل، لا يريد لنا هجوعا
خضراءُ مائدةُ الشباب، تزاحمت ثمراً ينيعا
أنا ضيفُ حُسْنِكِ للصباح، وما أُريد له طلوعا
حسناءُ ليلتنا تَذوب، وما أظنُّ لها رجوعا
هي ليلةٌ، أطعمتها ثمرَ الضلوع، فلن تجوعا
وغداً أُبَدِّل غيرها، وتبدّ لين غداً ضجيعا

وعلى هــذا النحو يمضــي شاعرنا في مجونه ولهوه، متحدياً تقاليد مجتمعه وقيمه، ويحسب المرء أن ازدحام عالم شاعرنا بالنساء، لم يدع في قلبــه مكاناً للحب. والحقيقة غير ذلــك، فالازدحام عجز أن يمــلأ في حياته فراغــاً عاطفياً متعطشــاً إلى الحب والمودة والــدفء. وأيقــن أنّ المــرأة ليست مخلوقة للمتعة العابــرة فحسب، وإنما خلقت للحب أيضــاً. أحــبَّ الشاعر، ومَرَّ بعــدةِ تجاربَ عاطفيةٍ، باء بعضها بالإخفاق. ويحدثنا في القصيــدة التالية عن تجربة من تجاربه مع إحدى محبوباته (نجمة):

تحت صفصافة
على سندس
العشب
وفي نجوةٍ
من الواشيات
زحمتني بـ (نجمتين)
من الزنبق
أغفت عليهما
قبلاتي
ويميناً بالحُلمِ
قصته عيناها
على يقظتي
وبالرعشاتِ
لم يزل طعمُه
ألذ من اللذة
في خاطري
وفي ذكرياتي
كذبتني
أوهام نفسي
فما زلت
خيالاً عبداً
وراء.. فتاتي
لا يموتُ الهوى
بإغماض جفن
أو تسلٍّ
أو غربةٍ
أو شتاتٍ
إنه البرد
والحرارةُ

في صدري
وهذا البكاء
في أغنياتي
عالم الأمس
كلّه
(نجمة) بكر
أضاءت في أفقها
ظلماتي
هي والحب
في شبابي
وفي شيبي
جناحا عيشي
ونورا حياتي
فهما..
كلّ ما أحس
وما أنظرُ
من فتنةٍ
ومن فاتنات
شاب دمعي
من بعدها
وتناسيت وجودي
فما أحس
بذاتي
كيف نام الزمان
تحت جفوني؟
كيف يا ربُّ
لم أفق
من سُباتي!!
كيف أصبحتُ؟
لا فؤادي فؤادي
في هواه
ولا سماتي
سماتي
كيف أعمى
دربُ الفسوق
رشادي
كيف أهوى به
إلى الهاويات:

(آلام٣ النشيد التاسع والأربعون.)

و نرى الشاعر في مكان آخر يظل قلبه يخفق للحب والهوى حتى خريف عمره، فيقول:

أنا أهوى
نعم وأهواك
يا ضلة عمري
و.. يا هدى
أشعاري
أنا أهواك
لا جناحي
لواه الشيب
في ملعبٍ
ولا مضمارِ

عيّريني

خريف عمري

فلن تمحي

ربيع الجمال

عن آذاري.

((آلام ٣) النشيد السابع والأربعون)

أمـا الخمرة فهـي مكوّن آخـر لمشهده الشعري إذ قلّ أن تقـرأ له قصيدة دون أن تجد فيها إشارة إليهـا وإلى الكأس والغلام كما في قوله:

أين خمري؟

لهيُبها يبعث

الضعّفَ

جنوناً

من المنى

في جناحي

في ثنايا

حبابها

البيض الحُمر

قطوفٌ

من جنةِ الأفراح

أدمـن التدخين، وعاقـر الخمرة حتى أشفـق عليـه بعضـ أصحابـه، ونصحوه بالاعتدال فيها، إن لم يستطع الإقلاع عنها، رأفة بصحته، لكنه كان يرد عليهم:

والخمرُ خمري لا أُبَدِّلُ صِرْفها والكوبُ كوبي

يا من يعاتبني أنا وحدي المحاسَبُ في ذنوبي

فامسك لسانك وابتلع في الحلق لعنة مستغيب

اختار بإرادته معاقرة الخمرة سبيلاً إلى تغييبه عن الوجود، وقطع كل صلة له بواقعه هربـاً من همومه وآلامه متوهماً أنَّ إدمانها يحلّ مشكلته:

يا غلام الشرابِ

والسكر

حتى لا أبالي

حتى يتم انهزامي

اتركوني

أضيع في السكر

حتى الموت

حتى يصير

خلفي أمامي

وهكـذا يتبين لنا مما تقـدم أن مشهده الشعـري يتكـون في أغلب قصائـد ديوانه (آلام) من وصف الطبيعـة والمرأة ومعاقرة الخمرة.

٢- تمرده على الاستغلال والظلم والاستبداد:

إن استغراق نـديم محمد في رومانسيته ومجونه وقلقـه وهروبه من واقعه لم يصرفه عن التزامـه قضايا شعبه وأمتـه والدفاع

عنها. فقـد انحاز إلى طبقة الفلاحين رغم انتمائـه إلى أسرة إقطاعية، يملأ الفلاحون أرضها والخدم بيتهـا، وأشاد بجهد الفلاح في إحيـاء الأرض، وعـبّر في شعره عن حبه له وفخره به، ولعلنـا مازلنا نذكر قصيدته الشهيرة (فلاحُنا) التي كانت مقررة في كتاب القراءة والنصوص لمنهاج المرحلة الإعدادية، يقول فيها:

في موكب الفجر الطلق، يسير حُرّاً كاليقين
وأمامه ثوران شاخا في العراك مع السنين
ويلفّ هيكلهُ المتينَ، بدفتي ثوب متين
وعباءة بتراءَ، يعصبُها بزنارٍ ثخين
ويغيبُ فيها تبغه، والزادُ من خبز وتين
رضوانَ، حُبُّ الأرض سرُ غنائه العذب الرنين
أرأيت كيف يضمها؟ وترقُّ كالأم الحنون
عجلان، يسبح كالشراع من الشمال إلى اليمين
والقبراتُ على الجراح الخضر تسرح بالمئين
ويعود أزهى من جناح النَّسْرِ مرفوعَ الجبين
منْ خلفه بنتاه تنسحبان في صمت رزين
وضمامة العشب النضير، كفاء عجلهما السمين
فلاحنا الإنسان أغلى في العيون من العيون

وكسـر الحاجـز الطبقي بينـه وبينهم، فتزوج من إحدى خادمات أهله متمرداً على عـادات مجتمعه، مما أثـار سخطهم عليه، وأكـثر من ذلـك وقف مدافعـاً عن الفلاح مصوراً ظلم الإقطاعي له كاشفاً بؤسه. وفي قصيدتـه (نداء الفأس) صـوّر نديم محمد بأسلـوب قصصي رشيـق كابوس استغلال الآغا المرابي الجاثم على صدر الفلاح الذي حوّل حياتـه جحيماً لا يطاق، فأهل الفلاح مرضـى لا يجدون ثمنَ العـلاج وجوعى لا يجدون ما يأكلون، يرقدون في بيت متصدع آيل إلى السقـوط، يدلف سقفه شتاء، وبابه ونوافـذه متشققة تصفر فيهـا رياح البرد القارسـ، لقد أدرك الشاعر طبيعة الصراع بـين الأقويـاء والضعفـاء وبـين الأغنياء والفقراء في مجتمعه وبلـده، أدرك أنَّ نعيمَ الأغنياء ورفاههم وعزَّهم مبني على أنقاض جحيم الفقراء وشقائهم وذُلِهّم، ففي قصيدة (صراع ولكن) يقول:

في حيّنا المسكين، قصْرٌ يكسرُ العينَ ارتفاعا
ألواحُ مَرمَرِه الزواهِرُ، تخطفُ البصرَ التماعا
والرافعون عمودَه في الجو يفترشون قاعا
وعلى غبار الأرض في ظلماته، رقدوا جياعا
وفراخهم فوضى على الأبواب، يزقون ارتياعا
متزاحمين بأرجل، متشابكين يداً وباعا
حمي الهجير، ولا كواسب يرجعون ولا متاعا

وانحاز أيضـاً إلى جماهير شعبه وأمته، فقد عاش نديم محمـد خلال عمره المديد مراحل سياسية متعاقبة على بلده وأمته منذ

فترة الاحتـــلال الفرنسي لسورية حتى عهد الاستقلال الذي شهــد في بدايته انقلابات عسكريــة، تلتهــا اضطرابــات سياسيــة وتهديــدات خارجيــة. رأى في هذه المراحل السياسية المختلفة الكذب والانتهاز والنفاق السمة البــارزة في العلاقــات الاجتماعية، فانتقــد الحكومات المتعاقبــة على بلده، ولم يمالئها، ورأى تجار المبادئ ومزوري الحقائق يسيطرون علــى واقع مجتمعه وأمته، يقول: (عشت لأرى القبحَ النفســي، وأشهد الكره الرخيصــ، عشت لألمِسَ الكــذبَ في القول والغشَ في المعاملة والسرقة.. عشت لتصدَعَ قلبي وتَطرِفَ عيني مناظرُ الخيانة وتجارةُ المبادئ وبطولة الجبناء وإباءُ الأذلة وسيادة العبيد. ويرى أنّ الطريق إلى تحرير فلسطين لا يكــون إلاَّ بعــدَ تحرير أنفسِنــا من زمر الخيانــة والاستغلال والاستبداد في الداخل وتحرير الدين من المتاجرين به:

درب العظائم غير هذا الدرب، للجيل العظيم
لّموا الضميرَ عن القمامة، وافرشوه على الغيومْ
كبّوا خيانات الملوك إلى قرارات الجحيم
دوسوا على الدولار شاري النذل والجاني الأثيم
حُلوا عقال الدين من غرض المتاجر واللئيم

ويتفجــر الشاعــر غيظاً وحزنــاً لما ألم بأمته، فهو يرى أن الاستعمار نهب خيراتنا، واحتل بلادنا، وأنه يتغلغل في مرافق حياتنا، يعيش في عقول أتباعه وقلوبهم داخل الوطن العربي، ويــرى أنَّ تحرير الأرضــ العربية منــه لا يتحقق بالتباهي بأمجاد أجدادنا ولا بالشعــارات البراقة ولا بالخطب الحماسية المدويــة في المناسبــات ولا بالمزايدات التي ملأت حياتنا، فــلا تصدقوها، وإنما ينتزع بالقوة انتزاعاً، لأنّ النصر في النهاية للأقوى الذي يفعل ما يشاء:

أصغي، نعم! وأرى، وأشعر، أنني أتفجّرُ
صوتٌ يَرِنُّ، وأذرع سَكرى، تطولُ وتقصُرُ
شَرِفَان.. أزهى ما يروح به الشباب، وأنضَرُ
والأعجَميُ اللّصُ في أثوابنا يتنكرُ
ظمآن يشرَبُنا، وتجري في يديه أنهُرُ
وعلى الثنايا الخُضْر من حطينَ وحشٌ يهدُرُ
ومن اللواء يهبُّ وحشٌ آخرُ، ويزمجرُ
وابن (الجدود الأكرمينَ) على المنابر يزأر
لا تعصروا آمالكم من زهوه، لا تعصروا
بسلاحكم والعزم، يطوي في ذيله المستعمرُ
لاتُنكروا، بالعسكر المعدود، يُهزَمُ عسكرُ
النصرُ لا يُعطى، ويفعل ما يريدُ الأقدرَ

وفي قصيدته (العيش حق) يحرّض نديم محمــد جماهيرَ الشعــب المخنــوقَ صوتها المصوصَ دمها المغيّبة عن دورها في ساحة الفعــل والتأثــير أن تنتفض بوجــه طغاتها

ومستغليها لتنال حريتها، وتعيش حياة حرة آمنة، وترسم طريق مستقبلها بنفسها:

يا شعبُ، ماءَك والطعامَ، ولا تمُتْ ظماً وجوعا
نيرون أطلق نارَه الحمراءَ تلتهمُ الربوعا
وتلوّث الغدران أظفرُها، وتنتزع الربيعا
والراكبون على سفينك، مزقوك لها قلوعا
فجَرَت مسخرةً إلى أهدافهم، جرياً سريعا
يا شعبُ، حقك أن تعيش، وما لحقك أن يضيعا
فابسط جناحك للرياح، ولا تكن نسراً وضيعا

وانتهى تمرد الشاعر على واقعه الاجتماعي والسياسي الذي عبّر عنه بالمجون تارة وبمناهضته الاستغلال والاستبداد تارة أخرى إلى اعتزاله المجتمع واغترابه عنه، وأخذت نفسه المعذبة تغرق في لجة القلق والإحباط حتى صارت حياته موتاً وموته حياة:

أنا أمضي
كالتيه
في قلب صحراءَ
وأجواءَ غربةٍ
حالكات
غيرَ البؤسُ
فطرةَ الحسِّ
في خُلقي
فموتي عيشي
وعيشي مماتي

وبعد تجاوزه الأربعين استأجر منزلاً في طرطوس، عاش فيه وحيداً منعزلا عن الناس إلاَّ من خاصته الذين يترددون إليه، وتردت أحواله المادية، فذاق مرارة الفقر بعد نعيم الغنى:

ذبحَ الفقرُ
أحرفي
وجلا غيمي
وشبَّ الحريقُ
في أندائي
صوره البؤس
جمرةٌ بين
جفني
ونصلٌ يعُضُّ
في أحشائي
وذراعي
يشِلُّها الداء
والضَعفُ
وكفي تفلها
كبريائي

وأرغمه الفقر مكرهاً على قبول مساعدةِ بعض أصحابه له سراً، لكنه ظل رغم ذلك محافظاً على تماسكه. كان بوسعه أن يطرقَ الأبوابَ التي يهرول إليها الآخرون، فيتكسب بشعره، أو يذعن لخصومه، ويتملق حكامه،

ويعــزف على أوتارهم، ولــو فعل ذلك لكان صعد بين عشيةٍ وضحاها إلى منصب رفيع وعيش رغيد، فتقبل عليه الحياةُ بحلاوتها، وينجلي عنه شبح الحرمان، وتتسلط عليه أضــواء الشهرة، وينتشر شعــره، فتحفل به الكتــب والصحف والمجــلات، وتكتب عنه الأقلام، كان مطلوباً منه أن يظهر على غير حقيقته حتى تنفتِحَ له أبوابُ الشهرةِ والمال، حاول من تمرد عليهم شــراءه، فرشوا دربه بالحرير، وأغروه بمــا لذ وطاب، لكنَّ نديم محمد ليس من هــذا الصنف من الشعراء. إن الشعر عنــده رسالة ومبدأ، وليس تجارة وانتهازاً.

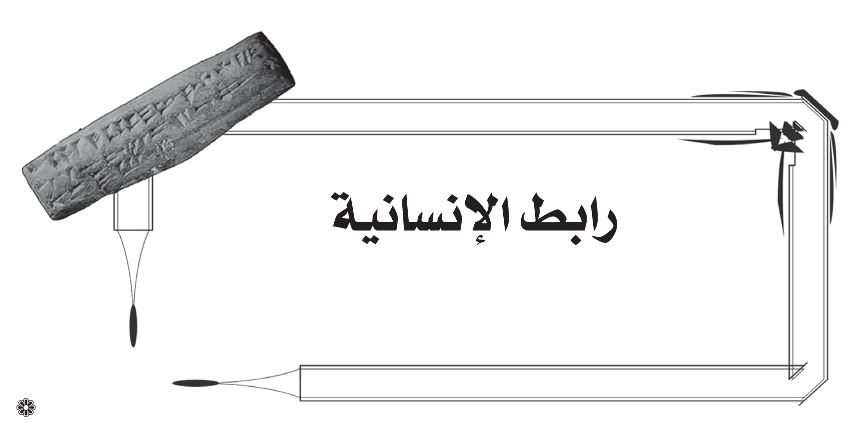
فرشوا بالحرير
دربي
فلم ألبس
وتُكسى بُعريها
نعمائي
أثقلوا بالجنى
يديَّ
فلم يُطِعمْ شقائي
وعاش فقري
ودائي
لست فكراً
عبداً
ولا شعرَ إحسانٍ
فتشدو به قيانُ السخاء.

(وشيئاً.. شيئاً.. وقع في الكبت)، فتفاقم عليه، واصطلــى بجحيمه المستعــر إلى أن رحل عن الدنيا أواخر كانون الثاني عام ألف وتسعمئــة وأربعة وتسعين عن سبعة وثمانين عاماً، ودفن في (جبلة).









رابط الإنسانية

عبد الباقي يوسف ❊

استهلال

رابط الإنسانية هو رسالة انفتاح الإنسان على بعضه البعض، وليس رسالة انغلاق وتقوقع كل قوم أو كل مجتمع على نفسه والعيش في دائرة مغلقة لا يستطيع حتى الطير أن يخترقها.

رابط الإنسانية هو رسالة تحاب أبناء آدم جميعاً على سطح الأرض، وليس رسالة تباغض وتنافر.

❊ أديب وباحث سوري

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

جاء هـذا الرابط ليزيح دواعي الفرقة ويضع دواعـي اللقاء ويبِّـين للإنسان بأنه فقير بدون الآخرين مهما كان ثرياً، وضعيف دونهم مهما تبدّى له بأنه قوي.

لو تـرك الإنسان نفسه علـى فطريتها لكفاه ذلك أن يعيش بسلام، لكنه دوماً يدفع أثماناً باهظة نتيجـة تدخله في شؤون هذه الفطرة.

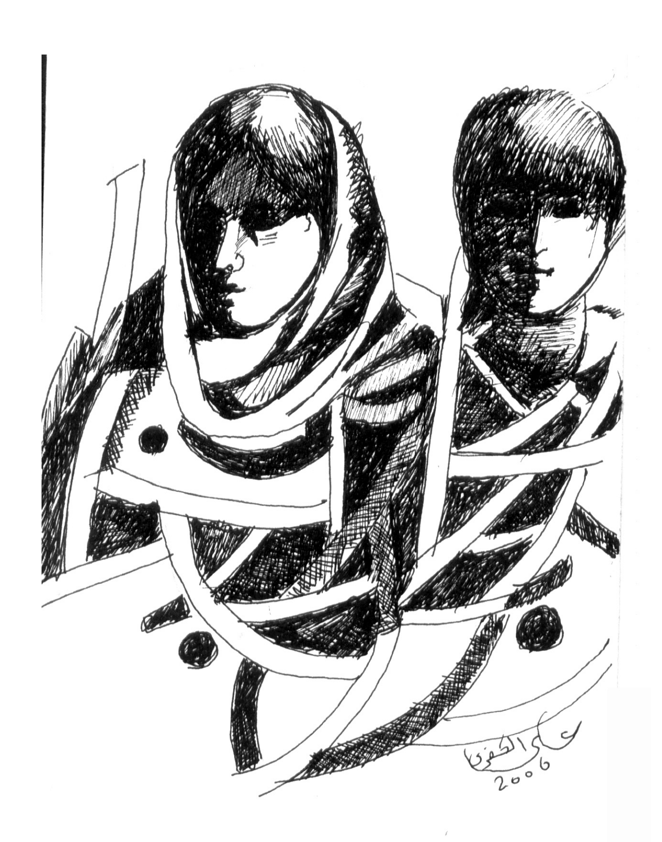
إن القاعـدة الثابتـة تقول بـأن سكان الأرض هـم شعوب وقبائـل، يتفرعون إلى عـروق وأشكال ولغات وأديان، يتفرعون إلى تركيبات وطبائع وثقافات وحضارات، وهم يستمـدّون غناهم وتجدّدهم واستمرار يتهم من هذا التنوع الثري.

استطاعـت بعض مجتمعات الأرض بعد قرون من التفكـير والتجارب أن تقتنع بهذه القاعـدة الإنسانيـة، واستطاعت أن تصوغ القوانـين التـي تؤمّـن للشعـوب والقبائل والأديان العيش بحرية وكرامة، حتى تمشي امرأة سافرة في الشارع، فتمشي بالقرب منها امرأة مجلببة، حتـى يتجه رجل إلى خمّارة، وبالقـرب منه يتجه رجـل إلى بيت عبادة. إلى جانـب عقائد ومذاهـب وأفكار وطرق مختلفة، فنحـن في حقيقة الأمر ضيوف في عـالم واحد، أبناء زمن واحـد كما نحن من صلب رجـل واحد. فخطتْ هذه المجتمعات خطوات طيبة في التعامل الإنساني والعدالة والمسـاواة والتقدم وأصبحـتْ بالفعل غنية بهـذا النسيج المجتَمعي والتنوعي من أرجاء الأرض كافة.

لأن قرية ليس فيها غير مجموعة أقرباء من لغة واحدة وقبيلة واحدة فقط هي قرية ميتة.

أهمية التواصل الإنساني

لدينا بعض الأمثلة وقعتْ بحكم جغرافية المـكان، أو فرضتْ نفسهـا فرضاً في أنحاء من هذا الوطن، فمثلاً نرى المدن الساحلية التي تقع على البحـار سواء في شرق البلاد أو غربهـا أكـثر انفتاحا ونضجـاً وامتلاء بالحياة والخبرات ومنها يصدر شعاع الوعي الفكري والحضاري، وما ذلك إلاّ بسبب كثرة الاختلاط مع مختلف سكان العالم والانفتاح على شرائح هائلة من المجتمعات البشرية من خلال ساحلية المكان الـذي يجلب البواخر مـن كل بقـاع الأرض، من كل بحـار العالم، فيتحقق بشـكل تلقائي الاختلاط والتلاقح الاجتماعي والفكري والحضاري والإنساني، وهؤلاء أيضاً يمكن أن يتبادلوا الهدايا فيما بينهم.



إن أكثر الناس انفتاحا هم أولئك الذين ولدوا وترعرعوا على سواحل البحــار الكبرى، بينما المدن التــي تكون بحكم جغرافيتهــا في الصحــارى أو الجبال تبقى عرضة لكل أمراض التخلف والتقوقع والتراجع في دائرة ظلاميتهــا وانغلاقيتها، وكذلــك عنجهيتهــا وقبليتها وتعصبها. ويمكن أن نلمح شيئاً كهــذا في غالبية الــدول التي يربــط بينها الخليــج العربي، فنرى انفتاح هــذه الدول على ثقافــات وحضــارات حتى لو كانت بعيدة عن ثقافة وحضارة سكان هذه المجموعة الخليجية.

جــاءت الثقافــة مناديــة بالمحبــة بين سكان الأرض أجمعــين، وداعية إلى انفتاح علــم الإنسان مــن كل البقاع علــى بعضه البعض وإزالة الحواجز بين الإنسان وأخيه الإنســان وقد تنبهت الأديان إلى أهمية هذا الرابــط الإنساني ودعت إلى تعزيزه: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم». وفي حديث للنبي: «ليس لعربي على أعجمــي ولا لأسود على أبيضــ فضل إلاّ بالتقوى» و« الناس سواسية كأسنان المشط» و« الخلق كلهم عيال الله».

هذه الأخوة هي التي جعلت النبي يقول في سلمان وهو «فارســي» وكان عبداً اشتراه من امرأة يهوديــة وأعتقه: «سلمان منا أهل البيت» [1] وأذن كذلــك لبلال «الحبشي» أن يطــأ بقدميه سطح بيــت الله العتيق ليؤذن وهو عبــد أجنبي، وثمــة حادثة وقعت بين

عمـــار بن ياسر، العبد المعتـــق، وبين عثمان ابن عفـــان سليل البيت الأمـــوي وكان ذلك في أثناء بنـــاء مسجده صلى الله عليه وسلم فقال عثمان لعمار:«إني سأراني أعرض عن العصا لأنفك». ومما قاله النبي عندما علم بذلك:« ما لهم ولعمـــار يدعوهم إلى الجنة ويدعونـــه إلى النار، وإن عماراً جلدة ما بين عينـــي وأنفي».وفي حادثـــة ثانية بين عمار وبـــين خالد بن الوليـــد المخزومي القريشي قال خالد لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتترك هذا العبـــد الأجدع يشتمني. فأجابه النبي: يا خالد لا تسبّ عماراً، فإن من سب عماراً سبّه الله ومـــن أبغض عماراً أبغضه الله، ومن لعن عماراً لعنه الله.

صحراء العزلة

إن الربيـــع مهما ارتوى مطراً وخصوبة فإنه سيلبث باهتاً إذا اقتصر على نوع واحد من الأشجار، ونوع واحد من الطيور، ولكنه يكتمل ويثرى ويبلغ جماليته على قدر ما فيه مـــن تنوع أنواع الزهـــور والأشجار والطيور التي تغرّد فيه.

إن أي مدينة من مدن العالم مهما بلغت من غنى، فإنهـــا ستكون ميتة وتنطفئ المصابيح في بيوتها إذا كانت بلغة واحدة، وعرق واحد، وشعب واحد، وقبيلـــة واحدة، ونمط واحد من التفكير. ولكـــن التنوع البشري والفكري والقومي يحيل حتى الصحارى القاحلة إلى ربيع بشري لانهاية له.

إذ ليس ثمة أسوأ من الانعزالية والتقوقع علـــى الـــذات والنظر إلى نصـــب مزيد من الحدود والتقسيمات التي تفصل بيننا، وهو سير عكسي، ودعوة مشبوهة نحو مزيد من تشتت. لاشيء يبرر فصل الإنسان عن أخيه الإنسان، لكـــن كل شيء يبرر انفتاح الإنسان على الإنسان. حتـــى الإسلام الذي هو آخر وخـــاتم دين لم يتدخـــل لفصـــل الناس عن بعضهـــم، بل تركهم ينفتحـــون على بعضهم حتى لـــو رفضـــوا أديان بعضهـــم البعض. فالإســـلام لم يمنـــع المسلـــم أكل ذبيحة أهل الكتاب، لم يمنعه من طعامهم وشرابهم وتعلّم لغاتهم والعيش في بيوتهم ومجتمعاتهم، بل لم يمنع المسلـــم الزواج بامرأة خارجة عن دينه وهي تصرّ على دينها، فلا يجوز له بأي حال أن يرغـــم عليها الخروج مـــن دينها لتدخل دينـــه، أو الخـــروج من لغتهـــا لتدخل لغته، وليس هناك ما هو أهم من العقائد والأديان ولكنها لم تمنع الإنسان من الإنسان فلا يجوز للمسلم بأي حال من الأحوال أن يشتم راهباً

أو قسيساً أو أي شخص من أهل الكتاب، وليس هو ولكن دينه ينهاه عن ذلك ويدعوه إلى التصاهر والتعايش والتحابب.

ليس هناك من سبيل إلاّ بناء مزيد من الجسور بيننا، أن تنفتح بيوتنا على بعضها، لغاتنا على بعضها، ثقافاتنا على بعضها، وحتى دبكاتنا ومأثوراتنا الشعبية على بعضها، أن يرتقي بعضنا ببعض.

كل واحد لديه ما ليس لدى الآخر، وما يفتقر إليه الآخر، وأي محاولة لإلغاء خصوصية الأخر هي خسارة حتى للقطط التي تعيش بيننا.

إن الثقافة والحضارة والاكتشافات البشرية هي ملك للجميع. فمَنْ هذا الذي يمنعك من تناول وجبة غذاء من اللحم بطريقة توصلتْ إليها سيدة تعيش في ستوكهولم

لا حرج عليك أن تغنّي أغنية يغنيها غيرك، أن تأكل طعاماً طهاه غيرك، أن تلفظ لفظاً لفظه غيرك، أن تقرأ كتاباً كتبه غيرك، أن تنتفع بتقنية أتقنها غيرك، أن تنام في بلد هو لغيرك.

إن الحياة برمتها ستكون باهتة فقيرة مظلمة إذا اقتصرت على شعب واحد ولغة واحدة ولون واحد من الإنسان، وكان بإمكان الله أن يجعل نبياً واحداً ولغة واحدة وديناً واحداً، ولكنه شاء أن يمنح الحياة كل هذا التنوع لتغدو غنية بهذا التنوع البشري الهائل، وكان يمكن لثلاثة آلاف سنة تكفي لوضع نهاية لهذه الحياة البشرية، لكن الحياة تغدو أكثر نضارة وروعة وتجدّدا مع كل ألفية بشرية جديدة. إذن، الحياة مليئة بالعلم والأمية، بالإيمان والإلحاد، بالأديان والمذاهب، بالشعوب والقبائل واللغات.

لقد اغتنت الحياة بكل هؤلاء ليغنوها ولتستمد الحياة غناها وثراءها من نبضات هذا التنوع.

إن العالم لن يكون ثرياً إلاّ من خلال انفتاحه على بعضه البعض والناس في أي بقعة كانت لن يكونوا أثرياء ما دامت أبواب مدنهم مغلقة أمام الآخرين. إنماينقصنا هو أن نزيح هذا الخوف من أعماقنا، وكأن الآخر هو وحش على وشك افتراسنا.

إن أسوأ انتهاك لحقوق الإنسان هو أن يُمنع هذا الإنسان من الذهاب إلى أخيه الإنسان في بُقاع الأرض والتعرف به قبل أن يموت وأن يُرغم هذا الإنسان على البقاء في قرية أو مدينة أو دولة بقوة السلاح، وأن

يُرغم أن يقبل العيش على النمط الذي يُفرض عليه، وأن يُرغم أن ينافق فيقول في العلن ما يُنافي قناعته.

لكن مايسر ويغبط هو أن أماكن طيبة من كرتنا الأرضية استطاعت أن تتخلص من هذه التركيبات الدخيلة، وأن تقدّم أمثلة بشرية ساطعة تنادي بأن الإنسان لم يخسر نزاهته كاملةً وأنه يمضي نحو الرقي في المعرفة والانفتاح والحضارة. إذن علينا أن نتعلّم من الآخرين ما لانعلمه.

الأمر الآخر الذي أريد أن أضيفه هنا هو أن المجتمعات التي تخل بشروط الوجود البشري على سطح الأرض فإنها ذاتها تدفع ثمن هذا الإخلال فتعيش حالة من الخلل واللاتوازن تدفعها نحو شخصية اجتماعية ازدواجية في المجتمع البشري.

شمس الشرق

يقول ول ديورانت: «تزعم الإسلام العالم كله في إعداد المستشفيات الصالحة وإمدادها بحاجاتها، ومعالجة المرضى بلا أجر وإمدادهم بالدواء من غير ثمن. وكانت المستشفيات تحتوي على أقسام منفصلة لمختلف الأمراض وأخرى للناقهين، ومعامل التحليل وصيدلية وعيادات خارجية ومطابخ وحمامات ومكتبة وقاعة للمحاضرات، وأماكن للمصابين بالأمراض العقلية». (٢)

وتروي المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: «إن البيمارستانات× كانت تقدم من موازنتها لكل مريض يدخل إليها مسلماً أو غير مسلم، فيعافى ويخرج منها خلال فترة النقاهة، وكانت تقدم له مرتباً شهرياً يتناسب مع دخله قبل المرض، ويدوم هذا العطاء لمدة ستة شهور قابلة للزيادة وذلك لأن المريض الناقِه لايستطيع أن يرجع إلى عمله بمجرد خروجه من المشفى. فهذا التأمين لم تصل إليه أرقى الدول الحديثة حتى العصر الحاضر».

أمام سطوع هذه الشمس أصبح الناس يتفاخرون سواء من داخل الشرق أومن خارجه. يقول ول ديورانت مرة أخرى في قصة الحضارة:«في زمن الخلفاء الراشدين مُسحت الأراضي واحتفظت الحكومة بسجلاتها وأنشأت عدداً كبيراً من الطرق وعنيتْ بصيانتها، وأقيمتْ الجسور حول الأنهار لمنع فيضانها، وكانت العراق قبل الفتح الإسلامي صحراء جرداء، فاستحالت أرضها بعده جنات فيحاء، وكان كثير من أراضي فلسطين قبل الفتح رملاً وحجارة،

فأصبحت خصبة غنية عامرة بالسكان». وقد أقام الإسلام جزءاً من دولته في الأندلس ما يزيد عن سبعمئة سنة متواصلة، فقدّم لهذه البلاد إنجازات إسلامية هائلة على الأصعدة كافة، لقد بنوا المكان وأحسنوا إليه وأحسنوا إلى كل حي يقيم فيه وحتى إلى الزراعة والجماد حتى باتت تلك السنوات الذهبية تُعرف في تاريخ الأندلس بـ الحضارة الإسلامية في الأندلس، وديورانت نفسه يصف هذه الحضارة بقوله:«القباب المتلألئة، والمآذن المذهبة جعلت بلاد الأندلس في القرن العاشر الميلادي أعظم البلاد المتحضرة في العالم كله في ذلك الوقت. وكان زائرو مدينة قرطبة يُدهشون من ثراء الطبقات العليا ومما كان يبدو أنه رخام عام». لم يكن في ذاك الوقت مَنْ يفكّر إلاّ بالإحسان والعمل الطيب وتقديم الخير ويُذكر أن الهندسة الإسلامية استطاعت في ذلك الوقت أن تقيم جسراً من الحجارة ذا سبعة عشر عقداً على نهر الوادي الكبير.

«وأنشأ عبد الرحمن قناة تحمل إلى مدينة قرطبة كفايتها من ماء الشرب تنقله إلى المنازل، والحدائق والفساقي والحمامات واشتهرت المدينة بكثرة الحدائق والمتنزهات».

ويقول جان بول رو: «لقد وصل العرب في ميدان الصناعة الكيمياوية إلى مرتبة عالية، فاستخرجوا المعادن وعملوا في الصناعة الزراعية مثل صناعة السكر، وعنهم أخذتْ فرنسا الناعورة، وطاحونة الهواء وصناعة الأسلحة، والأقمشة، وفن العمارة، والبحرية، وعلم الفلك، والرياضيات، والطب، والتجارة، والإدارة، والموسيقى». [٣]

أما كانط فيقول: «أخذت مبادئ التنكرية العقوقية تضمحل في بعض أرجاء أوروبة بعد ظهور العربية الإسلامية في الأندلس التي سطع إشراقها من وراء جبال /البيرنه/ إلى أواسط فرنسا، فتناول طلاب التجدد التعاليم الاجتماعية البارعة التي انبثقت عن الحضارة العربية العظيمة وأخذوا في تبنيها، فأيقظت فيهم رويداً رويداً شعور مكافحة التنكر والغرور، واستبدالهما بطلب التجدد، وظلت هذه الميول تختمر في الرؤوس حتى ظهرتْ بوادر الثورة الفرنسية الثانية، وأعقبتها الثالثة. وماهَلّت طلائع القرن التاسع عشر حتى تسربتْ تعاليم الروح الاشتراكية إلى المجتمع الأوروبي، وكان ذلك أول تقليد شريف للعرب والإسلام تجلببتْ به أوروبة لتخطو خطواتها الكبرى في سبيل

تنظيم حياة شعوبها السياسية والاقتصادية والاجتماعيـــة». والأوضح من هذا أن المؤرخ الإنكليزي جـــون دوانبورت انتهى به تأريخه إلى أن قـــال في نهاية المطاف: «لو لم تقم في جنوب أوروبة الحضارة الأندلسية العربية، لظلت هذه القارة تسبح مع شعوبها المختلفي النحـــل والنزعات في حلك من ظلمة الجهل والبـــداوة، ولما ظهـــرت للمدنيّـــة الأوروبية الحالية من أثر في الوجود».

والواقع إن هذه الدولة التي أسست للعالم الحديث وكذلك للمدنيـــة الحديثة انبثقت عـــن التعاليـــم الإنسانيـــة الخالصة، وهذه التعاليم قبـــل كل شيء بدأت بغسل الإنسان من براثن العزلة ليكون صالحاً وقادراً على بناء العالم.

في سيرتـــه الذاتية يسرد مالكـــوم إكس عـــام ١٩٦٤: «لقد مـــنَّ الله عليَّ فحججتُ البيـــت وطفتُ بـــه وشربت من مـــاء زمزم وسعيت بـــين الصفا والمروة وصليت في منى ووقفت بعرفات مع عشرات الآلاف من الناس القادمين من كل أرضـــ، والذين يمثلون كل درجـــات الألـــوان البشرية مـــن الشقر ذوي العيـــون الزرق إلى الأفارقـــة السود، فأديت معهم المناسك نفسهـــا في إخاء ووحدة كنت أحسب مـــن تجربتي في أمريكا أنهما أمران مستحيـــلان بين الإنسان الأبيض والأسود».

في كتابه «رحلة حاج أمريكي إلى مكة» يقول مايكل وولـــف: «رحلة تعطي الفرصة للحاج ليستعـــد شيئاً من المساحة النقية في حياته. هذا كشيء مركزي في هذه الفريضة هو أمر ثمين جداً لأننا جميعاً نضيع في هذا العالم». وفي حوار لجريدة «ســـان خوزيه ميركوري» الأمريكيـــة يقول وولف: «عندما ترى الكعبة لأول مرة تنظر إليها بعد أن تكون قد صليت باتجاههـــا لسنـــوات لتجدهـــا رائعـــة جداً وجميلة جـــداً. الناس دائمـــاً يبكون عندما يرون الكعبـــة بالرغم من كونها مبنى مربعاً بسيطاً. عندما تؤدي الطواف تشعر بإحساس عظيم مـــن السمو الروحي، ولكن في الوقت نفســـه تحس بالتجمع الهائـــل والتكامل مع الآخرين وهـــذا يجعلك تسمـــو روحياً دون أن تشطح عن حـــدودك الجسدية واتزانك الطبيعي».

أوتار المحبة الإنسانية

تلـــك الأوتـــار التي تأتي مـــن بعيد من قلب إنســـان معذّب، فإنها تدعو إلى المحبة، إلى أن يتكاتف الإنسان مـــع أخيه الإنسان. كل شيء يكاد يـــذر منّا حتى الكرة الأرضية

فإننا نكاد نفقدهـا، لاشيء يقتل المحبة في ضمـير الإنسـان كالأنانية وشهـوة التملك ومتى ما فكّـر الإنسان بأنه لن يكون سعيداً وهـو يتسبب في آلام غيره، وأنه لن يشبع ما دام قد سرق خبز غـيره. بالطبع فإن الآلام البشرية هي آلام مشتركة، وأن الجوع البشري هو جوع مشـترك. فمهمـا اتسعت دواعي الرفاهية في مجتمـع في وقت يرى فيه نشر الفاقة والاضطهاد، فإنه يخفق كثيراً في كل محاولات الاحتفال برفاهيته، وهكذا فإنه لا يوجد شخص بوسعـه أن يرقص على قرع طبول الحرب مهما كانت بعيدة عنه.

هاهـي المحبة عادت مـرة أخرى تنشد نشيدها الأزلي وتـروي بأنها طريق خلاص الإنسان من كل نزعات النرجسية. إن الشمس تشرق للجميـع، وأن الليل كذلـك للجميع. إننـا نستطيع أن ننفتح علـى الحياة المغلقة بنور المحبة.. وكل إنسـان لديه نور المحبة، ولكن الإنسان ذاته يميل إلى فجوة الظلامية حتى ينطفئ هـذا النور في أعماقه فيرتمي في ظـلام.. إنه يحوّل نفسه إلى كائن مظلم، وأنـك تكاد تميّز بين كائن مظلم، وبين كائن منير.

إننا نحتـاج إلى أن ننشـر ثقافة المحبة بيننـا، لكن ما السبيل لثقافة المحبة.. علينا أن نبحث عنها في ثناياها.

تروي لك الأبجدية الأولى من أبجديات ثقافة المحبة أن تحب عملك وتشبع حباً فيه، ومتى مـا ضجرته، دعه واتجـه لعمل آخر تحبـه. دوماً عليك أن تنظـر إلى ما تعطي وتذّكـر بأن هذا العطاء هـو «أنت» إن كان جيداً فهو «أنت» وإن كان فارغاً فهو «أنت». لاتنتظر مكافأة ما تعطي.. عليك أن تعطي وتعطي واعتبر ما تعطيـه هو مكافأتك ولا تطلب هذه المكافـأة إلاّ إذا جمعت وتوقفت عـن العطاء بسبب الجوع. تذكر دوماً أن ما تعطيه هو الذي يُسجَـل لك، وأن ما تأخذه يُسجَل عليك. كن كثير العطاء، قليل الأخذ. ما تزال الأبجدية الأولى من أبجديات ثقافة المحبـة توصيك بأن تمد يـد المحبة خاصة لأولئك الذين ماعرفـوا غير البغض عليك أن تدربهم كيف يتحابوا.. وتعلمهم أن المحبة لهي خير من البغضاء وأن كل الكون الجميل قد بُنـي بمحبـة الإنسـان، وأن الكراهية وحدها كانت خلف كل حروب العالم.

عليك أن تحب الشجرة والكتاب وتعطف على حيوان ضعيف لجأ إليك.

إذا تحدثـت في مجلس، فقل كلاماً طيباً

يفـوح حباً، كن دائم البحـث عن صداقات جديدة، ولكن على ألاّ ينسيك هذا صداقاتك القديمـة، فمن لا يقف علـى ماضٍ لايقف على جديد.

المحبة هي النور الـذي يحيي الإنسان، كما أن البغضاء هي الظلام الذي يطفئه.

تبقى حاجتنا إلى المحبة أكثر من حاجتنا إلى أي شـيء آخـر لأن كل هـدف نبيل لا يتحقـق إلاّ عـبر المحبة، المحبـة التي تملأ الإنسان إنسانية وتسمو به إلى أعلى مراحل الجمال الروحي والتكاتف الإنساني.

التلاقح الإنساني

أجـل، ثمـة أناسـ ليسـ بوسعهم أن يتذوقـوا لحظة راحة واحدة قبل أن يدركوا أنهم بالفعل قدموا سعادة لشخص ما، حتى لو كانت عبارة عن افترارة ثغر.

الذي يقدّم عملا من أجل تقديم سعادة للناسـ، لا يخطـر في باله أنـه سوف ينال مقابلا نتيجة عمله الـذي يجهد لتقديمه، لأن المقابـل الأثمـن الذي يناله هـو رؤيته لمظاهر هـذه السعادة الباديـة على هؤلاء كتفاعل مع ما قدم، وبالمقابل تراه يكون أبأس شخص في العالم أمام مظاهر البؤس والآلام والكوارث التـي يلحقها غيره بهؤلاء الناس، وهـو يعجـز أن يتدخل ليخفـف من هول معاناتهم، أو يحد من مصدر الأذى.

إنها ثنائية متوازية: هؤلاء أسعدوا الناس،

إلى جانب: هؤلاء أشقوا الناس.

الأشخاص الذيـن تسببـوا في كوارث كـبرى وصغرى بحق الآخرين.

الحقوا بهم وباء الويلات،

هدموا البيوت على سكانها،

أحرقوا مدنا،

أحرقوا الياسمين،

إنهم بالفعل مارسوا طبيعة إلحاق الشقاء بالناس.

هذه المقارنة وحدها تكون كافية، لأنها تضع حـدّ التمييز الذي يبـيّن بأن ما ينفع الناسـ يمكث في الأرضـ، ويذهب ما دون ذلك جفاء، فيدخـل الطيبون مدخل طيب إلى الحياة ويخرجوا منها مخرج طيب.

يدخـل الشريرون مدخل شر إلى الحياة، ويخرجوا منها مخرج شر.

وكمـا أنك تـرى أناسا يكافئـون الذين أسعدوا الناس،

فإنك تجد أناسا يـؤازرون الذين أشقوا الناس من أجل أن تستمر الحياة على جنحَي الخير والشر في هذا الصراع التاريخي الذي

يفـــرز هؤلاء، ويفـــرز هؤلاء علـــى رأس كل قرن.

كترنيمات موسيقى غارقة في سحرية العذوبة،،

كرقرقة مياه تستأنس في سكينة النقاء،،

كجسد تعلوه شامة في قمة رونقها،،

كحلم آخر سكينة ليل يستقبل رحاب غسق أزلي،،،

تطل من ملء النافذة المقابلة امرأة كأنها تتمتع بشيء من خاصية لاتتمتع بها غيرها.

أناس تغتني بهم الحياة،

أناس يغتني بحضورهم الناس،

إنهم يملكـــون فضلاً ليســـ على الناس فقـــط، بل علـــى الحقبة التي تتـــلألأ ببهاء حضورهم فيها أيضاً.

عندمـــا عدت، مـــلأت لهـــا الفنجان، واكتفيـــت أنـــت بكأس من ماء جـــوز الهند، ولاتـــدري لمـــاذا انتابتك نشـــوة وأنت تقدم الفنجان لجمالية أناملها.

حتـــى الأنامل تبدو زهوراً في ربيع الكف وهي تتناول الفنجـــان، تستغرق بالنظر إلى يديها، تكتشـــف لأول مرة كل تلك اللمسات الجماليـــة. لم يسبـــق لـــك أن رأيـــت يدين جميلتين كيديها، لم يسبق لك أن رأيت أنامل متناسقة كأناملها.

امـــرأة مجـــرد الجلوســـ جوارها يحقق نشـــوة، مجرد رفع العينـــين لخديها، يُطرف شغاف الفؤاد، وأي موسيقى عذبة هذه التي تنبعـــث من نبرات صوتها، مـــن صمتها، من نظراتها.

للتو تدرك كم أن الحياة غنية، وأن الذي يظن بأنه بلـــغ كل شيء فيها، يظن بأنه رأى كل شـــيء، لايكون قد بلغ شيئا البتة، لايكون قد رأى شيئا البتة.

أحسســـت في لحظة بأنهـــا ربيع كامل مختصـــر في كائن بشري وديع، واستطعت أن تدرك ربما لأول مرة ثـــراء الأنوثة، وأن أي موضع مهما بدا مهجورا ومظلما، فإنه يزداد امتلاء وإشراقا بحضور عذوبة الأنوثة.

المرأة عظيمة، بيد أنها تزداد عظمة إذا استنارت بعذوبة الأنوثة.

تمتمت ومـــا تـــزال آثار رشفـــة القهوة علـــى لسانها: هل تشعر بأنـــك إنسان ناجح ياأسام؟

-: النجـــاح يكمـــن في مـــدى مقدرتنا لتذوق الحياة،

ومدى مقدرتنا في تقديم أعمال متقنة، حتى هذه القهوة كان علي أن أبذل جهدا كي لاأفشـــل في صناعتها، حتى طريقة تقديمها إليـــك كان عليهـــا أن تكـــون لائقة وتحمل

جماليـــة تليق بحجم احتفائي بحضورك في بيتي، وزيارتك الشخصية لي، عليها أن تعبر عن ذلك.

النجـــاح يا سيدتي هو الذي يحقق راحة النفســ، وهـــذه الراحة تأتـــي وفق مراحل متعددة.

انتابــك صمت مرة أخـــرى، رحت تشرد ببعض الأفــكار التي راودتك، ولاتدري لماذا أردت أن تحتفظ بها لنفسك، ولاتتحدث بها لراشدة.

الإنسان بنظر نفسه في الحياة هو عبارة عن حالة عامة من فوضـــى لأنه يشعر بأنه كائن مجهول في كوكب مجهول.

جاء من مجهول، ويمضي في مجهول حتى ينتهي إلى مجهول.

المفهـــوم الأولي العام لديـــه، هو فوضى وعـــدم رتابة بناء على جهلـــه للمصير الذي يـــؤول إليه ســـواء بعـــد نصف ساعـــة، أو بعـــد نصف قـــرن، أو بعد ملايـــين الأعوام القادمة.

من هذه النقطة يا أسام ينطلق الإنسان، يقرر ما الذي سيكونه في الحياة.

هل سيلبث في حالـــة تيه وشتات، أم أنه سيحدد لنفسه أهدافـــا وقيما ورتابة يلتزم بها.

كثـــيرون يراوحـــون في حالـــة فوضـــى ويتجنبون أي شكل من أشكال الالتزام.

لاتعنيهم الأخلاق شيئا، لايولون النجاح أهمية.

مـــا يهـــم هـــو أن يستمـــروا في الحياة، ويحققـــوا رغباتهـــم الآنيـــة مهمـــا كانـــت النتائج.

يسعون ما بوسعهـــم إلى قتل الحساسية في أنفسهم حتى يتجنبوا مشاعر الإثم.

لايؤمنـــون بجـــدوى شـــيء إن لم يقترن بماديتـــه، سواء أكانت ماديـــة اقتصادية، أو مادية جسدية، أو ما دية حسّية.

وعلى الأغلب يا أسام ترى هؤلاء يعيشون دون سمعة طيبة، يفقدون ثقة الآخرين بهم حتى من خلال كلمة يلفظونها.

لايثقـــون بعهودهـــم ومواعيدهـــم، لايأمنوهم على سر.

هؤلاء لايؤمنون بالوفاء، أو الصدق، أو القيم الإنسانية، أو الشهامة، أوالتضحية.

إنهم يعيشون حالة متجذرة من النرجسية العظمى، لايؤمنون معها إلا بأنفسهم وحقيقة اللحظة التي يعيشونها.

فتسمـــع أحدهـــم يقول مـــبرراً لنفسه خطيئـــة، أو سلوكا شائنـــا: لأفعل ما أفعل، الدنيا غير دائمة لأحد.

يشعر بأن عليه إفساد الحياة والانتقام، لأنها سوف تجعله ذات يوم غائبا.

لكــن لقاء ذلك يــا أسام تــرى الإنسان المناقض له، تراه يقوم بأعمال خيّرة وطيبة، وهــو يريد أن يعيد للحياة شيئا من جمائلها عليه.

لقــد عاش ستــين أو سبعــين، أو حتى عشرين سنة في هذه الحياة بطولها وعرضها، ووهبته خيراتها ومعارفها، وعرّفته بناسها.

ألا تستحق أن يقدم لها شيئا مجديا حتى لــو تجسّد في موقف أخلاقــي، أو في كلمة عدل.

الحياة هنا تقترن بوجود الآخرين في نفس هذا الإنسان، فهو يقدم كل هذه السلوكيات، لأنه مؤمن بأن الحياة تسجل كل هذه المواقف منــه، ثم أن هذه الأعمال الصالحة تلبث في الأرض.

على هذا المفصل يشرق نــور المسؤولية أمام الإنســان، ليس تجاه الآخرين فحسب، بل تجــاه قيم الإنســان فيــه، المؤمن بروح العطاء وفعل الخير، المؤمــن بحب الإنسان لأنه يشعر ويعيش حالة رباط قوي بينه وبين أي إنسان يراه.

إنــه يرى نفسه في الآخرين، ويراهم في نفســه، وإلا للبث في حالــة الفوضى هذه، ولكان أبأس الكائنات في الوجود، لكنه كائن محظوظ لأنه يعيش في حميمية مجتمع.

يمتلــك نظاماً ينظم له هذه الحياة التي يعيشها، وينقذه مــن حالة الفوضى الكامنة في أعماقه، ويفقهه في حب الخير والحكمة.

هنــا تتحول الظلمــات إلى أنــوار، ويمسي الغموضــ وضوحــاً، ويتحــول المجهول إلى مدارج مضيئة أمامه.

اعلم يا أسام أن الإنسان كلما استوعب هذه الأنوار، اتسعت مداركه، وانفتح نضجه، وانتظمت حالة الفوضى في كوامنه من تلقاء نفسهــا، هــذا التنظيم الذي يهــب لحياته معنى، ولوجوده كإنسان قيمة غنية.

وسن، لاتمثــل الإنسان، وهــي بالتالي لاتمثل المرأة، إنها حالة مستقلة، ومنفصلة.

كمــا أن راشدة لاتمثــل الإنسان برمته، وهي لاتمثل المرأة بصورة عامة.

كل شخص يقف موقفــه من الحياة في تقلبــات المراحــل العمريــة والحياتية التي يدخلها.

إنــك تحتاج أن تكون مــع الآخرين، أن تتعلــم منهم، من صلب علاقتــك بالإنسان، ومن صلب علاقة الإنسان بك.

ما يساعد الإنســان على أن يخفف من الفوضى غير المنظمة هو العقل، هذا العقل الذي يجعله منضبطا بسلوكه الإنساني وغير متبع لغرائزه العشوائية.

المتعــة، كل المتعة تكمن في مدى المقدرة على قمع تلك الغرائــز العشوائية أكثر مما تكمــن في تحقيقها، لأنك عنــد ذاك تشعر بأنــك قادر بشكل فعلي علــى قيادة نفسك دون أن تتمكــن شهواتــك أوغرائزك المادية والمعنوية من قيادتك نحو أودية الشتات، ثم أنك هنا تمتلئ شعورا بأنك قادر أيضا على قيــادة أسرتك، وقادر على قيادة اقتصادك، قادر على قيادة موقعك في المجتمع.

تعيش شعوراً بأنك تقف على جبل شامخ من الاعتزاز، نقيض ذاك الذي ينتابه وجل بأنه يقف على تل من تبن.

إنه يفتقد هذا المعنــى بالبطولة، وهذا الإحساســ في القيادة الذي يجعله يميل إلى العبث واللا التــزام نتيجة فيضان متاهات الفوضــى العارمــة التــي يمضــي بمشيئة هواجسها.

هنا تدرك بــأن الإنسان يقرر ما يكونه في الحياة، يقرر أن يكــون ناجحاً، أو يكون فاشلاً.

أن يتمتــع بسمعة طيبة، أو يتمتع بسمعة حسنة، وهنــا يجلو لك بأن النجاح لايتحقق بالأمنيــة فقط، كمــا أن الفشــل لايتحقق بالأمنيــة فحســب، مثــل أن حصولك على طعام من نتــاج جهدك لايتحقــق بالأمنية فقــط، كما أن حصولك علــى طعام بسطو لايتحقق بأمنية فقط.

تحتــاج أن تصبر على عملك، تحتاج إلى تحمل المشاق، والمتابعة، والإصرار حتى تبلغ هدفك الذي نظرت فيه وتمنيته لنفسك.

تــرى شخصاً يأتــي إلى عمل وهو يجر خطاه، كأنــه يأتي جبر الخاطر، كأنه يبحث عن أي حجــة حتى يتراجع ليقول في الناس بأنه إنســان غير محظــوظ، ومكتوب عليه الفشل في أي عمل.

إلى جــواره ترى شخصا يصر على عمله حتى لــو لم يحالفه الحظ مرات عديدة، إنه لايفقــد الأمل لأنه يقرن حياته بعمله، فتراه يبلغ الهــدف ولو متأخرا، فيكون أفضل من جاره الذي ركــن إلى اليأس ولبث فاشلا في الحيــاة لامكانة له، ولا بيــت، ولا أصدقاء، ولا أسرة حميمة، ولا مكانا طيبا في محيطه. هنــا يكون أمامك أن تنظر بشيء من التأمل بأن الإنسان هو عملــه، وهنا يتسع صدرك

لتأخـذ مساحات أخرى مـن التأني في جل خطوات حياتك.

خذ الحياة بقوة

لم تكـن الحياة عـبر تاريخهـا من أجل الحياة فحسب، فالحيـاة هي شجرة مثمرة طيبة تهب ثمارها للناس،

انبعثت إلى الحيـاة لتعيشها وتكتشفها، تستمتع بمتاعها وتتـألم بآلامها. خذ الحياة بقوة وعشها بقوة واعلم أنه لايستقبل القوة إلاّ مَنْ كانت به قوة. عليك أن تبني جسدك وتبعد عنه مَوَاطن الوهن.

أن تقـوم بعمل واحد بقـوة، خير من أن تقوم بعملين بوهن. أن تقرأ صفحتين بقوة، خـير من أن تقرأ عشريـن صفحة بضعف. يمكنك أن تؤجل عمل اليوم إلى الغد عندما تـدرك ضعفـك إزاءه أن تؤجله خير من أن تقدّمه بضعف. خـذ قسطاً من الراحة بين عملين، راحة النفس وراحة البدن.

كن حذراً من الجري خلف الملذات فإنها تهلك النفس والبدن معاً. الإنسان الضعيف يرى كل ما في الحياة ضعيفاً إلى أن يراها باردة لا دفء فيه فيبلـغ درجة من البرود البدني والروحي يتمنى فيها الموت لأنه لايرى دفئاً فيه وفي الحيـاة. إن الإنسان القوي يرغب بمزيـد من الحياة ويستعد للذهاب إلى آخر ركن من العالم في سبيل ألا يمرض يومين، أو أن يلحق أملاً قد يشفي داءً ألم به. دوماً فإن صناع الأفـكار العظمى والقرارات العظمى هم الأقوياء وليسـوا الضعفاء، واليد العليا هـي خير من اليد السفلـى، والإنسان يميل إلى فكرة الانتحار عندما يستبدبه الضعف، والانتحار ليس قـوة ولا شجاعة بأي حال، ولكن الشجاعة كل الشجاعة تكمن في مدى قدرة المقاومة لدى الإنسان في أحلك ظروف الحياة، ولذلك فإن أيوب لم ينتحر حتى وهو في ذروة الألم، وكذلـك إبراهيـم حتى وهو يُقـذف في النار وهذا حدث مع كل الأنبياء، ثم مع كبار العلماء والأفاضل فالمقاومة تُزيد الإنسان قوة، والاستسلام يزيده ضعفاً على ضعف،

فكان الإنسـان وعبر تاريخه كائناً باحثاً عن عوامل القوة البدنية والروحية

ثمة حكايـة قديمة تـروي أن رجلاً في مقتبل عمره أراد أن يذهب في تجارة ليأتي ببعض المال، وفي الطريق رأى ثعلباً مريضاً بالـكاد يتحرّك، فوقف سائـلاً نفسه: كيف يأكل هـذا الحيوان الواهن؟ وفي أثناء تأمله وشروده بأمر الثعلب، لاح له أسد قوي يحمل

فريسة، فجلس بالقرب من الثعلب وبدأ يلتهم فريسة حتى شبع وانصرف. بعد ذلك رأى الثعلب الواهن يزحف إلى بقايا الفريسة فيأكل هو الآخر حتى الشبع وينصرف إلى مكانه. وقف الشاب قائلاً في نفسه: إذا كان الله يبعث أرزاق مخلوقاته جميعاً فما لي أركض وأشقى حتى أُطعم نفسي. وعاد إلى بيته يقول لأبيه قصة الثعلب الذي جعله يعود من نصف الطريق. فقال له الأب: أنت مخطئ، تنظر إلى ظواهر الأمور،ليس المهم ما تأكل، المهم من أين أتيت بطعامك. إني أريد لك أن تكون أسداً تأكل الثعالب من فضلاته، لا أن تكون ثعلباً واهناً تأكل بقايا السباع.

يدعوك الرابط الإنساني أن تكون قوياً في أخلاقك ومعرفتك، فكثير من الحيوان يتمتع بقوة أبدان لا يبلغها إنسان، ولكن هذا الحيوان القوي البدن ذاته يغدو ضعيفاً ومستسلماً إزاء قوة أفكار إنسان أضعف منه بدناً. ومن هنا فإن قوة الإنسان تبقى ناقصة ما لم تسندها قوةُ أخلاقية. فإن تمتع شخص بمظهر حسن وكان داخله خاويا، فذلك لاينفعه بشيء، وكذلك لو تمتع بلياقة بدنية، وكان بلا ذكاء، فهذا لاينفعه بشيء، فأنت قوي بقوة خلقك وقوة مساحة الستر التي تنعم بها، إن أي إنسان يمكن أن يمشي وسط المدينة عاريا تحت ثيابه، لأن الناس جميعاً يمشون معه عراة تحت ثيابهم، ولكن هل تسير وسط المدينة عاريا فوق ثيابك. فالإنسان يمتاز عن الحيوان بالأخلاق أكثر مما يمتاز عنه بالنطق لأن الحيوان هو كائن غير أخلاقي إضافة إلى أنه كائن غير ناطق. الإنسان يلتزم بالأخلاق، يلتزم بالعيب، يلتزم بالحياء، حتى يرتقي في درجات إنسانيته، وهذا ليس تراجعاً ولا نقصاً بقدر ما يكون رقياً وسمواً وجمالاً، ومن كل ذلك يستمد قوته في المجتمع الذي ينتمي إليه. هذه الالتزامات هي ليستْ قيداً له على قدر ما هي حرية بشرية وتميّز بشري عن سائر الكائنات الأخرى. فكم من شخصٍ بُلي بنزعة سلبية، ولكنه لبث يصارعها ويخفيها حتى مات، وكم من شخصٍ آثر الموت على أن تظهر له سمعة سيئة.

أن تعيش الحياة بقوة خير لك من أن تمضي إلى الموت بضعف. إنك تولد على فطرتك، وعندما تنفتح كوردة فإن الأشواك تأخذ شكلها في روحك، هذه الأشواك التي انتقلت إليك مع نطفة التكوين، هنا ستتحقق

بطولتك على قــدر نجاحك في اقتلاع هذه الأشــواك التأسيسيــة من جــذور نطفتك، أو سينحــدر بك وهنك لتغــدو فريسة لهذه الأشواك في الدرك الأسفل من الوهن.

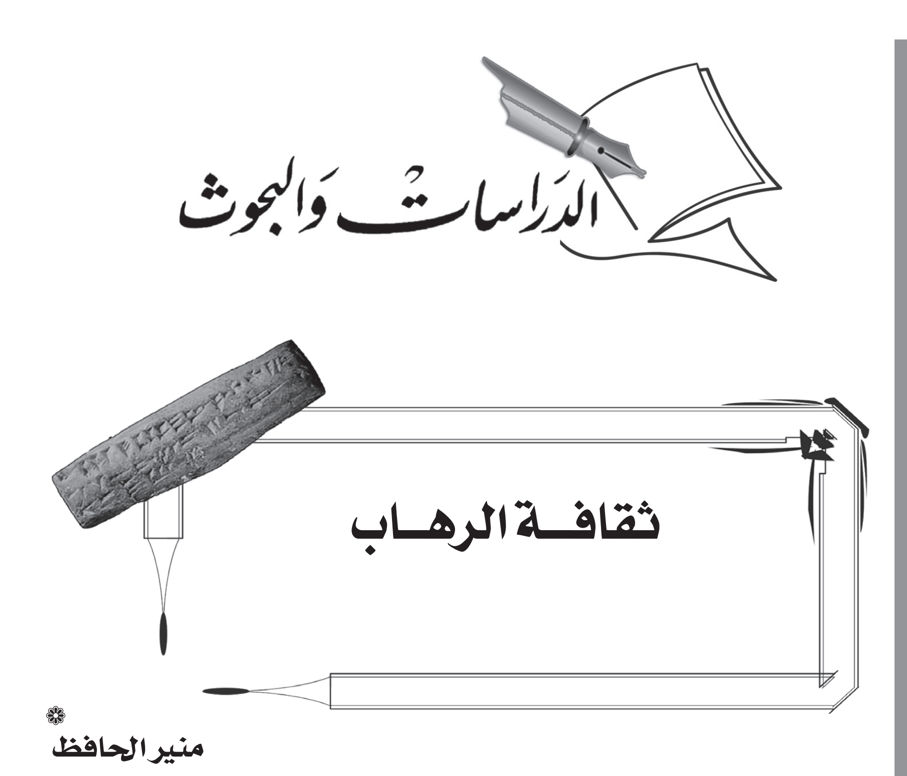
المراجع :

١- أخرجه الحاكم في«المستدرك» (٣/ ٥٩٨) من حديث مصعب بن عبد الله وسكت عنه وتعقبه الذهبي بقولـه: سنـده ضعيف. والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤١٨/٣) وابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٨٥) مـن طريـق كثـير بن عبـد الله المزني وابن سعـد في «الطبقات» (٨٢،٨٣/٤) مـن حديث الحسن مرسلاً ووصله أيضاً (٧/ ٣١٨،٣١٩) من طريق كثير بن عبد الله المزني وهو ضعيف، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٣٠) وقال: رواه الطبراني وفيه كثير بن عبد الله المزني وقد ضعفه الجمهور وحسـن الترمـذي حديثـه وبقية رجاله ثقـات. من حديث عمرو بن عوف المـزني وذكره الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٢٧٢) وقال: ضعيف جداً.

٢- ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثالث عشر، ص ٣٦٠، ٣٦١، طبعة جامعة الدول العربية

٣- جان بول رو، الإسلام في الغرب، ترجمة نجدة المهاجر ط ١، ١٩٦٠





ثقافة الرهـاب

منير الحافظ*

طقوس الرهاب

لم يتمكـن الفكر الأناسـي من تحديد تعريف شامـل وافٍ لمعنى الثقافة (culture)، فتعـددت الرؤى بتعدد أنماط الأبنيـة الثقافية التي أنجزها الوعـي العقلاني المتراكم على مرّ العصور، بيـد أنها تميزت في خصائصها وسماتها وأغراضها حسـب اختلافات البيئات لدن كل شعب، لكننا نقر بأن ثمـة متشابهـات ومتلاقيات في أنماط عدة، نتيجـة تلاقح (xenologie)

* كاتب سوري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

الثقافات أو الحضارات أو الديانات، وعلى ما وقع في ظني.

ترجع نشأة الثقافة إلى حاجتين، روحية (نفسية) ومادية (اقتصادية) وقد اتسمت كل منهما بمظهر ديني محض، عقائدي مقدس «يقينيــات» ثابتة بوصفهــا معايير أخلاقية ناظمة للسلوك البشري، وطقوسي غير مقدس «شعائرية» متحوّلة بوصفها تقاليد مشهدية وعملانيــة عامــة، إلا أنني أُركــز هنا على ثقافة المقدس في كلا الحاجتين من جانبهما النفسي (sicology) الصرف.

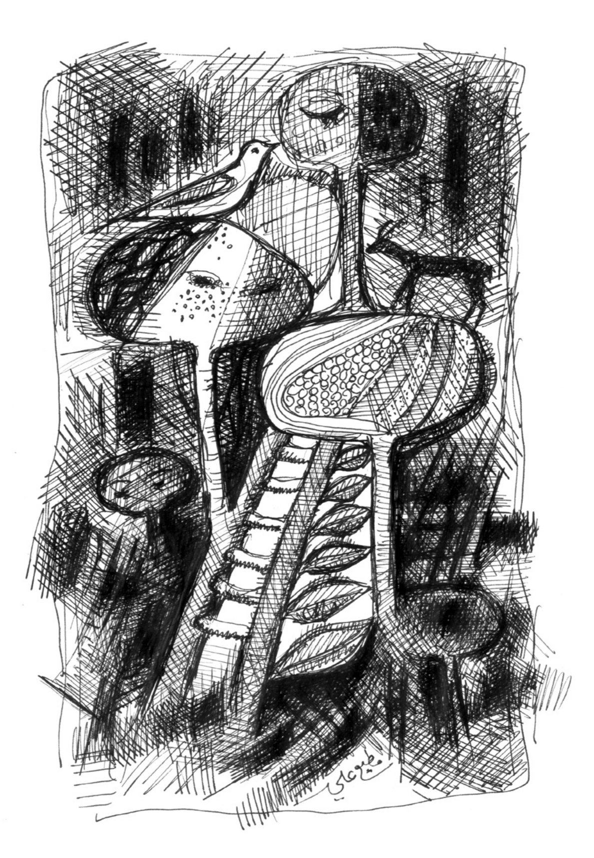
يحســن بنــا في البــدء تنــاول قضية «الخوف» أو الترويع (shoking) في مفهومه الشمــولي من خلال سيــاق البحث، بوصفه الآلية الناظمــة للأبنية الثقافيــة المتعددة الأنمــاط، المتناسجة الأنســاق (syseme) في وحدة حياتنا الروحية والدينية والمادية، وأجدني هنا، أُطلــق مصطلح الناظم، كونه يشــكل القاعدة الأساس التــي بُنيت عليها متراتبــات المنظومات الدينيــة والأسطورية (mythelogiue) والفكريــة والدينيــة في حياتنــا الثقافيــة التــي تستفيض عن الجوانيات الروحية والنفسية لعموم البشر.

نحــن نسلــم دون أدنى مريــة، بأن ثمة عوامــل خارجيــة في حياتنا الماديــة تؤثر على نمطية العلاقــة السجالية بين الكائن والمحيط المعاش، إلا أن النزوعات الباطنية تظل أبرز القوى المحركة لفعاليات الشعوب، سواء القديمة منها أم الحديثة.

لا غــرو في أن مخــاوف صوفية باطنية (mysticism) شتــى، أوجدهــا الإنسان وشرعنهــا أحكامــاً، فارتهن لهــا، ومارس فعلها بأشــكال مختلفة في تبايناتها (ظواهر الطبيعة الكارثية، الشمس، القمر، النجوم، النبــات، الحيــوان، الأجــداد «التوتمية»، النــار، القــادة، مواســم الخصــب، الموت، الحساب..) فكل الطقوس المشهدية والرُقى السحرية والتــلاوات (litang) الاحتفالية، تعابــير تجسيديــة (somatise) حقيقية منعكسة عــن تعاليم أسطــورة تكوين العالم التي اتخذ منها الإنســان قيماً روحية تقي نفسه الخطاءة من فعــل الشرور، وحسبي، ما هــي إلا طقوس تعويذية أبدية تكف عنه الأذية وارتــكاب الآثام، ولا مندوحة، انبرت الثقافــة الجنسانيــة (sexulity) المؤنسنة تشكل منظومات الأبنية الثقافية في أشكال العبادات وشعائرها الدرامية

المقدسة، كونها تمثل أبرز القيم الجمالية (aesthetic) في محتــوى وجداننا الذاتي والجمعــي على الســواء، وباعتقــادي، ما

خلت مرحلة تأريخية من ثقافة محرم «تابو» (tabo) أو رؤى من الأحكام الصارمة، حتى أمسى كل ما هو ثابت مقدس (holy) الأمر الذي يحدو بنا إلى القول، استفاضت تعاليم الدين من جواهر الثابت اليقيني، وأستطيع أن أضرب مثلاً على ذلك، لقد كان الرقص في الزمن الأمومي (maternity) الأنثوي طقساً عبادياً مقدساً، إلا أنه أصبح في العهد الذكوري (masculinity) الأبوي عُهراً منكراً، ولما كانت المرأة كائناً إنجابياً إباحياً بسبب تملكها جهازاً تناسلياً خصباً وجامعاً يُعبد، أضحى جهازاً خطاء ومحرماً ومحجوباً، ومن هنا اقترن التحريم بالخوف، بل صار من أقسى المنظومات الثقافية ردعاً، بيد أنه مع تطور الوعي العقلاني، طفقت رؤى مناوئة لنواميس المؤسطر القيمي تدعو إلى التحرر من ارتهاناتها، وأثبتت من خلال التجربة الروحية قدرتها على كبت النزوعات التحررية من ربقة الاغتراب (alienation) الجانح، ولا بد لي في هذا السياق من استعراض قضية



«لغة الجسد» (bodylanguge) لما لها من أهمية بالغة في البحث، لقد لعبت اللغة الجسدية بوصفها تعبيراً ثقافياً مباشراً في أدائها التراجيدي أدواراً مأساوية مرعبة، رغم ما استفاض عن حركة الجسد من لغات تعبيرية دالة ترتقي إلى إبداعات غاية في الجمال، فضلاً عن رؤية اليقين الأسطوري في أن مآل الجسد إلى فناء، وأن كل ما يعانيه من لعنات وعذابات وتوجعات،

يظل حاملاً الــروح الإلهيــة، أي أن الموات انطفــاء شعلة الروح الإلهية في أتون الجسد الفاني، وأن وظيفة الموت تجريد الكائن من صفة الخلوديــة أو الإطلاقية، كون الجمال الجســدي تتصف طبيعته بقيمــة شهوانية ضالــة، وهنا تكمن خطــورة ثقافة الخوف في مجمل أدبياتنــا المتوارثة، ولا جرم، عمل الخطــاب الديني على صــوغ وعي حداثي لماهية الجسد، وبات عُرفاً في حركة الناموس الأناسي، والحدّ من عنفوانه المتجلي، وإفراغ الذاكــرة مــن تاريخانية الجســد الأنثوي على وجــه التحديد، ذلــك، محاولة إفساح المجــال أمام الروح وارتقائهــا إلى عالم المُثل الفاضلة.

تبين لي مــن خلال البحــث المعمّق، أن طموحــاً عالياً شغــل مخيلــة الإنسان منذ أسطــورة البدء الأول بالحياة والخلود جراء مخاوفه من محكومية نواميس الكونية وحتمية الفناء، الأمر الذي ساقه إلى أن يبدع ظواهر طقسية ومظاهــر شعائرية بحثاً عن توازنه الداخلــي مع عالمه الخارجي المبهم، ومرّ في مراحــل تكوينه ورحيله بأطوار من (العَماء) الرحمي (رحم الفردوس الخالد، رحم الأم، رحم الأرضــ الفانية، رحم القــبر) -سآتي علــى ذكرها بالتفصيل- ولعب الخوف دوراً مؤثــراً في اكتشاف الإنســان لذاته القلقة، وعــرف أن نهاية الخوف هــو إتمام كمالية الإنسان في كمالية قيمه السامية التي تحكم حياته بنواميس ثابتــة متحررة من أساطير ثقافة الخوف.

بادئ ذي بــدء، حري بنــا معالجة أهم خصائصــ ثقافــة الخــوف المتجســدة في الشعــور النفســي والروحــي والمنعكسات الحسية عن العــالم الخارجي، وما تثيره من محرضات في الذهنيــة البشرية، وما تعانيه من حمئة القلق ولجج الاضطراب، والمتمعن في دلالات الرمــز (symbolisim)، يتقرى قضية الخــوف من الموت من طرف وما يقابلها من حيــاة في الطرف الآخر في مجمل أدبيات المؤسطر، مثلاً أسطورة (آنانا ودموزي) متعلقة بتعاقبــات الموت والحياة، وهذا التناظر يعبر عن رمزين، حياة طبيعة «النمــاء» (genetice) في فصــل الربيع، وموتها في فصل الشتاء، وينسحب على ذلك تناسل الإنســان، وتوالد الحيــوان، وتكاثر النبات، غاية منــه الحفاظ على استمرارية الحياة.

لــو عدنــا إلى الأدبيــات الأسطوريــة، مــا قبل التعاليــم التوراتية التــي عُرفت بـ «التوحيدية»، فإننا نلمــس، أن ما قامت به

العقيــدة اليهودية هو انقــلاب على تقاليد الحريــة «الديموقراطيــة» المتجســدة في الحياة الروحيــة والثقافية عند المجتمعات (السومريــة، البابليــة، الإغريقية)، فإن دل ذلك على شيء ،فإنما يدل على تسلط الروح الاستبدادية للثقافة العبرانية، ولدى البحث في مجمل هــذه القيم والأدبيــات القديمة، يتوضح لنــا بجلاء أن تلــك الشعوب كانت تمارس حكمــاً أو رأياً حــراً مستقلاً قائماً على الجماعية في اتخاذ القرارات في إدارة شؤون البلاد، وسيادة أجواء أكثر أمناً وحرية، وتأتي هذه الحرية من اعتماد الأنظمة على تعددية الآلهــات واختصاصاتها، مما يجعل المواقف الاجتماعيــة والقضايا العامة تتبع بالضرورة لحكم هذه الآلهات صاحبة الشأن والاختصاص، وأن ما يتعلــق بأمن البلاد، فيرجــع حكمــاً إلى اجتماع كافــة الأرباب «الإلهية» -المجمع الإلهي المقدس- أما «يهوه» العبراني المفترض، فإنــه لا يأبه لرأي أحد، وظل متفرداً في اتخاذ القرار، واتسم بصفة الطغيانيــة، مما ساد في الوسط الاجتماعي «الثقــافي» خوفاً وهلعــاً واضطراباً مازالت آثاره منسربــة في مفاصل الثقافة الحديثة، ومما لا شك فيه، يمكن القول إن اليهودية لم تتأثــر بالديانة «الإخناتونية» أكثر مما نقلت عنها معظم تعاليمها «التوحيدية».

إن ثقافــة الهلــع قديمــة ومتجسدة في المظاهر العبادية «الشعائرية» ولو عُدنا إلى أسطورة «الطوفان» المتكررة في جُلّ الطقوس الدراميــة (أداء، أناشيــد، رُقــى، صلوات، قرابين، كرنفالات.. إلخ) هي تعاويذ وقائية إزاء مــا ترتكبه البشريــة المارقة من خطايا «شــرور» مخالفة للتعاليــم الإلهية، رغم أن تلــك الآداب الأسطوريــة مرتبطة بحالات من المتغيرات الطقسيــة «المناخية» الفلكية، الجسدية، الاقتصادية، ويمثل الطوفان رؤية تجديديــة لحالات القحــط أو الخصب أو الــولادة أو الربيع أو ممارســة العهر الشاذ المخالف لنواميــس الحياة الطبيعية للخلق، فمثــلاً الطوفــان البابلي التــي رغبت فيه آلهة الأمومة «عشتــار» ربة الحب والجنس والجمــال والولادة ضد مــا طرح من ثقافة ذكورية لثقافتها الأموميــة، وتمثل أسطورة «كالكامشــ» الــذي ارتبــط بعلاقــة مثلية مــع صاحبه «أنكيدو» خــير مثال على ذلك القصاصــ، أم الطوفــان الإغريقــي فهــو عقاب رأته الآلهــة بحق «برومثيوس» سارق النار المقدسة من الشمس بعود قصب يمثل «العضو الذكري» الذي أشاع الشهوة الجنسية بــين البشر، مما تفشت إثــر ذلك الخطيئة

والجريمة والشذوذ والأذية المخالفة لتعاليم الآلهة.

ظـل الخـوف يجسـد حركـة الإيقاع الزمنـي لثقافـة المراحل في شتـى معايير (normatives) السلـوك الأسطـوري واليقينيـات المذهبيـة، إذ توارثتها الأجيال بوصفها وعياً سحرياً باهراً يتجاوز المكانية ويرتقـي إلى عالم اللازمانية الخاضع لمشيئة إلـه عظيم واحـد، واجد الكونيـة برمتها، ولعل ما يقدمه الإنسـان من قرابين بشرية وحيوانية ونباتية حسـب أنماط المعتقدات الدينيـة، هو شكل من أشـكال الخوف من القوى التي تبعث في دواخله غريزة التغريب أو العـدم، وأجدُ أن الرهبة من لعنة الهبوط جراء الخطيئة (guilt) العظمى، هي تأمل نحو تصعّـد اندماجي بالحضـرة الإلهية، ذلك لإمكان العـودة إلى الفردوس المفقود، ملكوت السماء العليـا الطاهرة، والخلاص من ملكوت دنيا الأرض العاهرة، والمتمعن في سيروة ممارسات طقوس العَماء التراجيدي المقدس (sacred) منذ أسطورة البدء التي أفصحت عن طرد آدم وحواء من الفردوس الأعلى، وتناوله تفاحة الشهوة ووقوعه في أثم الخطيئـة، أدخله في أكثر من عماء (الرحم، اللذة، الحياة الفانيـة، القبر) وحسبي، كان أعظـم المخاوف التي تتجسـد على منصة الحيـاة هو انفصـام (schizophrenie) الكائـن البشـري وتأرجحـه بـين إرادتين تغريبيتين، أولهما، حين فضلت الآلهة عماء الخـراف الأمومـي «الرعـوي» على عماء النبـات الذكـوري الأبوي «الزراعـي»، أي أنهـا فضلت دم القرابين (offering) على عُصارة النبات، وباتت مشيئة الإله أن جعل الجسـد الخطاء من رحـم العماء يولد وفي لحـد العماء يرقد أبدا، ومن يقين ثابت، أن الأجساد محكومة بزمن الموات، وبات الكائن في خضم لعبة الحياة العبثية صوراً متحولة بين أسود وأبيض، ويعـاني انفصاماً مؤرقاً بين خطيئة الإغواء وندم فعل الخطيئة، بين شهوة الخطيئة وشقوة الغفران.

وعندي إن ثقافة الإخصاء التي مورست على هـذا المخلوق البائس بـدءاً من طرده من الفردوس «الجنة» وحرمانه من فردوس الرحم الأمومي وفردوس الثدي «الفطام» وفردوس التجاسـد «الجنس» والموت الذي بات إخصاء للجسد، كانت الأسباب الموجبة التي جعلـت الكائن يحب نفسه، وكشفت له أن مـن يرغبون بالموت هـم الذين يكرهون أنفسهم، وأن الحيـاة لمن يحب نفسه ويكرر نفسـه، ووحده الـذي يبحث عـن العودة،

ويحطم تجربـة الحرمانية كي يحظى بهذه الفراديس، هذا الانفصام المريب، هو ما بين حب لذة الحياة ومباهجها، وبين الارتعاد رهبة منهـا، تلك هي ازدواجية اللعنة التي حملت النفسُ البائسة أثقالها المرّة، غير أنه وقع في تساؤلات جمّة، من أنا؟ وإلى أين أنا ؟، وهل أنا من يتعقب الخوف، أم هو الذي يتعقبني؟ وكل الأشيـاء التي خافهـا وسجد لها، تأتي من جهالته بها أم من جهالته بنفسه، وحتى شهوة الجمال خضعت للإخصاء، واعتُبرت أنه كلما ازدادت تأثيراً في الروح ازداد إثمها، مما جعل الجمال رجسـاً عظيماً، تلك هي شقـوة «ثقافة التحـريم» منذ بـدء الزمن الأسطوري المقدس، ولم تبُح النفس الخطاءة بمـا يخالجها حين أدرك ذلك الكائن حمّال الخطيئة، أن في نفسه حقيقة الجمال وليس في الأشياء التـي سجد لها، وأدرك أن ليس الجمال الذي يجسدها عِشقاً بنفسها، وإنما الإلهُ المتجسد فيها جمـالاً يُعشق، وتطلعت إلى التخلص من عقدة البحث عن الشفقة وذل الانفصام والخوف، وأن ما تهفو إليه هو من تجليات القداسة، ولقد تجاذبت الكائن إرادتان، فضيلة كمال الروح، وغفران رذيلة الجسد، وأدرك أن لكل شيء ثمنه، ورأى أن من لم يحترق كالعنقـاء في النار، لايمكنه أن ينبعث من تحت دثار الرماد، ومن ذا نلاحظ أنه كائن تاريخي مسكـون بالخوف المتمدد في بُعـده المأساوي المـلازم، وأنه سليل عدم حتمي، وصائر إلى عـدم (mortal)، مما يدلـل على وهميـة وجوده، ويأتـي مصدر الخوف مـن رحيل الكائـن الواحدي وليس الجمعي، الأمر الذي يُعـزي النفس التواقة للخلـود (immortal)، وغالبـاً ما يتخذ الإنسان في كثير من المواقف الضدية ناموس العدم وسيلة للانتصار على هواجس الخوف وتحقيق المصالحة معها، منطلقاً من معادلة، أن قانـون العدمية حتمـي في سائر الوقائع المصيرية، واعتقدَ أن الفلسفة البدائية لمفهوم العدم، ليست إلا رؤى (insights) انتقالية لماهيـة الروح من حالـة الاحتباس إلى حالة السرحـان الإطلاقي في فضـاءات الملكوت المنفتحة علـى الأبدية، وأن الطقوس المتبعة في الأنساق العبادية مجرد حالات عبور نحو حيـاة مغايرة، أي تحرر مـن قلق الموات إلى خلودية الـروح في أشـكال تسيبية أخرى، يقول الشاعر اللاتينـي «لوكريس» أن القلق أم الآلهـات ، إلا أن نـازع الخير هو الباعث إلى حياة آمنة من شرور الشياطين في حالات المرضـ أو الموت أو العذابات أو دمار الكون، وبهـذا الصـدد، حدثت تحـولات جمّة في

الأبنية الأدبية والروحيـــة والاعتقادية إبان انقلاب معايير النظـــام الإشراقي الذكوري علـــى معايـــير النظـــام الأمومـــي المنغلق، والإعـــلان عـــن انطلاقة عهـــد يُفصح عن سرّانيـــات ودلالات رمزيـــة وتقاليد، وأن كل ما يعتور الحداثي في رؤيـــة الإنسان لقصة الخلـــق الأول وممارســـة مظاهـــر الهلع في جملة الطقوس التعبدية العُرفية، هي موات من أجل الحياة الخالـــدة حسب ما اعتقدَ، بمعنى، أن الموات رؤية طامحة تعبر عن رغبة بالعودة إلى رحم الأم –الأرض– واتحاد كلاني بها، وأن دفن الإنسان سواء كان حياً أم ميتاً، ليس إلا صورة من صور الاتحاد القائم على مبـــدأ التضحية للأرض، لإمـــكان استمرار دفق الحياة، وأن وعي المعاناة المعرفية، يعني أن الديـــن وعي للخطيئـــة، والطقس طهارة منهـــا، ولا ريـــب في أن تطـــور التجمعـــات البشرية من الأفـــراد إلى الأسر، فالقطيعية والقبلية، ومجتمعات المدن الحضرية والدول والروابط والاتحـــادات والأحزاب.. وما إلى ذلـــك، هي تعابير أصيلة عن ثقافة الاحتماء إزاء التحديـــات التـــي تجابههـــا، وأزعـــم أن الأحـــكام التشريعيـــة والتعاليـــم الدينية والقواعد الأخلاقية والمبـــادىء الاشتراكية والأنظمـــة الديموقراطيـــة.. هي في واقعها ثقافـــة الخوف من سلطـــة الظلم، لا بل من ثقافة التخويف والإخصاء، وباتت القداسة الشـــرط الجوهري في النسيـــج الثقافي لكل مرحلة تأريخية، بمعنى، بات الخوف الشرط الرابط لكافـــة الأمشاج الثقافيـــة الكونية، وأرى أن أساطير الخـــوف تُفصح دائماً عن سرّ (mystery) قداسي ناظم لثقافة دينية، وأن زمان الخـــوف «الثيولوجي» القائم على أداء المظاهر الدرامية الشعائرية وفق طقوس كف الأذية في التجربة الأسطورية تتكرر في كل ثقافات الشعـــوب، وأن أساطير الخوف العفوية منها والمُسيســـة هي طقوس لتاريخ ثقافة المقدســـ التي تحدد شـــرط التعامل السوي مع حيـــاة أناسية (humansime) تحكمها قيم أخلاقية ثابتة إزاء الخوف من فعـــل الخطيئة، وتُمّكـــن الإنسان من تجاوز ذاتـــه القلقة إلى ذاته السويـــة، ونلمس تلك عند أشد الأيديولوجيات العلمانية معاصرة، وقد قيل، أن الحضارة الحديثة منزوعة من القداسة، ومصبوغة بالعلمانية، بيد أنها في حقيقة أمرها، تخضع لقداسة من نوع آخر، هي قداسة المنجـــزات الحداثية التي تحكم سيرورة العـــالم بآليات أكثر تدميراً وفتكاً من الشياطين أو الأشباح (spooks) الأسطورية، والقمين في الذكر، أن التكوين الكوني قضية

تُشاغل الذهن البشري، إلا أن التجليات التي انبثقت عن الوعي الكوني لحتمية الحاجات ودوافـع الطموحات، قـد زادت من نوازع الخوف، فشكلت عُقـداً متعضية في الفكر الأناســي، وأمسى كلُّ متجـلٍ للخوف مُجلٍ للقداســة، والجديـر في القـول، إن تجربة الخـوف كانت قد نقلـت الكائن من مرحلة الوعي البدائي إلى الوعي الكوني المتحضر، رغـم كل ما أفرزته الحضــارة المتقدمة من تشاؤمية مشوبة بالقلق على مصير الإنسان وما أنجزه.

لقد سادت ثقافــات دينية «يقينية» لدن شعــوب عديدة مــن المجتمعــات الآسيوية والأفريقية وسكان أمريكا وأستراليا الأصليين غاية في الرعب، وعلى وجه التحديد مظاهر الطقوس «الكرنفالية» عند تقديم الأضاحي أو القرابين حيث يتـم تقطيع الإنسان حياً، وغرس بعض أعضائــه في الأرض أو حرق بعضها أو أكل بعضها نيئة أو تعذيب أجساد فتيــان أو فتيات، وتطالعنــا أساليب الموت الطقسي (ritual) عنــد تنسيب الفتى إلى أبناء قبيلتــه أو في حالات تقديم الأضاحي البشريــة للمحــارق.. لن أستطــرد في هذا النمــط الأسطـوري المؤدلج علــى الرغم من أهميته، ولكن يحســن بنا التركيز عليه وعرضــه بعجالــة، كان قد تبــين أن سائر الممارسات الطقسية للتنسيب عند الشعوب هي تعبير عن عــالم القداسة الفوقي المترفع على التحتي عبر تجربــة الموت، يقول بهذا الشأن الفرنسي «ميرسيا إلياد»: «إن الانتقال مــن العالم الدنيوي إلى العــالم المقدس بفعل التنسيب يتضمــن بطريقة أو أخرى تجربة الموت للدخول إلى عالم الآخرة»[١]

أمــا موضوعــة الختان التــي يقوم بها أسيــاد التنسيب من كبــار الكهنة للمريدين ،هــي غاية في الهلــع، ولعلهــم يستمدونها مــن تــراث ثقافي قــديم مقدســ، وتدعى هــذه الاحتفــالات الدراميــة الوحشية في طرائقهــا بـ «القتــل التنسيبي» من حيث أن طقس الختان يــوازي طقس الموت عندهم، كونه يمثل عتبة الانتقــال إلى عالم آخر كما بينا آنفاً، يقــول «ميرسيا إلياد» -بتصرف- : «تتدخــل المقامات الإلهيــة في احتفالات التنسيب علــى شكل حيوانات متوحشة مثل الأسود والنمــور والتماسيح والتنانين وعلى وقــع ضربــات الطبول الوحشيــة، فتنقض على الأجهــزة التناسليــة الذكرية بمعدات قاطعة حــادة وبعضها من الحجارة، ويُطلق علــى هذا الختــان بـ «القتل» الــذي بدوره يبعثهم انبعاثاً إلى حيــاة جديدة»[٢]. تلكم

هي رمزيــة المــوت في الفلسفــة الباطنية التي تعتمــد الطقس تحولاً علــى الصعيد الروحــي وتجاوزاً لنمطيــة الوجود وتعبيراً عن الــولادة في التقاليد الروحية، فالشعائر (observances) التــي تتجسد على شكل سيناريوهات مؤلمة، هــي إفصاح عن أسرار إلهية مقدسة تُبرز مآس وفواجع وآلام البشر ومواتهم وانبعاثهم عبر ثقافة الرعب، بغرض انتقال الكائن من الشرط الدنيوي إلى العالم الروحي المتعال.

إن الفزع من (الفوطبيعي) غير المُدرك، ولّد عبادة الموتى على نحو رفيع، وما نشاهده من صروح ضخمة بُنيت من الحجارة العبلاء، وجماليــات تزويقها ونقوشها وفتنة رونقها، هي مدافن مخصصة لممارسة قوس العبادة فيهــا، ولست أدري ما إذا كان تقديس الميت بعُرف تلك المجتمعــات السالفة، هو شفقة على فراقه، أو حسرة على هروب الروح من بلاء الجسد الفاني، ولهذا قُدس الجنس من جراء الخوف من الموات، مع علمنا أن الجنس يحمــل في جوهر خاصيتــه عنصر الخوف من الفناء، أعني، يتصف الجنس (الولادي) بخاصيــة خــوف الانقراض، أمــا الجنس الانتشائــي فيتصف بخاصية الإمتاع، وعلى كل حال، يشترك كل من الدافعين في طقوس عبادية تُمليها طبيعة النواميس الكونية.

إن أنساق القيم العليــا الناظمة لحركة الوجود، والكشف عن سرّانية الروح الإلهية المتحكمــة في النواميس الكونيــة، وقواعد القيم الأخلاقية الناظمة للسلوكيات البشرية، هي في طبيعتهــا المنشودة منظومات ثقافية تبحــث في جوهرها عن حمايــة الذات من هيمنة مظاهر القوى المجهولة في الطبيعة، يقول «غيورغي غاتشيف»: «أنتجت البشرية قــدراً كافياً من مــواد «الطبيعــة الثانية» (مصنوعات، مهن، أعــراف، قوانين..) كي تحمي نفسها من الخضــوع للقوى العفوية في الطبيعة»[٣].

لا ريب في أن الإنســان المعاصر هو لُميّة تاريــخ المقدســ المتعاقب، وهــو ابن ثقافة الأزمان العتيقة، ومن غير المنطقي القول إنه خاتمة تأريــخ أسطوري قط، فلدى التطبيق المقارن تبين أن المقدس ناتج تخصيب ثقافة الخوف لدى الديانات التي ولِدت أخلاقياتُها مــن رحِم تقاليدها، وأحدثــت التخصيبات تحولات ثقافية سببــت بدورها قلقاً للفكر والوجدان الأناسي في مسائل اليقين، وولَدت اضطرابات دُعيت بـ «الأنوميا» (anomia)، ومن ذا يمكنني القــول بأنه من غير الممكن وضــع منظومــات ثقافية بديلــة ومتحررة من نوازع الخــوف، مادامت ثقافة المؤسطر

تتحكم بجملة القيــم الأخلاقية المرعية في المعتقدات والأعراف والتعاملات.

جــاري الاعتقــاد في أن العــودة إلى تجسيد قيم التراث الأسطوري وما تبعه من سلوكياتنا الحداثية، ليست إلا إحياء لثقافة الخوف، وتُمثل أيضـــاً أدبيات السلف كونها تجارب حكيمة ونماذج محتذاة، وتشكل عالم المُثل العليــا التي تؤسس الزمــن التأريخي لحكمة الوعي المتجلــي في معرفة الكونية، ومحاكاة الوجود لإمــكان إنتاجه من جديد، ويخطئ من يتصور أن مواريثنا الأسطورية، فقدت شرعيتها وتكيفها أو تأثيرها السحري في كل أشــكال وعينا الجمعــي، إذ إن رموز الخــوف الساكنــة في الأمشــاج الروحيــة والدينية والنفسية مازالت تستوطن أفئدتنا وتكرر نفسها في أفعالنا وثقافاتنا الحضارية والمدنية، وقد أثبتت تجارب التحليل النفسي المعاصر لـ «سيكولوجيا الأعماق» صحة هذه الرؤية.

أثرت ثقافة الخوف الديني على أجناس الوعي الفني والأدبي، مثل المآسي الدرامية، والمسرودات الحكائيــة «الروائية» والرسوم، والنُصــب، والمنحوتــات، وصــروح المعابد، والمدافــن، فارتقــى الإنسان فــوق عذاباته وفواجعــه، لأنه تحدى أقــداره، منطلقاً من قناعة، أن المحــن العظيمة هي التي تصنع الأقدار باتجــاه النصر المبــين، وأنا أُناصر مقولــة الشاعر الألمــاني «نوفاليســ» رُفع الإنســان فوق ذاته وأجد في هذه المقولة، أن الثقافة التي أبدعها الوعي الفني الجمالي، كانت ارتقاء روحياً للإنسان الذي تحرر من مسجونية ذاته المنغلقة على نفسها، ولم يعلم أن تحرره من خــوف أزلي مستوطن دواخله قــد ساقه إلى ولوج عــالم الخوف الذي كان يخشــى الوقوع فيه، والارتهــان لمحكوميته، ولذلك فــإن ثقافة الارتقاء خــارج الذاتي قد أنشــأت إثــم الخطيئة، وتربــت عليها تقاليد أشــد قدسية وتغريبــاً وهولاً، ولعل معايــير الخلودية «اليوتوبية» (utopia) في الواجبات المقدسة هــي تعطيل لآلية النقد العقلاني إزاء الموقنــات الظاهراتية لثقافة البدء الأسطــوري، والحيلولة دون الانفلات مــن مأسورية تقاليدهــا، والأنثى تعاني من ثقافــة الخوف أكثر مــن الذكر، خاصة بعد الانقلاب الذكوري «الأبــوي» الذي جردها الكثير من صلاحياتهــا القيادية والأمومية في المجتمع، وغدت مستباحــة جنسياً عند ممارسة طقوس التخصيب، ومغتصبة عند الغزو، وضحية عنــد تقديمها قرابين على مذابح الآلهات، وسبية عند الحروب..

إن ثقافة التطور التقنـــي والتكنولوجي مـــن أشد أنماط الخوف تأثـــيراً من فلسفة «النمـــاء» (teleology) وما ينجم عنها من كوارث تدميرية للطبيعة والعضوية والنفسية، وعلى وجـــه الخصوص، التمركز الرأسمالي «الكامـــبرادوري» للاستثمارات العالمية على منهج العولمة (globalization) اللانمطي، وإنتـــاج آلات وآليات حربية مدمرة لحضارة الإنسان، يقول جـــان جاك روسو في «العقد الاجتماعـــي»: «يولد المرء حراً، ولكنه مُقيد في الأغـــلال في كل مكان» فـــإذا كان الدين وعيـــاً للخطيئة عند إنساننـــا البدائي، فإن الثقافة وعي للخوف عند إنساننا المعاصر.

يمكننا القـــول إن الإنسان كائن مسكون بالخوف، من حيث، كان البدء وعياً للخوف، وبفعـــل مخيلته النشطة حـــاول أن يبدع كل ما يمكنه مـــن تحصين كماليته ونبالته التي يدرك معناهـــا بالفطرة رغم جهالته بوقائع العالم الغامضـــة، بيد أن التحصين يبقى في العمـــق «السايكولوجي» خوفـــاً مبطناً رغم النواميس الناظمة لسلوكه الأناسي التي تدرأ عنه مشاعر الخوف، وتطالعنا رؤى في أنساق الآداب الأسطورية، تعتبر الإنسان مكوّن من خصائص هي أقرب ما تكون إلى البؤس، من حيث هو كيان مجبول من ماء وطين آسنين، أو من طين مجبول بدم الشياطين، أو من ثمار تسري عصارة الشهوة الموبقة في عروقه، وأن روحه متقمصة من كوائـــن وحشية شريرة، وتـــارة، أن روحه قبس نـــوراني من نور الله، ومن هنا نشأت حمأة الصراع التراجيدي بين جاذبية الجسد الشهواني، وانتباذ الروح من محكومية الجســـد الآثم الفاني، ولا غرو في أن سائر الآداب والفنون والديانات والطقوس الشعائرية التي تصيـــخ إلى الصدى الإلهي المـــترددة في فضاءات الوجـــدان، هي بحث الروح عن الاتحـــاد بخالقها، ويبادرنا سؤال ملّح، هل المعيار الأخلاقي سابق على المظهر الديني أم العكـــس؟ الحق، إن نزوعاً روحياً جوانياً يسبق المعيـــار والمظهر على السواء، فهذا النزوع الداخلـــي يتمثل في إحجامات الرغبة مـــن ظواهر الطبيعة التـــي أسست بدورهـــا «وعـــي الرهبة» مستنديـــن إلى أن المظاهر الدينيـــة تمثل يقينياً صوت الرغبة الداخلـــي، ومن ذا نستخلص حقيقة تكشف لنا بجلاء عن أسبقية المظاهر الدينية على المعايير الأخلاقية، وحجتنا في هذا الشأو، أن الخوف من المجهول، جعل الإنسان البدائي «المتوحش» يرتعد مـــن الظواهر الطبيعية، ويقدم لها صلواته وقرابينه، وتراه كلما عبد ظاهـــرة وجعلها إلهاً أفلـــت، مثل (الشمس،

القمر، النجــوم، النار..) تحــوّل إلى عبادة ظاهـــرة أخرى، هذا الربــط الكوني بشعور الرهبة، كوّن لديــه حصيلة معرفية متعددة رغم جهالته بها، وفي ذات الحال، أن الأبنية المعرفية مكوّنة من قيــم «معايير أخلاقية» ناظمة لسلوكــه، ومــا زال إنساننا المعاصر يربــط وعيه الديني والأخلاقي بإله مجهول الماهية، إلا أن نــازع الرهبة الأخلاقي كان قد تبوأ مكانة عليا (سلطة معيارية) مُلزمة، تكبح جماح الدوافــع الغريزية الوحشية في الــذات المتألبة، ولدى العــودة إلى مواريثنا نجد رهبة المقدســ مكوّنة من أمشاج دينية وأعــراف وتقاليد تصدر عــن مستبطنات وجداننا الجمعي، وأن أي ثابت أو متحرك في كل أنماط حياتنا تتبع حالات «سوسيولوجيا الرغبــة» المتأصلة في أخاديد ثقافتنا، ولكن ظلــت المعايير الأخلاقيــة بوصفها يقينيات الثابــت تجترح القضايــا المعرفية وتحافظ على خصائصــ وعي الرهبــة المتأصل في معتقداتنا وثقافاتنا، يقول «هبرماس»: «دأبت البشرية علــى الابتعاد عن الأصول بسيرورة الأنوار على الصعيد التاريخ الكلي، ولكنها لم تتحرر من التكرار الانفعالي للأسطورة»[٤]، ويقــول «هايدغر» بهذا الصــدد في مؤلفه (الكينونة والزمن): «إن الوجود الإنساني هو الذي يضــع دوماً وجوده في موضع الخطر» هــذا القول الســادر في متاهــات التغريب الأسطوري هو ارتهان لقدرية النبوءة وتقيد بمعيارية الوعي الأسطوري.

رهاب الحرية عبر حرية الرهاب

تعددت الــرؤى في تفسير معاني الحرية مــن بدء تكوين تاريخانيــة الوعي الأناسي، فنظــرة ترى أن وأد الحريــة عملية إرهاب مذهــل بحد ذاتــه، إذ إن في مقتلهــا إلغاء بائســ للقيم التي تضبــط سلوكنا الغريزي «الوحشــي»، ورؤيــة تنظــر إليهــا، أنهــا عمليــة خلاص مــن حرية الرهــاب التي تمارســ طغياناً يتجاوز حدود حقوق الحياة الأناسيــة، ورؤية تنظر، أن لا حرية في حياة محكومة بقدريــة العدم، ورؤية تنظر إلى أن في الموت حرية الروح من محكومية الجسد، وتعالٍ للاتحاد بالخالق الأعظم، ورؤية تنظر إليها، أنها تجسيــد حقيقي للقيم الجمالية الناظمــة لحياة مثالية نبيلة..إلخ، وأنا أرى، أن الإنسان محكــوم بعماء الحياة التي تحدّ من حريته الكونية بسبــب محدودية مكوّنه البيولوجــي، فضلاً عن تطــوره عبر أطوار وعي العماءات التي قيــدت حريته بتعاليم وقوانين ومحرّمــات ومقدســات أسطورية حالت دون انطلاقته وعدم فلتانه من أغلال

قيــود الدهشة البدائيــة والمؤسطر الثقافي والمعتقد الغيبي والمحرّم الافتراضي، ويغدو إلغاء الحرية عبر هذه الارتهانات إلغاء لماهية الإنسان من حيث هو أرقى كائن عاقل قادر علــى ممارسة حياة غايــة في الجمال، كما أنه انتزع بيده القيمة السامية لمعنى الحرية المتأصلة في أعمــاق فطرته، وأزعم هنا، أن الخوف من العدم، هو من أبرز الدوافع التي منحت الوعــي أملاً في مبعثــه بعد العدم، بمعنى، أن النواظم الأخلاقية الرادعة تولت وظيفة نزع هواجس الخوف من هول العدم، وباتــت نواميس مُشرعِنــة لسلطة الخوف، علــى أن تتقبل النفس حتمية الموت أملاً في بعثهــا من جديد للقاء بارئها، والحساب هو من أهم تلك المُشرعنات.

لا أعتقد أن قطف ثمرة الشهوة في جنة الخلد كمــا وردت في أدبياتنــا الأسطورية تنــدرج تحت مفهــوم الحريــة المطلقة في ممارسة الفعــل الإرادي للكائن الفردوسي، لأن واقعة الطرد من الجنة كانت فعلاً قسرياً «عقاب» شاءته الآلهة، كما لا توجد في الجنة شهــوة «غريــزة» أو لذة جسديــة أو محرّم، فالجســد والروح كيان واحد مصون خالد، أما وقوع الخطيئة في جنة الطهر هو النقيض «الاختلاف» الــذي أسس الحياة الدنيا، أي أن خطيئــة الشهــوة شكلت انتقــالاً قسرياً مقابل الحرية الإطلاقيــة، وبالتالي تفصح الإرادة الإلهية عن أن الشهوة غريزة انتشاء مخالفــة له، وباتت الروح وجهاً يمتاز بحرية اطلاقية متصعــدة نحو العــلاء، والجسد وجهاً يمتاز بالاحتباس المنحدر نحو الأسفل، ويبرز وجهان متضادان، حرية طهر المقدس المنفتــح، وحرية عهر المدنســ المنغلق، وأن منشــأ الآمال هو الصراع بين مقدس يبحث عــن فعل الخير بإرادة إلهية، ومدنس يبحث عن فعل الشــر بإرادة بشريــة، أي الانتقال من عمــاء الحياة الدنيــا إلى عماء الموات، والتحــول عبر انتقــالات «عقائدية يقينية» هو استعــادة صريحة لحرية العلاء المفقود، وتحطيــم لإرادة الشر، وأرى أن ثقافة العدم هي ثقافة الخوف المحايث للوعي الاغترابي الفاقــد لأدنى حريــة وإرادة في اتخاذ قرار تحديــد المصير في ظــل ارتهانــات قسرية العبودية.

كثير من المسوغات التي يشرعنها الإنسان عن أحقيته في الحرية، تصطدم بموانع من قيــم الثابت فيفقد سويته وينداح تفكيره في شيئية الجسد، ويهمل انسياب هيولة الروح، ويتجــرد عن مقومــات التجلــي في تنامي الوعــي الجمالي لإمكان الولوج في حالة من

الصفاء والطهر.

صحيحــة رؤى الأدبيــات الأسطوريــة والخطابــات القدسيــة وتعاليــم الديانات «التوحيديــة» التــي تحض علــى اجتناب المدنــس، لأنها ارتقاء جمالي يكشف الخمار عــن وجه مظاهر طقوس الرهاب في ثوابت المقدســ من حيــث أن الوجــود ليس حالة انتشــاء أو امتلاء حســي أو جسدي «دافع إيروســي» لأنــه تحصيل حاصــل للتكوين الغريــزي «البيولوجــي» للكوائــن الحيــة، وإنمــا هو امتــلاء روحــي تتطلبه لحظات الوعــي المتجلي معرفيــاً، ولا يتوفر إلا عبر البحث واقتراء واستخلاص القيم الجمالية الناظمــة لحركة الوجــود، وتصبح المعرفة امتلاء روحياً متحــرراً من آسرية الجسد، وأجمل في القول، إن الرذيلة امتلاء اشتهائي يتبــع دوافع عماء الجسد، والفضيلة امتلاء قيمي يتبع دوافــع الروح المتحررة من عماء الغريــزة أو اللذة «الإيروسية» ونقر بضرورة الاختــلاف للمحافظة على ديمومة الصراع بين «النجدين» لأن الجميــل كامل مصون، والقبيح ناقص معدوم .

رهاب العولمة

ساهمت العولمــة في بناء حضارة مدنية (civilization) في جــلّ ميادينها، وليس الاقتصــاد أهم مــن الثقافــة في منهجها، لكنها باتت أكثر خطــورة حين انبرت تدعو إلى «الشوملــة» أو «الكوننــة» ولعلها امتداد صريح للهيمنــة (hegemony) وأستطيع حصرها في معنيين دالين، شكلي «ظاهري» يتمثل في وحدة تجارة السوق العالمية الحرة القائمــة علــى تفعيل حركــة الاستثمارات وتوظيــف الرأسمال في مختلــف الأقاليم، وجوهــري «باطنــي» يتمثــل في منهج آني «تاكتيكــي» مرحلي يبغي الهيمنة على جملة الموارد لاستمرار تراكم رأس المال، وتصريف المنتج السلعي في الأســواق الخارجية وفقاً لمقتضيــات مصلحة إدارة المركز المتحكم في السياسة الاقتصادية لتحرير عموم التجارة العالميــة، ويمكننــي تعريف هــذا النمطية الكونية «أنها شوملة السوق الحرة لاستمرار تراكم الرأس مال، والهيمنة على اقتصادات الســوق العالمي المتعــدد الأقاليم»[٥]. فبرز الخوف من شوملة تسليع كل المجالات الأدبية والدينية والثقافيــة والأيديولوجية، خاصة بعد ظهور نجم القطب الواحد أو الأنموذج الواحــد، إنــه توجســ رهيب مــن سيطرة البراني علــى الذاتية «الهويــة» وما تحتوي من ذاكرة وتاريخ وتراث ولغة وعقيدة.. وكل مــا يستقدمه الجالب الــبراني من مجاليب

تهز سعف الوجدان، وتدفع باتجاه تحصين الذات الجمعية.

إن مـا يطرحونـه في سياق العولمـة «الكوننة» من صراع بين الثقافات أو صدام الحضارات، فإنه لم يأت من التعددية الثقافية أو مـن صنوف الانتمـاءات أو التباينات في المعتقدات الروحيـة أو الأيديولوجية، إنما من شعور خطر الابتلاع الذي تروّجه حفنة من مفكريـن ضالين، منهم المفكر الأمريكي «صموئيل هنتنغتون» قوله : «أنه ليس صراع أيديولوجـي أو اقتصادي، وإنما هو تصادم ثقـافي» ويردف قائـلاً : «أن الحضارة هي كيان ثقـافي»[٦]. أما ظاهرة العنف المضاد للعنـف الذي سُمي بـ «الإرهاب» هو بداية تاريـخ العنف المباح من أجـل نهاية العنف، وتأتـي رداً علـى نظـرة الغـرب التي ترى أن إلهـاً عنيفـاً يقبـع في روح أمم الشرق، فيتوجب تحريرها منه، انطلاقاً من فلسفة الخطاب النبوئـي لتعاليم نهايات الخلاص الأسطورية، ولو استعرضنا المآسي العظيمة التي عانتهـا البشرية سنرى أنهـا تأتي من أسطورة الخلق التوراتية، يقول الإله المفترض «يهوه» العبراني: «بنو الغريب يبنون أسوارك، وملوكهم يخدمونك ليؤتى إليك بغنى الأمم، وتقاد ملوكهـم، وأن الأمة أو المملكة التي لا تخدمك تُباد» سفـر أشعيا، ويتبن أن مجمل أنماط الثقافات السالفة الذكر تستنسخ من خلية البدء النبوئـي الأسطوري متجانسات أو متشابهات ثقافة الخوف، وحتى الديانات التوحيديـة، ظهرت بينهـا متنافرات، ونال بعضها من بعض، مسيحي ويهودي، مسيحي ومسيحي، إسلامـي إسلامي.. فترى الدين يخاف من نفسه نتيجة الصراعات من عهد إخناتـون وموسى، ومن موسـى إلى السيد المسيح، وداخـل المسيحيـة الغربية نفسها حيث أدخلتها في حروب طاحنة، وتأتي تلك الصراعات من خارج أُطر الأنساق الروحية، وكـم من فـرق وشيـع ومذاهـب اختلفت وتقاتلت، فكل ديـن يستنبط خوفاً مزدوجاً من داخله تارة أومـن خارجه تارة، وأعتقد أن المقدس يفرز صور خطاياه ويعريها، كي يحافظ على تجليات طهره، ونبذ متنافرات خطاياه الممثلة بأرجاس المدنس.

نتسـاءل عمّـا جلبـه التقـدم العلمي والصناعـي والثقـافي منذ عصـر النهضة الغربية مـروراً بعصر التنويـر، أليس هو الصراع المحموم على الاستغلال والاستعمار والغزو والخـراب والموت..؟. أليست ثقافة السـوق في الفكر العولمي، هي ثقافة وثنيات مقدسـة ومرجعيـات منمذجـة وتبعيـات

لأنظمة مستقبليات تسوق البشرية نحو البؤس المؤسس على ثقافة الخوف المؤسطر؟، وهنا يكمـــن الخوف علـــى المصير، يقـــول «جان جـــاك روسو» في العقـــد الاجتماعي: «يولد الناس أحراراً دوماً، ولكنهم في كل مكان هم مكبلون بالأغلال»(٧).

رهاب العدم

نتساءل في البدء، لِمَ نشأ نزوع الرهاب في الأنفســـ البشرية؟ ولِمَ العالم مكوّن من كينونة واحدة موجـــودة بالقـــوة، ونتعامـــل بحذر وخوف معها ؟! والإجابـــة، إن تركيبة العالم الموجـــود بالفعل قائمة على مبـــدأ الأيلولة العدمية، ونحن نسلم بهـــا، إذ إننا لا نلمس في الواقـــع ما هو آيـــل إلى الخلود، وكأن لا شـــيء إلا العدم، أي لم يجرِ سوى خلق العدم المحسوســـ، أما أين الوجه الآخر من الحياة العليـــا، هو واقع غير محسوس، ولست أدري مـــا إذا كان التناقضـــ هـــو الفيصل الذي يميز ما بـــين الوجود والعدم، ويحافظ على ديمومة الوجـــود، ولا أدري ما إذا كان خلق العدم إفصاحاً عن خلودية الخالق الأعظم، وأعتقد أن تلازمية الشعور بالخوف من هول العدم هو بسبب محكوميتها بسرّانية المتناقض في التركيبـــة الكونيـــة، إذ يأتـــي الاختلاف ممثلاً لروح الوجـــود، أشبه بتلازمية الروح للجسد، فالكون كتلة واحدة التكوين، ومكوّن من ممكنات غير ممكنـــة الوجود في الوقت نفسه، أم موضوعة الكليات فهي مركبة من الجزئيات، والاختـــلاف يشكل التطابق بين الفـــرادات، أما «التفكيكيـــة» فهي اختلاف في خصائصـــ اختلافـــات التطابـــق التي تحطـــم تجربـــة التطابـــق، ومن هنـــا ينشأ نازع الرهبة مـــن «التفكيكية»، والتصنيفات الديماغوجيـــة في الفكـــر التهويمي، شعوب مـــا قبل التأريخ وشعوب مـــا بعده، وما قبل الحداثة وما بعدهـــا، شعوب دونية وشعوب فوقيـــة قائدة، حضـــارة الأقـــوى المنفتحة، وحضارة الأضعف المنغلقة، إنما هي سياسة تفكيـــك مخيفة بديلة عـــن التركيب، وتنافر بديل عن التلاقح، وأن عـــدم الانفتاح على الآخر «إكسينولوجي» (xenologic) واتباع مبدأ التفكيكية هـــو رهاب للحرية وتعطيل لآلية التثاقف بين الحضارات، وأن شعب أو حضارة الأقوى تتولى قيـــادة الشعوب، هي ثقافة توارثتها الأجيال من العهد التوراتي، والروماني ،والنهضـــوي، والغربي الحداثي، فالعولمـــي، والدعوة إلى الحـــروب من خير شعـــب علـــى أرذل شعب، من أجـــل إحلال السلام العالمي، وأن إعلان العبودية من أجل حريـــة الشعوب، هي مجرد فذلكات مرعبة،

تفصح في جوهرها عن خلاص قرباني قائم على مبــدأ «تدمير نبوئي قربــاني» مستمد من تعاليــم النبوءة الأسطوريــة التي تدعو إلى عالم جديد، هــؤلاء المتميزون الأوصياء على الشعــوب وحضاراتها هم دعاة خراب كل عالم جديد، وهاكــم الاستعلائي العرقي (العنصري)الألماني «هتلــر» يقول: «الحياة صراع بــين الأقوياء والضعفــاء، ففي موت هــذا حياة لذاك، فلا تشفق على أحد» تلك الشخصيــة وأمثالها قدمت البشرية قرابين الخلاصــ إلى محرقة العــدم، وذا هو أيضاً المفكر الأمريكي «صوموئيل هنتنغتون» أحد دعــاة الوصاية يقــول: «في الحقبة القادمة يمثــل صــراع الحضــارات الخطــر الأكثر تهديداً للسلام العالمي».

إن التحكــم في أسعــار البــترول وطرق التجارة العالمية والرأسمال الموظف والمواد الغذائية وكل أشــكال الأمنات، هو استعباد للشعــوب، وأن اجتيــاح البلــدان المارقــة والمتمردة، بواسطة (مــدن الموت المتحركة) عبر القارات هو التخويف الذي يمارسه هذا الفكر الوصائي الدوغمائي الاستعلائي على تلك الشعــوب، ويحق لنا القــول، إن تاريخ البشرية حافــل بثقافة العنــف والاستلاب والتدمير والظلم .

إن سياســة الإرهــاب المنظم عن طريق استخــدام الســلاح النــووي والجرثومــي والجرثومــة الخبيثــة والالتهــاب الرئوي (سارســ) والإيدز و..إلخ أليست من صنوف ثقافة الخوف؟

كل أنساق الوعي عبر المراحل التاريخية ومن ضمنها الديانات (البدائية والأسطورية والتوحيدية والتنويرية والحداثية والعولمة.. هــذه التحولات تبغــي تحريــر الوعي من محكوميــة الخوف، ولكــن كل هذه التباشير الملفعة بهالات الخلاص هي دعوات مخالفة لحقائــق التاريــخ، يقول المفكــر الأمريكي «مارشــال بيرمان» حــول مفهــوم الوحدة العولميــة: «وحدة تجعلنا تحــت وطأة الهلع والخوف»[٨].

جرى في مراحــل متعددة مــن التاريخ التركيز على حضارات الشرق التي تتجاذبها قــوى شد الماضــي لمواريث سلفيــة عريقة متحوّطة بقيــم المقدس مــن جهة، وجذب الحاضر لحضــارة حداثيــة منفتحة، لكن شعوراً قلقاً ينتــاب وجدان شعوبها، أن لعباً خطيراً يستهدف بناهــا الروحية والثقافية والتراثيــة والعقيدة من قبل مستقبلية النهج الهيمني، وبالتالي يســوق ذاتيات الأمم إلى عنت الموروث المقدس، وتأجيج سعير أشكال

التعصـــب القومي والمعتقـــدي، محاولة منه اختراق التحصّن، ويتبين أن حضارة الغرب تتطلع إلى تحقيق مصالح مادية «اقتصادية»، إزاء حضـــارة الشرق التي تتطلع إلى تحقيق مصالـــح روحية «ثقافية» فـــترى كل منهما يشعر بخطر الآخر عليه، فيعمل على حماية وأمـــن حضارته من هذه القـــوى، ومجابهة التحديـــات الداهمـــة، فصـــارت القضيـــة الثقافية من أولويات الصراع الحضاري.

إن الحضارة نتاج مغامرة الوعي العبثي الذي صنع ثقافة الخـــوف، ومن المؤكد، أن أية حضارة يسكنهـــا الخوف ملحودة، وآيلة إلى زوال، ولكم من حضارة بُعثت ثم لُحدت وانطمرت تحـــت ركام زلازل تحولات ثقافة الخـــوف، ونجـــد كل حداثة عـــبر التاريخ، محاولـــة بناء عالم جمالي علـــى أنقاض عالم

المصادر:

١- ميرسيـا إليـاد - التنسيـب والـولادة الصوفيـة - ص ٤١ - تر. حسيـب كاسوحـة - وزارة الثقافة - دمشق.

٢- نفس المصدر السابق- ص ٦٣.

٣- غيورغي غاتشيف - «الوعي والفن»- ص ١٠٨ - تر. د. نايف نيوف -عالم المعرفة - الكويت.

٤- هبرماس - القـول الفلسفـي في الحداثـة - تر. د. فاطمـة الجيوشي - ص ١٧٧ - وزارة الثقافة - دمشق.

٥- انظر في كتابنا - منهج العولمة اللاانمطي - ص٩ - دار الفرقد - دمشق.

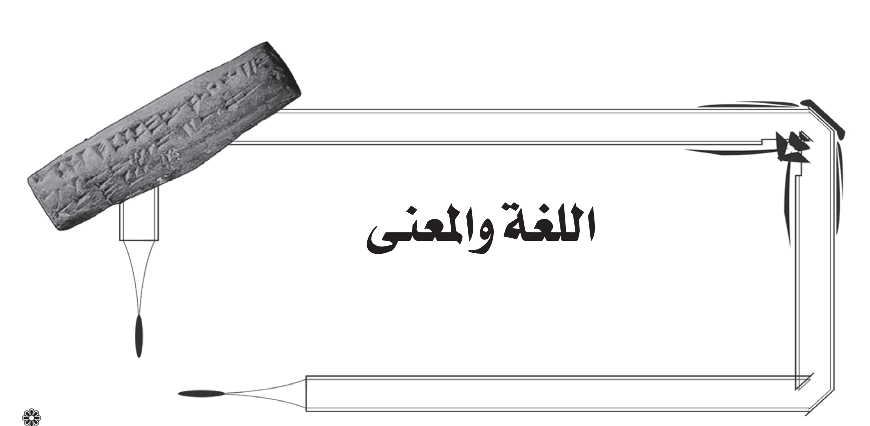
٦- صوموئيـل هنتنغتـون - صـدام الحضـارات وإعـادة بنـاء النظام العالمـي -مقالة لـه في صحيفة «فوريجن آفيرز» - تر. مالك عبيد - دار الجماهير.

٧- جان جاك روسو - العقد الاجتماعي - ص ٤٤ .

٨- مارشـال بيرمـان - محمـود حيدر -مقال له «الدول الهالكة» - مجلة الطريق - ص ٧١ - العدد /٥/ لعام ١٩٩٩م .







اللغة والمعنى

موسى ديب الخوري*

في البدء كان الكلمة.

إنجيل يوحنا (١:١)

كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة.

النفَّري

إنمــا اللغة نسيجُ هــذا العالم وحبكتُه. وُلدت اللغة بــولادة الكون، ونَمَتْ بنموِّه، وتمايزت بتمايزه. كان الكون تجلِّي المعنى، فكانت اللغة هي الكون. في البدء كانت الكلمة، بما هي المبدأ والحق والمعنى. وعندما تمايز الكل، ظهرت العناصر، وحمل كلُّ عنصر معه لغته الخاصة للتكاشُف والتواصل. كذا كانت

* باحث ومترجم ونائب رئيس الجمعية الكونية السورية

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

اللغــة هي العناصرَ نفسهــا، بما هي نواقل بذاتهــا ورسالات محــددة ضمن مجموعات متنوعة. وأدى تآلف العناصر إلى

خلــق أنماط جديــدة مــن الكينونات، وبالتالي، إلى نمــاذج جديدة من وسائل نقل المعلومات. وهكــذا ازداد تعقيد اللغات مع صــيرورة توسُّع الكون وابــترادِه وتشكُّل بناه الهائلة ومنظوماته المتداخلة.

وأدَّى ظهــور الحيــاة على أحــد توابع نجــم في مجرَّة كونية ندعوها «درب التبانة» Milky Way إلى بزوغ نمط فائق التعقيد مــن اللغات؛ ذلك أن هــذا النمط استوعب الأنمــاط اللغوية كافة التــي سبقته، إنْ من الناحية العضوية أو مــن حيث قدرتُه على استلهام بناها ومعانيهــا. وهكذا راح يطوِّر اللغــات الكونية بما يوافــق حركة لا يمكن وصفُها إلا بأنها حلمٌ عتيق يتكشَّف!

تقــوم بنية الكون علــى انكسار التناظر فيه. وما ظهور عناصــره إلا نتيجة التمايز الأوَّلي الذي حدث فيه منذ لحظة الانفجار البدئي Big Bang. وقد عمَّقت الحياة هذا الانكسار للتناظر بتطورها؛ إذ إنها مبنية في جوهرهــا، كمنظومة ذاتيــة الانتظام، على تآلف عناصــر شواشية chaotic تنتظم في شــروط خاصة. ومــذ ذاك، بات يمكن للُّغة الكونيــة أن تستعد للإفصاح عــن الأسئلة التي طالمــا كانت متضمنــة في صيرورتها، كامنــة فيها. ويمكننــا التأكيــد أن اللغات القائمة بين العناصر الأولى التي تشكَّل منها الكون، كالقسيمات والذرات والسُّدُم، وصولاً إلى المجرات والنجوم، كانت تحمل في ذاتها إشكاليــة كالتي حملتها لنــا الحياةُ ولغتُها. وتتمثل هــذه الإشكالية بكون العناصر تمثِّل تجلِّيَ المعنى والسؤالَ عنه في الوقت نفسه.

لقد استطعنا عبر تاريخنا القريب طرح مشكلة وجود القانون الفيزيائي قبل وعينا، أي منذ ذلك الحقب السحيق في عمر الكون، عندما أفصح البــدء عن إمكانات لانهائية، وعندمــا تمَّ اختيــار إمكانية واحــدة بينها كانت هي سبب وجودنا. ترى، هل إن وعينا الحالي هو الذي يختار الآن تلك الإمكانية؟ وهل إن لغتنــا، بأشكالها المتعددة، هي التي تطرح اليوم سؤال البدء؟!

إن لغاتنا الحاليــة مبنية كلها على هذه الصــيرورة مــن التجلِّــي المستمــر للسؤال الأول. ويعنــي ذلك أن وعينا وتساؤلنا اليوم ليس حديث التدخل في فهم العالم وفعاليته، أي وجوده. إن مــا تحقِّقه مجموعة عناصر من انتظام ذاتــي فيما بينها يؤدي إلى تعيُّن خط تطور وصيرورة للمنظومة؛ وهذا الخط

هو ما يمكننـــا دعوته بالقانون الفيزيائي. ويكـــون هذا الخط متغيراً بمـــا يوافـــق المعلومات الديناميَّة للمنظومة التي ترجع بأصولهـــا إلى انكســـار التناظر البدئي. وهكـــذا، يمثل القانونُ الفيزيائي في وعينا اليوم اللغةَ الكونيةَ التي تجعل وعيَنا نفسه يمتد عبر مسافة الزمن الماضي والمستقبـــل، فيستشـــف المعنى ويخلقه في آن واحد.

يُعَـــدُّ القانـــونُ الفيزيائـــي – ليســـ بما هو لغـــة ثابتة، بل بما هو لغة حية متطورة – أحدَ أشـــكال التعبـــير الأساسية عن هذه اللحمة بين الوجود ومعناه.



يضعنا هـــذا القانون – بما هو فعلُ العناصر وكلمتُها، وليس فقط كمنظور إدراكـــي يمكننا التحقق منه – أمام إشكالية اللغـــة والمعنى – بما هو كائـــن مجرد، وفي الوقت نفسه، كينونـــة متحققة في الاختبار والمنطق. فهذا القانون الـــذي نبدعُه اليوم كان هـــو الذي أبدعَنـــا وكوَّنَنا؛ وهو لا يزال يخلقنا بقدر ما نخلقه، ويتفتح فينا بقدر ما نتفتح عليه.

لقد ظهرت كائنات عبر صيرورة التطور استطاعت نقـــل المعلومات والمحافظة عليها وإنتـــاج مماثلات لها. ثم تطـــورت إمكانات التكاثـــر بحيث تكون احتمالات التنوع كبيرة جـــداً. وما كان ذلك ليتحقق عبر نقل جيني آلي مبنـــي فقط علـــى قاعـــدة الاصطفاء الطبيعي؛ بـــل كان قانون التنوع نفسه ماثلاً في انبثـــاق الأنماط الجديـــدة أو التنوعات ضمن النمط الواحـــد. وهذا يعني أن اللغة

الطبيعية لم تكن معنية فقط بنقل المعلومات، بل كانت، منذ انكسار التناظر البدئي، تعكس صيرورة التعبير عن تنوع النماذج والإمكانات وتعددها؛ ذلك أن هذا التنوع القائم على الانكسار نفسه هو أساس بناء أية صيرورة منتظمة ذاتياً، أي أكثر عمقاً وأصالة في الضمير الكوني.

ضمن هذا المنظور، ألا يعني ذلك أن الكون استطاع الوصول إلى حالة توازن على صعيد طرحه للمعنى، حيث استطاع تحقيق لغة قادرة على طرح السؤال؟ أو لم يكن السؤال، بحدِّ ذاته، هدفاً للصيرورة الطويلة من تفتح الحلم العتيق؟

بلى. ألعل اللغة كانت في البدء سؤالاً؟ إن حلماً قديماً أمكن أن يتحقق عندما تفتَّقت في الوجود إمكاناتُ الرؤيا والتعبير. إلا أن حلماً أقدم منه كان قد بزغ منذ أن نشأ الكون. ترى، أية لغة كانت تلك التي حملت معاني الكون الوليد، وأية لغة استطاعت أن ترسم مناحي تطوره، وصولاً إلى النطق والسؤال، إنْ لم تكن لغتنا الحالية وقدرتها على السؤال؟

ينتقل حلم الكون إلى حلم الإنسان من خلال هذه الصلة الخفية بين لغة العناصر ولغة الكائن. فعلى نطاق الكون، يشكِّل المعنى حاجة أساسية لا ينفك الكون يبحث عنها في تجلِّياته كلِّها، اللغوية في الجوهر. وعلى صعيد الإنسان، تمثل إشكالية اللغة صورة لجهاده الكبير من أجل معرفة كاملة لوجوده. وفي هذا الإطار، يشكل الإنسان نموذجاً كونياً، بما هو طارح للسؤال على درب تحقيق معنى وجوده. فهل يمكننا أن نرى، عبر هذه الصلة بين الإنسان والكون، إلى جوهر الصلة بين اللغة والمعنى؟ وإلى أي حدٍّ يمكن لوعينا الحالي، وللغتنا الذاتية الآنية، أن تستلهم المعنى عبر صيرورة انتظامنا الكوني؟

ترى، ماذا يعني تنوع منظوماتنا اللغوية؟ وماذا يكشف تعدد الأنماط في اللغة الواحدة؟ وإذا كنا نرى عبر التاريخ الحامل للغاتنا، بما هو متصل باللغات الكونية، أننا لغة ناطقة وواعية، هل يمكننا رسم إطار موحَّد للُّغات الكونية؟ وهل يمكننا، بالتالي، إطلاق حكم لغوي نهائي عبر دراساتنا – اللسانية أو العلمية على حد سواء؟ أم أن علينا الاكتفاء برسم خط سيرنا أثناء تقدمنا، ورؤيا تطور الكون الموازي لنا عبر المسيرة نفسها؟

❁ ❁ ❁

تقودنا هذه الأسئلة إلى حلقة أخرى من الأسئلة: إلى أي حدٍّ يمكن لإبداعاتنا الفنية

والفكريــة سبرُ صيرورة التفتح والتطور، بما هي نماذج محدودة في النهاية زماناً ومكاناً؟ وإذا كانــت اللغــة، على العكــس من ذلك، قادرة علــى تحقيق نمــاذج إبداعية خارج نطاق التغــير والتبدل، فــإلى أي حدٍّ تكون هــذه النماذج متوافقة مــع حدود أوسع من حدودها الخاصــة؟ أفلا يقودنــا ذلك إلى الإقرار أن النمــاذج الإبداعية يعاد إبداعُها في كل مرة يُرجَع فيها إليها؟ وأن ما نستقرئه عــبر الزمان منهــا هو لحظة قــراءة ذاتية نكتشف من خلالها لغتنا الخاصة وإبداعنا الخاص؟ فهل يمكن أن تكون المعرفة، بالتالي، استمــراراً لغويــاً فقــط في طــرح الأسئلة والإجابة عليها وطرح النمــاذج الإبداعية؟ أم أنها، أيضــاً وأيضاً، القدرة على التناغم في صيرورة الانتظام؟ وبما نحن لغة، أليست إبداعاتنــا ومعرفتنا استغراقاً أكثر فأكثر في صيرورة المعنى، أي في نطاق التفتح والتطور الدائمين؟

❀ ❀ ❀

يُعَــدُّ انبثــاقُ القدرة علــى النطق لدى الإنســان منعطفــاً حاسمــاً في تبلور وعيه وتفتح نفسانيَّته. وعلــى عكس ما يمكن أن نعتقــد، فإن البذرة اللغويــة لم تكن واحدة. فمثل هــذه البدايــة تفترضــ أن الإنسان الناطق انطلق من نقطــة واحدة، وأن اللغة انتشــرت من بؤرة واحدة؛ في حين أن إنسان نياندرتــال كان قد انتشــر في معظم أنحاء العــالم القديم منذ أكثر مــن ١٠٠٠٠٠ سنة، وهو الذي كانت لديه أولى إمكانات النطق. وقــد استطاع إنســان كرومانيون الذي تلاه بلوغ القارة الأمريكية وإعمار العالم كلِّه منذ أكثر من ثلاثين ألف سنة. ولم تكن البشريات التي سبقــت إنسان نياندرتال ناطقة؛ لكنها اعتمدت أشكالاً مختلفــة للتعبير، كالصراخ والحــركات الإيمائية. ولعبــت البيئة دوراً هامــاً منــذ ذلك الحــين في تنــوع أنماط التجاوبات الصوتيــة والحركية. وأدَّى ذلك إلى تنــوع الأصــول اللغوية عــبر العالم كلِّه. وعلى هذا، لا يمكننا، بأي حالٍ من الأحوال، القــول بأصــل هنــد أوروبــي أو سامي أو ماليزي مثلاً للُّغــات الحالية. وبالمثل، فإننا نجد في أصول الموسيقا اليابانية أو الهندية مثلاً خصوصية تميِّز كلتيهما عن الموسيقى الإفريقية القديمة. والأمر نفسه ينطبق على تطور الصناعات الخزفية في العالم القديم؛ وهي لغة فنية تحكــي أشياء كثيرة عن رؤى الإنسان وحاجاته.

يوافق هذا المنظور إلى حد بعيد نظريات الانتظــام الذاتي الحديثة. فما نعرفه اليوم

مـــن تآلف بين الأنمـــاط واللغـــات لا يقوم علـــى وحدة بدئية؛ بل علـــى العكس تماماً، يُعَدُّ النشـــوء الشواشي للمنظومات المنتظمة هـــو القاعدة. وينسجم هـــذا الفهم مع كون القدرة على المعرفة قدرة تعددية في أنماطها وليســـت أحاديـــة. وهكذا، فقـــد ظهر تنوع المنظومات اللغوية، بما هي أنماط معرفية، علـــى مستوى البنى اللغويـــة، كما وفي إطار الأشكال والأنماط التعبيرية.

ومـــن المثير للدهشـــة أن نجـــد أنماطاً تعبيريـــة غايـــة في الدقة والروعـــة، قياساً إلى معاييرنـــا الحاليـــة، ترجـــع إلى بدايات قدرة الإنسان علـــى التعبير. ومثال ذلك ما وُجِدَ من رسوم رائعـــة في مغائر من العصر الحجري القديم الأعلى يتراوح عمرها بين ٢٥٠٠٠ و١٥٠٠٠ سنـــة؛ وهي رسوم لم تفسَّر بشكل نهائـــي بعد، إنما تُبرِز غالباً حيوانات ترجع إلى تلك الفترة. تمثل هذه الإبداعات، مثـــل فن العمارة الرائع الذي يرجع إلى تلك الفترة أيضاً ويعتمد على الحفر والأغصان والقش والطين والجلود، تعبيراً منسجماً مع صـــيرورة التطور الطبيعي. وتُعَدُّ هذه اللغة، بمـــا هي نمط أساســـي، إنّ في الرسم أو في العمارة، دلالة على إنضاج متبادل في الطبيعة البشرية وفي القدرة التعبيرية. فكمال الرسم أو البنـــاء يشير إلى كمـــال المنظومة نفسها بأبعادهـــا البشرية والطبيعيـــة. ويعني ذلك قـــدرة المنظومة على ولوج أفـــق جديد من المعرفة، أي على بَلْوَرَة انتظامات وتعقيدات جديدة في بناها.

ولعـــل الأسطورة خير دليـــل على ذلك. فعبر عشـــرة آلاف سنة، استطاع الإنسان أن يغير نمط حياته القـــديم، فعرف الزراعة، وعاش في القريـــة، واستأنـــس الحيوانات، واخـــترع أدوات كثـــيرة هامة، وطـــوَّر لغاته وأوجد أنماطاً لغوية جديدة. وتُعَدُّ الأسطورة نمطاً لغوياً قائماً بذاته، ليس بما تحمله من مفردات خاصة بها وحسب، بل بما هي ولوج إلى أعمـــاق جديدة في اللاوعـــي الإنساني، واستخـــراج لنماذج بدئيـــة archetypes هاجعة في أعماقـــه، وتواصل مع الصيرورة الكونيـــة التـــي لاتنفـــك تغـــذي المنظومة الإبداعية بإمكانات جديدة وأسئلة جديدة. لذا فإن الأسطورة لا تطرح إجابات مباشرة، ولا تصـــادف المعاني الجاهزة على طريقها، بل هي تشق بالأحرى درباً بكراً وسط الشواش البدئي Chaos، وتغنـــي صيرورة الانتظام بمرادفات ومعـــانٍ جديدة. ويمكن القول إن اللغـــة هنا هي كشف حقيقـــي لمعنى أصيل، رغم تعدد المنظومات اللغوية للأسطورة، من

شعر وقصة وموسيقى وطقوس وأداء ورسم وغيرها، أو تعدد أنماطها في اللغة الواحدة، كاللغة المحكية مثلاً، حيث نجد تنوعاً هائلاً، على سبيل المثال، في طرح قصة التكوين أو في رواية علاقة الإنسان بالآلهة.

ومن جهة أخرى، ورغم أننا لا نملك برهاناً وافياً على أن لغات مثل التصفيق أو الرقص أو التعبير الإيمائي أو حتى الموسيقى بشكلها الإيقاعي البسيط، قد سبقت اللغات المنطوقة، لكننا لا نملك ألا نقف بدهشة أمام توافق ظهور هذه الإمكانات مع تفتح إمكانات النطق لديه. ترى، إلى أي حدٍّ لعبت القدرةُ على النطق دوراً حاسماً في تكشف وبلورة الإمكانات اللغوية الأخرى كافة لدى الإنسان؟ وإلى أي حدٍّ ساهمت في تفتح وعيه ومساهمته في تشكيل التصورات الكونية؟ سنعود إلى هذه النقطة لاحقاً؛ لكن لا بدَّ لنا من الإشارة هنا إلى أن هذا التوافق ليس وحيد الاتجاه؛ ونقصد بأن تكشُّف المعنى نفسه، وتفتُّحه، على المستويات النفسية والذهنية كافة كما والفسيولوجية، ساهم بشكل معاكس في ظهور إمكانية النطق. ونريد بـ«المعنى» هنا تلك الإمكانية الحقيقية الكامنة في قلب اللاوعي، والقادرة على استنهاض الحركة الشواشية على هيئة رقصة كونية أو عبر انتظام ذاتي قادر، بدوره، على تقبُّل الإمكانات الوليدة كافة ودمجها وتحريض مزيد من الإمكانات الهاجعة على النهوض.

يمكننا هكذا أن نقابل – بشيء من المبالغة دون شك – بين أولى التمتمات البشرية وبين الأشكال السديمية الأولى التي عمَّت الكون منذ تشكُّله، أو بين أولى أشكال الحياة التي ظهرت على الأرض وهي تكافح وتنهض من عماء المياه المظلمة إلى عوالم من الزرقة والخضرة والألوان المدهشة التي ساهمت هي نفسها في انتظامها وتشكُّلها. فقدرتُنا على النطق، إذن، ليست قدرة خاصة بنا إلا بمقدار ما هي قدرة كونية تفتحت من خلالنا. ويمكننا القول إن الحركة الكونية وحركة الحياة تمثلان فينا اللغة الأم التي تحرَّك بها الإنسان وعمل ورقص ورسم وغنَّى.

❁ ❁ ❁

لا تهدف هذه الدراسة إلى وضع منهج لساني، أو إلى القيام ببحث أكاديمي في النظريات اللغوية. فلعل ما دفعني إلى طرح هذا الموضوع سؤالٌ يختصر مجموعة هائلة من الأسئلة: إلى أي حدٍّ يمكن للُّغة أن تحمل المعنى؟

كان هــذا الســؤال موضــوع نقاش مع صديق خلال رحلة لنا. وقد اتفقنا في حينه أن الكلمــة يمكن أن تنقل أكــثر من معنى، بحســب اللهجة التي تقال بهــا، أو السياق الذي توضع فيه. من ناحية أخرى، تبيَّن لنا أن المعنــى الذي أفهمه مــن لفظة أو تعبير لا يمكــن أن يتطابق مع المعنــى نفسه عند الآخريــن؛ فلهــذا المعنى «لــون» و«رائحة» و«ملمس» بحسب المتذوق أو العارف. فلا بدَّ، بالتــالي، أن يكون في الخصوصية الإنسانية ما يطبــع المعاني بطابع ذاتــي. وهكذا فإن الاتفاق على معنى لفظــة، مثلاً، ليس ربما أكثر من اتفــاق معلوماتي، قد يتقارب كثيراً إنما لا ينطبق بين الأفراد.

إلى أي حــدٍّ، إذن، يمكن لســؤالي – أو لفهمي الذاتي بالنتيجة – أن يتواصل مع فهم «الآخر»؟ وإلى أي حدٍّ يمكن للكون، بالتالي، أن يتطابق ويكــون واحداً مع خصوصياتنا؟ وإلى أي حدٍّ يمكن لهــذا السؤال أن ينطبق على مفاهيم حدِّية، كالقانون الفيزيائي، أو المعرفة، أو الحقيقة؟

ينطوي هذا السؤال على تعارض مبدئي. فمــن جهة، هل يمكن للُّغة أن تشكل أبجدية كاملــة للتعبير عــن الحقيقة؟ ومــن ناحية أخرى، كيف نستطيع فهم الجوهر من خلال مظاهره ولغاته؟ أليس الكون مجموعة هائلة من تجلِّيات المعنى الأول؟ فكيف نستطيع فهم المعنى من خلال فهم اللغة باللغة؟ ألسنا في النهايــة لغة كونية؟ فإذا كانت صيرورة اللغة الكونية التي أبدعتْنا قد هتفت بأسئلتها من خلالنا، فلعلنــا نستطيع تمثل إجابتها. لكن هل يمكــن فصل الإجابة هنا عن الصيرورة نفسها، وحــدُّ المعنى بصيغة محدودة زمانياً ومكانيــاً؟ بشــكل آخر، ألا يجــب أن تمثِّل الإجابة تحولاً ضمن الصيرورة ينعكس على السائــل وعلى الظاهرة في آنٍ واحد، متيحاً للمعنى أن يتكشَّف من خلال صيرورة التحول نفسها؟

تجيبنا ديناميَّة الحياة بــأن اللغة قادرة بأشكالهــا وأنواعهــا على مسايــرة التطور الدينامــيِّ في الكــون، بحيث يظــل المعنى المتطــور أو المتحول محمولاً على متن سفينة قوية مبنية مــن لَبِنات الصــيرورة الكونية نفسهــا. إن لغاتنا تجد نماذجها البدئية في لاوعي سحيق يعود بجذوره إلى بداية الكون؛ ولعلنا نجد في هذا العمــق الجانبَ المُوازِنَ لوجودنا الظاهراتي من العلاقات اللغوية.

❀ ❀ ❀

لكن، ماذا نقصــد بالمعنى؟ وبالحقيقة؟

ترانا نقصد فهمنا الذاتي للظاهرة والعلاقة واللغــة، أم ما تُبنى عليه في المطلق الظاهرةُ الكونيــة، بمــا فيها وجودنــا ووعينا؟ نحن موجودون في خضمٍّ تجانســ لا فصام فيه ولا فكاك منــه! نحن موجودون بقدر وجود الصــيرورة الكونية نفسهــا، وواعون بقدر وعي الصيرورة لذاتها، وقادرون على التعبير قدرةَ اللغة الكونية نفسها على بناء القوانين. ألسنــا، بما نستمده مــن لاوعينا من نماذج لغويــة، نخلــق بشكل متناغم مــع الصيروة الكونيــة مرادفاتنــا اللغوية مــن القوانين الكونية؟

فكيف نستطيع إذن تجريد المعنى؟ ومن جهة أخرى، هل يمكــن وضع تصوُّر أو فهم أو معتقــد نهائــي إذا كانت صــيرورة اللغة الكونيــة نفسُها صــيرورةً متحوِّلة ومتطوِّرة على الدوام؟

تحمــل هذه الأسئلــة تعارضــاً إضافياً خفيــاً! فنحن، في طرحنــا هذا، مع محاولة رؤيــة موضعنا المتناغم مــع الكون بحيث لا ننفصــل عنه، إنما نجعل مــن لغتنا الذاتية الإمكانيــةَ الوحيدة لتمثُّل المطلق. ومن جهة أخرى، فإننــا نكتشف في اللحظة نفسها أن ما نتساءل عنه كامنٌ في أسئلتنا وفي طريقة طرحنــا للسؤال! ألا يعنــي ذلك أن الوجود لا يتعــيَّن بمعزل عــن أسئلتنا، من جهة، ولا يتعــين أيضاً إلا بمعنــاه وحقيقته، من جهة أخرى؟

❀ ❀ ❀

يقودنا ذلــك إلى جوهر المسألة: إذا كان الكون يتعــيَّن باختبارنا له وتعييننا لحالاته، وهــو في الأساس محمول مع تجربتنا نفسها على المعنــى المطلق، فما صلة تعييننا للكون وتساؤلنا عنــه بحقيقته ومعنــاه؟ ألا يعني ذلك أن أسئلتَنا تحدِّد المعنى والحقيقةَ بقدر ما يكون العكس صحيحاً، أي بقدر ما تحدِّد الحقيقةُ أسئلتَنا ووجودَنا؟!

تتبدَّى لنا اللغة من هــذا المنظور كبنية ذاتيــة التطــور والانتظام ضمــن منظومة كونية أعلى وأوسع، هي ليست الكون فقط، بل ومعناه أيضاً. وهذا يعني أن فصل اللغة عــن معناهــا الأوسع يجعل منهــا منظومة غير قابلة للانفتــاح ومحدودة بطاقتها على التواصل مع المعنى، بحيث يكون إثباتُها غير مجدٍ، بل وربما غير ممكن.

لعلنا نستطيع توضيح الفكرة أكثر بالعودة إلى تاريخ فلسفة العلاقة بين اللغة والمعنى. إن جانباً آخر للمسألة يكمن في علاقة اللغة

بالفكــر. وتُعَدُّ هذه الرؤيــا تتويجاً لمطابقة الوعــي بالمعنــى، ولجعل الوعــي أولوياً في منظورنــا الخاصــ وأسبق مــن الظاهرة. قــد نستبق بذلك طرح الحــلِّ؛ لكن التاريخ كان يتأرجــح دائماً بين حدَّي اللغة والمعنى. وإذا كان علــم اللسانيات لم يستطع حلَّ هذه المشكلة الفلسفية التي شغلت الفكر البشري عــبر القــرون، غير أنــه في منهجــه يجعل القاعــدةَ أساساً للتعبير، والفكــرَ، بالتالي، أسبق من اللغة.

كانت النظرة القديمة تقول بفصل عالمي الفكر واللغة. فأفلاطون يتساءل في محاورة كراتيلس حــول صحة الكلمــات، ويرى أنه يجب الذهاب فوراً ومباشرة إلى الأشياء دون واسطة الكلمات. يعني ذلك التعامل مباشرة مع الأفــكار. إلا أن التعامــل مع الأفكار لا يلغــي اللغة، وإن كان يمكن أن يُوجِد أنماطاً منها. فقــد علَّم سقــراط تعريف وتحديد الأفكار، كالأفكار الرياضيــة مثلاً. وتشكل هذه التعريفات أول تصــور لنا عن المعنى. فمعنــى مفهوم ما هو التعريف الذي يمكننا وضعــه له. لكــنْ إذا كان سقراط قد عرَّف الأفكار فقــد عمل أفلاطــون على فصلها وتمييزها عــن الحقيقــة الملموسة. وهكذا أورثنا أفلاطون إشكاليةَ المعنى، حيث يكون المعنى هــو المبــدأ المعقول للواقــع والفكر على الســواء. إن محاولة أفلاطون سبر هذا الجوهر وتجريــده في الوقت نفسه لا تفلت مــن تعارض واضح بين جعل الفكرة مرادفاً للمعنــى ثم تجــاوز الفكرة نفسهــا. وهذا التعارض قائم في سؤال يطرحه تشومسكي عن كيفية نشوء نظــام المعرفة في العقل أو الدماغ، الأمر الذي يدعوه بمشكلة أفلاطون. وهذه المشكلة، كما صاغها برتراند رسِّل في أعمالــه الأخيرة، هي: «كيــف يمكن لأفراد النوع البشري معرفة ما يعرفونه على الرغم من قصر تجربتهم مع الكون ومحدوديَّتها؟»

لقد أوضــح أفلاطون هذه المشكلة فيما يمكن أن يُعدَّ أول تجربة ذهنية. فقد برهن سقــراط في محاورة مينــون على أن مملوكاً شابــاً كان يعرف مبادئ الحساب دون سابق تــدرُّب عليهــا، وذلك بــأن جعــل المملوك يكتشــف براهين الحساب عن طريق سلسلة مــن الأسئلــة كان يوجِّهها إليــه. والمشكلة التي لا تزال تواجهنــا حتى اليوم هي كيف أمكــن للمملوك أن يكتشــف صدقَ براهين الحســاب، أي المعنى، من غــير أن يسبق له علمٌ بها أو تــدرُّبٌ عليها. ويجيب أفلاطون بــأن المعرفة كانت موجــودة في ذهنه بشكل كامن، وبأن سقــراط ساعده على تذكُّرها.

وبعد عدة قرون قال لايبنتس أن تفسير أفلاطون صحيح، ما عدا أنه يجب حذف فكرة الأسبقية منه.

بالمقابل، رفض أرسطو تعالي الأفكار الأفلاطونية، وطرح بدلاً منها مفهوم «الشكل» الخاص بالعناصر الذي يقود إلى ما نسميه اليوم بالـ«تصوُّر». والإدراك بهذا المعنى ليس الشيء الذي نتأمَّله بالفكر، بل الذي نستخرجه من تجريد التجربة الحسية. وهكذا فإن الفكر الإدراكي أو التصوري ليس مجرد نتيجة للتجربة المحسوسة، بل يستخرج الأشكال المجردة من الغلاف الحسِّي الذي يحيط بها.

إن أسبقية الشكل عند أرسطو، أو أولوية الفكر عند أفلاطون، نموذجان مسيطران على الفكر البشري منذ قرون طويلة. وقد تأرجحت الفلسفة خلال العصور الوسطى ومطلع عصر النهضة بين هذين الحدين. وتم طرح مسألة اللغة والمعنى من خلال مسألة أخرى هي جدلية الماهية والفكرة، وذلك من خلال النمو التأمُّلي أو الاسمية في العصور الوسطى، وصولاً إلى المذهب التجريبي ثم نظرية الرموز لكوندياك. وهكذا كان يتم التأكيد حيناً على أسبقية المعنى، وحيناً على أولوية الرمز واللغة. ونرى هذا التأرجح بوضوح في الفلسفة المعاصرة. ففي نقد العقل الخالص يشكل كانط معنى فرضياتنا التجريبية على قاعدة العمليات المنطقية المؤسِّسة نفسها، والمحكومة بوساطة بنى الفكر، مثل الزمان والمكان والنوع وأصناف الكمية والسبب – وهي بنى غير ناتجة عن القواعد النحوية للُّغات، بل تُستقرأ مباشرة من إمكانية التجربة وأهدافها. وهكذا عادت نظريات أولوية المعنى لتسود في بداية القرن العشرين، ولتعود إلى الأفلاطونية بأشكال مختلفة.

ومع ذلك، كانت ثمة علاقة مع اللغة لا يمكن نفيها، حتى عند أعتى المدافعين عن المعنى ككينونة مستقلة بذاتها. إلا أن قوانين المعنى ظلت سائدة، وكانت هي نفسها تُطبَّق كقوانين للغة. فهوية المعنى وتطابقه هو الذي يسمح للرمز أو للُّغة بحمل الفكرة ومدلولها.

رغم كل ما تقدَّم، يمكننا القول إن القرن العشرين سعى إلى توحيد الفكر واللغة. وتبدَّى ذلك من خلال نظريتي النسبية العامة والميكانيكا الكوانتية. وعلى الرغم من أنه لم يتم توحيد النظريتين حتى الآن في منظوريهما المختلفين للعالم، لكن يمكن القول إنهما طرحتا معاً أول شكل توحيدي

للغة والمعنـى، وذلك بتوحيد النسبية العامة للهندسة والمادة، وتوحيـد الكوانتية للوعي والموضوع.

ويُعَدُّ طرح ك. غودل في المنطق الرياضي خطوة أساسية على هــذه الدرب. فبرهانُه على عدم إمكانية البرهـان على اتِّساق أية منظومة رياضية إلا بالاعتماد على منظومة أوسـع وأعلى منها فَتَحَ المجـال واسعاً أمام دراسة اللغات كافة من منظور جديد، حيث لا يمكن للُّغة أن تعـبر تعبيراً كاملاً ومتسقاً عن المعنى إلا باستمـرار تطورها وتوسعها. وهذا يعنـي أن توسع اللغة يتم بالتوازي مع توسع المعنى.

ونجد انعكاس هـذه الديناميَّة المعرفية في تطـور نظريـة المعلومات، وصـولاً إلى نظريـات الانتظام الذاتي. إن كمية المعلومة التي تحملها ظاهرة معطاة هي تابعٌ لعنصر المفاجـأة الـذي يشتمل عليه ظهـور هذه الظاهرة. وتلعب هنا أبجدية اللغة المستخدَمة دوراً كبيراً في خلق هـذه المفاجأة. فالضوء الأحمـر في شاخصة المـرور لا يمثِّل سوى احتمال واحد من ثلاثة، ويحمل بالتالي كمية معلوماتية أقـل بكثير من أحد رموز الكتابة الصينية، مثلاً، الذي يشكل احتمالاً واحداً مـن عشرة آلاف تقريباً. فما بالك لو أخذنا بعـين الاعتبار لغة الحركـة الطبيعية التي تعكس إمكانات لانهائيـة، أو اللغة الجينية للأنواع التي لا حدود لتنوُّع سلاسلها؟! وفي هـذا الإطار، كيف يمكن نقل معلومة؟ كيف يمكـن، مثلاً، التأكد مـن أن فهمنا الخاص للظاهرة هو عينه فهم الآخر لها؟ إن تكرار التجربـة نفسهـا متعذر معلوماتيـاً. وعلى هذا فإن فهمي الخاصـ لها سيتغير في كل لحظة! إن تحويل مبـادئ نظرية المعلومات أو الاتصال إلى اللغة وتعميمها على اللغات الكونية يسمـح بتأكيد الشروط المطلوبة كي تستطيـع اللغة نقل المعلومات. لكن ذلك يتم على مستوى محدود زمانياً ومكانياً.

❁ ❁ ❁

ضمـن هذا المنظـور، عمـل فريق من العلمـاء، بينهـم ب. ماندلـبروت وج. أ. ميلِّـر وب. مالنبرغ، اعتمـاداً على الأعمال الرياضيـة لشانون وف. فيـنر. ولا شك أن أعمال ماندلبروت تستحق منا وقفة خاصة؛ إذ استطـاع هـذا الرياضـي الوصول إلى لغـة رياضية حية بكل معنـى الكلمة. كانت الهندسية الوصفية تُعَدُّ لغة جافة بسبب عدم قدرتها على وصف أشـكال طبيعية معقدة أو التعبير عن ديناميَّة الظاهرات الطبيعية، مثل حركة وتحول الغيوم والجبال والسواحل

وغيرهــا. وكان اكتشــاف ماندلــبروت للغة الفراكتال عــام ١٩٧٥ أمراً مثيراً لأنه وجد أدواتها في مؤلفات رياضية أسبق كان يُنظَر إليها على أنها غير ذات فائدة عملية للعلوم! وكان المفاجئ أيضاً أن هذه اللغة التي وُضِعَت أصلاً ضمن منظــور ماكروسكوبي أظهرت فعاليــة في وصف الأشــكال الميكروسكوبية في فيزيــاء المادة الكثيفة وأضفت عليها ثوباً هندسياً كانت تفتقد له.

لقد طرحت هذه اللغة الأسئلة القديمة نفسهــا. هــل تقــوم الطبيعة علــى البناء الفراكتــالي حقــاً؟ أي هل تتكــرر النماذج الطبيعيــة الأساسيــة ضمن أبعــاد مختلفة وأكثر تعقيداً، إنما بحيث تكون البنى الأولية واحدة؟ أم أن الوعي هو الذي يُلبِس الطبيعة هذا الثوب أو يخلقهــا بهذا الشكل؟! تصل إشكاليــة هذه اللغة إلى أبعــد من ذلك: ألا يمكــن أن تكون اللغة نفسهــا بناءً فراكتالياً قائماً على أبجديات كونية أكثر أولوية؟ وبما هــي بناء رياضي بحت، ألا تمثل هذه اللغة، بشكلها المجرد، تجلِّياً للمعنى؟

تقودنــا دراســة الظاهــرات الطبيعية، بالتــالي، إلى دراســة العلاقــة المتبادلة بين الوعي واللغة. ويتبــدَّى لنا أن وجود الوعي في الطبيعــة معاملٌ أساســي في صيرورتها. إن نظريــات الانتظــام الذاتــي auto-organization تصــف لنــا بشكل واضح أهمية رؤية الأسئلة السابقة في إطار توحيد حدَّي المعنى واللغة ودمجهما. فهذه النظريات تصف المنظومات الحية، أكانت منغلقة على ذاتهــا تماماً أو منفتحة علــى الاحتمالات، كالمنظومة الاجتماعية التي لا تستمد سلطتها إلا مــن ذاتهــا. وفي هــذه المنظومات يكون الشواش chaos لغةً تمثــل إمكانات تطور المنظومــة ومحرِّضاً على استمرارها، ويكون النظامُ order هو المعنى والوعي والقانون الذي يشكل المنظومة وينظِّم صيرورتها.

❁ ❁ ❁

هكذا فــإن بنــاء المنظومــات يتم وفق محوريــن متطابقين دومــاً: فالمنظومة، بما هي لغة، لا تُبنى إلا بوجود عناصرها؛ وبما هــي معنــى، لا تتحقق إلا بتدخــل الوعي. عناصر اللغة هي حالــة كمونية للمنظومة، وتدخُّل الوعي هو تحديد لها. ففي الفيزياء الكوانتية، مثلاً، يشكِّل تدخُّل الوعي معامِلاً أساسياً في تحديــد نتيجة تجربة ما. وهذا يعني أن الوعي يساهــم في تحديد النماذج والقوالب اللغوية للمنظومة. وتمثل اللغة في هذا الإطار الحالة الكمونيــة أو الشواشية قبــل تدخــل الوعي ووضــع نواظــم لها.

وتقــع نظريات تشومسكــي في محاولة بناء أساســ قواعدي لكافة اللغــات ضمن هذا الإطار. ومع ذلك، فــإن العنصر الفيزيائي في الميكانيــكا الكوانتية، أو اللفظة في اللغة، يمكــن أن يمثلا خلقاً لفعــل الوعي أو بناء الأداة القواعدية، وذلك باعتبارهما كينونتين فاعلتين ومؤثرتين في علاقتيهما بنا. ويشبه ذلك إلى حد بعيد ما ترويه لنا الأساطير عن البدء الشواشي الذي انبثق منه النظام بقوة الفكر والكلمة!

ترى، هل يمكــن لنظرية قواعدية قادرة على حلِّ المشكلة اللغويــة برمَّتها أن تنطبق على مظاهر اللغات كافة؟ إن لكلِّ لغة عالَمها الخاص من حيث مواجهتُهــا للعالم؛ ولهذا، لا يمكــن أن نحمِّل لغة مــا لا يوافق بنيتها النحويــة، من جهــة، أو حالتهــا التطورية الراهنة، من جهة أخــرى. وبالتالي، فإنه لا يمكن بناء نظرية لغوية كاملة تصف الحالة اللغوية في سياق تطورها.

تشــكل اللغة، إذن، منظومــة قواعدية؛ لكنهــا في سيــاق تطورهــا وتجددها تظل المنظومــة غير مبرهن عليهــا بشكل نهائي. إنها تمثل دور الوعي بما هي مبنية قواعدياً؛ وهي تُبرِز، في الوقت نفسه، دور الشكل، بما هي قابلــة دائماً لاحتمــال ألفاظ وعناصر جديدة. وبما أنها بحاجة إلى منظومة أوسع وأعلى منها دائماً ليتم البرهان على اتِّساقها (بحسب غودل) فإننــا لا نستطيع القول إن لغة ما هي متَّسقة بشكل كامل ونهائي.

يقــوم إذن كمال اللغة علــى استمرارية تطورهــا لفظيــاً وقواعديــاً في آن واحد. وهكذا، يكون اتساق اللغة انعكاساً لصيرورة تفتح الوعي ولإمكانات الشكل على حمل هذا التفتح. ويشير ذلك إلى حاجتنا الدائمة إلى لغة ومعنى قابلين للتفتح إلى ما لانهاية.

❀ ❀ ❀

لقــد كانت للفكــر اللاهوتي في مختلف الديانــات القديمة وقفة طويلــة مع مسألة اللغــة والمعنــى. وكانــت الصفــة المطلقة للحقيقــة فيها دافعاً رئيسيــاً لجعل لغاتها العرفانيــة ذات شكل مطلــق. وربما كانت ثنائيــة المعنى واللغة هي أحد الأسباب التي جعلــت للأديان باطناً وظاهراً. وقد انعكس ذلــك مثــلاً في الديانــات «السماوية» على اللغات العبرية والآراميــة والعربية في فهم وقبول التعاليم الموحى بهــا. ويتجسَّد ذلك في إعطاء مدلولات ظاهرية وباطنية للكلمة عن طريــق «حساب الجُمَّــل» الذي يعطي لكلِّ حرف رقماً، ويجعل للكلمات والعبارات مدلولات رقمية أكثر قرباً من تجريد المعنى.

وهكـذا، يحمل اللفظ، في آنٍ واحد، مدلولاً عاماً هو الشكل اللغوي، ومدلولاً سِرَّانياً هو المعنى الباطن. ويبلغ هذا الترميز ذروتَه في جعـل الشخص أو الوحـي حاملين بذاتهما لهذا المعنى بشكله المطلق. وفي ديانات شرق آسيا، يمثل اللفظ (منترا) قدرة قائمة بذاتها وفاعلة كطاقة كامنة، بحيث إن ترداده وفق إيقـاع معين يحرِّض معناهـا الفاعل. ومع ذلك، فإن هذا الحلَّ لا يُعَدُّ أكثر من إسقاط للمعنى المجـرد على خلفيـة لغوية، بحيث تُحمَّـل اللغة تجريداً مطلقاً هو في الحقيقة أوسع منها بكثير.

وكمـا رأينا، فإن عدم وجـود لغة كاملة الاتسـاق يستدعـي دائماً وجـود إمكانية للبرهـان عليها على سويَّة أعلى منها. وهذا يعني أن المعنى المطلق يشكل جاذباً للغة؛ في حـين أن اللغة لا تشكل جاذبـاً له إلا بقدر مـا ترتقي إليـه. وهذا ما يشـكل صيرورة تطورهـا، والتطور الكوني عمومـاً. أما في العمق، فإن الوحي، بحدِّ ذاته، يمثل تعارضاً رئيسياً بين المعنى المطلق ووضع هذا المعنى في قالب لغوي. أليس هذا التعارض هو عينه الذي نلمسه بين إمكانية اللغة وخصوصيات فهمهـا والتعامـل معها، من جهـة، ووحدة الحقيقة، من جهة أخرى؟!

إن تفتح الطاقـة النفسية والروحية في الإنسان يجعله قادراً على اكتناه معانٍ ونماذج أكـثر أصالة وبدئية في لاوعيـه. وتُعَدُّ هذه العملية مرادفاً حقيقياً عبر العصور للوعي والإلهام بدرجات مختلفة. لكن الوحي الذي يتـم الإفصاح عنه باللغـة يخسر الكثير من طاقته كمعنى، ولا ينقل إلا مستوى معيناً من التجربة لا يرقى إلى شفافية التجربة نفسها. ومـن جهة أخرى، فإن الوحـي الذي يتعلَّق بالفـرد حصراً سيسقـط دون شك في قيد تجربته الذاتية، ليعلن «حقيقة» وفق طريقة فهـم خاصة في النهاية، ليست خاطئة، إنما ليست مطلقة. أمـا التجربة الجمعية، التي غالباً ما تأتينا عبر حكاية أو أسطورة أو رمز أو حتى وحي فردي مشبع بالتاريخ الجمعي (وهـو وحي نادر جداً دون شك)، فإنها تعبِّر عـن معنى أكثر نصاعـة، لكنه في الحقيقة تعبير يختص بلاوعينا الجمعي، ويعمل على نطـاق داخلنا وأعماقنا أكثر منه على نطاق إدراكنا الحسِّي والمعاشي المباشر.

❁ ❁ ❁

يمثـل العمق النفسـي المسمَّى اللاوعي Unconscious معلَمـاً أساسياً في فهمنا لأنفسنـا. فعلـى طريـق تفتحنـا اللغوي والمعنـوي، لا نستطيع إهمال لغة الحلم، ولا

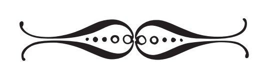
التغاضي عما يشكِّل حاجة نفسية لدينا، ولا إسكات الدافع المعرفي فينا لاستجلاء ما نشعره في أعماقنا من طاقات وإمكانات. ونجد في هذا العمق البعد الديني الحقيقي لأية خبرة روحية. فمعرفة الذات هي طريق معرفة الحق. وربما كان هذا هو السبب العميق لكون المعنى الديني غير قابل للتعميم، لأنه يرتبط بالخبرة مباشرة، أي بالوعي. وبالتالي، فإن اللغة الدينية تحدُّ من المعنى الأوسع منها لصالح مردود مباشر لا يتعلق بالمعرفة العميقة بل بإقامة توازنات على سويَّات مختلفة.

ألا يعني ذلك أن فكرة «الخلاص» التي طرحتها الديانات وقعتْ في المطب نفسه من التعارض. ذلك أن ما تحمله لنا اللغة من ممارسة يومية على المستوى النفسي، وما تحمله لنا من طمأنينة هشة، يتعارض مع حقيقة أن «الخلاص» نفسه هو ديمومة من الصراع العميق لتأجُّج المعاني الأولية في لاوعينا وحاجتها للتبلور والتفتح. ونحن في حاجتنا الروحية والنفسية – وهي لغة على تماس مباشر مع لاوعينا – لا نبلغ حدَّ السكينة إلا كلما تأجَّج فينا أكثر الشعور بهذا التعارض بين اللغة والمعنى، بين الحركة والسكون، بين النسبي والمطلق. ولا يمكن بحال من الأحوال أن تكون حاجتنا الروحية مسقَطة فقط على إمكانية ولوج عالم المعنى عبر الشكل اللغوي فقط.



إن عملية الكشف، بحدِّ ذاتها، تتم عبر اتجاهين. ونحن ننسى غالباً أن للحقيقة دوراً في اختيار المريد. إن لل«مدارس» دوراً أساسياً في إعداد المريد، لكنها لا تستطيع أن تكشف له الحقيقة، لأن الكشف ليس تعليماً. وهو، في معناه الأعمق، ليس ممارسة أيضاً. فاللغة، بما هي محدودة العناصر، لا تستطيع جعل حاجاتنا متطابقة مع كلِّية المعنى. وهذا يعني أن لغة ما، مهما بلغ اتساقُها، تعجز عن تلبية حاجة الكشف العميقة فينا؛ وعند حدٍّ معين، تصير كافة اللغات حاجزاً دوننا والرؤيا – بما في ذلك رغبتنا بالمعرفة نفسها!

لحظة الكشف تعني، بشكل ما، أن الحقيقة اختارت المريد كما اختارها. إنها بالأحرى لحظة صمت كامل عن اللغات كلِّها. وهذا التواحد بين اللغة والمعنى، بين المريد والمراد، لا يتم عبر سعي من طرف واحد.. وسعيُ الحق أسبق.




الإبداع



سليمان العيسى *

العُكَّاز:

أينَ برقُكَ؟

أينَ رعدُكَ؟

أينَ ما جلجلَ في سَمْعِ الزمن

حقبة..

* شاعر العروبة والطفولة الكبير.

العمل الفني: الفنان زهير حسيب.

كنتَ تسمّيها: الوطنْ؟
أتُراها كُلها آلتْ إليّ!

أنا عُكَّازُكَ.. أسنِدْ ما تَبَقَّى
من جدارٍ راح ينقَضُّ عليّ
أنا عُكَّازُكَ.. أقوى منكَ، فاركُزْ قبضَتَكْ
فوق رأسي..
أنتَ مني.. وإليّ

❀ ❀ ❀

الصَّدَى..
أينَ الصَّدَى؟

ضاعَ في الرملِ هَباءً.. في المَدَى
سرقته الريحُ..
لا عشبٌ ولا قطرُ نَدَى
هاتِ يُمناكَ..
وثبِّتْها على عطفةِ عودي

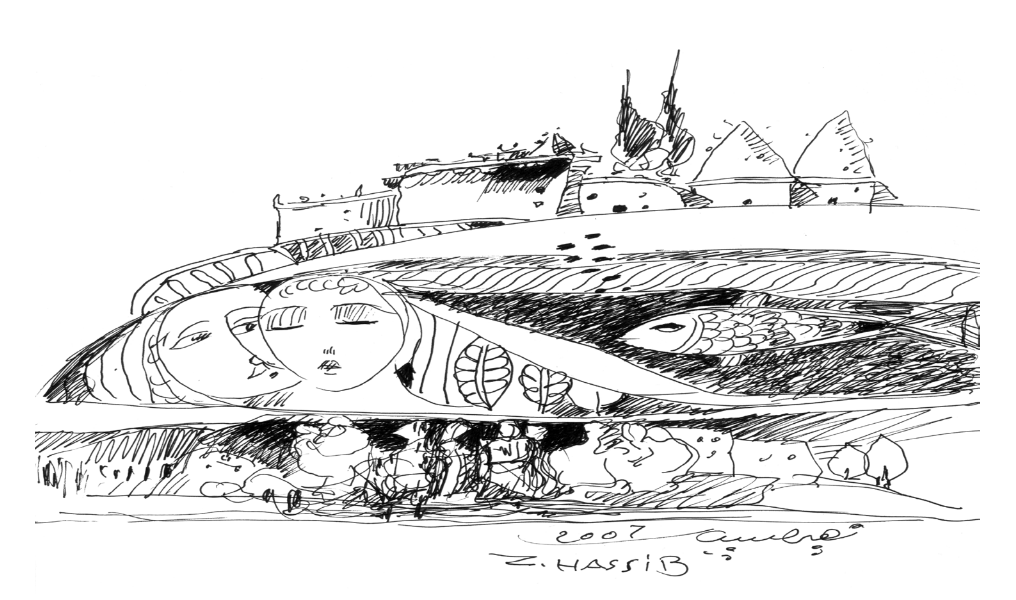
أنا يُمناكَ ويُسراكَ..
وإنْ تُنْشِدْ فمني تُسْتَقَى بقيا النشيدِ
هكذا عاصفةُ الرملِ..
على أطرافِ هذي البيدِ تَهْدَا

جَسَدٌ صارَعَ دهراً وتَحدَّى
صار فوقي كتلةً..
توشكُ لو تعثُر بالهمسةِ تَرْدَى
اعترِفْ.. إني عَصاكْ
صوتُك الآنَ إذا أنشدتَ شيئاً وصداكْ

الشاعر:
اهدئي يا جارتي..
لم أتنكَّرْ للزمنْ
كلُّنا نسطَعُ يوماً..
كلُّنا في لحظاتٍ من غروبٍ مرتَهَنْ
اهدئي يا جارتي.. هذا الجَسَدْ
موجةٌ تعرفُها الشطآنُ..
والأَدْرَى بها لَغْوُ الزَّبَدْ
إنني ما زلتُ في بَرقي وفي رعديَ أحيا
تنتهي دنيا وتبدا في تخوم الأفقِ دنيا
ألفُ شكرٍ لكِ.. إذْ كنتِ السَّنَدْ

أنا من عُشَّاقِهِ..
ما زلتُ من عشاقهِ.. هذا الجَسَدْ

كان عنوانَ الذُّرى يوماً..

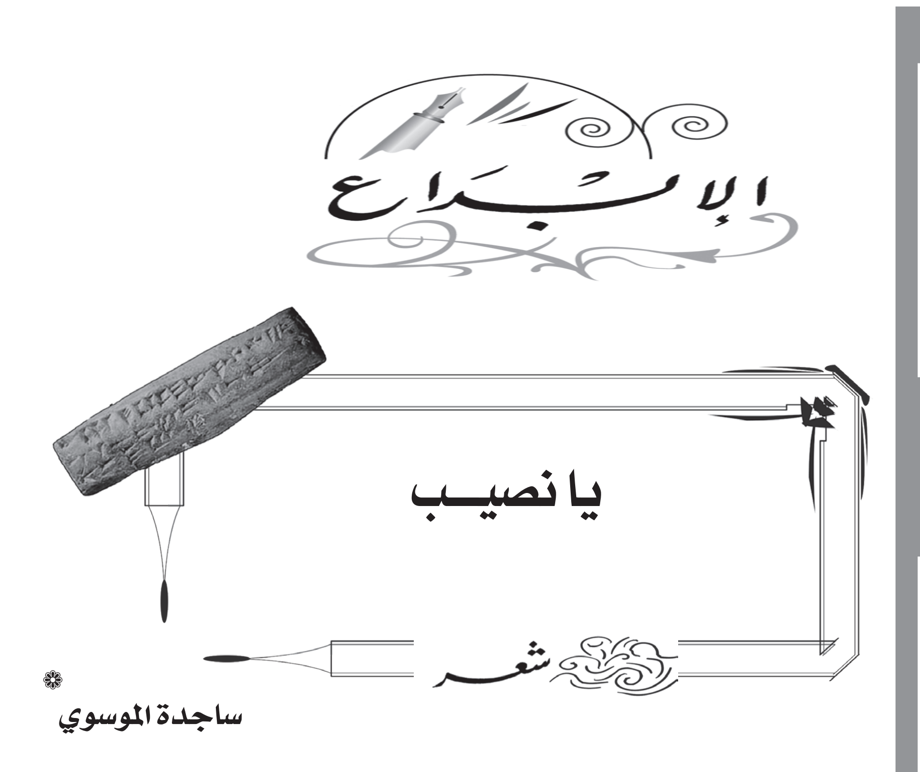


وكانَ الحبَّ والشعرَ، تلَظَّى واتَّقَدْ
ما يشاءُ الحبُّ والشعرُ..
ولن أُنكِرَه إنْ غاضَ يوماً أو هَمَدْ

إنه تاريخُ نَبْضي..
وصداه.. تذكرُ الريحُ صداه
قيل ليَ: ما ماتَ يوماً

وَتَرٌ أبقَى على الأرضِ غِناهْ
إنْ نكنْ قُلنا جميلاً..
أو سقينا قطرةً هذا اليَبابْ
فسنبقَى أبداً حُبّاً وشعراً..
يَهَبُ الدنيا الشبابْ
حفنةً كانوا على عُكَّازهم..
من وهبوا الدنيا الشبابْ





ساجدة الموسوي ❁

في الظهيرةِ

في زحمةِ الناسِ والعجلات

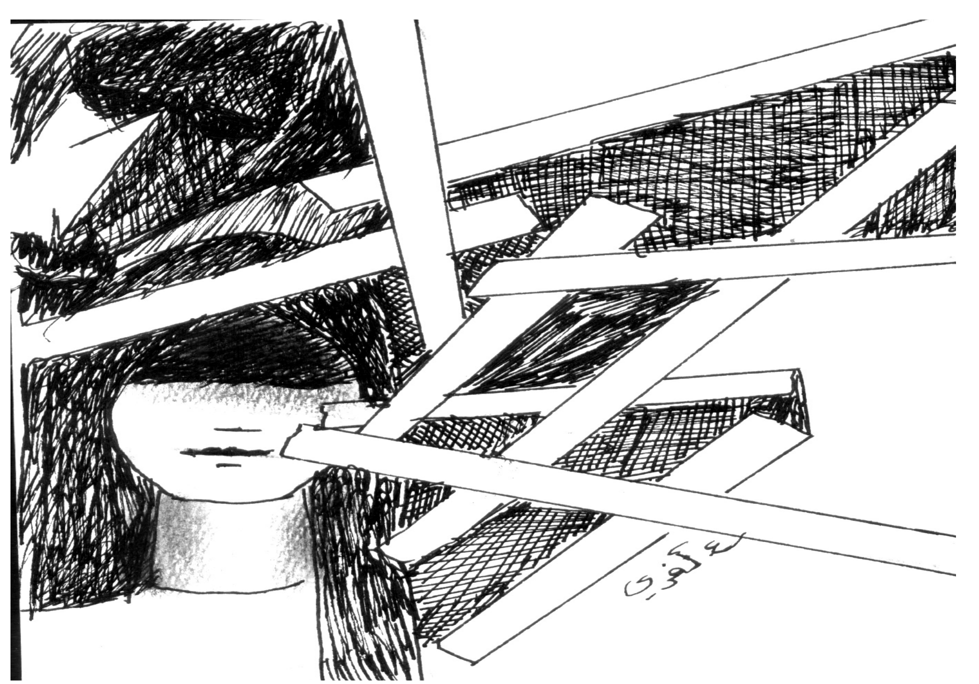
وبعضُ وشالةِ صبرٍ

على ما تسمّى مجازاً «حياة»

أكادُ أذوب

❁ شاعرة من العراق الشقيق.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.



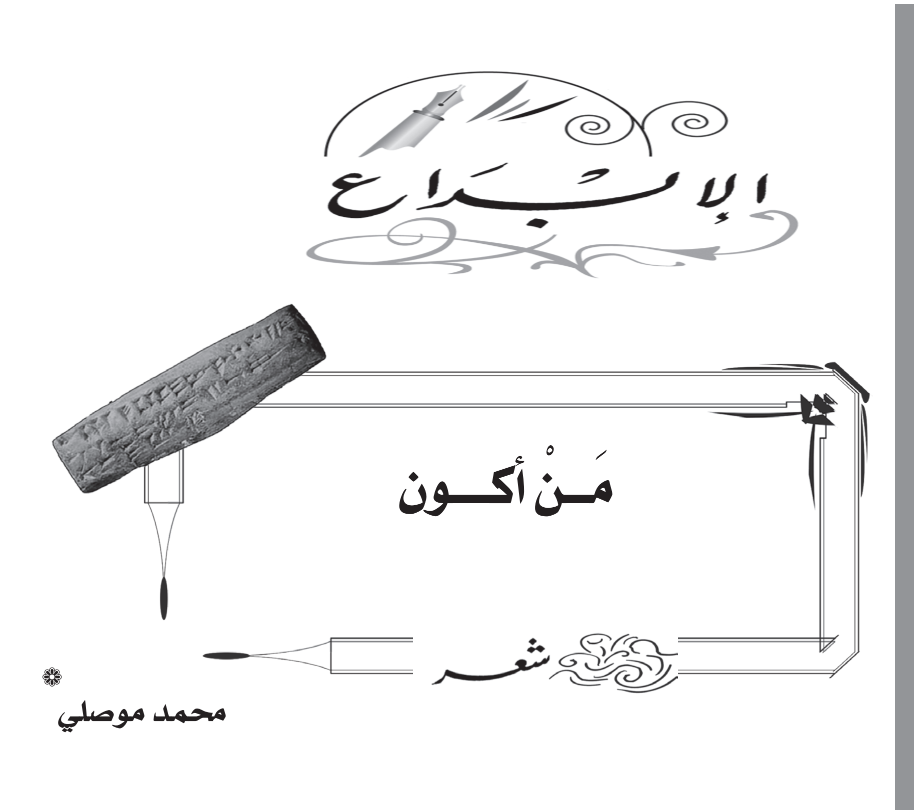
ويا مَنْ يدل خطاي
إلى حائطٍ استظلُّ به
من هجير
ويا مَنْ يجرُّ خطاي
إلى ذلك الجذعِ كيما أقوّي به
قامتي بعضَ حينٍ..
ويا من إلى البيتِ يوصلني
وكلُّ الوسائطِ مشغولة
والمساءُ حريق..
فجأةً صاح بي هاتفاً
وبكفّيه أوراقه:

(يا نصيب.. يا نصيب)
صبيٌ رهيف.. لطيف
«بهذي الوريقةِ سيدتي.. تصيرُ الملايينُ
بين يديك
غداً موعدُ السّحبِ هيّا.. خذيها»
وصار يلحُّ ويجهد أنفاسه..
«جربي حظّك اليومَ لن تخسري..»
نظرتُ إليه..
وقد ضاقت الأرضُ بي..
أيَّ حظٍّ تنادي عليه؟
وأيُّ بطاقة حظٍ

ستزفع عن كاهلي همَّ هذه السنين؟
أيُّ مالٍ سيسعدُ من فقدت وطناً..
كان منحدراً من أعالي السّماء
بين غاباتِ نخلٍ وتين..؟
وطناً من نجومٍ وماءٍ
وطناً في حشاشة روحي له مسكن
شبابيكه حدقات العيون..
وأبوابه مشرعات
لمسرى اليمام..
ونخل السماواتِ
في كل حين..

لي على كرخه مسكنٌ
وهو في مسكني.. شجني..
إن قلبي.. حزين.. حزين
فخذ ورق الحظ هذا بنيَّ
وذرني أعودُ
إلى البيت لهفى
على ورق الشعرِ أنعس
وأغفو
ثم أصحو
على ورق الياسمين..





محمد موصلي *

قد كنتُ مُبتلاً

بماءِ ولادتي

لمَّا اكتشفتُ ملامحَ الرؤيا

وأسرارَ الحياةِ..

* شاعر وأديب سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

هي صرختي الأولى
بكيتُ..
ولم يزل في خافقيّ
آهٌ يئِنُ
ودمعةٌ مهزومةٌ
شقَّتْ طريقاً ضيِّقاً
بينَ الجفونْ..

تتفتحُ الأزهارُ
في صدري الصغيرِ
بغيرِ موسِمها جِراحاً
أحملُ الرغباتِ
في كفيَّ
مُبتدئاً خُطايَ
على شفيرِ الليلِ
يحملني الظلامُ
لوحشةِ الأمداءِ
يدفعُني الجنونُ
إلى الجنونْ..

قد كنتُ مبتلاً
بماءِ البحرِ
عمَّدني خليجٌ ضائعٌ
لا تهتدي سفنٌ إليهِ

عندما أبصرتُ في عينيكِ
زنبقتينِ تغتسلانِ
من حمأ الخطيئةِ
والضُحى ينثالُ أروقةً
على كلِّ المتونْ..
ماذا أقولُ..
حاورتُ أضرحةَ اليتامى
واستفاقَ الصمتُ
منتصفَ الهزيعِ
بليلةٍ شهباءَ
أرَّقها بكاءُ وليدةٍ

ما كانَ من أحدٍ سيفهمني
ألمُّ عباءتي
وأضيعُ في نفقٍ يؤرجحني
على كنفِ الترددِ
والظنونْ..

هي رحلةُ المجهولِ للمجهولِ



سوَّرها مِحاقُ التيهِ
فانكفأ المدى مِزَقاً
على دربِ الوصولِ
وباعدَ الشفقُ الذبيحُ
مواسمَ العشاقِ
فاختلطتْ دماءُ الوجدِ بالزفراتِ
في كلِّ العيونْ..
لم أدرِ.. كيفَ يفيقُ
صدرٌ نائمٌ
سَفَتِ الرياحُ
مدارجَ الأشواقِ فيهِ

واختفتْ نبضاتهُ
في وهنِ ساقيةٍ

كأنَّ لُهاثَهُ رَجْعُ الصدى
من قعرِ وادٍ
لم تُبْدله السنونْ

في كلِّ وقتٍ
يرتديني الحزنُ
أشعرُ أنني
أصبحتُ مأسوراً

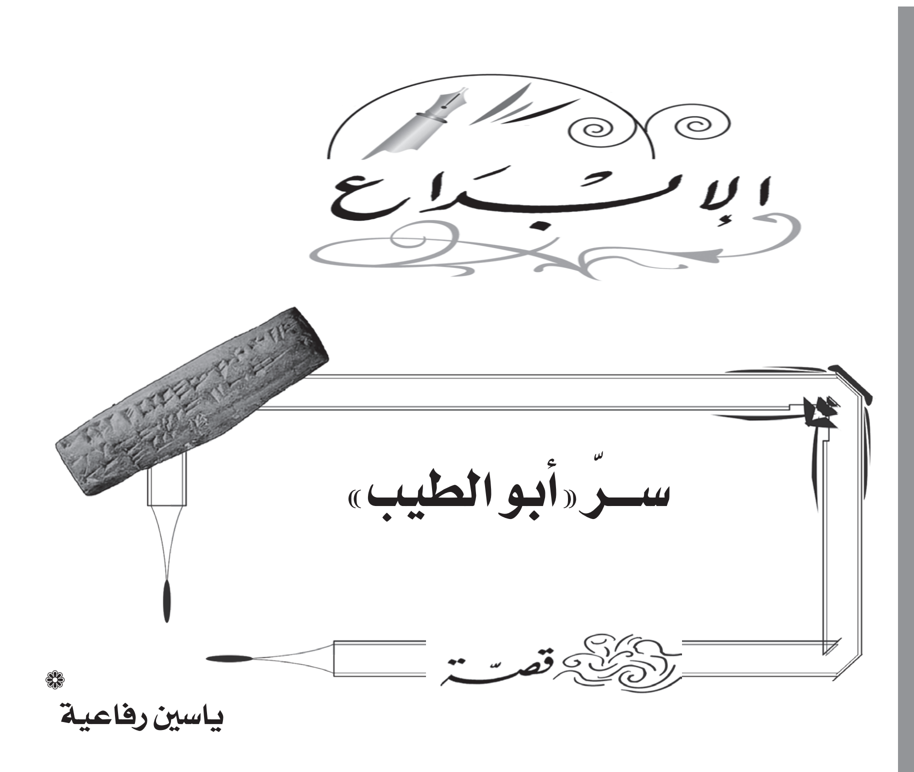
لدمعٍ لا يفارقني
وليلٍ لا يسامرني
وفجرٍ لا يصافحني
تشابهت الرؤى
في ناظريّ
فأنا خريفيُّ التطلّعِ
تسقطُ الأشياءُ من حولي
كما الأوراقُ تلفُظُها الغصونْ..

مذ كنتُ طفلاً
ما اكتشفتُ حقيقتي
وأنا أدورُ..
بهالةٍ صمَّاءَ في شَرَكٍ
يهاجمني..
سرابٌ ظامئ الشفتينِ
أبحثُ عن وجودٍ
ضائعٍ مثلَ العدمْ..

لا شيءَ في وجهي
يُفسرُ لهفتي
وأنا أخطُ
على خطوطِ الرملِ
أمنيةً تجاذبها الألمْ..
أرنو إلى وجعِ السحابِ
يئنُ من برّقٍ بلا مطرٍ
وفجرٍ بعثرتْ أطيافَهُ
ريحٌ حرونْ..

لا تتركيني هائماً وحدي
فقد لململتُ أجزائي
وحين رأيتُ..
كيفَ الفجرُ يولدُ من ظلامِ اليأسِ
كيفَ الزهرُ ينبتُ
في شقوقِ الصخرِ
كيفَ البحرُ تحضُنهُ الشواطئُ
تعتريني الدهشةُ الكبرى
لأعرفَ من أكونْ..!





سرّ «أبو الطيب»

ياسين رفاعية ❁

لا أحـد يعرف سر هذه القوة التـي تتفاعل مع هذا الرجل.. وهو يمشي كأنه شجرة نخيل، دائماً ترى فيه هذا التماسك العجيب رغم سنيه الستين.

حدث بعد ذلك ما يلي:

- أحس كأن صوتي يغيب.

وتنتبه الزوجة فعلاً، إلى أن صوت أبي الطيب يتحشرج في حنجرته، كأنه مبحوح من صراخ مفاجئ.

❁ قاص وروائي وأديب سوري.

العمل الفني: الفنان زهير حسيب.

بــدا عليها القلق، فقــال لها: لا تخافي: لعله رشح، أو التهاب لوزتين أعطيني حبتي أسبرين.

ظل أبو الطيب أيامــاً يتناول الأسبرين. إلا أن الصــوت ظل يبتعــد عن شفتيه حتى أصبح من الصعــب أن تسمع ما يقول. كان يهمس همساً من حنجرة شبه مجروحة.

كان عليــه، بعــد ذلــك، أن يذهب إلى الطبيب، لابد، بعد إلحاح، إلا أن يذهب.

بعــد فحص سريع، طمأنه الطبيب أن لا خطر. ربما التهاب حــاد في اللوزتين، كتب له بضعة أسماء لأدوية جلبها أبو الطيب، ثم راح ينفذ تعليمــات الطبيب. إلا أن الصوت لم يعــد.. بل بدأ أبــو الطيب يحس وجعاً في حنجرته يشبه وخز الدبابيس.

كان لابــد من العودة ثانيــة إلى الطبيب الــذي أحاله هذه المــرة على طبيب مختص بالحنجرة. وهذا بالتالي أخضعه لفحوصات عــدة متنوعة، ومنها زرع مــكان الالتهاب.. وكان الاكتشاف خطيراً.

قال الطبيب يصارح الزوجة: أبو الطيب مريض بالسرطان. يجــب أن تتماسكي، لن يعيش أكثر من ثلاثة أشهر؟

كادت المــرأة تنهار. ومن خلــل الدموع همست: ماذا أفعل؟

- هناك حل مؤقت (قال الطبيب). إجراء عملية جراحية وزرع حنجرة اصطناعية.

- وهل من أمل؟

- لا أستطيع أن أؤكد..!

- هل نصارحه؟

- لا أدري. أنــت تعرفينه أكثر.. إذا كان شجاعــاً، ويستطيــع تحمــل الصدمة، فلا باس.

- شجاعته لا توصف.. إنه يمسك جمرة نار بيديه..

- المهــم أن يكــون شجاعــاً في مواجهة الموت!

- شجاعتــه مشهورة حتــى عندما كان يقاتل الأعداء.. كان يهجم دون خوف.

- المهــم، يا سيدتي، أن يكون شجاعاً في مواجهة الموت، خصوصاً عندما يكون الموت حاضراً كما هو الآن يأكل حنجرته وجسده.

قالــت الزوجــة وهــي تمســح دموعها المنسابة..

- وأنت.. ماذا تقترح؟

- أنا من أنصار مصارحة المريض.

- فلتفعــل أنــت ذلــك يــا سيــدي.. بطريقتك؟

عاد الطبيب إلى غرفة العيادة حيث كان أبو الطيب ممدداً وميزان الحرارة في فمه.

سحب الطبيب ميزان الحرارة. ثم طلب من أبي الطيب ارتداء ملابسه.

جلس أبو الطيب على الأريكة فيما دخلت زوجته، قال:

- خير يا دكتور.

حدق الطبيب إلى وجه الرجل لحظات.. ثم تمشى نحو النافذة وراح يداعب أغصان شجرة ورد صغيرة مزروعة على حافة النافذة.

عاد أبو الطيب يسأل:

- قل لي يا دكتور. لا تخف.. صارحني..

التفت الطبيب مستنداً إلى جدار الغرفة، ثم همس بصوت آسف:

- أنت تعاني مرضاً خطيراً يا أبا الطيب.

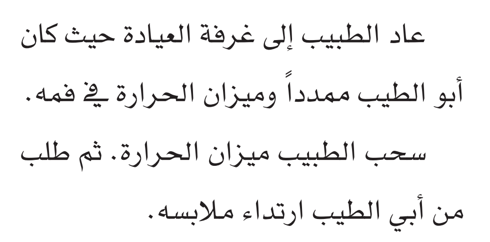
حدق أبو الطيب إلى عيني الطبيب لحظات. ثم قال بهدوء:

- قل لي.. أهو السرطان؟

- أجل.

- إرادة الله.

الزوجة والطبيب معاً، تأملا الرجل



وهو يداري قلقه.. كان قد استقام قليلاً فوق الأريكة، وأخرج من جيبه سبحة بنية اللون وراح يطقطق بحباتها. ثم تلفت نحو الطبيب:

- هناك أمل يا دكتور؟

- دائماً هناك أمل.. لكن في مثل هذه

الحالات.. يمكن زرع حنجرة اصطناعية.

- بعد ذلك.

- بعد ذلك الأمر لله.

وقف أبــو الطيب، فبدا عملاقــاً أمام زوجتــه والطبيب، تقدم مــن النافذة وراح يحــدق صوب الجنوب، ثم يرفــع رأسه إلى السماء، ظــل صامتاً برهة. الزوجة تضغط علــى دموعهــا، والطبيب ينتظــر، بل لعل الطبيب حاول أن يغوص في أعماق الرجل.. فهو يعــرف كم هو صعب أن يعرف الإنسان توقيت موته.

وهمس الطبيب:

- ومع ذلك؟

التفت أبو الطيب سائلاً:

- نعم؟

- أنصحــك بزيــارة الدكتــور ج.. إنه متخصصــن، ولديــه وسائل تقنيــة حديثة جداً.. لعل وعسى..

قال أبو الطيب:

- سأحــاول علــى بركــة الله.. أعطني عنوان هذا الطبيب.

سحــب الطبيب ورقة من فــوق طاولته وكتب عليها عنوان الطبيب ج.

عندما تناول أبو الطيب الورقة وتأملها، التفــت نحــو زوجته فلمــح في عينيها ذلك الخوف المريع، فخاطبها بحنان:

- أنتِ خائفة أليس كذلك.

- أنتَ غالٍ عليّ يا أبا الطيب.

- يجــب أن لا تخافي. أنــت تعرفين كم واجهت الموت وانتصرت عليه.

ودَّع أبــو الطيــب طبيبه وخــرج تتبعه زوجته.

❀ ❀ ❀

قال أبو الطيب:

- سنسافــر إلى بــيروت ونــزور ذاك الطبيب.

وهذا مــا فعلاه فيما بعــد، مصراً، أبو الطيب، على عدم إخبار أولاده، لمياء المتزوجة في الكويت، وواجد الــذي يدرس الطب في أميركا، وخليل المتطوع في الجيش.

❀ ❀ ❀

- اسمع يــا أبا الطيب (قال الطبيب ج) هناك أمل ما. قد تعيش عليه فترة أطول.

- قل يا دكتور.. ما هو؟

- الأشعة.. سأخضعك لجلسات متتابعة علــى الأشعة.. سأحاول أولاً منع المرض من الانتشــار.. إذا نجحنا.. نكــون قد سجلنا نقطة أولى في الانتصار عليه.. لكن المهم..؟

- نعم.. ما هو المهم..؟

- أنت.. عندما يكون أملك كبيراً بالحياة تساعدني..

- لو تعرف يا سيدي كم هو أملي كبير.. إن لدي طموحاً عظيماً يجب أن أحققه.

- لنبدأ إذن.

❁ ❁ ❁

وضـــع الطبيـــب(ج) برنامجـــاً لجلسات الأشعة وباشر العمل فوراً.

والشـــيء المذهـــل بعـــد ذلـــك، أن المدة المخصصة للإنذار قـــد انتهت وأبو الطيب ما زال متماسكاً. ثلاثة شهور ثم أربعة شهور وخمسة ليكتشف الطبيب المعالج أن انتشار المرضـــ قد توقف. واعتـــبر أن هذه الحالة نادرة جداً، بل إنـــه لم يكن يتوقعها قط. إلا أن الطبيـــب، لم يترك لأبـــي الطيب أكثر من سنة أخرى قبـــل أن ينتصر المرض عليه من جديد.

إلا أن الجلســـات استمـــرت، ومن خلال المراقبة الدقيقـــة التي عاناها الطبيب، بدأ يدرك أنه مشرف على حالة شاذة ومذهلة في نتائجها: إن المرض بدأ ينحسر فعلاً. بل صار يتعامل مع أبي الطيب معاملة خاصة. يدرس كل حالاتـــه النفسية، ويتساءل هو أيضاً: أي ســـر يكمن في صدر هـــذا الرجل حتى أخذ ينتصر على أشرس مرض يواجه الإنسانية: صار الطبيب (ج) يكتب التقرير تلو التقرير عن هذه الحالة ويوزع نسخاً منه على زملاء له في بيروت والخارج. بل إن أبا الطيب كان مـــدار دراسة مؤتمر طبي بكامله. في إحدى الفترات، عندما جلس أمام عشرات الأطباء يجيب عن كل ســـؤال، ويحدد للجميع مدى تعلقه بالحياة وإيمانه أنه سينتصر.. إلا أنه لم يبح لأحد، قط، عـــن هذا الشوق العظيم الذي يملأ روحه وقلبه وعقله إلى هدف ما، إلى توقٍ مـــا، إلى مستقبلٍ مـــا.. يتسارع في صدره كدقات القلب.

وعندمـــا أعلن الطبيب مزهـــواً انتصار أبي الطيب على المرضـــ نهائياً، لم يستغرب أبو الطيب ذلك، كان واثقاً من النتيجة.

❁ ❁ ❁

أحببت هذا الرجل منذ تعرفت إليه، كان قـــد سكن حيِّنا الدمشقـــي منذ عام ١٩٤٨، وكان يتباهى دائماً بزيه الفلسطيني وبلهجته المحببة، إنـــه ابن حيفا، تلك الساحرة -كما كان يصفها دائماً- التي تغازل البحر، والتي يغســـل الموج ليلاً نهـــاراً أنامل قدميها. كان أبو الطيب يتحدث عن حيفا حديث العاشق

يحفظ كل شعر قيل فيها. ويروي لنا قصصاً كثيرة عن بطولــة أبنائها.. وكنا نتمنى عليه أن يروي قصصه هو. فيتواضع ولا يروي إلا النادر، مع أن أكثر من رفيق من رفاق عمره روى لنا بطولات خيالية وأسطورية عنه.

❁ ❁ ❁

كنت قد غادرت دمشق قبل عشر سنوات، وقطنت في بيروت. ولم أنس أبداً أبا الطيب، هــذا الرجــل الفلسطيني الــذي كان يحبه كل سكان الحــي.. والذي كان يمتلك ذاكرة خصبــة حتى أن معظم ســكان الحي كانوا يتحلقــون حوله كل ليلــة في المقهى الشعبي ليستمعــوا إلى قصصــه ورواياته عن حيفا وفلسطين.

وعندمــا أخذ أبو الطيــب يزور بيروت للمعالجة لم ينسني.. اتصل بي، وصرت ألقاه في كل فترة يجيء فيهــا إلى بيروت.. وكنت مدهوشاً باستمرار من قوة إيمانه بالانتصار علــى ذلك المرضــ الخبيــث.. وكان يروي لي تفاصيــل مــا يحدث معــه كأنه يتحدث مع ســواه.. كان، حقاً، واثقــاً كل الثقة أنه سيشفى.

❁ ❁ ❁

في اليــوم الذي جاء فيه أبو الطيب وقد حمــل النتيجة النهائيــة بالشفاء، لمحت في عينيــه ذلك الألق الفرح الــذي لا يمكن أن ألمحــه إلا في عيني شــاب في العشرين، كان يتقدم من منزلنا، وأنــا أراقبه من الشرفة، كالطاووســ، متحــركاً كالنســر كأنــه ثمة جناحين قويين يساعدانه على هذه الحركة السريعة، بل خيــل لي، كأنه فارس قادم من غابــة ما، على حصانــه الأشهب وقد حمل على كاهليه كل شموس الدنيا. بل تنبأت حقاً قبل أن يدق جرس الباب، أن أبا الطيب قد انتصر. فما أن فتحت له الباب حتى ضمني بقــوة إلى صدره. وصاح بمــلء صوته الذي استعــاد عافيته تماماً: لقد شفيت يا أخي.. لقــد شفيت. ومن خلل دموعنا الفرحة معاً، أخذت أقبّــل وجهه ووجنتيــه، وأربت على ظهره العملاق، أكاد لا أصدق.

عندما جلسنا معاً، نرتشف قهوتنا.. قال لي: كنت مؤمناً بالانتصار صدقني، كان لدي ذلك الشعور القوي والعظيم أنني سأستمر، وأن حلمــي العظيم لابــد أن يتحقق. كنت سأحتقــر نفسي لو مت هنا ودفنت في أرض غير أرضي.

وتقــدم من الشرفة، وأشــار بيده صوب البحــر الأزرق المتماوج، ثــم شدني من يدي حتــى لاصقته. وقــال، مشــيراً بكلتا يديه

صوب الجنوب: هنــاك.. ما وراء هذا الموج وهذه الهضاب الخضراء هناك على ساحل حيفا بين شجــرة وشجرة سأدفن.. صدقني أنــا منتظر ذلــك اليوم العظيــم، ذاك هو الأمل الذي جعلني أنتصر. كنت مؤمناً أنني سأحقق هذا الحلــم.. وطالما أنني انتصرت على السرطان.. فلم يعد هناك ما يمنع من تحقيق هذا الحلم.

عندما صمت أبــو الطيب ذلك الصباح المشمســ الندي، أحسســت أنني أمام رجل عظيــم، لقــد كان يتحرك أمامــي بشغف، يطوي بــين جناحيه قلباً مــن الذهب. وفي صــدره شعاع شباب مذهــل في نوره وقوته. بل، للحظــة، نسيني، وتلفّــت مخلفني وراء ظهــره وراح يتأمــل الأفــق الأبعــد صوب الجنوب اللبناني.. كأن نظراته تمتد بسرعة الضوء لتتحني وتقبل رمال حيفا حيث كان





خالد زغريت ❁

سمته أمه «بَلُّوق» تيمناً بكلب أخيها الذي رفعه من أسفل درك الفقر إلى أحد أهم ثلاثة مهربين عرب في هذه القرن، فالأول هرّب سبعة آلاف شعرة من لحية «حمورابي»، والثاني هرّب سبعة آلاف فرات من دم الشهداء، وكلاهما مسميان باسم كلب، أو أشباهه، أما «بَلُّوق» فقد ذاع صيته على الرغم من أنه لم يكن مهرباً، ولا سمسار أكفان الأولياء، ولا مديراً عاماً، فهو نال شهرته لأنه عزّ بعدما كان مهزولاً مهملاً، فقد اضطر أحد الرعاة أن

❁ كاتب سوري

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

يستعيره لمدة ثلاث ليال إلى أن يتاح له اقتناء كلباً خصوصياً بلا ضريبة رفاهيّة؛ لأن الذئب تسلطّ على قطيعه، ولأن المصادفة بنت حرام سكن «بَلُّوق» -على هزاله- من التربص للذئب، والتقاط ذنبه فأتاح للراعي قتله، وشاع الخبر في القرية، فأكبروا بطولة «بَلُّوق»، وراح أهل القرية «يرندحون» المواويل، و«العتابا» و«الميجنا» التي تمجّد شجاعته. لكن أحد بني «الحصين» الذين لهم أولياء كبار على كراسي الخبث، «فرعن» على دجاجات أرملة شهيد لم يتح له أن تُسمى باسمه مدرسة فنسيها أهل القرية، وظنوا أنّ شهادة زوجة مزورة عن شهادات الآخرين، فـ«زبلوها» على أطراف القرية والشهامة، وعلى ما يبدو هذا ما جعل «أبو الحصين» مزداد طمعاً بها، فتوسّلت كثيراً صاحب «بَلُّوق» أن يعيرها إياه، فرق لها حين عددت له أسماء كل الشهداء بما فهم شهداء ثلاثين شباط في طنب الكبرى، فأعارها إياه، لكن ما إن غزا «أبو الحصين القنّ» حتى بدأ «بَلُّوق» يعوي، فدبت النخوة في عروق شبان القرية وأنجدو «بَلُّوق»، فأطلقوا النار من «جفت المختار» فكسروا شوكه أبي «الحصين»، ولأن «بَلُّوق» حظه في ذيله فقد حسب النصر له، وازدادت شهرته، حتى باتت قصصه من أهم مسلسلات «الفنتازيا» التاريخية في القرية، وراح كل أهل القرية يستعيرونه إما لحماية دجاجهم وأغنامهم، وإما لمرافقتهم في ليالي الحصاد متبركين بصحبته، بينما كان الحسّاد يرددون بقهر: هجم السوق على «بَلُّوق». أمّا صاحبه فقد استثمر حاجة القرية إليه، وصار يحدّد أجراً عالياً لإعارته، أما هو فكان يصطحبه في التهريب، ليقوم باستطلاع الطريق له، فإن صادف دورية «جمارك» تقوم برباطها المقدس على الدريق، فكان ينبح نبحتين لينبه صاحبه. وهلّت. بفضل حنكة «بَلُّوق» الاستراتيجية في مخادعة «الجمارك» ـــ على صاحبه خيرات التهريب. وحين رأت أخت صاحب «بَلُّوق» خير الكلب على أخيها سمّت ابنها باسمه، وفعلا لحقت بركة الاسم بابنها، فما إن شب حتى عمل «جرسوناً» في أحد المطاعم المشهورة بتقديم «الفتّة» «الحمصيّة»، فكلف يمسح الطاولات وغسل الصحون، وتلبية طلبات الزبائن، لكن، وللتاريخ أقول. لأن الغامط التاريخ خبلان أبرص - كان «بَلُّوق» مبهراً بأناقة لباسه،



وتعابيره، على الرغم مــن كونــه جرسوناً، فما إن يدخل المطعم أحد الزبائن، ثم يجلس علــى طاولــة حتى يتقدم منه، ويقول في تهذيب أنوثي: شرفت يــا «باشــا»، أوامــر سعادتــك، ثم يصغي -باهتمــام بالغ- إلى طلبات الزبون الذي ينفخــه بعبــارات ترحيب، لم يسمعها في حياته إلا عند هذا الجرسون، فيجعله يحلق لحظة في جنــاح «الباشوية» وتــارة بفضاء القيصرية. وقبــل أن يصطدم برؤية صحن الفتة أمام جاره الذي يعني «منتوف» وليس لــه أن يحلم بــأن يكون كلــب «باشا»، يقول بحسرة لـ«بَلُّــوق»: سآكل علــى ذوقك، أنت إنســان رفيع الذوق، فــيرد «بَلُّوق»: هذا من فخامة تواضعك، ستأكل «فتة حُمُصيّة» من تلك التي قدمتها أمس لـ«أليزابث»، سيدي، هذا مطعم فلكلوري يأكل منه الأمراء وكبار المسؤولين. قد لا تراهم أنت، لكنهم صدقني

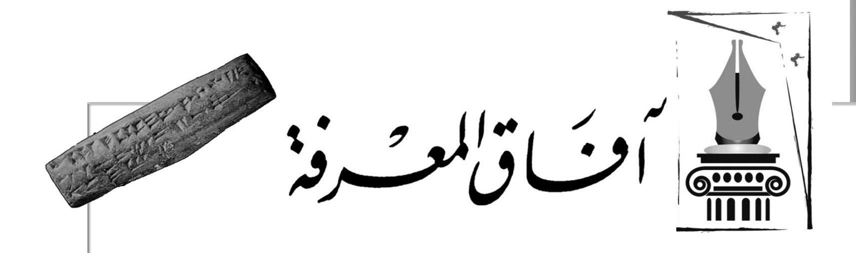
لا يمــر يــوم إلا ويطلبون «فتتنــا» فنرسلها إليهــم، ولأن «بَلُّوق» ركب للسانه نصف نعل كما يقول أصدقاؤه- فهو بارع التزحلق أزقة الــكلام، وشوارع الحكــي، ولسانه لا يحفى من «جزمة» التعابير الملوكيّة في المدح والثناء والنفــخ. على أن أكــثر ما يؤلمــه هو تهكم المراهقــين الذيــن ما إن يرونــه بعد العمل حتى يسمعهــم، ينادون: «واحد فتة»، «اثنين حمصــ بزيــت»، «سرفيس» يا ولــد، لكن للتاريخ مــرة ثانية أقول: كان «بَلُّوق» صبوراً ومتفانيــاً، لقــد تقمّصــ دور «الجرســون

الإنكليزي»، فتراه حين يخرج مع أصدقائه للسهرة في أحد المقاصف مقلداً أصحاب الكراسي، يمارس كل عنجهية المسؤولين، فلا يعجبه العجب ولا سيما أنه خبير في شغل «الجراسين»، فتجده يرجع صحن الحمص؛ لأن «تبلته» غير مشغولة بحرفية، وو..، لكن سرعان ما كان ينسى «باشويته» المستعارة عندما كان يسمع «الجرسون» ينادي، واحد حمص، أو «نارة» يا ولد. فيجيب المسكين سهواً: بين يديك معلم، واصل، فيضحك جلساؤه قائلين أنت هنا زبون يا «بَلُّوق» ضحّكت العالم منا، فينكسر ويقول: شباب الشغل ليس عيباً، وكان «بَلُّوق» كلباً في حساسيته لروح المسؤولية، إذ يشم رائحة مرض المسؤولية في النفوس عن بعد ميل ضوئي كما يقول، فقد لاحظ أن أحد زبائنه على ما في سلوكه، ومظهره من سماجة، يبتذل التأنق في اللباس والحكي، وكأنه «جوكر» ركب للسانه نصف «نعل» «عصملي» يجعل انزلاقه -منعطفات «الباشوية»- أعرج. ولأن «بَلُّوق» يعرف -أن هذا المطعم محطة بعض الزبائن الذين يتدربون على تسلّق المناصب- فقد اعتنى بهذا الزبون الذي عرّفه بنفسه: اسمي «ديب الدنيا»، وبلا فخر، أنا رئيس لجنة تنظيم المهرجانات في مكتب دفن الموتى، وعضو شرف في نقابات «المكنسيانية»، والمتاحف وحفاري قبور مديري تربية الدواجن، وتكنولوجيا الاستشعار عن بعد، ورئيس فخري لفرقتي «دبكة» الاستسقاء بـ«الدلعونة»، وأمين سر المسرح المدرسي للصم والبكم. تأوّه «بَلُّوق»، وردّد: ما شاء الله، مسبع المسؤوليات أنت، والله اسم على مسمى، قال «ديب الدنيا» بتواضع جمّ: والله أنا اخترت مطعمكم لأنني لا أستطيع إلا العيش مع الجماهير الكادحة التي تأكل الفتة لتفتّ عضد العدو، والإمبريالية، والرجعية، ولولا تدخل «بَلُّوق» لارتجل خطاباً حماسياً، فقد أدرك أنه أمام «بيبي» مسؤول واعد، فجدّ بدراسة شهيته، فعرف أنه شديد الولع بالبصل، وكان من تقاليد المطعم أن توضع بصلة صغيرة مع صحن «المخلل» للزبون فقط، وهذا ما أحرج «ديب الدنيا» إذ كان من هواة أكل البصل، وهكذا حط «بَلُّوق» إصبعه على قطة ضعف «ديب»، فراح يجلب له نصف بصلة، ثم يبدأ بمراقبة حرقته للمزيد غير أن الخجل يمنعه، ولا سيما عندما تجرأ أحد الزبائن

الذي تبدو عليـه نعمة اليأس، وطلب بصلة زيادة، فـرد «بَلُّـوق» لأول مـرة خالعاً عن ألفاظـه قنـاع الأنوثـة: الطمـع بالدين لا بالبصل، فحطم هذا الرد المهين حلم «ديب» بطلـب المزيد من البصل، وقد قصد «بَلُّوق» بهـذا التصـرف ابتـزاز «ديـب» أكـثر ما يستطيع، فتعمد أن يمر من أمامه حين يراه قد أنهى بصلتـه حاملاً بصلة كبيرة مقشرة لامعـة، تطير لهـا عصافير معـدة «ديب»، ويسيل ريقه، ويعطيها لجـاره قبيل انتهائه مـن طعامه، فلا يلبث أن يـأكل منها جزءاً يسيراً حتى يفرغ من أكلـه، ويراقب «بَلُّوق» مـن مكانه تحرق «ديب» الذي حاول مرة أن يغافل «بَلُّـوق» ليختلس بقيـة بصلة جاره، لكن «بَلُّـوق» كان له بالمرصاد، فما إن لمسها حتـى تنحنح، فكف «ديب» يـده، وظل على هذه الحال حتى عقده، ولما ايقن «بَلُّوق» أنه أغرى الدب بالدبس، رفع البصل من وجبة «ديـب» المعتادة، فطفح قهر «ديب»، ولاحظ أن رجليـه راحت «تَدّبُك» على الرغم من أن مسحـة الموتى هـي التـي طفت على وجهه، لقـد شحن بعبـوة انتحارية اتجـاه خجله، فقام إلى «بَلُّوق»، وقال له بانكسار: لوسمحت بصلة، فرد «بَلُّوق» أحلى بصلة للباشا وقدم له بصلـة كبـيرة مصقولة كمـرآة عكست بهجت سحنـة «ديب» مثـل «دلعونة» ارتفع سكـري لحنهـا، وراح «بَلُّـوق» كل يوم يزيد كمية البصل وعروق النعنع، وإمعاناً بالخبث جلب قارورة عطر زعتر بري واخز، فينتظر «ديبـاً» حتى يفرغ مـن أكل بصله، فيقترب منه قائـلاً: صلّ على النبي، عطّر شاربيك، فأفهم «ديباً» أنها تكنولوجيا فعالة في إزالة رائحة البصل، وهذا مـا جعله يلتهم ثلاث بصـلات بلا خوف مـن نقصـ الكمية أو الرائحـة، واتخـذ «بَلُّوق» صاحبـاً مكرهاً لتـدوم عليه نعمـة البصـل، ودارت الأيام، وانقطع «ديـب الدنيا» عـن المطعم. خمّن «بَلُّـوق» أن «البيبي» منَّ الزمن عليه بكرسي «ستّ»، وصاد من الدنيا عظاماً تشبع ذئاب الدنيـا، وإلا مـا الـذي يعوضه عـن نعمة البصـل، وراح «بَلُّوق» يسأل عنه حتى عرف أنـه صاد كرسيـاً كل الكراسي دونه عظام، ذهب إلى زيارته، لكنه فوجئ ببروده، فأخرج عطـر الزعـتر، وقـال: شاربيك يـا باشا الباشـات، الله يذكـر أيام زمـان، البصل مشتـاق لـك. أدرك الباشا المـأزق، فقطع حديـث «بَلُّوق» خشيـة أن يمننـه بإكرامه بالبصـل، سيد «بَلُّوق» أية خدمة، رد «بَلُّوق»

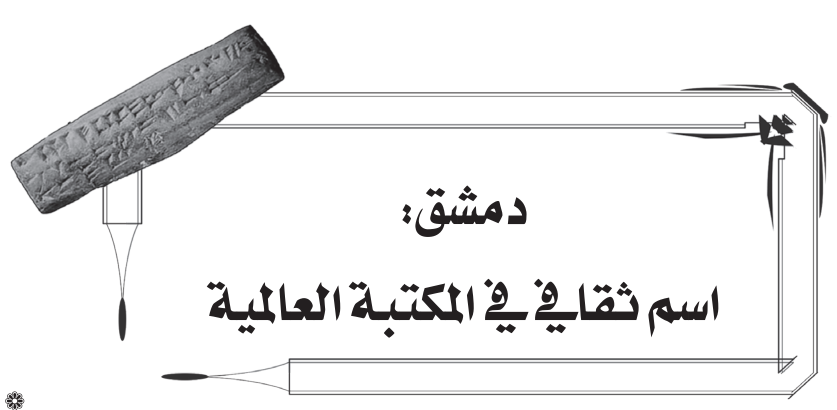
باشا كلك نظر، أتذكر كيف كنت أحس بك، أنـا «محسوبك»، تكرم علـي بوظيفة قريبة منـك وثـق أني سأعطر منصبـك لو أكلت بصل السوق كلـه دفعة واحدة. عض «ديب الدنيا» علـى كرسي أكبر مـن دنيا ملايين آكلـي «الفتـة» في بلـدة لها الصـدر دون العالمين، وقال: أيُّ عمل يناسبك، رد «بَلُّوق» مديـر مكتبـك، وأخـرج من جيبـه بصلة ووضعها على الطاولة قائلاً: «شبيك لبيك» بصـل الكون بين يديك، نط «ديب» من وراء الطاولـة ليختطـف البصلـة، ويخفيها في درجـه، قائـلاً: استرنـا لعـن الله البصل وساعتـه، صدقنـي سأصدر قـرار تعيينك اليوم. وفعلاً ما هي أيام حتى أصبح «بَلُّوق» مديـر مكتب الـ(..)، يتمطـى على كرسي فخم مثـل كيسـ بصل متهـدل، ويمتطي سيـارة. والناس علـى قهرهـا. دأبت على التزّلـف إليه قائلة يـا باشا، بدلاً من واحد فتـة. وكان لا يتردد «بَلُّـوق» أن يزعق بأعز أقربائه: إن ناداه بـ «بَلُّوق»، أنا أستاذ «بَلُّوق»، فهمت يا فهمان زمانك، افهم هذا الكرسي الـذي يجعلك أرنباً أمامه، والله حقه بصلة عندي. وكان أقربـاؤه عندما يجدون مكتبه غاصـاً بـذوي «الكرافـات» ينبطحـون بمقاماتهـم، ومقالاتهم بـين رجلي كرسيه، يبلعون قهرهم ويقولـون هجم السوق على «بَلُّوق»، ويلومون أهاليهم ويقولون في سرّهم: ما دام أهلنا يعرفون فأل الكلب «بَلُّوق» ترى مـا ضرهم لو سمونا باسمه؟؟؟، أو باسم أي كلب، ترى قلة كلاب في هذه الضيعة؟؟؟




آفاق المعرفة



آفاق المعرفة



دمشق:
اسم ثقافي في المكتبة العالمية

د. عطارد حيدر (*)

تحوي القوائم الأخيرة للعديد من دور النشر عشرات من الأعمال المكتوبة بالانكليزيــة عن دمشق تتوزع الأعمال على أنواع عديدة تتراوح بين الكتابات الأدبية والتاريخية والفنية وكذلك الشعر وقصص الخيال العلمي. فيما يلي قــراءة لمجموعة من أشهر الأعمال التي صــدرت بالانكليزية والتي تضمنت في عناوينها اسم «دمشق». يحمل اسم دمشق أحياناً إشارة مباشرة إلى مدينة

(*) أديبة وناقدة سورية- مدرسة في (جامعة اوكسفورد) بريطانيا.
العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

دمشــق حيث تبــدو دمشق محجــاً للسواح الثقافيــين والدارســين الأكاديمــين الذين تجذبهم الشهرة العالمية لدمشق التي

مازالت تحمــل تاريخها فيها. في أحيان أخرى يحمل اسم دمشق معنى مجازياً شائعاً في الأدب الغربي ويرمز إلى لحظة الكشف، أمــا تعبير «طريق دمشق» وهــو تعبير شائع جــداً في الأدب العالمــي وفي الأدب الأوربي بشكل خاص فهو يرمــز إلى الطريق الشاق الذي يجب اجتيازه للوصول إلى حيث الهداية والخلاص. هذه المعــاني الرمزية والمجازية مستقــاة من الكتاب المقدس الذي تكرر فيه اسم دمشق كثــيراً وخاصة عند الإشارة إلى طريق دمشق الذي تجلت فيه الرؤيا المقدسة للقديس بولس وهو يقطع سهل كوكب جنوب دمشــق وهي الرؤيا التي قادتــه إلى كنيسة حنانيا في دمشق حيث حصل على الهداية. تضــم هذه القائمة الكتب التي ألفتها أقلام معروفــة وحازت إعجــاب المختصين وتلك التي حازت أو حــاز أصحابها على جوائز. لقيــت جميع هذه الكتب رواجاً وترحيباً من النقاد والقراء على حد سواء.

❁ ❁ ❁

«مرآة لدمشق»

تأليف: كولن ثوربن

يقــدم الكاتب نفســه بوصفــه عاشقاً لدمشــق ويصف كتابه على أنه «فعل عشق» للمدينــة التي يحبهــا كثيراً يســبر الكتاب الجذور التاريخيــة لدمشق الحديثة ويقدم سجلاً زاخــراً وساحــراً للمدينة منذ فجر تاريخها الذي شهد حضارة العموريين وحتى منتصف الستينيات. يركز الكتاب على دراسة التاريخ الثقافي والتقاليد الثقافية الراسخة للمدينة ويتخلل الكتابة التدوينية سرد مليء بالطرافة والإعجاب بالمدينة المحبوبة وكثير مــن الحكايا عــن الرحالــة والرحلات في فترات تاريخية مختلفة يصف الناشر الكتاب بقوله: «مرآة لدمشق هو تصوير فريد لمدينة لا نعرف عن حقيقتها الكثير بسبب الأحداث التي عصفــت بالشرق الأوسط في السنوات الأخيرة وهو بقلم أحد أنشط كتاب الرحلات وأكثرهــم شعبيــة». هذه الطبعــة والتي تم الإعلان عن صدورها في كانون الأول ٢٠٠٨ هي الطبعة الثانية والمعدلة من الكتاب الذي صــدرت طبعته الأولى كانــون الأول ١٩٩٦ كولين ثوربــون حسب وصف ناشره هو سيد الكتابة الكلاسيكية عن الرحلات والأسفار

بلا منازع وهو أحد الفائزين بجائزة توماس كوك العالمية لكتب الرحلات. صدر أول كتبه عام ١٩٨٢ وكان يتناول رحلاته في دمشق ولبنان وقبرص.

❀ ❀ ❀

«لم شمل في دمشق: حوار الشرق والغرب»

تأليف: ندوى عرار

تدور هذه الرواية حول فيكتوريا الفتاة التي تكتشف عند موت والدها الارستقراطي الانكليزي أن أمها التي لاتعرفها مازالت على قيد الحياة وأنها من أصول عربية وتكتشف أيضاً أن لها أخت توأم تعيش مع أمها. يقودها هذا الاكتشاف إلى دمشق حيث تتعلم الكثير عن العرب والإسلام. هذه هي الرواية الأولى لندوى التي ولدت وعاشت في ألمانيا ودرست في أمريكا وبريطانيا وفيها تأمل بمد جسر بين الشرق والغرب عبر التقاء أختين تنتميان لحضارتين مختلفتين.

❀ ❀ ❀

«دمشق: الكنوز الخفية في المدينة القديمة»

تأليف بريجيد كينان، تصوير تيم بيدو، تقديم وفيق سعيد

يتبع الكتاب خطة محكمة في للتوفيق بين النص والصور في إضاءته لتاريخ المدينة الغني الذي يمتد لقرون طويلة مما يشد القارئ لمتابعته صفحة فصفحة يتيح الكتاب أيضاً لقراء الإنكليزية فرصة نادرة لدخول بعض من أجمل البيوت في دمشق القديمة ويقدم تركيبة ممتعة تمزج بين الطرائف والحكايا والوصف الدقيق للمشاهد والمعالم يعلق أحد الكتاب الذين قاموا بمراجعة للكتاب بالقول: «لقد عشت فترة في هذه المدينة الحيوية العامرة ورأيت بعضاً من الأبنية المعروفة العامة والتي تم تصويرها في الكتاب لكن الجانب الذي يعتمد عليه تسويق الكتاب هو قدرته على الدخول إلى بيوت كثيرة وهو الأمر الذي لا يمكن أن يتيسر لسواح عاديين أو طلاب زائرين للمدينة إلا إذا أسعفهم الحظ بالتعرف على بعض الأسر التي تقيم في هذه البيوت» كينان الكاتبة الصحفية التي أقامت في دمشق لفترة طويلة وحدت جهودها وقدراتها مع العين الرائية للمصور الموهوب تيم بيدو ليقدما معا هذا السجل الحيوي للمدينة العريقة وليكررا نداءهما للحفاظ على قلب المدينة. وصفت الكاتبة ماري مورغان سميث من مجلة «ليبراري جورنال» الكتاب بالقول: «يعتبر بعض العلماء دمشق أقدم



مدينة مأهولة بشكل متواصل في العالم، وقد تعاقبت عليها خلال تاريخها الطويل فترات كانت فيها عاصمة باذخة شهيرة وأخرى تعرضت فيها للغزو الخارجي كل هذه المراحل يعكسها البنيان المعماري للمدينة الذي تبدو معه مدينة مليئة بالقصور العظيمة والبيوت التاريخية الباذخة في عام ١٩٧٩ أعلنت منظمة اليونسكو دمشق موقعاً للتراث العالمي ولكن هذا الجمال يذوي بتأثير الزمن كما أن العديد من المباني التاريخية تحتاج إلى تجديد وترميم». في حنايا السرد والصور الكثير من رسائل الحب البليغة للأساليب المعمارية المتنوعة في دمشق القديمة وقصورها ومساجدها وبيوتها. الكتاب مرجع هام للأكاديميين وكذلك للمكتبات العامة وهواة السياحة الثقافية.

❁ ❁ ❁

«دمشق: نكهة مدينة»

تأليف رفيق الشامي وماري الشامي فاضل

يتبع الكتاب رحلة رفيق الشامي وأخته ماري عبر مدينتهم التي يسميانها «ملكة المشرق» رفيق الشامي كاتب الرحلات الذي حازت كتاباته جوائز عدة، قصاص يجيد سرد الحكايا بما فيها تلك التي تصل إلى

سمعــه من دون قصد وهــو على كرسيه في المقهــى. الكتاب يزخــر بالمشاهــد الحية وبوصف التقاليد المحلية والأسواق الشعبية والأطباق الشامية التي تقدم أخته بالتفصيل طرق صنعها. ولــد رفيق الشامي في دمشق عام ١٩٤٦ ومارس الصحافة فيها ثم هاجر إلى ألمانيــا حيــث حصل علــى دكتوراه في الكيمياء بينما كان يتابع عمله الصحفي. في عام ١٩٨٠ أسس جمعية أدبية باسم سودويند (ريــاح الجنوب) وكذلــك منظمة التعددية الثقافية (بولي كونست- فيرين) حصل على عــدة جوائز أدبية بما فيهــا جائزة هيرمان هيسه الشهيرة. مــن أشهر رواياته «الجانب المعتــم للحب» وقد نشرتهــا دار هانسر عام ٢٠٠٤.

❁ ❁ ❁

«دمشق: تاريخ»

تأليف: روس بيرنز

صدر كتــاب «دمشق: تاريــخ»أو «تاريخ دمشق» عن إحدى أكــبر دور النشر العالمية وهي دار روتلــدج البريطانية يسلط الكتاب الضوء بشكل عام على تاريخ دمشق الطويل الذي يمتد على آلاف من السنين لكنه يركز بحثياً وتصويرياً علــى الفترة الممتدة مابين القــرن الخامســ والقــرن السادســ عشر ويستكشف تطور الفــن المعماري في المدينة خلالها الكتاب يزخر بالصور والتخطيطات المعماريــة والتي كمــا يقول الناشــر «تتبع أثــر حكاية هذا المــكان الغني المهم والمتنوع عبر تطــور ثقافته المادية ويقــدم لأول مرة بالانكليزيــة كتاباً بهذا الحجــم يستكشف بشكل فريد ومؤثر هذه المدينة الساحرة».

❁ ❁ ❁

«الرقص في دمشق»

تأليف: نانسي ليند يسفارن

صدر هذا الكتاب بالانكليزية بعد أن كان قــد صدر بالعربية قبل عشــر سنوات وأثار صدى واسعــاً عبر العالم العربي جاء الكتاب نتيجة بحــث أنثروبولوجي قامت به الكاتبة في سوريــة وقد آثرت وضعه في قالب أدبي. يضم الكتاب تسع قصص قصيرة تدور حول موضــوع الحب وتتخذ دمشــق مسرحاً لها. يحاول الكتاب أن يتحــدى الصور النمطية الشائعــة في الغــرب عــن الرجــال العرب باعتبارهــم متطرفين وعن النساء العربيات باعتبارهن ضحايا. في ثنايا حكايات الحب تتناثر حكايا أخرى فرعية عن الغنى والفقر والــزواج والهجران والطمــوح والادعاء في

مقدمة الكتاب التي تحمل عنوان «جوارب القرصان» تشرح ليندیسفارن بإسهاب لماذا اختارت أن تكتب نتائج بحثها الميداني الأنثروبولوجي في قالب أدبي وكيف أن القصص ساعدتها على تقديم صورة لا يمكن لأطروحة أكاديمية أن تقدمها.

❀ ❀ ❀

«رحلة إلى دمشق»

تأليف: ديفيد كريغ

هذا هو عنوان النص المسرحي الذي كتبه الكاتب المسرحي الاسكوتلندي الشاب و«المعروف بغزارة إنتاجه وبأعماله ذات المحتوى الفكري الذي يحث المشاهد على التفكير «حسب وصف الناقدة دومينيك كافنديش». تم تقديم العرض المسرحي الذي يستند إلى هذا النص والذي حمل العنوان نفسه في اليوم الأول لمهرجان أدنبرة للهواة في صيف عام ٢٠٠٧ وأثنى النقاد على قرار اختيار «رحلة إلى دمشق» ليكون عرض الافتتاح.

ديفيد كريغ الكاتب المسرحي الذي أقام لفترة غير قليلة في دمشق وسافر متنقلاً عبر الشرق الأوسط يستطيع بجمعه للإثارة والطرافة والجدية أن يقدم صوراً عن المنطقة حية ومعقدة ومتدفقة في أن واحد حاول العرض كسر الافتراضات والصور الشائعة عن الشرق الأوسط بشكل عام من خلال متابعته لبول الشاب الاسكوتلندي الذي يعمل في بيع الكتب وتسويقها. يصل بول دمشق حاملاً كتب تعليم اللغة الانكليزية ويقيم في فندق في وسط المدينة. تهيمن على البهو الذي تجري فيه الأحداث شاشة تلفزيونية ضخمة تعرض أخبار الأحداث والاضطرابات التي تجري مشاهدها في بلدان عديدة في الشرق الأوسط. يبدو بول عصبياً عند تلقيه الأخبار عن إغلاق مطار بيروت ويعبر عن خوفه من أن يذهب ضحية لعمل إرهابي ولكنه يكتشف بالتدريج أن مخاوفه لا أساس لها وأن هناك مبالغة شديدة في وسائل الإعلام عند تصوير مايجري ضمن عرضه لتأزم الحوار بين العرب والغرب ولسوء الفهم الذي يقع فيه المواطن الغربي بسبب تضليل المؤسسات المركزية يشير النص إلى خيبة العرب العلمانيين من تساهل بريطانيا مع نشاطات الأصوليين ومنظماتهم على أرضها.

بول المندفع يتعلق بمنى التي تعمل وكيلة للنشر في الدار التي يتعامل معها

والتي تتضمن مهماتها الاحتكاك بالرقابة للحصول على إذن النشر ينمو الإعجاب بشكل متبادل وتحفل الحوارات عن النحو والقواعد في اللغة الانكليزية بتلميحات عشقية ويتحول تصريف الأفعال إلى إشارات غزلية من بول الذي يحاول تعليم منى الإفصاح عن مشاعرها وينجح إلى حين لكن منى تبقى مثل مدينتها التي أسرت قلب بول هي الأخرى، بعيدة وغامضة حتى النهاية.

❁ ❁ ❁

«تاجر دمشق»

تأليف: دوان ستراد لي

رواية تجري أحداثها في القرن الأول الميلادي حيث يجول تاجر في منطقة شرق المتوسط مع معاونيه التسعة باحثاً عن فصل مفقود من الكتاب المقدس يحمل نبوءات كونية. يمزج الكتاب ما بين البحث التاريخي والخيال الأدبي. تتصاعد الأحداث مع تضارب أهواء المعاونين التسعة الذين يتنافسون للحصول على التحفة الثمينة ويعيشون الحب والخديعة والكشف والرؤيا والبحث عن الخلاص وقوة الإيمان.

❁ ❁ ❁

«طريق دمشق»

تأليف: لوس كوستلي (كاتبا) وغريغ ميكر (مساهماً جزئياً)

الكتاب الذي نزل حديثاً إلى الأسواق يعتمد على نص سيناريو كان كوستلي قد كتبه ولهذا ينجح في توظيف عنصر الإثارة منذ البداية. الرواية تاريخية تعتمد على سبر القديسين في تقديمها للشخصيات والأحداث. تتابع الحبكة الرئيسية بحث بول عن الأفضل بين خيارات ستلازمه مدى الحياة. في رسمه لشخصيتي بطلي الرواية بول وحبيبته بريتني يمزج الكاتب بشكل ناجح بين عناصر الشخصيات التاريخية والمعاصرة يرافق الكتاب قرص مضغوط (سي دي) عليه موسيقا الفيلم التصويرية وكذلك كل الأغاني والأناشيد التي يحتويها النص.

❁ ❁ ❁

«دمشق»: من قصص الخيال العلمي

تأليف: داريل غريغوري

أعيد مرتين نشر هذه الرواية القصيرة التي تنتمي لأدب الخيال العلمي وتحمل اسم «دمشق» كان النص قد نشر في مجلة الأدب والخيال العلمي عام ٢٠٠٦. صدرت

هذه الرواية في وقت واحد ضمن موسوعتين الأولى هي «المجلد السنوي لأفضل كتب الخيال العلمي» من تحرير غاردنر دوزوا والثانية هي موسوعة «أفضل قصص الخيال العلمي» من تحرير ديفيد هارتويل وكاثرين كرامر كانت الرواية قد صنفت عام ٢٠٠٦ باعتبارها من أفضل الروايات وذلك في القائمة التي تنشرها مجلة «لوكاس» سنوياً. تدور القصة حول الرحلة الروحية لامرأة في بحثها عن الخلاص وانتظارها لرؤيا مقدسة.

❁ ❁ ❁

«متسول على بوابة دمشق»

تأليف: ياسمين زهران

يشير العنوان إلى بوابة دمشق وهي إحدى بوابات القدس القديمة وتحكي الرواية قصة عالم آثار يكتشف من خلال عمله الخيوط الغامضة لحكاية يقضي عشر سنين من عمره محاولاً فك أسرارها يروي السرد الذي يجمع عالم الآثار أطرافه قصة حب بين رجل إنكليزي وامرأة فلسطينية يتمزقان بين مشاعرهما وولاءتهما الوطنية. في خلفية قصة العشق تجري القصص الموجعة للتشرد الفلسطيني والتهجير الذي يهدد الهوية والذاكرة والتاريخ الثقافي وذلك إلى جانب قصص الوفاء والخيانة والصدق والنفاق كل هذه الخيوط تتشابك لتقود إلى خاتمة ينتصر فيها الحب في نهاية طريق مليء بعذابات المحبين وخساراتهم تقول الكاتبة مريام كوك في كلمة الناشر: «رواية مظلمة وحبكة عاطفية لحكاية عن الحب والمكيدة والخداع كل كلمة فيها تنضح بالألم الفلسطيني».

❁ ❁ ❁

«دمشق واسطنبول»

تأليف: طلعت ستروكيرك وستيفان ستروكيرك

كتاب رحلات وأسفار صدر حديثاً في السويد يحمل أحدث الصور عن الأماكن التاريخية والمقدسة في دمشق واسطنبول التي يقدمها سائح ثقافي في دمشق.

❁ ❁ ❁

«الطريق من دمشق»

تأليف: روبين ياسين قصاب

هذه هي الرواية الأولى لقصاب وهي تدور حول سامي الشهاب الذي ولد في بريطانيا لوالدين سوريين ودرس في أكسفورد والذي يتعثر طويلاً في دراسته للحصول على

الدكتوراه في الأدب العربي يتزوج سامي من منتهى الفتاة العراقية ابنة الشاعر اللاجئ الذي يتأرجح بين العلمانية والتدين لكن منتهى برزانتها وحنانها تساعد سامي على التوفيق بين أفكاره المشتتة وانتماءاته المتضاربة. تبدأ الرواية مع أحداث أيلول ٢٠٠١ في نيويورك التي تضع سامي في طريق البحث عن هويته الثقافية. تتفاقم أزمة الهوية حين يواجه سامي الأفراد والمؤسسات الذين يعجزون عن التمييز بين الإسلام الروحي والحضاري والثقافي من جهة وبين الإسلام السياسي والوهابي من جهة أخرى. يزور سامي مدينته الأم «دمشق» حيث تحمل الزيارة إلى جانب دلالاتها الواقعية المعنى المجازي الشائع الذي يرمز له طريق دمشق أي لحظة الكشف عبر الوصف تارة وعبر الجدال والسخرية تارات أخرى يحاول الكاتب دحض الصور الاستشراقية التقليدية عن العرب باعتبارهم شهوانيين وعنيفين وينتقد الصور التي يبثها الإعلام الغربي عن العرب والإسلام. ومع هذا يحاول روبين تصوير الوجه الأخر للندن كعاصمة لتعدد الثقافات مابين البقاليات التي يتسوق منها العرب في هارو والمقاهي العربية الشهيرة في ادجوار رود.

❀ ❀ ❀

«على طريق دمشق»

بقلم: كاتريس ويليامز

ديوان شعري صدر حديثاً عن دار ستابلايزد مايندز وفيه تأخذ الشاعرة قراءها في رحلة تقودها بقوة إيمانها الشعري يحمل تعبير «طريق دمشق» معنى البحث عن الحقيقة عبر المشي في الطريق الصعب ويرمز لتجربة الشاعرة الروحية والفكرية. الشاعرة أمريكية من أصل إفريقي وهي الآن طالبة في جامعة ستانفورد حيث تدرس العلاقات الدولية والكتابة والإبداعية وهي إلى جانب ذلك ناشطة في الحركة النسائية وفي حركة الدفاع عن حقوق اللاجئين الأفارقة في أمريكا. ومع أن أحياء السود الفقيرة في أمريكا المعاصرة هي الفضاء الأكثر حضوراً في شعرها إلا إنها في قصائدها تتنقل بين أزمنة عديدة وتزور بلداناً كثيرة تجعل منها مسارح لانفعالاتها وهواجسها. تحفل النصوص بصور وحكايا وعبارات مستقاة من الكتاب المقدس والطقوس الروحية للأمريكيين

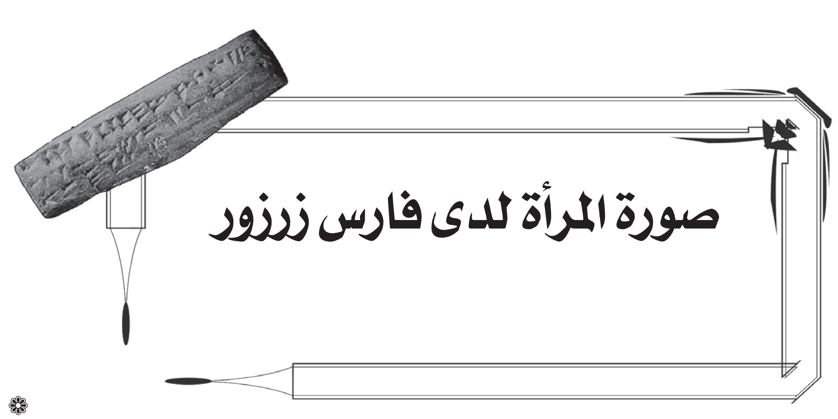
الأصليين «الهنود الحمر» والتراث الإسلامي وكذلك من كتب التاريخ. تتجاور هذه العوالم في قصائدها التي تستكشف جوانب متنوعة في التجربة الإنسانيـــة مثل الحب والحرب والعنف والعمل والفقر والظلم. «على طريق دمشـــق» كتاب يصـــر على كونيـــة التجربة الشعريـــة ويؤسس لذلك علـــى أرض صلبة. تفتتح الشاعرة ديوانها بقصيدة «آدم وحواء» التي تبدأ كما يلي:

سألني آدم متى سآتي لزيارته
قلت قريبا.
نظرت إليه وقلت
حين تكبر بما يكفي لكي تحبني
ستراني بين الومضات الذهبية
على الطريق إلى دمشق
ستمسكني من الأصداف المعلقة حول عنقي
والودع الذي في يدي
لأن الذهب ثقيل على الحمل





آفاق المعرفة



صورة المرأة لدى فارس زرزور

د . ماجدة حمود*

قــدّم لنا فارس زرزور عبر رواياتــه وقصصه صورة نادرة للمرأة الريفية السوريــة، رسمها بنبضــ عذاباته، فقد لوّنها الفقر بألــوان القهر والعنف! لذلــك لم نجد الصورة النمطية للمرأة التــي عايشناها في الرواية السورية، والتي تبدو فيها تارة عاهرة وتارة قديسة! وإنما وجدنا امرأة الواقع البائس، التي تعيش حياة الكفاح إلى جانب الرجل!

* ناقدة وأديبة وأستاذة جامعية .

العمل الفني: الفنان زهير حسيب.

صورة المرأة في السياق الاجتماعي والفكري:

لابد أن نعترف في البداية بأننا لا نستطيع فصل السياق الاجتماعي المتخلف عن سياقه الفكري، كما أننا لن نستطيع فصلهما عن سياقهما الاقتصادي، فحيثما يرتع الفقر يزدهر الجهل والعادات الظالمة التي تقتل إنسانية الإنسان!

لو تأملنا الصورة التي يرسمها الروائي لأية شخصية من شخصياته الروائية للاحظنا أنها تمتح بعض عناصرها من السياق الاجتماعي الذي عايشه بحكم النشأة أو العمل، لهذا وجدنا فارس زرزور يبيّن لنا أن فكرة رواية (الحفاة و«خفي حنين») جاءته من صورة مختزنة في ذاكرته، حين كان معلما في «تل علو» في الجزيرة، تضم مجموعة من العمال الزراعيين والعاملات وقت الحصاد، صادفهم حين حلّت العطلة، فـ«كانوا يتراءون من بعيد قادمين من محطة القطار قطعا ممزقة، لا يجمعهم غير الأرض التي يخبّون عليها ببطون أقدامهم، ولا يربطهم غير رابطة الجوع والخواء. قطيع هائم على وجهه، يحملون صررا فارغة وأسمالا وأحزانا قديمة ومشاكسات دائمة.. وأكثر من ذلك يحملون أملا في الحصول على العيش..»(1)

لا تميز الصورة التي قدمها فارس زرزور بين ملامح للرجل والمرأة، فقد بدت خطوطها شديدة القتامة، تضيّع خصوصية كل منهما، فلا يرى الناظر من بعيد سوى قطع ممزقة، وإذا أمعن النظر فستهزّه حركتهم المضطربة بأقدامهم الحافية، أنشب الفقر أظافره في ملابسهم فأحالها أسمالا، وحين تقترب عدسة (المصورة) تتضح للمتلقي تفاصيل البؤس أكثر! فنجد أنهم يحملون صررا أفرغها الجوع من الزاد منذ زمن طويل!

نعايش في هذه الصورة أناسا سلبهم الفقر إنسانيتهم وقرّبهم من حياة القطيع، لكن الأمل في حياة أفضل، والسعي للعمل من أجلها ينقذ الصورة من بهيميتها، وبذلك أعاد لهم الراوي إنسانيتهم! وهكذا حقق الفقر مساواة بين المرأة والرجل، وقضى على التفوق الذكوري والضعف الأنثوي، فتجاوز الكاتب بذلك جدالا أرهق العقل العربي طويلا!

ومع ذلك يمكننا القول بأن معاناة المرأة هي التي حفّزت زرزور على كتابة

رواية (الحفــاة و«خفي حنين») فقد قرأ في الصحافة أن شاحنة، تحمل عمالا زراعيين وعاملات، سقطت في ترعة ماء، فغرق فيها بضع عشـرة عاملة، أحذيتهن وحدها طفت فوق الماء، تعاطــف الروائي مع بؤس المرأة، واستيقظــت في أعماقه تلــك الصورة التي رآها في محطة القطار!

وحّــد قهر المجتمــع الفقير بــين المرأة والرجــل، في روايات فارســ زرزور، لذلك وجدنا معظم أبطاله إما (حفاة) أو ملاحقين بذنب لم يرتكبــوه أو أشقياء، هذا ما توحيه لنــا عناوين رواياته، أي الرسالة الأولى التي يرسلهــا الروائي للمتلقــي («الحفاة وخفي حنــين»، «المذنبون» «الأشقيــاء والسادة..») هنــا نتساءل: هــل كان ذلــك بتأثير سيرته الذاتية ومعاناتــه الشخصية من الفقر؟ أم بتأثير الفكر الاشتراكي الذي يبدو لنا الكاتب متحمسا له؟ أم بسببهما معا؟

تعمل المرأة الريفية ســواء أكانت أما أم زوجــة وأختا مثــل الرجل تمامــا، ووجدنا الشاب المتعلم وغــير المتعلم يقف إلى جانب عملهــا، لأن الجوع لم يترك خيارا آخر! لهذا تبــدو مناقشة عمل المــرأة في هذا المجتمع الفقير ترفا لا معنى له!

رغم ذلك لاحظنا تعاطــف الروائي مع المرأة الفقيرة، فسلــط الأضواء عليها وهي تعمــل في أسوأ الظــروف (حامل، مرضعة، مريضــة..) وهــي رغم حاجتهــا الشديدة للمــال، ترفضــ امتهان كرامتهــا، والعبث بشرفها، فتبدو مؤمنة بقيم مجتمعها الأصيلة، ففــي قصة «أمنية» تضع العاملة (زهرة) ما جمعته من قطــن في كيسها، عندئذ يحاول الوكيل (محجــوب) مس رأسهــا بجبينه في حركة بدت عفوية فأحست قشعريرة تسري في جلدهــا، وكأنما مستها أفعى، ولأول مرة فاجأتها رغبة في التقيؤ..»[٢]

وحين يمعــن بالمساومة، ويلمــح إلى أن كيسها لم يمتلئ قطنــا، ومعنى ذلك أنها لن تتقاضــى أجرهــا، ترد عليــه بجملة تنطق بالتحــدي «إلى جهنــم» وتســرع إلى إرضاع طفلها، فتتلقى منــه ابتسامة تنسيها تعبها، وتضــيء بنورها ظلمة حياتهــا، فتعود إلى عملها أكثر حماسة!

تبــدو قيم الشرف لــدى زرزور من أهم القيم التــي تدافع عنها المرأة، فهي لن تبيع جسدها مهما بلغت حاجتها للمال!

إن الحفاظ علــى القيم الأصيلة يساوي لدى المرأة أهمية لقمة العيش، لذلك نجدها

رغم جوعها لا تستجيب لإغراءات صاحب العمل!

صحيح أنها محاصرة بظلمة الفقر، لكنها تستنجد بذكائها، فتحقق تأقلما مع أبشع الظروف، وتقيم توازنا بين قيم أصيلة تحمي كرامتها وحاجات أساسية تحمي حياتها، لذلك حين تركب النساء القطار المكتظ بالرجال في عربة البهائم، نجد المرأة القروية تلف جسدها باللحاف كي تتحاشى الالتصاق بالرجال، فيعلق عمر «تستطيع المرأة في جميع الأحوال أن تعرف كيف تراعي ظروفها.»(٣)

هنا نلمس رهافة حس الروائي وقدرته على استجلاء نفسية المرأة، مما يوحي لنا بوعيه الاجتماعي، وامتداد آفاقه الإنسانية، لذلك استطاع أن يجسد لنا روح البيئة، متلمسا سمة أصيلة لدى المرأة التي تختلط بالرجال في العمل، وتحافظ على كرامة جسدها!



إن صورة المرأة الفقيرة الملتفة باللحاف، رغبة في تحصين جسدها، حين تضطرها ظروف العمل إلى الانتقال مع الرجال في عربة البهائم من درعا إلى القامشلي، تثير تعاطف المتلقي مع المرأة العاملة التي ترفض ابتذال ذاتها في أعتى الظروف!

إن ابتكار مخيلة الروائي لهذه الصورة

الفريدة، التي تشكلها أدوات بسيطة في متناول أية امرأة، تشي بالتصاقه بهموم واقعه، ورغبته في عمل المرأة دون أن تتنازل عن كرامتها! وبذلك لا يشعر المتلقي بغربة الروائي عن مجتمعه، رغم أنه يحرضه على تجاوز بؤسه!

عايشنا في بعض روايات فارس زرزور ظاهرة اجتماعية تسيء إلى إنسانية المرأة، إذ تحول المهر عن معناه الديني والإنساني إلى معنى تجاري يسلّع المرأة، فافتقدنا في البيئة الفقيرة المعنى الراقي للمهر الذي وجدناه في القرآن الكريم «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة»(٤) أي هدية تقدم بمناسبة (الزواج) إذ يصبح ثمنا لها! لهذا رضيت الفتاة الصغيرة (فرحة) الزواج من (عواد) الغني رغم أنه في عمر أبيها، ولديه زوجتين قبلها!

في رواية «المذنبون» يلاحق سوط التقاليد المتخلفة المرأة القروية وكذلك الرجل، فنجد زواج التبادل (حيث تبادل الأخوان جدعان وفرحة مع الأخوين قاسم وفهدة) فنحس كأننا أمام صفقة تجارية لا علاقة لها بالمشاعر الإنسانية، التي أصبحت لا معنى لها في زمن القهر والجوع!

ينتبه فارس زرزور في هذه الرواية إلى ما لم ينتبه إليه أي روائي سوري،باعتقادنا، فاستطاع أن يصور لنا معاناة المرأة من نظام العبودية، الذي مازال يعشش في بعض القرى والمناطق النائية، حتى إننا وجدنا الفتاة تباع في سني القحط، فتعيش دون أن يكون لها الحق حتى في أن يكون لها اسم، وهي لن يكون لها ذلك إلا بعد أن تنجب طفلة، فيصبح اسمها نابعا من وظيفتها البيولوجية (أم فهدة) عندئذ تعامل معاملة الزوجة، ولكن حين يكتشف الأب أن المولودة (فهدة) عرجاء لن تكون ذات نفع للأب في سوق الزواج، تنبذ المرأة الرقيق في قوقعتها السوداء!

أبدع الروائي في رسم فضاءات الفقر، وانعكاساته الاجتماعية، فقد قهر القحط والجفاف الإنسان، لذلك استشرت في القرية عادات اجتماعية تسلخ المرء من إنسانيته، وتهبط بحياته، سواء أكان رجلا أم امرأة، إلى درك الحيوان!

صورة المرأة بين المتعلم والجاهل:

يبدو لنا الروائي الاشتراكي مؤرقا بالبحث في روايته عن طريق للخلاص من هذا البؤس، فيرشح لذلك (عمر) في رواية (الحفاة و«خفي حنين») الإنسان الواعي،

الــذي يعيش هاجس المعرفــة، فيبدو رائدا حقيقيا للنهوضــ، إذ يقف إلى جانب المرأة في محنة التخلف! فاستطاع أن يواجه بعض العــادات، التــي ترسخها الحاجــة المادية! ويمنــع زواج أختــه الصغــيرة زواج صفقة، يمتهــن كرامتها، في حــين لم يستطع الشاب الجاهل (جدعان) الوقوف في وجه التقاليد التــي عقــدت تحالفا مــع حاجتــه المادية والغريزية! فقبل بزواج المبادلة! هنا نتساءل: هل بإمكاننا أن نلومه لأنه لم يقاوم كما قاوم عمر؟

لو تأملنا الشــروط الاجتماعية التي تمّ فيهــا زواج المبادلة للاحظنــا أن الغبن يقع على الأخ لا الأخت، فهي ستتزوج من (قاسم) الشاب المعافى، في حين سيتم زواج الأخ من (فرحة) العرجاء، وقد قبل بها، لأنه لا يملك مهرا، ولكونه سيحصل من وراء هذا الزواج على عدد من الحيوانات وأكياس من القمح! تسانده على مقاومة القحط وقهر الجوع!

إذاً بمثل هذه التقاليد الاجتماعية التي وثّقتهــا لنا روايــة «المذنبون» تحايــل أبناء المجتمع الفقير على الظــروف الاقتصادية القاهــرة، كي يعيشوا، فابتكروا علاقات قد يراهــا المرء من بعيد ظالمــة وغير منطقية، لكــن حين يمعن النظر فيهــا يراها ضرورة لاستمرار الحياة في أقسى الظروف!

وقــد سُلطت الأضواء في هــذه الرواية على مشكلــة تعدد الزوجــات، التي تجلت عبر سيــاق يلتحم فيه البؤســ الاقتصادي بالاجتماعــي وبالفكــري، مما حــوّل المرأة إلى سلعــة يحصل عليها من يملك ثمنها، أو من يملــك القدرة على إطعامها فقط! لهذا وجدنا صالــح الذياب المهووس جنسيا لديه ثلاث زوجــات، دون أن يهدأ هوسه المرضي بالمرأة، الذي يصل إلى المحارم (زوجة ابنه)

يحدثنا صوت الــراوي المتماهي بصوت المؤلف بــأن أولى مشاكل هــؤلاء الزوجات أنهــن آدميــات فعــلا دون أن يحيين حياة الآدميين، وآخرها أنهــن زوجات لرجل هو (صالح الذياب)

يبــدو أن العلاقــة جدليــة بــين المرأة والرجل، فحــين تنتزع آدمية المــرأة باسم الزواج تنتزع في الوقت نفسه آدمية الرجل!

لذلك صور لنا الروائي (صالح الذياب) الذي يجمع في بيته ثلاث زوجات في صورة سلبية (مختل، أشبه بحيوان هائج) لا يعرف معنى للعاطفة!!

تغلغــل الروائي إلى أعمــاق صوت المرأة

المقهورة بالفقر وبالرجل، فعايشنا اشتعال نار العداء بين الزوجات الثلاث من أجل رجل لا تعرف المشاعر طريقها إلى قلبه، فكأنه حين عدّد زوجاته قد انسلخ من حقيقته الإنسانية، أي من مشاعره، وهذا ما أكده لنا القرآن الكريم«مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ» (سورة الأحزاب آية٤) فالقلب يتجه بمشاعره نحو امرأة واحدة، ومن المستحيل تحقيق العدل العاطفي بين الزوجات، لهذا ينسى المسلمون تتمة الآية التي ذكر فيها تعالى التعدد «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً» (سورة النساء، آية ٣) كما ينسون آية أخرى تعلن هذه الحقيقة الإنسانية «وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ » (سورة النساء، آية ١٢٩)

تبيّن لنا الرواية كيف أن المجتمع المتخلف يفسر الدين تفسيرا متخلفا، إذ ينطلق من احتياجاته الاقتصادية أو الاجتماعية، ففي زمن الحروب وفقدان الذكور يبدو تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية، باعتقادنا! كما يبدو زمن القحط ضرورة اقتصادية! لهذا تبدو المشاعر للجائع نوعا من الترف في كثير من الأحيان!

لعل أبشع صورة للفقر وجدناها في رواية «المذنبون» حين يطال التشويه مشاعر الأب تجاه ابنته! لذلك صرّح شحادة لصديقه، حين دهست سيارة ابنته في المدينة، قائلا: «البنات مفيدات.. على أن لا يمتن ميتة طبيعية»!! فيكون التفكير بديتها أبلغ من مشاعره الفطرية، وأقوى من حزنه عليها!!

رسم لنا فارس زرزور ظلمة مجتمع لاهث وراء الرغيف! تبدو فيه صورة المرأة الخانعة، التي لا تجرؤ على الاعتراض أو حتى مناقشة مشاكلها الاجتماعية، إذ يبدو أن لقمة العيش أشد إلحاحا على الإنسان من البحث أو الحوار في قضايا نظرية! لهذا صمتت، كما صمت الرجل، عن انتقاد العادات الظالمة أو التفسير المتخلف للدين!

يبدو لنا فارس زرزور أمينا للواقع الريفي الذي يرصده، في بدايات الستينيات من القرن العشرين، لذلك لم يرسم لنا صورة امرأة تتجاوز واقعها المتخلف، بل لم نجد لديه امرأة تجرؤ حتى على التفكير أو الحلم بتغييره! إذ تبدو لنا ظلمة الواقع المتخلف وصلت إلى درجة تقتل فيها إمكانية الحلم!

ومن البديهي أن يسبق الرجل المرأة في التفكير نظرا لطبيعة حياته، التي هي أكثر انفتاحا على العالم الخارجي!

صحيح أنــه يعاني مثلهــا هموم الحياة وظلمها! لكــن صراعه الخارجي مع أولئك الذين يريدون تهديم زواجه وزواج أخته من أجل استعادة الحيوانات، يدفعه للبحث عن أسباب ذلك! فيهديه تفكيره الفطري إلى أن السبب هو (الرغيف والمــرأة) أي ما يشكل جوهر معاناته اليومية مع الجوع والحرمان الجسدي!

لكن سرعان ما يظهر تعاطفه مع المرأة، ويتســاءل: كيف تكون سببــا لبؤس الحياة، وقــد انتزعت منهــا إرادتها وباتــت «تباع وتشرى كالدابة؟» ومثــل هذا التساؤل دليل على بداية تطوّر وعيه! فيبحث عن إمكانية أخرى للحياة: «كيف يتم الأمر إذن إذا لم يكن كذلك؟»[٥]

إن القــروي البسيط، الــذي اعتاد على هــذه الطريقة غير الإنسانية في التعامل مع المــرأة، بدأ يرفض هذه النظرة الدونية لها، ويطرح أسئلة التغيير الجوهرية، التي تنير له طريقه نحو حياة أفضل!

يبــدو، هنــا، تعاطف الرجل مــع المرأة واضحــا، فقد استفزّه الوضــع المهين الذي تعيشــه، ودفعــه إلى التساؤل عــن طريقة أخــرى للحيــاة! خاصة بعــد أن اقترب من المــرأة (الزوجة) روحيا وجسديا، فهدته إلى مشاعــر جديدة لم يعرفها مــن قبل (الحب والشفقــة والإحساســ بالآخــر) فاكتشف وجــوده الحقيقــي وإنسانيتــه! وبذلــك استطاعت أن تنقله بفضل هذه المشاعر من عالمه المغلق على (الأنا) إلى عالم أكثر اتساعا ، وبدأ مرحلة جديدة من حياته يرفض فيها ممارسات الجهل والسحر، لهذا منع المختار من ضرب أخته، كي يطــرد الشياطين التي تلبستها، بل صرخ في وجهه مدافعا عنها!

وقد ازداد إحساسا بإنسانية أخته، حين بــاع الدواب (الذي قدم مهــرا لها) وامتلك المال الذي جعله يحســ بأنه «مخلوق جديد وإنســان حقيقي» فارتقــت مشاعر الأخوة بكينونته، كما ارتقت به مشاعر الحب تجاه زوجته! هــذه المشاعر التي تطــرد الأنانية وتنفتح على الآخر حبا وعطاء!

صحيــح أن القروي الأمــي لن يستطيع التعبير عــن أعماقــه لكن صــوت الراوي المتماهي مــع صوت المؤلــف يتدخل ليخبر المتلقي بمــدى تعلق جدعان بزوجته «لم يكن يعلــم الحكمة القائلة بــأن تاريخ النساء هو أسوأ ضروب الاستبداد في التاريخ، استبداد الضعيــف بالقوي، وهــو الاستبداد الوحيد الذي يدوم»[٦]

هنا نتساءل: هل تدخل الراوي للتعبير عن مشاعر الزوج بسبب عدم مقدرة الشخصية الأمية على التعبير بلغة المثقفين؟ أي تجسيد مشاعرها وأفكارها عبر اللغة كي يفهم ذاته أكثر، وينقل تجربته للآخرين؟ أم أن الروائي يريد أن يوحي لنا بأن الرجل القروي يجد حرجا في التعبير عن مشاعره حتى تجاه زوجته؟!! فيتكفل الراوي بهذه المهمة!

كذلك وجدنا الأمر نفسه في التعبير عن صوت المرأة حين تدخل الكاتب، فأسقط لغته على لغتها، وبذلك جعلها تنطق بلغة أعلى من مقدرتها الفكرية والثقافية، لذلك تبدو الفتاة الصغيرة ابنة الرابعة عشرة (فرحة) واعية تفهم الحياة وخدع الرجال، وتناقش أزمتها بمنطق لا يمكن لمن يعيش ظروفها أن يفكر به!

إذاً نستطيع أن نلمس من هيمنة صوت المؤلف على الشخصية، سواء أكانت امرأة أم رجلا، رغبة الكاتب الاشتراكي في تغيير واقع الإنسان في مجتمعه دون أي يميز بين الجنسين!

صورة المرأة والسياق الأسطوري:

يقدم الكاتب في رواية «المذنبون» أسطورة بداية الخلق والهبوط من الجنة، على لسان الحاوي الذي كان أستاذا لمحمد الفقير (أحد وجهاء القرية) فنجده يبرئ الرجل من تلك الخطيئة «لم يعص آدم خالقه إلا بعد مدة، وذلك عندما وجد إلى جانبه امرأة... هذه الثمرة التي قذفت بأبينا من السماء إلى الأرض. (وردد بصوت خافت)» وقيل اهبطا بعضكم لبعض عدو..»

هنا يقع الكاتب أسير القراءة التقليدية لهذه الأسطورة، فالهبوط من الجنة سببه المرأة، إذ لم يعص الرجل خالقه ويأكل من الشجرة المحرّمة إلا بسببها، فهي التي قذفت به من نعيم الجنة إلى جحيم الأرض!

صحيح أن الكاتب استخدم فعلا ذا دلالة سلبية عنيفة (قذفت) بتأثير القراءة التوراتية للأسطورة! لكنه لا يبدو لنا حاقدا على المرأة التي يدعوها بـ(الثمرة) فيماهي بينها وبين الثمرة اللذيذة التي حرمها الرجل في الجنة، وعوّضته عنها المرأة في الدنيا!

وهكذا تطغى لدى فارس زرزور القراءة الأسطورية لحادثة هبوط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض على القراءة الدينية، فتطغى القراءة الظالمة للمرأة التي تحملها مسؤولية أكل الثمرة المحرمة على القراءة المنصفة، التي تحمّل كلا من الرجل والمرأة

مسؤولية الخطيئة الأولى، وهذا ما يؤكده تعالى في قوله «فأزلهما الشيطان» (سورة البقرة آية ٣٦)

جماليات الصورة:

لن تخرج جماليات الصورة التي رسمها فارس زرزور عن مفردات البيئة القروية وعاداتها، التي تهب المرأة حرية الحركة والاختلاط أكثر من البيئة المدنية! فمثلا حين يرى الوكيل (عواد) أن فرحة رقيقة العود لن تستحمل مشاق السفر والعمل، يجيبه أخوها (عمر) «متى كان القروي يخزّن الأنثى في الخزانة.؟»

تمتاز لغة هذه الصورة بحيويتها بفضل استخدام الاستفهام الاستنكاري، وبفضل ألفاظ بسيطة تقرّبها من العامية، وقد امتلكت جملة (يخزّن الأنثى في الخزانة) جماليات لافتة! إذ استخدم فعلا مشتقا من أثاث منزلي لا يستغنى عنه (الخزانة) كما تمتاز بدلالتها العميقة على البيئة الريفية، التي لا تعرف حجب المرأة في البيت، وخزنها مثل أية قطعة أثاث! بل نجد صيغة الاستفهام تستنكر ذلك، فالمرأة القروية تحمل من المسؤوليات الحياتية ما ينوء عنها الرجل في كثير من الأحيان! لذلك كان أول ما تتعلمه البنت هو «كيف تخدم الرجل..» داخل البيت وخارجه (في الأعمال الزراعية) لذلك يقول (صالح الذياب حين يلتقي جدعان في الحقل دون أن تكون أخته (فرحة) معه «البنت التي لا تشتغل لا تساوي بصلة.. إن فرحة كما سمعت لا تلتفت إلى متاعبك، ولا يهمها غير الأكل والشرب والنوم، والفلاحة يجب أن تعمل كالجحش لتصبح ذات قيمة وإلا بارت كما تبور العنز الجرباء حاشاك.»[^8]

تقدم صورة القروية التي لا تعمل في الحقل عبر دلالات ذات ظلال سلبية مستمدة من البيئة الزراعية بنباتاتها المتوفرة والرخيصة (فهي لا تساوي بصلة) كما هي مستمدة حيواناتها المتواضعة (الفتاة لن تنفق في سوق الزواج إلا إذا عملت كالجحش!!!) وقد لاحقتها هذه الدلالة السلبية سواء عملت (تشبه بالجحش) أم لم تعمل (تبور كالعنز الجرباء)

ترسم لنا هذه اللغة نظرة دونية للمرأة، لكن لا نستطيع أن نتهم الروائي بتكريس هذه الصورة السلبية لها، خاصة أنها تصدر عن رجل مختل هو صالح الذياب!! في حين وجدنا المتعلم (عمر في رواية «الحفاة وخفي

حنين») يستنكر استخـدام لغة دونية تلحق بالمرأة، وتوحـي بتشييئها، لذلك يعترض أن تسمـي أمـه المهر الذي دفعه عـواد لأخته فرحة (عربونا) فيقول: «عربون.. عملية بيع وشراء؟» فتجيبه «ألسنا كلنا كذلك يا ولدي.. ألا يتم الزواج بهـذه الطريقة؟ هل تريد أن تخترع لنا طريقة أخرى للزواج..»[٩]

بـدأ المتعلم يسائـل اللغة، التـي ترسم صورة غـير إنسانية للمـرأة، فيستنكر تلك المفـردات، التـي تبـدو جزءا مـن الحياة اليومية، تستخـدم دون أن ينتبه لدلالاتها! مـع أنها تحرف العلاقة الإنسانية بين المرأة والرجل عـن سياقها الإنساني، وتحولها إلى عملية بيع وشراء، فكأنه يحث على استخدام لغة جديدة تؤسس لعلاقة جديدة بين المرأة والرجل، لهذا يبدو تساؤل الأم منطقيا: هل تريد أن تخـترع لنا طريقة أخرى للزواج... أي لغة جديـدة ترسم صورة جديدة للمرأة، وتؤسسـ لعلاقـة أكثر إنسانيـة بينها وبين الرجل.

جماليات القبح:

تبـدو صـورة المـرأة، غالبـا، مرسومة بخطوط قاتمة ومشوهة، إذ تكررت الصورة الشوهـاء للمرأة ، التي لحقتهـا العاهات، فالفتـاة البريئـة (تميمة في روايـة «حسن جبل») بكماء أشبـه بالبلهاء، في حين كانت (أسمـاء) زوجة حسـن جبل عـوراء، أما الشابـة فهـدة في روايـة «المذنبـون» فهي عرجـاء، في حين تصـاب الأم بالعمى («أم جدعان» في «المذنبون» وأم عمر في «الحفاة وخفي حنين»)

ترى هل يقصد الكاتب من هذه الصورة المشوهة أن يبيّن لنا أن الواقع المشوّه بالمرض والفقر والجهل والاستعمـار، لابد أن يفرز عاهات تعوق الحياة الطبيعية!؟

وقـد لاحظنا أن (فهدة) هـي الوحيدة التـي تخلق عاهتها معها، لـن تكون بسبب الجهـل والمرض، لكننا حـين نتأمل العلاقة بين أمها وأبيها، نجدها علاقة غير إنسانية (بين عبـدة وسيدها) لهذا لابـد أن تنجب كائنا مشوها!

لعل أجمل صورة لهؤلاء النساء المعوقات هي صـورة (تميمة التي فقدت القدرة على النطق بعـد أن شهدت ذبـح أهلها على يد المستعمـر الفرنسي) فهـي لا تجد أية صلة بالحيـاة سـوى الابتسامـة، بفضلها يزهو جمالها، فتشيـع السحـر في النفوس! كما تبـث طيبتها السكينة في الروح! لهذا يتمنى

(حسن جبل) لو أن كل النساء مثلها «لا تنطقن أبدا بغير ضحكة كخرير الساقية، لأنهن إذا استعملن لسانهن لا يخرج منهن غير كلام فارغ واتهامات باطلة..»[١٠] ونحن لن نستغرب هذه الصفات السلبية التي ألحقها بالمرأة! مادامت هي ابنة بيئة لا تعرف سوى الجهل والتخلف والفقر!

أما صورة فهدة (في رواية «المذنبون») فقد بدت مؤثرة بعمقها الإنساني وقدرتها على الكفاح من أجل حياة طبيعية في ظل فقر مرعب! إذ كانت قبيحة ومشوهة (عرجاء) دون أن يجسر أحد على أن يدفع ثمنها ولو دجاجة، على حد قول الراوي، لهذا يبدو زواج المبادلة في صالحها، تحسنت حياتها بعده، فبدت صورتها أكثر وضوحا في الذاكرة، فهي تعمل في البيت وخارجه، دون أن تعوقها عاهتها، ولعل وصف الكاتب لمحاولتها السير بشكل طبيعي أمام زوجها من أكثر الصور تأثيرا في النفس، وأكثر رسوخا في الذاكرة، فهي تشد قامتها محاولة ألا تميل على جنبها، فيزداد ظهرها انحناء أثناء مشيها، فتلفت نظر (زوجها جدعان) إلى عاهتها أكثر، لذلك يتمنى لو عادت إلى مشيتها الأصلية، وقد أدى تفانيها في حبه وخدمته إلى تعلقه بها، هنا نلمح البعد الإنساني الذي يريد الروائي أن يؤسسه، فكأنه يبيّن للمتلقي أن عاهة المرأة كعاهة الرجل لن تدمر علاقة الزواج! إذا جمعت بينهما العاطفة!

ومما يسجل للكاتب في رسم صورة المرأة (فهدة) أن العاهة في قدمها لن نجعلها تعيش عقدة نقص مدمرة، ولن تملأ نفسها حقدا على الآخرين الأصحاء! كذلك لم نجدها محبطة الذات، تغوص في سوداوية القهر والحرمان الذي يولده الإحساس بالنقص! على النقيض من ذلك تعيش حياتها موفورة الحيوية، مليئة بالحب والعطاء! لعلها بذلك تعوض النقص الذي تحسه!

ومن الملاحظ، لدى الكاتب، أن الجمال لن يكون سياجا يحمي الفتاة (فرحة) من النظرة الدونية في مجتمعها الريفي، فهي، كما يصفها أخوها، تعيش حياتها لا شيء «يستهويها أو يضايقها، فهي -كأي سائبة- تفتقر إلى ملكة الخيال، كان مقودها في يده، حتى وإن أطلق لها العنان، فلا يمكنها أن تخرج عن الخط الذي رسمته لها حياتها القاحلة، كانت تغلب عليها صفة اللامبالاة.. كان لا يهمها شيء، وقلما تفرح أو تحزن،

ومـا كان اكتشافها لفتنتهـا في عيني قاسم ليضفي عليهـا سمة جديدة غـير التسليم بهذه الحقيقة..»[11]

إن اجتمـاع الفقـر والجهـل يحطمان الصورة الجميلـة للمرأة، ويسلبانها روحها! فتبدو منسلخة عـن إنسانيتها، راضية بأن تسلم قيادهـا لأخيها! إذ يبدو سؤال الهوية والبحث عن الذات يحتاج إلى وعي ومستوى معرفي تفتقده القروية في الخمسينيات! أي في زمن القصة!

ترصد لنا عدسة الروائي بعض الفوارق في سوق الزواج بين الجميلة والمشوهة (فرحة وفهـدة) إذ يضاف بعض الـدواب إلى مهر فرحـة! لكن حين يتـمّ تشبيهما، تستحضر مخيلة القروي مشبها به يعايشوه كل يوم هو (الحيوانات) فيفرّق في معرض زواج المبادلة بينهمـا في نوعية الحيـوان، ففرحة «بقرة حلابة مقابل عنزة جرباء» هي فهدة[12]

وجدنا لغة تشبيه المـرأة بالحيوان لدى الأمـي (صالح الذياب) ولـدى الأخ المتعلم (عمـر) إذ خاطب أخته حـين غضب بلغة شديـدة القسـوة، إذ شبهها بالكلب «أقول لك كفي عن العـواء وإلا..» ولا يكتفي بهذا التشبيه المـؤذي للمشاعر، بل نجده يحاول تهديدهـا بالضـرب إن لم تصمت! لكن من الملاحظ أن الكاتب يستهجن ذلك التهديد، لذلـك تدخل، فلم يسمـح للشخصية بتتمة تهديدها، وبتره عند الكلمة الأولى (وإلا)

دلالة العنوان:

في عنـوان قصته القصـيرة «٤٢ راكبا ونصـف» يخالف زرزور أفـق توقع المتلقي، إذ يتبـادر لذهنـه أن المقصـود مـن كلمة «النصـف» المثبتـة في العنوان هـو المرأة، انسجاما مـع الفكر التقليـدي ذي النظرة الدونية للمرأة، لكنه يفاجأ بأن المقصود هو رجل أشبه بمسخ اخترعتـه مخيلة الكاتب! وجعلته إنسانا يتحرك دون أن يكسو قفصه العظمي وجمجمته أي شيء!

أمـا في الروايات فلم نجـده يخصص للمـرأة أي عنوان، مثلمـا خصص الرجل بعنوان «حسن جبـل» ربما للدور الذي لعبه الرجل في معركـة الاستقلال ضد المستعمر الفرنسي، في حين بـدا دور المرأة هامشيا، لكننا لاحظنا أن معظم عناوين رواياته تضع المـرأة والرجـل في خيمة البؤسـ الواحدة «الحفاة..» «المذنبـون» «الأشقياء..» فتبدو المـرأة شريكة شقاء الرجل مثلما هي شريكة حياته!

دلالة الاسم:

يتكـــرر اسم (فرحة) في رواية «المذنبون» و«الحفاة وخفي حنين» كما تتكرر الصفات التي لحقت هـــذا الاسم (الشباب، الجمال، الفقـــر، وجـــود الأم الحنـــون والأخ..) هنا نتساءل هـــل السبب في تكـــرار هذا الاسم رغبـــة الكاتب على الإيحاء بـــدور المرأة في الحياة، ومـــا تبعثه من فـــرح يجعل الحياة البائســـة محتملة في القريـــة الفقيرة أو في عربة البهائم في القطـــار المتجه بالقرويين للعمل في الحصاد!

ثمـــة حساسية مرهفـــة في اختيار اسم المـــرأة لـــدى الكاتب، إذ اختـــار اسم فرحة للفتاة الجميلة السليمة، في حين اختار اسم أنثـــى الحيوان (فهدة) ليطلقـــه على الفتاة العرجاء، لكنه لم يخـــتر اسم حيوان ضعيف أو ذليل بل اختاره قويا يوحي للمتلقي بقدرة هذه الشخصية علـــى مواجهة أعباء الحياة في غابة البشر!

سيختـــار للشـــاب (عمر) المتعلـــم اسما مستمدا من الـــتراث يحمل دلالات إيجابية في إحقاق الحق والعـــدل، ومواجهة الظلم! في حين يختـــار للجاهل اسم (جدعان) يدل علـــى الشجاعة والقوة في مواجهة الظروف القاسيـــة، لهـــذا بـــدا اسمـــه منسجما مع اســـم زوجته (فهدة) مما يوحـــي لنا بأنهما سيحققـــان معا انتصـــارا في معركتهما مع الفقر!

أما الشخصيـــة الساحـــرة بابتسامتها، فيختـــار لها اسما مؤثـــرا (تميمة) فقد كان وجودهـــا أشبـــه برقية تحمـــي حسن جبل من لحظات ضعفه، وحين يضيّعها، سيعيش إحساســـ الضيـــاع والخســـارة حتـــى آخر حياته!.

الحواشي :

١- فارس زرزور «الحفاة» و«خفي حنين» مطبعة دار الآداب والعلوم، ١٩٧١، الغلاف الأخير للرواية.

٢- فارس زرزور «٤٢ راكبا ونصف» الكتاب الشهري، منشورات وزارة الثقافة، ط١، ٢٠٠٣، ص٢٣

٣- الحفاة و«خفي حنين» ص٢٥

٤- القرآن الكريم، سورة النساء، آية (٤)

٥- فارس زرزور «المذنبون» منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٧٤، ص٢٢٢

٦- المصدر السابق، ص٢٤٩

٧- المصدر السابق نفسه، ص١٨٨

٨- نفسه، ص٤٢

٩- «الحفاة وخفي حنين» ص٢٥٨

١٠-فارس زرزور «حسن جبل» منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط٢، ١٩٨١، ص٢٨٠

١١-«المذنبون» ص٤٠

١٢-المصدر السابق، ص٥٤









أسس علم النفس العام والفيزيولوجي

د. عمر ألتُنجي*

تمهيد

لا يمكــن فهم النشاط النفسي المعقد لــدى الإنسان دون امتلاك معرفة راسخة بآليات عمل الجهاز العصبي بشكل عام والقشرة المخية بشكل خاص. ويجــب أن تحيط هذه المعرفــة بجوهرِ عمليتي التهيــج والكبح في الدماغ، وبقوانــين تفاعلهما، وبعمليتي التحليل والتركيب، وبقواعد النشاط العصبي الأعلى.

* باحث وأستاذ في علم النفس.
العمل الفني: الفنان محمد غنوم.

إلا أننا بعد أن عدنا إلى المراجع العربية – جامعيـــة كانت أم عاديـــة – وجدنا أنه لا يمكن القول إن هـــذه المواضيع لم تنل حقها من الدراسة فحسب، بل يجب القول إن هذه المواضيع غير مطروحة أصلاً. لذا، رأينا من واجبنا المساهمة في تغطية هذا النقص قدر الإمكان.

مقدمة

نشـــأ الاهتمام بالظواهـــر النفسية منذ العصـــور القديمة، ونحن نجد في معتقدات الإنســـان البدائي وأساطـــيره عدة محاولات لتفسير هذه الظواهـــر. ولقد جرى تصوير النفســـ في هـــذه التصـــورات الأرواحيـــة Animistic في هيئـــة دخـــان أو سحابـــة متحـــدة بالبدن، لكنها قادرة على الانفصال عنـــه كالظـــل، والاتحاد به مـــرة أخرى. ولم يُنســـب وجود النفســـ إلى الإنسان فحسب، بـــل وإلى الحيوانـــات والنباتـــات وجمادات الطبيعة، كالحجـــارة والنهر وما شابه ذلك. ولم يكن لدى الإنسان البدائي تصور صحيح عن تكوين العالم المحيط، فكان مضطراً إلى اللجـــوء إلى مفهوم للنفس كهـــذا، يرى فيه مفتاحاً لفهـــم الظواهر الغامضة في الواقع المحيط. فمثلاً، جرى اعتبار الأحلام أحداثاً حقيقية تَخبرِهـــا النفس. وتم الافتراض أن النفس تنفصل أثناء النوم عن البدن، وتجول، ثم تعود إلى بدنها ثانية حين نوقظ الإنسان، لذلك لم يكن يُسمح بتحريك النائم من مكانه لئلا تُضيع النفس بدنها. وإذا عادت النفس إلى البدن متأخـــرة أو متعبة فإن اختلالات نفسية مختلفة تنشأ لدى الفرد. أما الظواهر من مثل فقدان الوعي والغشية فقد فُسِّرت على أنها انفصال مؤقت للنفس عن البدن، والموتُ انفصال نهائي عنه.

ومع تطـــور المجتمع وتراكـــم المعارف لم تعد تفسيرات كهذه تقنـــع الإنسان، وتخلت المعتقدات الأسطورية حول طبيعة النفس عن مكانها لأساليب التفسير الأكثر كمالاً، علماً أن هذه الأساليب كانت أحياناً شديدة البعد عن الفهم الحقيقي للظواهر النفسية.

ونحـــن نصـــادف في أعمـــال الفلاسفة القدامى تصورات مادية عن طبيعة النفس، فقـــد اعتبر كل مـــن ديموقريطســـ (القرن ٥ – ٤ ق.م) وأبيقـــور (القـــرن ٤ – ٣ ق.م) ولوكريتيوس (القـــرن الأول ق.م) أن النفس عضواً ماديـــاً يبعث الحياة في البدن، وربط الطبيبـــان القديمان العظيمـــان هيبوقراط

وجالينوس الاضطرابات النفسية باختلال نشاط الدماغ.

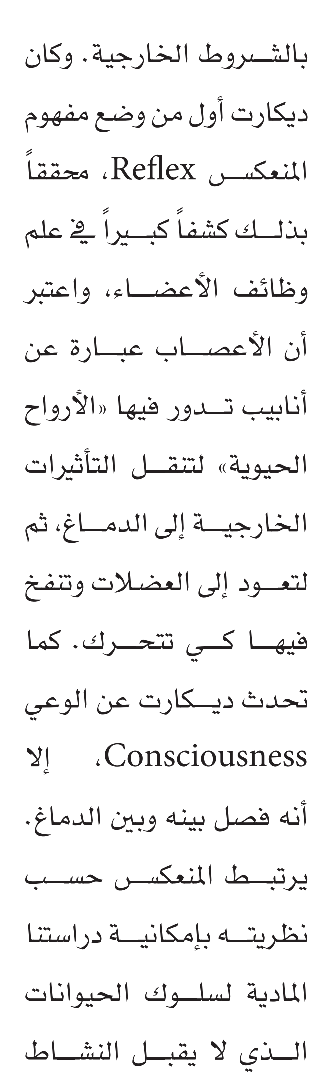
كانت هذه بالطبع تخمينات ساذجة، لكنها كانت أكثر قرباً من الحقيقة من تصورات أفلاطون (٤٢٧ – ٣١٧ ق.م) المثالية Idealistic. اعتبر أفلاطون أن النفس تُقيم في الرأس بشكل مؤقت، ليس لوجود الدماغ فيه، بل لأن الرأس كروي، أي لأنه يتمتع بالشكل الهندسي الأمثل. ولم يربط أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) النفس بالدماغ، لكنه فهم وظيفة الدماغ بصورة مادية حين اعتبره غدة تقوم بتبريد الدم حينما تزيد درجة حرارته فوق المعدل.

لمحة تاريخية

لم تحدث النقلة الكبرى في تفسير الظواهر النفسية بعد ذلك إلا في بداية القرن العاشر الميلادي على يدي الطبيب والمفكر الموسوعي الكبير الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا (٩٨٠–١٠٣٧). لقد بنى هذا العبقري لنفسه مجداً عظيماً بمؤلَّفه الضخم «القانون في الطب» الذي أنجزه سنة ١٠٢٠ م والذي سماه عالم النفس الروسي أوشاكوف «إنجيل الطب» (١١، ص ١٨)، فقد تمت ترجمته إلى العديد من لغات العالم، واسترشد به الطب الأوروبي زهاء ٧٠٠عام.

وتتجلى مأثرة ابن سينا في دراسته المتعمقة لتشريح الجهاز العصبي، وفي تفسيره المتقدم على عصره للقوى النفسانية المدرِكة والمحرِّكة عند الإنسان (٣، ص ٥٣ – ٧٣)، وقد قَيّمَ بشكل صحيح العلاقات المتبادلة بين الإحساس والإدراك والذاكرة والتخيل والتفكير والإرادة، ودرس ارتباطها بالتغيرات الجسدية. ويُعزى إلى الشيخ الرئيس أحدُ أقدم التأكيدات على أن مَسْكنَ ومبدأ فعل الظواهر النفسية هو الدماغ ببطونه المختلفة، وهذا ما أشار إليه الفيلسوف الهولندي سبينوزا بعده بستة قرون من السنين. وقد أخذ ابن سينا بعين الاعتبار تأثير النفس على نشوء الأمراض الجسمية وسيرها، كما اعتنى بالصحة النفسية، واستخدم العلاج النفسي، ومن أساليبه العلاجُ بالموسيقى (١٠، ص ٦).

واعتبر العالم والفيلسوف الفرنسي الشهير رنيه ديكارت R. Descartes (١٥٩٦–١٦٥٠) أن ليس للحيوانات أرواح، أما سلوكها فهو رد على التأثيرات الخارجية، أي أن النفس الحيوانية محدَّدة تماماً



بالشـروط الخارجية. وكان ديكارت أول من وضع مفهوم المنعكس Reflex، محققاً بذلك كشفاً كبيراً في علم وظائف الأعضاء، واعتبر أن الأعصاب عبارة عن أنابيب تدور فيها «الأرواح الحيوية» لتنقل التأثيرات الخارجية إلى الدماغ، ثم لتعود إلى العضلات وتنفخ فيها كي تتحرك. كما تحدث ديكارت عن الوعي Consciousness، إلا أنه فصل بينه وبين الدماغ. يرتبط المنعكس حسب نظريته بإمكانية دراستنا المادية لسلوك الحيوانات الـذي لا يقبل النشاط النفسي الواعي. أما الوعي فهو منغلق على ذاته، ودراسته ممكنة بالاستبطان Introspection فقط، أي بالتأمل الذاتي (٧، ص ٥٠). أما الفيلسوف الكبير بينيديكت باروخ سبينوزا B. Spinoza (١٦٣٢ - ١٦٧٧) فقد اعتبر أن التفكير



وامتداد المادة شيء واحد. إن الوعي برأيه لا يوجد بشكل منفصل عن البدن، وهو رهن لتأثيرات العالم الخارجي.

وطور الفيلسوف الإنكليزي جون لوك J. Locke (١٦٣٢-١٧٠٤) المذهب الحسي Sensualism في نظرية المعرفة بتأكيده على قَبْلية Priority الخبرة والمعرفة

الحسيــة، وعلى عــدم وجود أيــة أفكار أو مبــادئ فطرية في العقــل. إن نفس الطفل حديــث الــولادة، حسب نظريــة لوك، هي «لــوح نظيــف Tabula rasa» تُسجِّــل الخــبرةُ عليه آثارَها، وهذا مــا استفاد منه مؤسسو المدرسة السلوكية الأميركية في علم النفســ Behaviorism في بدايــة القرن العشرين. لكن التصورات والمفاهيم المجردة عنــد الإنسان التي أهملها لوك والسلوكيون تصبح على هذا الأساســ مُعدَمة، في حين أنها الأشكال الأهم لحفظ الخبرة في الوعي، وهي التي تمنحنا إمكانية معرفة العلاقات السببية في العالم.

وقد تحققت في القرن التاسع عشر ثلاثة كشوف علمية كبرى هي: قانون بقاء الطاقة والنظريــة الخلوية ونظريــة التطور، أثبتت هــذه النظريات وحدة العــالم وماديته، مما دفــع عالم الأحياء الإنكليزي توماس هكسلي T. Huxley (١٨٢٥-١٨٩٥) إلى القول إنه لا يجوز الشك بعد هذه الاكتشافات بأن أسس علم النفس يجــب التِماسها في فيزيولوجيا الجهاز العصبي.

الطبيعة الانعكاسية للظاهرة النفسية

سنــة ١٨٦٣ قــام «أبــو الفيزيولوجيــا الروسيــة» إيفــان سيتشينــوف Ivan Sechenov (١٨٢٩-١٩٠٥) بطبع مبحث هام بعنوان «منعكسات الدماغ» (٦)، بدأ به عصــراً جديداً في تحديــد وظائف الجهاز العصبي، وبالتالي، في فهم الظواهر النفسية. لقد رأى سيتشينوف أن مهمته الرئيسية هي البرهنة على أن جميع فعاليات الحياة الواعية واللاواعية انعكاسيةٌ مــن حيث المنشأ. أما الاكتشــاف الكبير الذي حققــه سيتشينوف في علــم وظائــف الأعضاء فــكان تحديده لعملية الكبــح في الجهاز العصبي المركزي. واعتماداً على هذا الاكتشاف استطاع العالِم الإثبــات على أنه ليس بالضــرورة أن تؤدي كل فكــرة تنشأ بفعل المؤثرات الخارجية إلى فعل خارجي مباشرة. يمكن للفكرة أن تكون منعكســاً بنهاية موقوفة (مكبوحة)، في حين تكون الأهواء منعكسات بنهايات متعاظمة. واعتــبر سيتشينــوف وتلاميــذه أن فهــم النشــاط النفسي المعقد عنــد الإنسان غير ممكــن إلا إذا عرفنا بعمــقٍ جوهرَ عمليتي التهيج والكبح في الدماغ، وقوانين تفاعلهما، وعمليتي التحليل والتركيــب، وكذلك باقي قوانين النشــاط العصبي الأعلى Higher

.Nervous Activities

وقد لاقت آراء سيتشينوف عن الطبيعة الانعكاسية للظاهرة النفسية تطويراً لاحقاً في أبحاث العالم الشهير إيفان بافلوف Ivan Pavlov (١٨٤٩-١٩٣٦) الذي اعتبر أن سيتشينوف قام بمحاولة شجاعة لتَصور عالمنا الذاتي بشكل فيزيولوجي صرف.

وحين نشير إلى علاقة تطور علم النفس بعلم وظائف الأعضاء، يجب أن ننوه بعلاقة علم النفس بعلم الطب، فقد أجرى سيتشينوف ملاحظات علمية على المرضى مع بعض الأطباء، وأشار إلى تأثير الأمراض على نفس الفرد. وقد تم افتتاح أول مخبر علم نفس تجريبي في روسيا سنة ١٨٨٥ على يدي عالم النفس والأعصاب الطبيب بِخْتيرِيف، وهو الثاني في العالم بعد مخبر عالم النفس الألماني فونت الذي افتتحه سنة ١٨٧٩.

لقد ميز العلماء في القرن التاسع عشر ثلاثة أشكال من الحركة هي: اللاعضوية والحيوية والاجتماعية. الشكل اللاعضوي للحركة يخص التغيرات الميكانيكية والفيزيائية والكيميائية فقط. والشكل الحيوي للحركة هو شكل أرقى وأكثر تعقيداً، ويرتبط به نشوء الحياة العضوية على الأرض. والظاهرة النفسية هي خاصية من خصائص الكائنات الحية ذات التنظيم العصبي العالي، وترتبط هذه الظاهرة بقدرة هذه الكائنات على عكس الواقع المحيط بشكل فعال. يؤثّر العالم المحيط على دماغ الإنسان من خلال أعضاء الحس، ويجعله يعكس أشياء العالم. لكن هذا الانعكاس ليس عملية منفعلة، لأنه يرتبط بالنشاط الفعال للإنسان الذي يعيد تشكيل العالم، فوعي الإنسان لا يعكس العالم الموضوعي فحسب، بل ويبدعه. ويرتبط هذا الانعكاس بخبرة الإنسان ومعارفه وخصائصه الفردية، ولهذا نقول إن الظاهرة النفسية هي انعكاس ذاتي للعالم الموضوعي.

ومن التبديات النفسية نذكر: العمليات النفسية وهي الإحساس والإدراك والتخيل والتذكر والتفكير، والحالات النفسية كالفرح والخوف واليقظة والانقباض والاستثارة والملل...، والخواص وهي الجبلة والطابع والقابليات.

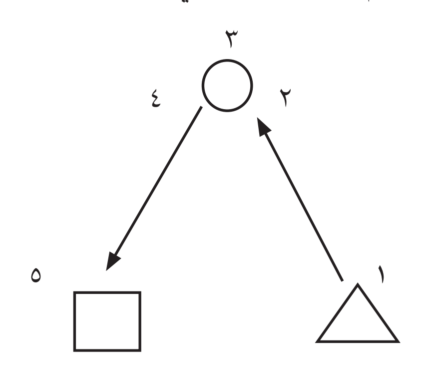
النشاط العصبي الأعلى

لقد أثبت علم وظائف الأعضاء أن في أساس نشاط الجهاز العصبي تكمن عمليتا التهيج

والكبح. والتهيج Irritation هو عملية فعالة تنشأ في المستقبِلات Receptors والأعصاب والخلايا العصبية Neurons عند تنبيهها، أي حينما تؤثر عليها منبهات Stimuli (مفردها Stimulus) فيزيائية أو كيميائية ذات قوة كافية، فَتُحْدِث في النسيج العصبي عمليات فيزيائية كيميائية تؤدي إلى تغير الشحنة الكهربائية على سطح العُصبون (١٠، ص ٢٩).

ولا يبقى التهيج، أي تغير الشحنة الكهربائية، في مكان ظهوره، وإنما ينتقل بوساطة الألياف العصبية إلى الخلايا الأخرى، فيهيجها. ويرافق انتقالَ التهيج نشوءُ ظواهر حيوية كهربائية Bioelectric تسمى موجات التهيج أو تيارات العمل، يمكن تسجيلها بوساطة أجهزة حساسة خاصة. وتتراوح سرعة انتقال التهيج العصبي عند الإنسان بين ٠,٥ – ١٢٠ متراً في الثانية الواحدة. ويجري انتقال التهيج من خلية عصبية إلى أخرى باتجاه واحد، عبر تشابكات الخلايا Synapsis، من المستقبِلات (الجوابذ) إلى الجهاز العصبي المركزي Central Nervous System بوساطة الأعصاب الحسية أو المورِّدة Afferent، ومن الجهاز العصبي المركزي إلى أعضاء العمل (المستجيبات أو النوابذ) Effectors في العضلات والغدد بوساطة الأعصاب الحركية أو المصدِّرة Efferent، فتتقلص العضلات أو تتبسط، أو تفرز الغدد.

تُدعى الاستجابة الصادرة عن الجهاز العصبي المركزي – والتي تنفذها الأعضاء – المنعكس Reflex، وتدعى الطريق التي يسلكها التنبيه العصبي من المستقبلات إلى المركز، ومنه إلى أعضاء العمل، القوس الانعكاسي Reflectoral Arc (انظر الشكل رقم ١)، ويُشترط لذلك سلامة جميع أقسام القوس الانعكاسي.



الشكل رقم ١: مخطط القوس الانعكاسي

١. المستقبِل (نهاية عصبية حسية).

٢. ليف حسي مورد.

٣. خلية عصبية مركزية.

٤. ليف حركي مصدر.

٥. المستجيب (نهاية عصبية حركية).

تتأثر قابلية الجهاز العصبي المركزي (الدماغ والنخاع الشوكي) للتهيج بعوامل عديدة، وهذا يؤثر بالتالي على النشاط الانعكاسي. فعند ارتفاع تهيج الجهاز العصبي المركزي تؤدي المنبهات الضعيفة إلى استجابات شديدة، وعند انخفاض تهيج الجهاز العصبي المركزي تؤدي المنبهات الشديدة إلى ردود فعل ضعيفة، وقد لا يحدث أي رد فعل (١، ص ٣٣٧).

وإلى جانب عملية التهيج، تحدث في الجهاز العصبي عملية معاكسة هي عملية الكبح Inhibition. والكبح هو ضَعفٌ أو انعدامٌ أو وقفٌ للنشاط العصبي. إن التهيج والكبح هما طرفان لعملية واحدة للنشاط العصبي في تكيف الكائن الحي مع الوسط المحيط، فهما يَحدثان باستمرار وبالتبادل فيما بينهما. وتتجلى وحدتهما، على سبيل المثال، في توافق عمليات معقدة، كالمشي أو الركض. إذ يحدث في هذه الحركات تبادل التهيج والكبح في المراكز العصبية التي تنظم عمل العضلات القابضة والعضلات الباسطة. وكان سيتشينوف أول من اكتشف ظاهرة الكبح (١، ص ٣٣٨).

إن لكل جزء من أجزاء الجهاز العصبي المركزي وظائف يقوم بأدائها بهدف تنظيم جميع العمليات الفيزيولوجية وتنسيقها، وبالتالي، تحقيق وحدة الجسم الحي وتأمين تكيفه مع العالم المحيط. أما عند الإنسان فقد أصبح الدماغ عضوَ التفكير.

ينظم النخاعُ الشوكي الاستجابات الحركية البسيطة والتوتر الوعائي ونشاط القلب والإفرازات.. وينظم النخاع المستطيل والجسر المنعكساتِ الحركية التي تؤمّن الحفاظ على توازن الجسم في السكون والحركة، وكذلك العمليات الإنباتية Vegetative المعقدة: التنفس والدوران وإفرازات غدد جهاز الهضم.. وينظم الدماغ الأوسط المنعكسات التوجهية Orientational Reflexes (تجاه النور والصوت، والاستجابة «الحراسية») وغيرها، مما يساعد على الاستجابة بسرعة للتنبيهات المباغتة، كما ينظم حركة أصابع اليدين وحركات المضغ والبلع وما شابهها. ويؤثر المخيخ على المنعكسات الإنباتية

والحركيــة اللاشرطية المعقــدة وعلى تناسق الحــركات والنشــاط التنفســي والــدوراني والأجهــزة الأخــرى. وينظم الدمــاغُ البيني الإحساسَ بالحــرارة والألم والطعم، وحاستي السمع والبصر، والحــالات الانفعالية (فرح، لــذة، غضــب، خــوف...)، وكذلــك حالات النــوم واليقظة، وأحاسيســ الجوع والعطش وغيرها.

أمــا قشــرة أو لحــاء نصفي كــرة المخ Cortex فهــي طبقة من المــادة الرمادية، تبلــغ سماكتهــا ٢-٤ مم، ومساحتها حوالي ٢٢٠٠ ســم٢، وتتكون من عــدة طبقات من الخلايا والألياف العصبية التي تحتوي على حوالي ١٤ مليار خلية عصبية. وإن أول من أشار إلى تعقد بنية القشرة واختلاف أشكال خلاياهــا العصبية وتوزعها إلى بقع مختلفة هو العــالم الروسي ف. بيتــز V. A. Betz (١٨٣٤-١٨٩٤) وذلك سنة ١٨٧٤.

يختلــف تطور قشرة المــخ وتعقدها بين مختلــف الحيوانــات، وتنشأ القشــرة أثناء عملية النمــو بعد أقسام الدمــاغ الأخرى. وقــد بلغ نصفا الكــرة والقشرة المخية عند الإنسان مرحلة متطــورة جداً بتأثير نشاط العمــل والعلاقات الاجتماعيــة عبر تاريخ البشرية.

تخضــع الأجــزاء الأدنى مــن الجهاز العصبي وظيفيــاً للأجزاء الأعلى. وبما أن القشــرة هــي أعلى وأحدث جــزء منه فإن جميع الأجزاء الأخرى تخضع لتحكّم قشرة المخ التي تقــوم بتنظيم عمل مجمل وظائف الجسم وتحقيق ارتباطه مع الوسط المحيط. علمــاً بأن الإنســان يختلف عــن الكائنات الحية الأخــرى في أن بإمكانه إحداث تغير ملموس في الوسط المحيط.

وتتميز في القشرة المخية عدة مراكز غير منفصلــة تماماً عن بعضها البعض، بل هي متداخلة فيما بينها، أهمها:

١- مركز الحركة: ينظم لكل نصف كرة مخيــة التقلصاتِ الإراديــة لعضلات هيكل الجسم والجذع والأطــراف والرأس بشكل متعاكس (الأيسر للأيمن، والأيمن للأيسر).

٢- مركــز الحســ الجلــدي: يستقبل المعلومات عن الألم والحرارة واللمس، وكذلك عن العضلات والمفاصل، بشكل متعاكس.

٣- مركز الشــم: يستقبل المعلومات من مستقبلات الشم.

٤- مركز السمع: يستقبل المعلومات من الجهاز الحلزوني في الأذن الداخلية.

٥- مركز البصر: يستقبل المعلومات من مستقبلات شبكية العين بشكل متعاكس.

٦- مركز الكلام: وهو موجود عند الإنسان فقط، وتشترك فيه مناطق واسعة من القشرة ترتبط بوظيفة الكلام، يقع عند الشخص الأيمن (ذي اليد اليمنى النشيطة) في نصف الكرة الأيسر، وعند الشخص الأعسر (ذي اليد اليسرى النشيطة) في نصف الكرة الأيمن. تشترك هذه المناطق في برمجة وتنظيم الحركات المتوافقة لعضلات أعضاء الكلام (شفاه ولسان..) وكذلك المنطقة الحسية السمعية للكلام.

٧- الجملة الليمبية أو الوصلية Limbic: تنظم نشاط الأعضاء الداخلية وتكوين مختلف الانفعالات.

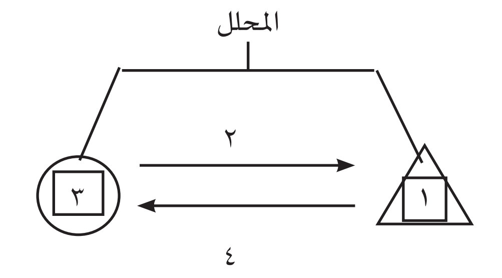
لقد تم تحديد مواقع هذه المناطق بشكل تقريبي بوساطة أجهزة اخترعها العلماء، حيث قاموا بالتأثير بالكهرباء الساكنة الضعيفة على كل منطقة من قشرة الدماغ، فكانت النتيجة دائماً عملَ العضو أو الحاسة أو الشعور الذي يخضع لتحكم هذه المنطقة، أو كان يحدث اضطراب أو خلل في عملها. وقد طور العلماء جهازاً حساساً متميزاً لرصد آلية عمل الدماغ الكهربائية يسمى جهاز التخطيط الدماغي الكهربائي Electroencephalogram يحوي أقطاباً (لواحب) Electrodes توضع على مناطق مختلفة من رأس الإنسان، وتلتقط الفعالية الكهربائية للدماغ بإيقاعاتها المختلفة، ويسجلها الجهاز على شريط خاص.

وأوجد العلماء الروس في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين طريقة جديدة وسريعة لدراسة فعالية الدماغ في نقاطه المختلفة بدلاً من الجهاز سابق الذكر. تستند هذه الطريقة إلى قياس الإشعاع الحراري. يتألف الجهاز من آلة تلتقط الأشعة تحت الحمراء تسمى المصوِّر الحراري Thermovisor ومن حاسب إلكتروني. يرى الطبيب على شاشة الجهاز عرضاً مباشراً للخارطة الحرارية للدماغ مؤلفة من ١٧ ألف نقطة تختلف درجات سطوع أو لون كل منها بحسب درجة حرارة كل نقطة مقابلة في الدماغ. حساسية هذا الجهاز عالية جداً، فهي تسمح بالتقاط اختلافات درجات الحرارة في حدود ٠,٠٠٨ من الدرجة المئوية، كما تُميز بؤرةَ السخونة المَرَضيّة في قطر ٠,١ مم. إن هذا يعني

حجماً ضخمــاً جداً من المعلومات الدقيقة، ممــا يسمح للعلمــاء أن ينظــروا إلى عمل الدماغ بصــورة جديدة، كما يسمح للأطباء أن ينتبهــوا إلى المرض في مراحله الابتدائية الأولى، كالــورم المجهــري، أو اضطرابــات الأوعية، أو بؤرة الصرع (٥).

المحلل

أما المحلِّــل Analysator فهو مفهومٌ وضَعــه إيفــان بافلــوف Ivan Pavlov (١٨٤٩-١٩٣٦)، الحائــز على جائزة نوبل لإنجازاته في علم الأحيــاء، وعنى به جملة وظيفية واحدة، تتألف من ثلاثة أقسام هي: مستقبِل، وناقــل، ومركز دماغــي (الشكل رقم ٢).



الشكل رقم ٢: مخطط المحلل

١. المستقبل – المستجيب
٢. الأعصاب الموردة   الناقل
٤. الأعصاب المصدرة

٣. النهاية الدماغيــة للمحلل – القسم المركزي الدماغي.

يتألــف القســم الأول المستقبــل مــن المستقبــلات الموجــودة في أعضــاء الحس الخاصة (العين، الأذن..)، وكذلك في جميع أعضاء الجسم (الجلد، العضلات، الأحشاء، القلب، الأوعيــة الدموية..). ويمكن تقسيم هــذه المستقبلات إلى: مستقبــلات داخلية منتشــرة في جميــع الأعضــاء الداخليــة، تستقبــل التنبيهــات التي تقــدم معلومات عــن سير العمليــات الجاريــة في الأعضاء الداخليــة، ومستقبــلات خارجيــة تلتقط التنبيهــات من الوســط الخارجي، وتدخل في عِدادهــا المستقبــلاتُ الجلدية وأعضاء الذوق والشــم والبصر والسمــع والتوازن. ومن خلال عملية التطــور التاريخي أصبح كلٌّ مــن هــذه المستقبــلات عنــد الحيوان والإنسان متخصصاً بالتقاط نوع محدد من التنبيهات.

ويتألف القسم الثــاني الناقل من ألياف عصبيــة حسية وطرق ناقلــة صاعدة تنقل التنبيهات الناشئة في المستقبلات إلى القشرة المخية وإلى «ماتحت القشرة Subcortex»، وطرق ناقلــة نازلة تنقل الأوامــر منها إلى

المستجيبات.

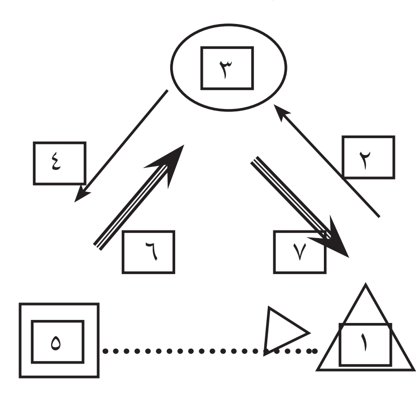
والقسم الثالث المركزي الدماغي هو النهايات الدماغية للمحلل، ويقع في القشرة المخية وما تحتها.

والمحللات هي من مثل المحلل البصري والمحلل السمعي والمحلل الحركي وغيرها (١، ص ٤٠٠).

تشكل مجموعاتُ المستقبلات المتخصصة أعضاءَ حسٍ مختلفة تُعتبر نافذتنا الوحيدة على العالم، فمن خلالها فقط نتلقى المعلومات عنه. تتلقى أعضاء الحس تأثيرات المنبهات من الوسطين الداخلي والخارجي، حيث تلتقط المستقبلاتُ المتخصصة التأثيرات من المنبهات المناسبة، وتنتقل التنبيهات المتولدة إلى النهايات الدماغية فتهيجها، وتنشأ بذلك الإحساسات. وفي الوقت نفسه تجري في المستقبلات عمليات تحليل Analysis بدائي بسيط للتنبيهات، كما تجري في النهايات الدماغية للمحللات عمليات تحليل دقيق أعلى. وتَصدر في نتيجة ذلك عن المركز أوامر للتنفيذ تعود إلى العضو من جديد. فعند إشعال المصباح مثلاً تتلقى العين تأثير النور وتنقله إلى الدماغ، وبنتيجة تحليل التنبيهات أو المعلومات الواردة تصدرُ الأوامر من المركز إلى العين بضرورة تضييق فتحة البؤبؤ للحد من شدة النور الساقط على شبكية العين. تستغرق هذه العملية بأكملها زمناً يختلف من محلل لآخر، ومن شخص لآخر يسمى زمن الرجْع Reaction Time. وبناء على تخصص المستقبلات مقابل التنبيهات، وبناء على عمليات التحليل التي تجري في المحللات، فإن الإحساسات هي انعكاسات Reflections كمية ونوعية للخواص الفيزيائية والكيميائية للمنبهات، أي أن الإحساسات هي صور Images لخواص المنبهات المسببة لها (٧، ص ١٧٢ – ١٨٤).

لقد لاحظ سيتشينوف أن ما سبق توضيحه أعلاه يتطلب الإقرار بأن عضو الحس يقوم بالتناوب بدور المستقبل ودور المستجيب، لأنه يورد التنبيهات باستمرار إلى المركز وينفذ الأوامر الصادرة عنه، وبالتالي، فإن المركز الدماغي يتلقى باستمرار معلومات عن كيفية تنفيذ الأوامر وعما يحدث من مستجدات، وتساعده هذه المعلومات في تعديل الأوامر الصادرة عنه أو إلغائها أو متابعتها. فليس الإحساسُ نتيجةَ عمليةٍ مركزيةِ التوجه فحسب، إذ يكمن في

أساسه فعلٌ انعكاسي كامل ومعقد (٨، ص ٢٣٤). وبالتالي فقد طرح سيتشينوف مفهوم الرابطة الراجعة Back connection أو «التغذية الراجعة Feed back»، وعنى به ورودَ معلومات إلى عضو الضبط والتحكم عن نتائج الأفعال، والتي على أساسها تُصاغ الأوامر اللاحقة لأعضاء التنفيذ. وبهذه التغذية الراجعة يكون القوس الانعكاسي قد أُغلق وتحول إلى حلقة انعكاسية Reflectoral circle (الشكل رقم ٣ حسب أطلس علم النفس (٩)).



الشكل رقم ٣: مخطط آلية النشاط الانعكاسي

١. المستقبِل.
٢. الطريق العصبي المورد.
٣. النهاية المركزية.
٤. الطريق العصبي المصدر.
٥. المستجيب.
٦-٧. قناة التغذية الراجعة.

أ - المحلل (١ - ٢ - ٣)

ب - القوس الانعكاسي (١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥)

ج - الحلقة الانعكاسية (١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ١)

المنعكسات الشرطية

تلتقط المستقبلات المتخصصة التأثيراتِ من المنبهات المناسبة، كما سبق أن ذكرنا، وتنتقل التنبيهات المتولدة إلى النهايات الدماغية وتهيجها، فتنشأ في القشرة المخية بؤرة تهيج Focus of irritation.

لنفرض أن كلباً يأكل طعامه، يُعتبر هذا الطعام مثيراً طبيعياً يؤثر على مستقبلات حاسة الذوق في حليمات اللسان، فينبهها، وينتقل التنبيه إلى بقعة مناسبة في قشرة المخ، فيهيجها، وتنشأ فيها بؤرة تهيج غذائية تعطي أوامرها إلى غدد اللعاب بالإفراز لتسهيل عمليتي المضغ والهضم. سمى بافلوف سيلان اللعاب بالمنعكس اللاشرطي Unconditioned reflex. والمنعكسات اللاشرطية هي منعكسات فطرية تنتقل بالوراثة، وتدعى المعقدة منها بالغريزة

. Instinct

إن أقواس المنعكسات اللاشرطية ثابتة، أي أن أقسامها الثلاثة محددة. وتظهر هذه المنعكسات رداً على منبهات معينة، وتقع مراكزها في أقسام مختلفة من النخاع الشوكي والدماغ، ويحدث على مبدئها تنظيمٌ مستمر وتوفيقُ عملٍ لمختلف الأعضاء والأجهزة للمحافظة على استمرار وجود الكائن الحي. وتؤمّن المنعكساتُ اللاشرطية تكيفَ الجسم مع تغيرات محددة للوسط كانت تتعرض لها أجيال عديدة من هذا النوع الحي باستمرار (١، ص ٣٦٥-٣٦٧).

لاحظ إيفان بافلوف من خلال تجاربه المخبرية الشهيرة تشكلَ ظواهر جديدة لم تكن موجودة سابقاً عند الكائن الحي. فالطعام مثلاً - على اعتباره منبهاً - يؤدي بشكل طبيعي إلى سيلان لعاب الكلب، كما أن نور المصباح يؤدي إلى تشكل منعكس طبيعي يتجلى بتغير فتحة بؤبؤ العين. لكن نور المصباح حيادي بالنسبة إلى سيلان اللعاب، أي لا علاقة له بتشكل هذا المنعكس. لكن بافلوف توصل إلى أنه عند إثارةِ بؤرتي تهيج مختلفتين في قشرة المخ في وقت واحد، أي عند الاقتران الزمني لمنبهين مختلفين، ولعدة مرات، فإنه تنشأ بين البؤرتين رابطة Connection مؤقتة، هي بمثابة «جسر» يربط بينهما. تتجه الرابطة عادة في تشكلها من البؤرة الناشئة عن تأثير منبه أقل أهمية (البصرية حسب مثالنا السابق) إلى البؤرة الناشئة عن منبه أكثر أهمية وحيوية (الغذائية). وهكذا، ينتقل التنبيه عند إشعال المصباح من مستقبلات حاسة البصر في العين إلى بؤرة التهيج البصري في القشرة المخية فيهيجها. لكن وجود الرابطة المؤقتة المتشكلة سابقاً بين بؤرتي التهيج البصرية والغذائية يسمح بانتقال التنبيه إلى بؤرة التهيج الغذائية فيهيجها، مما يدفعها إلى إصدار الأوامر بشكل آلي إلى مركز إفراز اللعاب، ومنه إلى الغدد لإفراز اللعاب، فيسيل لعاب الكلب بدون تناوله للطعام. أي أن نور المصباح الحيادي بالنسبة إلى سيلان اللعاب قد اكتسب، بفضل وجود الرابطة، صفة جديدة. سمى بافلوف هذه الظاهرة الإشراط Conditioning، وسمى المنعكس الناتج عنها المنعكس الشَّرطي Conditioned reflex . هذا يعني أن المنعكسات الشرطية هي منعكسات مكتسبة تظهر خلال حياة الكائن الحي. وهي فردية

غير ثابتة، أي أنها تختلف من فرد لآخر، ويمكن أن تختفي وأن تظهر من جديد.

تنشأ المنعكسات الشرطية رداً على المنبهات الشرطية، وهكذا، إذا كان سيلان اللعاب منعكساً لاشرطياً لمنبه لاشرطي (طبيعي) هو تأثير الطعام على حليمات الذوق في اللسان، فإن سيلان اللعاب يصبح منعكساً شرطياً لمنبهات شرطية كرؤية منظر الطعام وشم رائحته (بدون تناوله)، وكذلك عند تأثير أي منبه آخر كان يقترن فيما مضى بتناول الطعام لعدة مرات. وتنغلق أقواس المنعكسات الشرطية في قشرة المخ، وهي مؤقتة.

وفي هذا الخصوص قام ب.أنوخين P. Anokhin (١٨٩٨-١٩٧٤)، تلميذ بافلوف، بصياغةِ نظريةٍ عن البنية الفيزيولوجية للمنعكس الشرطي (١٣)، ميز فيها أربعة أطوار متتالية، يتميز كل منها باختلاف حجم العلاقة بين المنبه الشرطي والنظم الفيزيولوجية للدماغ (١١، ص ٣٥). هذه الأطوار هي:

١ - طور التركيب المورد Afferent synthesis، وتشترك في تشكله آليات متخصصة وغير متخصصة.

٢ - طور تَشَكّلِ متقبِّل الفعل Acceptor of the action الذي يتحدد كمنظومةِ تهيج معقدة متكونة في قشرة المخ على أساس الخبرة المتراكمة سابقاً.

٣ - طور تشكل جهاز العمل (الاستجابة) Effectoral apparatus.

٤ - طور الورود الراجع Back afferentation. ويكشف هذا الطور الأخير التغذيةَ الراجعة في المنظومة المعقدة للمنعكس الشرطي.

يَضعف تأثير المنبه الشرطي ويختفي أثره تدريجياً بعد تكرار تأثيره لمرات عديدة بدون اقترانه بالمثير اللاشرطي، وهذا ما يسمى بظاهرة الانطفاء Extinction. ولكي تكتسب الرابطة دواماً أطول نقوم من حين لآخر بتعزيز Reinforcement المنبه الشرطي بالمنبه اللاشرطي.

تنشأ روابط المنعكسات الشرطية بين بؤر التهيج المختلفة وبين عصبونات القشرة المخية (وليس بين المثيرات كما ظن السلوكيون). وطالما أن عدد خلايا القشرة عند الإنسان يبلغ حوالي ١٤ مليار خلية عصبية فإن عدد الروابط المحتمل تَشكلها يمكن أن يتجاوز آلاف المليارات. إلا أن هذه

الروابط لا تنشأ عند الإنسان فحسب، فقد تم رصدهـا عند الكائنـات الحية الأخرى ابتداءً بالديدان الحَلَقية واللافقاريات العليا والخيطيـات (١٣). وتشير آخـر التجارب والأبحـاث العلمية المعاصـرة إلى أن روابط المنعكسـات الشرطية يمكـن أن تنشأ كذلك في بعض مناطق ماتحـت قشرة المخ أو بين القشرة وما تحتها (١٠، ص ٣٠).

تتشكل المنعكسـات الشرطية في ظروف معينة على أساسـ المنعكسات اللاشرطية، وتتحقـق في الجسم الحـي علاقة وظيفية بين هذيـن النوعين من المنعكسـات. وتُعبّر المنعكسـات الشرطيـة عن علاقـة الكائن الحـي المؤقتة مع الوسـط الخارجي الذي يعيشـ فيه، حيث يتأقلم الكائن بمساعدتها مع تغيرات الوسط المستمرة.

وقد أشـار بافلـوف إلى أن المنعكسات الشرطيـة المتكونة يمكن أن تصبـح أساساً لتشـكل منعكسات شرطيـة جديدة، تدعى هذه الأخيرة منعكسات من الدرجة الثانية. فالاقتران الزمني المتكرر بين المنبه الشرطي (نور المصبـاح مثلاً) ومنبـه حيادي جديد (صوت الجرس مثلاً) يؤدي بالنتيجة إلى أن يكتسب صوتُ الجرس صفة التأثير ويصبح منبهـاً شرطياً يؤدي إلى سيلان اللعاب، وهو المنعكس الشرطي مـن الدرجة الثانية، دون حدوث اقتران زمني متكرر بين المنبه الأخير (صوت الجرس) والمنبه اللاشرطي (الطعام). ويمكـن أن تتكـون على أساسـ منعكسات الدرجة الثانية منعكسات من الدرجة الثالثة كذلك. ويكون عـدد الدرجات محدوداً عند الحيوانات، أما عند الإنسان فقد يصل إلى أربع أو خمس درجات. ولا تتشكل المنعكسات الشرطيـة رداً على منبهات منفردة فحسْب، بل رداً علـى مجموعاتٍ منبهـات تؤثر معاً على جسم الكائـن الحي من خلال ظروف الحياة المختلفة والمتغيرة، فتصبح منعكسات الدرجات العليا شديـدة التعقيد، وهذا ما يسمـح بنشوء علاقات بـين مختلف أقسام القشرة وما تحتها وحتى الأجزاء الأخرى من الجهـاز العصبي ككل. تؤمّن هذه العلاقات تزويد الدماغ بالمعلومات اللازمة عن جميع التغـيرات الحادثة في الوسطـين الداخلي والخارجي، مما يساعد الدماغ على تحليل المعلومات وإصدار الأوامر المناسبة للتنفيذ.

ولا يـردّ الجهـاز العصبي علـى كافة التنبيهـات الواردة، بل يحتفـظ في الدماغ ببعضـ الإشارات على شـكل آثار الذاكرة،

يقارِن بها الإشـارات الجديدة قبل أن يقوم بصياغـة مخطط الاستجابـة الجديد. كما يتلقى الدماغ باستمرار معلومات حول كيفية تنفيـذ الأوامر (التغذيـة الراجعة) لإجراء التعديـلات اللازمة بعد مقارنتها بالمخطط المرسوم.

وتُفهَـم الذاكـرة Memory على أنها قدرة الأجهزة الوظيفية على تخزين وإعادة تشكيل الإشـارات بعـد اختفائها. وقد تم التأكيـد بالأبحـاث المعاصـرة على حدوث عمليات حيويـة كيميائية Biochemical معقـدة في عصبونـات الدماغ تـؤدي إلى تشكل الذاكرة، حيث يتـم تثبيت الإشارات في عصبونـات الدمـاغ من خـلال حدوث تبدلات في الحمض النووي الريبي (١، ص ٣٦٧-٣٦٩).

قوانين التهيج والكبح

لقد ميـز بافلوف عـبر دراسته المعمقة للنشـاط الانعكاسـي الشرطـي نوعين من الكبـح، أو ميز كبحـاً مزدوج النـوع: كبح خارجـي (لاشرطي أو سلبـي) وهو فطري، وكبح داخلـي (شرطي أو فعـال) وينشأ في مجرى حياة الفرد.

يحـدث الكبح الخارجـي بنتيجة ظهور بؤرة تهيج جديدة قويـة أو سائدة، تَوجّهية أو دفاعيـة ذاتية كَـرد فعل علـى «الجِدَّة Novelty» أو المنبـه المباغت، أو كرد فعل وقائي على المنبهات القوية أو المديدة، فَيَقي بذلـك البنى الخلوية مـن الإنهاك والتلف. يـؤدي ظهور هذه البؤرة إلى كبحِ تهيجِ البؤر الأخـرى في القشرة. والكبـح الخارجي أو السلبي اللاشرطي هو من خصائص مجمل الجهاز العصبي.

أما الكبـح الداخلي فإنـه ينشأ عندما يؤثـر المنبـه الشرطي علـى العضوية لعدة مرات متتاليـة دون أن يتلقى تعزيزاً بالمنبه اللاشرطـي، فينطفـئ المنعكـس تدريجياً، لكنه قـد يتجدد بعد بعضـ الوقت، وهذا يشـير إلى أن الرابطـة المؤقتة التي سبق أن تشكلـت لم تتقوض بل تم كبحها. هذا الكبح الداخلي الشرطي أو الفعال هو كبح إطفائي أو تأخيري أو تمييـزي، وهو من خصائص القشرة المخيـة، وهو يمثـل العمليات التي تنشـأ في مجرى حياة الفرد وتُحدِّد إمكانات التحليـل والتركيـب Analysis and Synthesis الدقيقـين لجميـع المنبهـات الخارجية والداخلية.

وهكـذا، تتغـير فعاليـة الدمـاغ مـن

خـــلال التبادل بـــين التهيـــج والكبح، حيث يساهم في ذلك مـــا يسمى التقاطع الشبكي Reticularis formation بـــين الخلايا (حســـب ديترســـ O. Deiters)، إذ يؤدي التقاطـــع وظيفةَ مُولِّـــدٍ آلي Generator متميـــز «للمحطـــة الكهربائيـــة الداخلية» للدماغ (١٠، ص ٣٠).

يتوجـــب التذكـــير بـــأن التهيـــج والكبح هما طرفان لعمليـــة تكيف واحدة للعضوية مـــع الوسط المحيط. يخضـــع سريان هاتين العمليتـــين لقانونين أساسيـــين هما: قانون الإشعاع والتركيز، وقانون الحث المتبادل.

يُقصـــد بإشعـــاع عمليـــة التهيـــج Irradiation انتشار العمليات العصبية من مـــكان نشوئها الأولي في قشرة المخ إلى البقع المجاورة. أما التركيـــز Concentration فهو عمليـــة معاكســـة للإشعـــاع، تَحُدّ من التهيـــج وتُوجهـــه في مجرى معـــين إلى بؤرة التهيـــج الأولية. يأخـــذ كلُّ تهيجٍ في البداية سمةَ الإشعاع ومِن ثم التركيز (١٠، ص ٣١). فالطفل الذي دهنـــوا جرحاً صغيراً في يده باليـــود يكون في البداية هادئاً، وبعدها يبدأ بتلويح يـــده، وبالقرفصة والبـــكاء، ثم يهدأ مـــن جديد. يحدث هـــذا لأن عملية التهيج الناشئة في الجهـــاز العصبي المركزي تنتشر في البداية بعملية الإشعاع على بقع كثيرة من قشرة المخ وماتحتها، ومن ثم ينحسر التهيج بعملية التركيز ليعود إلى بؤرته الأولى.

وبفضـــل الإشعاع يمكـــن أن تتشكل في الدماغ الروابطُ المؤقتة بين المراكز العصبية المختلفة التـــي كانت منفصلـــة عن بعضها البعض. فإن أية رابطة شرطية جديدة تنشأ في البداية في شكلٍ إشعاعي إطلاقي معمم، وفيمـــا بعد يتـــم تركيزها في بنيـــة ديناميةٍ محددة بدقة، وهذا ما يفسر حدوث عمليتي التعميـــم Generalization ومـــن ثـــم التمييـــز Restriction عند الكائن الحي. إن عمليات الإشعـــاع أكثر قِدَماً، فهي تتعلق بحيوية القشرة وماتحتها. وكلما كان الإشعاع أكثر تجلياً كانت المظاهر الوظيفية للنشاط العصبي الأعلى أكثر شدة وأقل تمايزاً (١١، ص ٣٢).

يمكن لـــكلٍّ مِن عمليتـــي التهيج والكبح أن تستدعي إحداهما الأخرى حسب قانون الحث المتبادل Reciprocal induction. فإذا نشـــأ تهيج في بقعة ما مـــن قشرة المخ تحـــدث عملية كبح في البقـــع المجاورة لها، والعكـــس صحيـــح. تُدعـــى عمليـــة التهيج

الناشئة بتأثير الكبح بالحث الإيجابي، أما الكبح الناشئ بتأثير عملية التهيج فيدعى بالحث السلبي. يُستنتج من ذلك أن هنالك علاقة بين عمليتي التهيج والكبح، تخضع هذه العلاقة لقوانين محددة. كما توجد بين الإشعاع والحث علاقةُ تَناسب عكسي، فكلما كانت عمليات الإشعاع في القشرة أقوى كان الحث المتبادل أضعف، والعكس صحيح. وكما هو واضح مما سبق ذكره، تقوم في أساس نشاط القشرة عملياتُ تهيج وكبح، حَرَكتُها هي الإشعاع والتركيز، وتَفاعلُها هو الحث المتبادل.

إن الطابع الانتظامي للعمليات العصبية يسمح للعضوية بأن تستجيب بصورة ملائمة للمثيرات الخارجية، وأن تتعرف على ظواهر العالم الخارجي. وتصبح المعرفة ممكنة بفضل التحليل والتركيب اللذين يتحققان على أساس عمليات التهيج والكبح. فالتحليل البسيط للمثيرات الخارجية يتم في المستقبلات وفي ماتحت القشرة المخية. أما التحليل الأرفع والأكثر دقة فإنه يتحقق في قشرة المخ عن طريق إقامة علاقات متبادلة شديدة الدقة بين العمليات العصبية على أساس الكبح التمييزي. إبان هذا الكبح ينطفئ تدريجياً ذلك التهيج الذي استدعته المثيرات الشرطية المعزَّزة، ويبقى التهيج الذي تعززه المثيرات اللاشرطية.

يؤثر على العضوية عدد كبير من المثيرات في وقت واحد، فتتهيج مناطق مختلفة من قشرة المخ، وتصبح القشرة بذلك «لوحةَ فسيفساء هائلة» (١٠، ص ٣١). يؤثر كل تهيج جديد على عمل جميع أقسام القشرة، ويؤدي إلى حدوث تغيرات في عملها. وبالتالي، فإن قشرة المخ تعمل كوحدة متكاملة، بمثابة منظومة دينامية معقدة. ويساعد النشاطُ التكاملي لقشرة المخ على تشكل هذه المنظومة الدائمة للروابط العصبية، وهي ما يدعى بالنمط الدينامي Dynamic stereotype. وتتشكل هذه المنظومة إبان التأثير المديد نسبياً للمنبهات نفسها على الجهاز العصبي. وبسبب تشكل الأنماط الدينامية يجري تنفيذ الأفعال المتنوعة بسرعة وسهولة ودقة، وتُصاحبها انفعالات فعلية.

المنظومة الوظيفية

لقد طُرحت سابقاً وجهتا نظر متضادتان حول مسألةِ تَموضُع Localization الوظائف النفسية في

قشرة المخ. فقد اعتبر أنصار نظرية الجهد المتكافئ Equipotentialists أن البقع المختلفة لقشرة المخ متجانسة في وظائفها، وبالتالي، فإن حدوث أي تغير في الوظائف النفسية إنما يَحدث نتيجة إصابة «كمية معينة» من مادة الدماغ. أما ممثلو وجهة النظر الأخرى، أنصار نظرية التموضع Localizationists، فقد أكدوا أن كل بقعة من الدماغ مرتبطة بوظيفة نفسية محددة، وبالتالي، فإن هبوط أية وظيفة نفسية يتعين بإصابةِ بقعة محددة في الدماغ أو مرضِها.

تَقدم بافلوف بنظرية التموضع الدينامي Dynamic localization تَجاوَزَ بها النقص في كل من النظريتين السابقتين. فقد أكد بافلوف أن الوظيفة النفسية لا ترتبط ببقعة معينة فقط من الدماغ سماها «المنطقة النووية Nucleare zone»، بل تتحمل كذلك عناصرُ منتشرة في الدماغ – هي عناصر الجزء المركزي للمحلِّل – مسؤوليةَ الوظيفة النفسية. ويستطيع نشاط العناصر المنتشرة أن يعوض عن اختلال المنطقة النووية. لذلك، فإن إصابة المنطقة النووية – حسب رأي بافلوف – لا تؤدي بالضرورة إلى هبوط الوظيفة النفسية. وقد طور علماء وظائف الأعضاء نظرية بافلوف عن التموضع الدينامي، طارحين مفهوم المنظومة الوظيفية Functional system، حيث يجري تأمين أداء الوظائف النفسية بفعلِ نشاطٍ تقوم به منظومة وظيفية تقع مكوناتها المستقلة في مناطق مختلفة من قشرة المخ وماتحت القشرة. فلا تُخِلّ إصابةُ بقعةٍ واحدة من قشرة المخ بنشاط المنظومة بالكامل، إذ إن العناصر المتبقية تؤَمّن تشغيلها. لكن هذا لا يلغي حدوث تغير معين في العمليات النفسية يُستَدل به في تحديد البقعة المصابة من الدماغ (١٠، ص ٣٢-٣٣).

قابلية التغير

وقد أكد ن. ڤيدينسكي N. Y. Vvedensky (١٨٥٢-١٩٢٢) – تلميذ سيتشينوف – من خلال تجاربه على الطبيعة الداخلية الواحدة للتهيج والكبح، فالكبح كذلك يستدعيه التنبيه الخارجي دائماً. واعتبر فيدينسكي أن الدفقات Impulses الواردة إلى الخلية العصبية (أو إلى التشابك) تستدعي فيها تهيجاً أو كبحاً، وذلك بناء على حالة النسيج الوظيفية

الراهنة.

تتصف حالة النسيج العصبي بقابليتها للتغير Lability، أي بالتغير في سرعة العمليات الفيزيائية الكيميائية البسيطة الجارية في النُسج. وتتعلق الإمكانات الوظيفية للنسج المتهيجة بهذه السرعة على وجه التحديد. فإذا كانت قابلية التغير طبيعية، وكان تردد الدفقات (التنبيهات) المثيرة وقوتها ضعيفين ينشأ تهيج في العصبون. أما إذا كان تردد الدفقات أو قوتها مفرطين فسينشأ في العصبون كبح «أقصى». لكن الكبح يمكن أن ينشأ كذلك عن التنبيه الضعيف نسبياً إذا تبين وجود قابلية منخفضة لتَغير حالة الخلايا، أي إذا تقلصت سرعة عمليات الاستقلاب في الخلايا بشكل كبير بفعلِ تأثيرٍ ما (١٠، ص ٣٣).

مبدأ الهيمنة

يحتل مبدأ الهيمنة Dominance مكانة بارزة في الفيزيولوجيا وعلم النفس وعلم الطب، وقد درسه الأكاديمي أ.أوخْتومْسكي A. Ukhtomsky (١٨٧٥–١٩٤٢) – تلميذ فّيدينسكي وتابعه.

أوضح أوختومسكي أسباب تَحققِ جملة قليلة نسبياً من المنعكسات الممكن تَشكلها في لحظة معينة نتيجة مجموعة تنبيهات واقعة على العضوية. ففي حقيقة الأمر تنشأ بؤرةُ استثارة عالية لنشاط المركز العصبي السائد «المهيمن Dominant» في لحظة معينة. تجذب هذه البؤرة إلى نفسها التنبيهات المتوجهة إلى المراكز الأخرى غير المهيمنة في اللحظة ذاتها. وفي النتيجة يَقوى عمل المركز المهيمن، وتُكبح المراكز الأخرى، وهذا ما توضحه التجربة التالية: إذا ربطنا لواحب (أقطاب) إلى قدم كلب، ومرّرنا عبرها تياراً كهربائياً ضعيفاً، فإن هذا سيتسبب في انثناء قائمة الكلب. لكن إذا مررنا التيار في اللواحب في اللحظة التي يبتلع الكلب فيها طعامه فإن قائمته لن تنسحب، بل سيقوى فقط فعل البلع. وإليك تجربة أخرى: إذا أشعلنا مصباحاً، وقدّمنا للكلب طعاماً، فإن بؤرة التهيج الغذائية الصامدة المهيمنة ستجذب إلى نفسها التهيجات الأقل قوة، أي أن التهيج الذي سبّبه نور المصباح سوف يشع باتجاه المركز الغذائي. وعند الاقتران المتكرر لإشعال المصباح والإطعام تنشأ بين هذين المركزين رابطة شرطية مؤقتة، ويصبح إشعال المصباح إشارة للإطعام (٥).

تتبدى ظاهرة الهيمنة في عمليات النشاط العصبي الأعلى وفي النشاط النفسي عند الإنسان. لذلك يُعتبر مبدأ الهيمنة شديدَ الأهمية لفهم عملية الانتباه ولتفسير الأساس الفيزيولوجي لوعي الإنسان.

النظامان الإشاريان

إن جميع المنعكسات التي تصدر عن الجهاز العصبي للحيوان، والتي تشكل سلوكه، يمكن تقسيمها إلى منعكسات فطرية (المنعكسات الخاصة بالغذاء وبالدفاع..) ومنعكسات مكتسبة تُكتسب في مجرى حياة الكائن الحي. يتغير كل من هذه المنعكسات ويتعدل وفقاً لظروف الوسط المحيط وتأثيراته، حيث تتعدل المنعكسات المكتسَبة بسرعة أكبر لأنها أكثر مرونة ودينامية من المنعكسات الفطرية. في حين يجري تعديل الأخيرة مع تطور النوع عبر التاريخ، وتحت تأثير منبهات معينة لفترات طويلة. فالطفل الجائع يحاول أن يمسك بفمه حلمة زجاجة الحليب بعد أن تكون قد حدثت لديه عدة عمليات ربط بين الحفز البصري وعملية الاغتذاء. ويستثار رد الفعل لدى الطفل بتأثير رؤية تلك الزجاجة بالذات التي اعتاد أن يرضع منها، وليس بتأثير رؤية أية زجاجة أخرى. وإذا قُدم له الحليب في زجاجة مغايرة، أو حتى بلون آخر، فإن الطفل لن يلمسها. وهكذا، لا تتراكم عند الأطفال منذ أيام حياتهم الأولى المنعكساتُ الشرطية الإيجابية فحسب، بل وردود فعلٍ مثبِّطة ومصحِّحة لتلك المنعكسات أيضاً. ويؤدي ظهور منظومة محددة من الاستجابات الإيجابية والسلبية إلى تكوين ما سبق أن سميناه النمط الحيوي «الدينامي». ومن الأمثلة الواضحة على تشكل النمط المذكور منذ الأيام الأولى من حياة الطفل استجابتُه لموعد الاغتذاء وللروتين اليومي بشكل عام، كالاستيقاظ عند حلول موعد تناول الطعام. ويقوم هذا النمط الدينامي العام في أساس تشكل المهارات والعادات عند الإنسان.

وفي بعض الأحوال تكون المنعكسات الشرطية عند الحيوانات من القوة إلى درجةٍ تُمكِّنها من مقاومة المنعكسات اللاشرطية ومن كبت الغرائز. فكلب الصيد، على سبيل المثال، يُحضر الفريسة إلى الصياد بدلاً من أن يأكلها وفقاً لغريزته. أما الإنسان فقد يدفعه الشعور بالواجب ليس إلى رفض الطعام فحسب، وإنما إلى بذل حياته.

وتكون المنعكسات الشرطية الطبيعية

(الناتجة عن رؤية الطعام أو شم رائحته مثلاً) – التي تُكتسب في عمر مبكر – أقل عرضة للتغير من المنعكسات الشرطية الاصطناعية (الناتجة عن رؤية نور المصباح أو سماع صوت الجرس مثلاً) والتي تتكون في مرحلة متأخرة. وقد يصيبها التثبيط، ولكنها لا تزول كلية. وتكون المنعكسات الشرطية الاصطناعية المكتسبة في الطفولة شديدة الثبات. ويتضمن النوعُ الأخيرُ القواعدَ الفيزيولوجية للعادات التي لا تحصى، والتي تغرسها الأم ورياض الأطفال، مثل النظافة الشخصية وغسل الأيدي قبل الطعام وتنظيف الأسنان قبل النوم..إلخ (٢، ص ٤٦–٥٢).

أطلق بافلوف على المنعكسات الشرطية المتشكلة – التي تدخل في منظومة محددة – اسم النظام الإشاري الأول First signal system، حيث تتشكل بين خلايا القشرة وبؤر تَهيجها روابط المنعكسات الشرطية، وتكون الصورة الحسية (بصرية، سمعية، شمية..) إشارة إلى الشيء تفعل فعله وتقوم مقامه، ويلعب المنبه الشرطي دور الإشارة إلى المنبه اللاشرطي (الطبيعي). ويتشكل النظام الإشاري الأول عند الحيوان كما يتشكل عند الإنسان.

لكن تطور نشاط العمل الاجتماعي للنوع البشري عبر التاريخ وتراكم الخبرة واستيعابها المستمر أدى إلى أن تظهر في نشاط قشرة مخ الإنسان «إضافة استثنائية»: فإلى جانب الاستجابات للتنبيهات، التي يؤمّنها النظام الإشاري الأول عند الإنسان والحيوان، تَميز الإنسان عن باقي الكائنات الحية بقابليته لامتلاك منعكسات رمزية Symbolic (كتابية Written وكلامية Spoken) رداً على التنبيهات المباشرة وغير المباشرة، وتَشكل ما سماه بافلوف النظام الإشاري الثاني Second signal system. وبذلك تُستبدل أشكال التأشير Signalization الأكثر قِدَماً (وهي الإيمائية Gesticulatural والبصرية Visual) بالأشكال اللفظية Oral (وهي الشفوية Verbal والسمعية Auditive) (١١، ص ٣٣).

ينشأ النظام الإشاري الثاني من تشكل روابط جديدة بين الروابط القائمة في قشرة مخ الإنسان وماتحت القشرة، وعلى أساسها. هذه الروابط الجديدة هي روابط الروابط، وهي من مستوى ثانٍ، وتتشكل

عند الإنسان فقــط. ويرتبط ظهور روابط الروابــط بتخصصِ مناطــق من قشرة المخ لأداء وظيفة الكلام Speech. يظهر الكلام عنــد الإنســان ويميزه عن باقــي الكائنات الحية بصفته نوعاً متفوقاً على بقية الأنواع الحيــة الأخرى، فتظهر لدى الإنسان قابلية لتشــكل عمليــات نفسية راقيــة ومهارات وقدرات عقلية معقدة كالقدرة على الترميز والتجريد. ومع ظهور النظام الإشاري الثاني تلعب الكلمــة (أو الرمز المجرد) دور المنبه، وهي بذلك إشــارة إلى المنبه الشرطي الذي هــو إشارة إلى المنبه اللاشرطي، وهي بذلك إشارة إلى الصورة التي هي إشارة إلى الشيء. فالكلمة إذن هــي إشارة الإشارة، تفعل فعل الشيء وتقوم مقامــه. والمثال على ذلك أنه يكفي سماع كلمة «ليمــون أو ملح الليمون» لكي يسيل لعاب الإنسان، دون تذوق الليمون أو رؤية شكله.

ولقد لفت بافلــوف النظر إلى أن جميع قوانــين النظام الإشاري الأول تخص كذلك نشــاط النظام الإشــاري الثــاني، وأن كلا النظامين الإشاريين يتشــكلان على أساس النشاط الانعكاسي اللاشرطي. وبخضوعهما لتأثيره يُخضعانه في الوقت نفسه لهما. وإن العلاقــة الجدلية بــين النظامين الإشاريين الثاني والأول هي في الأساس نفسُها التي بين النظام الإشــاري الأول والنشاط الانعكاسي اللاشرطي.

نلاحــظ مما سبــق ذكره أعــلاه خطأ الفكــرة الشائعة عــن أن بافلــوف لم يميز بــين الإنسان والحيــوان. ولقد كان بافلوف نفسُه ضد استخــدام القوانين المستقاة من دراسة وظائف دماغ الحيوان لتطبيقها على نمــاذج سلوك الإنسان – الكائن الاجتماعي المتطور، فنشــاط الإنسان يمتلك خصائص نوعية متميزة تتطلب قيام علوم متخصصة بدراسة ظاهرة الإنسان، ومنها علم النفس. إنما كان مــن الضروري أن تبــدأ الدراسة بالحيوانات لكي نفهــم فقط قوانين حركة الاستجابــات العليا في الدماغ (٢، ص ٥٢). يقول إيفان بافلــوف: إن الكلمة جعلت منا بشراً.



خاتمة

وهكــذا، نكــون قــد وضحنــا الأساس العلمي الحيوي للظواهــر النفسية، والذي تضمــن موضوعات عن النشــاط العصبي الأعلــى وظاهرتي التهيــج والكبح في قشرة دمــاغ الإنسان وقوانين تفاعلهما والنظامين

الإشاريين مما يمكن اعتباره أساساً لعلم النفس العام والفيزيولوجي، علّنا نكون قد غطينا النقص الواقع في هذا المجال قدر الإمكان.

المراجع:

العربية:

١- تاتارينوف فاسيلي. تشريح وفيزيولوجيا الإنسان. موسكو، دار «مير»، ١٩٨٣.

٢- فُرولوف يوري. العمل والمخ. تعاليم بافلوف ومشاكل التنظيم العلمي للشغل. ترجمة: الدكتور شكري عازر والدكتور مأمون بسيوني، مراجعة: الدكتور رمسيس لطفي. دار «الكاتب العربي»، مصر.

٣- القانون في الطب. الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن علي بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ. الجزء الأول. دار «صادر»، بيروت.

الأجنبية:

٤- أنوخين ب.ك. بيولوجيةُ وفيزيولوعصبية المنعكس الشرطي. دار «الطب»، موسكو، ١٩٦٨.

٥- سبوتنيك، العدد ١١. موسكو، ١٩٨٦.

٦- سيتشينوف إي.م. منعكسات الدماغ. دار «أكاديمية العلوم السوفييتية»، موسكو، ١٩٦١.

٧- بوغوسلوفْسكي ف.ف، وآخرون. علم النفس العام. ط ٣ مزيدة ومنقحة. دار «التنوير»، موسكو، ١٩٨١.

٨- علم النفس العام. تحرير: أ.بتروفْسْكي. ط ٢ مزيدة ومنقحة. دار «التنوير»، موسكو، ١٩٧٦.

٩- غاميزو م.ف، دوماشينْكو إي.أ. أطلس علم النفس. دار «التنوير»، موسكو، ١٩٨٦.

١٠- فيتنْكو إي.س، وآخرون. أسس علم النفس العام والطبي. دار «التعليم العالي»، كييف، ١٩٨٤.

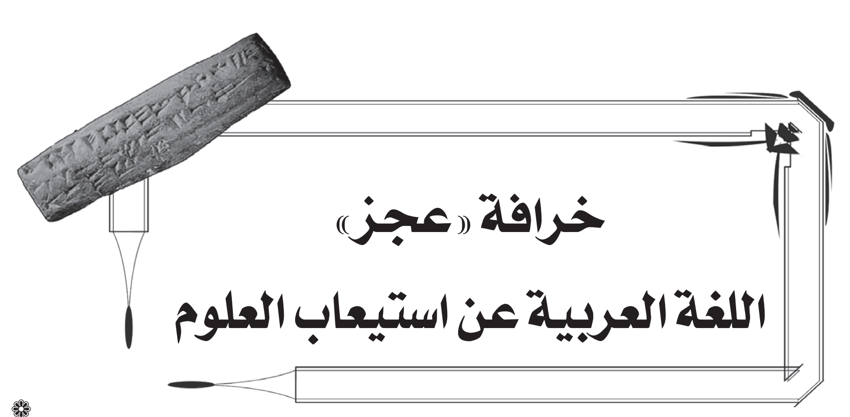
١١- لاكوسينا ن.د، أوشاكوف غ.ك. المعين في علم النفس الطبي. دار «الطب»، موسكو، ١٩٧٦.

١٢- معجم مصطلحات علم وظائف الأعضاء. تحرير: أ.غ. غازينْكو. دار «العلم»، موسكو، ١٩٨٧.

١٣- موسوعة البيولوجي الفتي. وضع: م.ي.أسْبيز. دار «التربية»، موسكو، ١٩٨٦.



آفاق المعرفة



خرافة «عجز» اللغة العربية عن استيعاب العلوم

د. زهير إبراهيم جبور ❁

ترتفع بين الفينة والأخرى أصوات بعض المثقفين و«الباحثين» العرب المبشرين بتدهور اللغة العربية وافتقارها إلى الدقة المفرداتية أو عجزها عن تقديم المرادفات الدقيقة لكثير من المصطلحات التي يضخها الإنتاج المعرفي في الكوني أو افتقادها المرونة في الاستجابة لمقولات العلم.

❁ أستاذ في جامعة تشرين (سورية).

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

وإذا كان بعض هذه الأصوات بنية حسنة، يدق ناقوس الخطر المحدق بواحدة من أجمل اللغات وأكثرها عراقة وقدماً ورسوخاً، إذ إنه لأول مرة في تاريخ البشرية تستطيع لغة كالعربية الاحتفاظ بمنظومتها المصرفية والنحوية منذ أكثر من سبعة عشر قرناً، فإن أصواتاً أخرى تفتقر إلى الموضوعية والمحكومة بنزعة براغماتية، أو ربما بعجز معرفي حقيقي يرمي حقيقة إلى حصار هذه اللغة وإضعافها والتنكر لكل مخزونها المعرفي التاريخي نراها تنادي بضرورة استعمال اللغات الأجنبية وخاصة الانكليزية كلغة للتعليم في جامعاتنا باعتبارها لغة العلم الأكثر انتشاراً والأكثر مرونة في تحقيق التواصل بين أقوام وشعوب العالم في هذا العصر!!!

وإذا كان في مثل هذا التبرير شيء من الحقيقة، إلا أن القائلين به يستسهلون مواجهة التحديات الحقيقية التي تواجه هويتنا وثقافتنا وتاريخنا وبالتالي لغتنا العربية التي تشكل الرابط الأهم بين تلك العناصر، ولهذا فإن القائلين بعجز اللغة العربية عن استيعاب العلوم والتطورات المعرفية الهائلة، إنما يبشرون في الآن نفسه بعجز العرب عن إنتاج العلم والمعرفة وكأن مثل هذا العجز صفة دائمة تلازمنا أينما توجهنا وليس حالة انقطاع وتردي أصابتنا لأسباب تاريخية وسياسية لا مجال لذكرها في هذا المقال. من البديهي القول إن أي عجز أو وهن أو قصور في لغة ما عن تمثل وتداول الإنتاج المعرفي، إنما هو قبل كل شيء عجز أهلها والقوم الذي يتكلمها عن ارتياد مجاهيل العلوم، لأن اللغة أية لغة كائن حي يتطور بقدر تداوله، ويتغذى بما نرفده من إبداعاتنا واكتشافاتنا. وهي لا تنمو وتزدهر بالأمنيات الطيبة ولا في المحافل ولا في المؤتمرات الاستعراضية، وإنما بالتفاعل الحقيقي مع ثقافات العالم وإبداعاته الشاملة وتداول هذه الإبداعات وتدويرها.

لذلك، إذا كنا نشهد تدهوراً لغوياً وتعثراً اصطلاحياً، فإنما مردّ ذلك تدهور الإنتاج المعرفي العربي في مختلف الحقول لصالح الاستهلاك العشوائي، العابر، المتطفل على تخوم إبداعات الآخرين، وبالتالي فإن «عقم» لغتنا ناجم عن عقمنا وتعثرنا في إبداع العلم والمعرفة والأدب وتراجعنا عن المستوى اللائق الذي بلغته الحضارة العربية الإسلامية إبان ازدهارها»!!

وهنا يبرز السؤال الكبير التالي:

ما هو حجم الإنفاق العربي على البحث العلمي والتعليم ؟!!

وبالتـالي، ما هو حجـم الإنتاج المعرفي العربي الكلي في الإنتاج المعرفي العالمي؟!!!

بالإجابة عن هذين السؤالين ندرك جيداً التحـدي الكبير الذي تواجهه لغتنا بوصفها وسيلة للتواصل فيما بيننا ومع الغير، لتبادل المعرفة وتمثل المستجدات العلمية.

وكيـف يتأتـى للغـة العربيـة أن تقوم بـكل ذلـك ومؤسساتنا العلميـة والثقافية والإعلامية تعاني كل هذه العطالة باستثناء بعض البؤر المضيئة هنا وهناك ؟!

أليس من المؤسف والمخجل أن مجمل ما يترجمه العرب لا يتجـاوز ٥٪ مما تترجمه دولة واحدة هي ألمانيا؟!! أما إنتاجنا العلمي فهو مخجل أكثر من ذلك بكثير!!!

ليس ثمـة لغة عاجـزة عـن استيعاب المعـارف والعلـوم وإنما هنـاك لغة تضمر وتتقلص كلما تقلصت ساحتها المعرفية، لأن اللغـة كائن وظيفي يتطـور بقدر الوظائف الملقاة على عاتقه.

ولذلـك فإن ما يسمـى بأزمة المصطلح العلمـي العربي هو قبل كل شيء أزمة إنتاج المعـادل الحقيقي لهذا المصطلح، أي العجز المفاهيمي والتداولي ليس في لغتنا وحسب، وإنما حتى في اللغات الأخرى، ويصبح هذا العجز مضاعفاً عندمـا يتعذر علينا إيجاد مـا يقابل المصطلح الأجنبـي وعندما نزيح المعنـى فتزداد المسافة بـين الدال والمدلول وبالتـالي يصبح البـون شاسعاً بـين المنتج المعـرفي للآخرين والتـداول الصحيح لهذا المنتج في لغتنا»!!

وعليه فـإن لغتنا تواجـه مشكلة تقنية بالغة الأهمية إلى جانب تدني الإنتاج المعرفي وهي تعثر وقصور المجامع اللغوية العربية في رصد التحولات والتطورات اللغوية والمعرفية وهنا نؤكـد على ضرورة العمل على إحداث تحول بنيوي في لغتنا يشمل نحوها وصرفها، ودراسة انتشار العاميات واللهجات في الدول العربية ووضع استراتيجية شاملة لتجاوز كل ذلك وإلا سنكون أسرى غربتين:

غربة عن العربية الفصحى، وغربة عن العالم الذي يفصلنا عنه جدار من العاميات الهيولية السائبة والعاجزة عن أن تكون لغة التخاطب مع هذا العالم.

وفي مجـال التجديـد والتطوير اللغوي، نحن بحاجـة ماسة إلى لغويين أكثر انفتاحاً

على محيط معرفي واسع تتلاطم فيه الأمواج من كل حدب وصوب، مثلما نحن بحاجة إلى علماء ومنتجين للمعرفة يضخون الحيوية في شرايين لغتنا، وهنا علينا أن نميز بين ضرورة تجديد وتطوير لغتنا وبين تطوير منهج تعليم اللغات الأجنبية من جهة أخرى، أي ينبغي أن يسير تطوير لغتنا مع تطوير تعليم اللغات الأجنبية جنباً إلى جنب لأن كل تطور في أي منهما هو تطوير للآخر.



ولعله من المثير هنا التنويه إلى أن الكثير من علماء اللغة الألمانية يعتبر أن الإنجاز الأهم للمصلح الديني الألماني مارتن لوثر هو في مجال اللغة وليس الإصلاحات التي أجراها في الكنيسة وهو كرجل دين كان همه الوصول إلى العامة بأبسط المفردات دون رطانه لا يزال يصر عليها سدنة اللغة عندنا وبالتالي الحيلولة دون تطوير لغتنا وجعلها على صلة وثيقة بحياة البشر مع أن اللغة العربية تمتلك الكثير من الخصائص التي تمنحها مرونة مدهشة وتجعلها قادرة على استيعاب آخر المبتكرات المعرفية لو تم الاشتغال عليها كما يليق بها، ولعل أهم هذه الخصائص وأغناها قدرتها الاشتقاقية، التي تستند على الموازين.

واللغة العربية كما رأى أحد أهم المخلصين لها -الشيخ عبد الله العلايلي- هي لغة تتمدد عمودياً بينما اللغات الآرية

فهي تتمدد أفقياً بضم جذر إلى جذر وذلك خلافاً للغة العربية حيث لكل كلمة فيها دلالتين دلالة المادة ودلالة الهيئة، أي لكل كلمة جذر ووزن ولعل المشتغلين بترجمة العلوم وتعريبها يدركون مرونة اللغة العربية في نقل المصطلحات العلمية على عكس الزعم السائد بعجز اللغة العربية عن بلوغ ذلك، وبكوني واحداً من المشتغلين في حقل التقانة الحيوية، فإنني لم أجد ما يعيقني عن تبييء أي مصطلح في هذا العلم رغم حداثته ونقله إلى لغتنا رغم الصعوبة في بلوغ ذلك في بعض الأحيان وهذا أمر طبيعي يمكن أن تصادفه أية لغة أخرى وحتى في لغة صاحب أو مبتكر المصطلح نفسه!!

ومن البديهي أن يكون المتخصص على سبيل المثال في التقانة الحيوية المتفاعل مع أزماتها والمثابر على متابعة مستجداتها هو الأقدر على ابتكار المصطلح الذي يعبر عما يفكر فيه من عالم اللغة نفسه، شرط أن يمتلك الباحث العلمي الأدوات اللغوية الأساس للغة الأم وعليه ليس لنا إلا أن نقف باحترام وتقدير عميقين أمام أولئك الذين أفنوا قدراً كبيراً من أعمارهم وهم يقدمون لنا المادة العلمية الراقية عن اللغات الأخرى أمثال أحمد مستجير ومصطفى فهمي وشوقي جلال ونبيل علي وكذلك أمام أولئك الذين قدموا لنا درر الآداب العالمية أمثال: عفيف دمشقية وعنبره سلام الخالدي، وسامي الدروبي، وصالح علماني وثروت عكاشة وغيرهم، وكذلك الإسهام المتميز للمجلس الأعلى للثقافة في مصر وكذلك الدور الذي يلعبه المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت في التنمية المستدامة للثقافة من خلال سلسلة عالم المعرفة والثقافة العالمية.

لكن التجربة الأنضج والأكثر فاعلية في تقديم مادة علمية رصينة بلغة عربية صريحة ودون تلكؤ هي تجربة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي التي تقوم بتقديم النسخة العربية من مجلة العلوم الأميركية.

إن هذه التجربة تحتاج إلى التقدير والمساندة والدعم مثلما تحتاج إلى المراجعة والتقويم المستمر لما تبدعه في حقل التأسيس للغة علمية عربية أصيلة.

ومع ذلك فإن المقدرة على سوق الدليل تلو الآخر على قدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم الحديثة ومستجداتها يجب أن لا يعمينا مرة أخرى عن ضعفنا وقصورنا

في إنتاج العلم وتداوله ، لأن إنتاج العلم أو التداول يشكل الشرط الأساسي لإحياء اللغة وازدهارها وتطورها.

ولا شك أن الترجمة والتعريب يلعبان الدور التمهيدي لإنتاج المعرفة شرط أن يكون ذلك ضمن مشروع استراتيجي متكامل ترعاه المؤسسات الأكاديمية لاستئناف المسار الذي سلكه أسلافنا الكبار الذين تمكنوا بعد اطلاّعهم على علوم الآخرين ونقلهم لهذه العلوم إلى لغتنا العربية أن يتجاوزا سوية المعارف التي نقلوها إلى حد التشكيك بها ولهذا كان عنوان أحد كتب الرازي «الشكوك على جالينوس» وكتاب ابن الهيثم «الشكوك على بطليموس» وكتاب ابن سينا «الحكمة الشرقية» الذي كان بمثابة شكوك على أرسطو الأمر الذي دفع الباحث الأميركي ديمتري غوتاس لتثمين ما قدمه هؤلاء بالقول: ليس المهم في هذه الكتب كشف جوانب النقص في أعمدة العلم اليوناني الثلاثة وإنما موقف الباحثين والعلماء الذين نجحوا من خلال اهتمامهم العملي في تطوير الميادين التي تخص كلاً منهم في خلق جو عقلي كان يسمح بوضع مثل هذه الكتب وأن يتاح المجال لها للإفادة منها!!

ألسنا الآن أشد حاجة لمثل هؤلاء العباقرة في تمثل علوم الآخرين وتجاوزهم وكذلك إلى خلق الجو العقلي الذي يسمح لنا بالإفادة من علوم الآخرين قبل كل شيء؟!!

بعد كل ما سبق ألا تتهافت مقولة عجز اللغة العربية عن استيعاب العلوم الحديثة؟!!

وإذا كان الجواب بالنفي فإننا نتساءل، لماذا غزت المصطلحات العربية لغات العالم في قرون الازدهار العلمي العربي؟!!!

لماذا عبرن الإسرائيليون بالكثير من الكلمات العربية التي كانت تفتقد إليها اللغة العبرية في مجالات السياسة والعلاقات الاجتماعية والغذاء وحتى الشتائم وهنا من المثير التنويه إلى أن الإسرائيليين أسسوا أكاديمية للغة العربية هي الأولى من نوعها خارج البلدان العربية، مهمتها دراسة الروابط اللغوية القديمة بين العربية والعبرية وتشجيع اللغة العربية واشتقاق مصطلحات جديدة !!!

بقي أن نشير إلى أن بعض الدراسات اللغوية الحديثة قد أثبتت العلاقة بين تمثل المعارف ومستوى المهارات اللغوية التي يملكها إنسان ما، ولذلك فإن التبشير بعجز

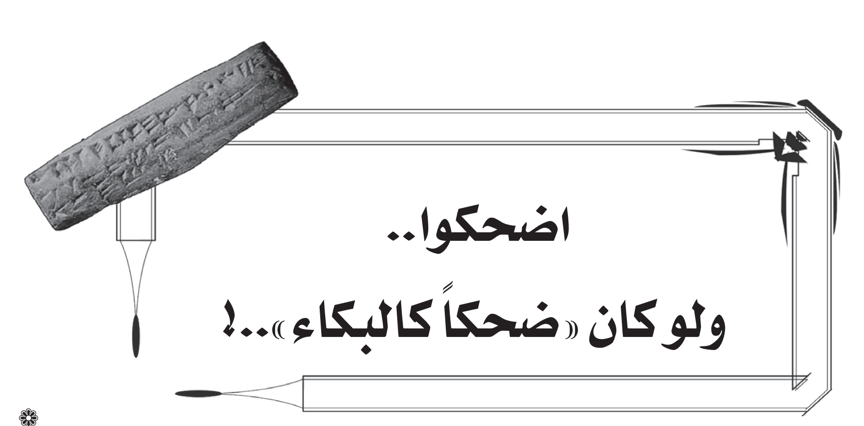
اللغة العربية عن استيعاب العلوم والدعوات التي ترتفع هنا وهناك عن ضرورة التعليم باللغات الأجنبية -بذريعة التواصل مع العالم- إنما تريد تشويش العلاقة بين المواطن العربي ولغته من جهة وبينه وبين معارف العالم من جهة أخرى، لأن الإنسان كما قال الشاعر الألماني غوته، يمكن أن يكتب بلغات عديدة، لكنه لا يعش إلا بلغة واحدة!!

وإذا كان بعضنا لا يرغب العيش بلغته الأم بذريعة عجزها، فإننا نؤكد له بأن العجز قابع في رأسه قبل غيره ، لأن انحسار دور اللغة العربية يعني قبل كل شيء انحسار دور العرب عن الساحة العالمية في كل المجالات، ولأن غلبة اللغة بغلبة أهلها، ومنزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم كما كتب ابن خلدون منذ قرون!!





آفاق المعرفة



اضحكوا..
ولو كان «ضحكاً كالبكاء»..!

د. خير الدين عبد الرحمن ❋

اهتم مفكرون وعلماء وأدباء كثر على امتداد العالم والزمن بظاهرة الضحك. وبينما رآها ظاهرة إنسانية جامعة لكل بني البشر اعتبرها آخرون، كالكاتب البريطاني كارلايل، «المفتاح الذي يوصلنا إلى معرفة الإنسان على حقيقته»، والكاشف لدخائل نفس الضاحك، عاكس أخلاقه وسلوكه وفق تأكيدات علماء النفس، عبر التمعن في نوع ضحكته ومدى عمقها ودرجة صخبها وما ترسمه من خطوط وتجاعيد حول شفتيه وعينيه، وتحولات

❋ أديب وباحث سوري.
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

سحنته المرتسمة على وجهه. ولنا أن نضيف ما يكــرره كتاب عــرب عن ضحــك يدفع صاحبه «إلى الاستلقاء على قفاه»!

علــى أن هناك من عارضــوا مقولة أن الضحك ظاهــرة إنسانيــة، مؤكدين خطأ الادعاء باحتكار الإنســان للضحك، بعدما لاحظوا أن القردة والخيل والقطط والكلاب والثعالــب وحتى الذئــاب والأسود تضحك أيضا. ليســ ضحك الأسود المعني هنا ذاك الذي قيل فيه:

«إذا رأيـت نـيوب الليث بـارزة
فـلا تـظنن أن الليث يبتسم»

إنما هــو ضحك حقيقــي. وهنا انضم شخصيــاً للقائلــين بهذا من خــلال وقائع ومشاهــدات وتجارب شخصيــة رأيت فيها العديــد مــن الحيوانات في حالــة ضحك حقيقي ترافقــه نظرات سعــادة أو امتنان واضحــة، وخاصة لــدى إنقاذها من محنة، أو إطعامها عقب جوع شديد،أو لدى إظهار التعاطف معها عندمــا تتألم بتربيت كف أو بدغدغة أصابع.

بل إن علماء نفس أرجعوا ضحك الإنسان أيضــا إلى غريزة حيوانية لديه، رادين أصل الضحــك إلى شعور الإنسان بالمرح والسرور عند رؤية الطعــام! استند هؤلاء في ذلك – كمــا كتــب د. خالد محمد نعيــم – إلى أن الأطفال لا يضحكون قبــل الأسبوع السابع مــن عمرهم، وأنهــم يضحكــون بعد ذلك لرؤيتهــم الطعــام، لا لشيء آخــر. ثم إنهم يضحكــون لسبب آخر غير رؤية الطعام بعد أسبوعهــم العاشر، ذلك هــو رؤيتهم ذويهم يضحكون فيقلدونهم. وهنا أعارض أصحاب هذا الزعم الذي أكاد أجد فيه رابطاً خفياً بين بطونهم ونظريتهــم. فمن خلال وقائع تجاربــي الشخصية أيضــا، لطالما هزتني ضحكات أطفالي وهم نيام، لا طعام أمامهم ولا بالقرب من أفواههــم، بل وقبل بلوغهم الأسبوع السابــع. كان التعليق الذي سمعته لأول مرة على ضحكة طفلتي الأولى النائمة في شهرهــا الأول من بائعــة شابة – آنذاك – في الســوق الحــرة في الخرطــوم هو أن «الملائكة تمــازح الطفلة النائمة وتداعبها». تكرر سماعــي نفس هذا التعليق / التفسير مــرارا في بلــدان عديــدة إزاء ضحــكات الأطفــال حديثــي الولادة وهــم نيام، على ألسنة النساء خاصة، أمهات وعازبات، سواء من كن أكثر مني تجربة وأكبر سنا أو من كن ألصق مني بالمتــوارث في مجتمعاتهن. جاء

هذان الرأيان اللـذان عارضتهما فيما نقله د.خالد محمـد نعيم عن علماء نفس تعقيباً منـه [١] على ما كتبه رئيسـ تحرير المجلة السابق [٢] مشـدداً على أن الضحك ظاهرة حضارية، وإصلاح لمزاج الإنسان، وتوازن ما بين عناصر جسمه.

رأى التعقيب أن الضحـك «تنفيس إيجابي لطاقـات عبئت أصـلاً لأمور أكثر جدية، وهـو كذلك تطـور منطقي وحاسة اجتماعيـة رفيعـة، وهـو منعشـ للنفس، ومفيد للجسم، لأنه يقوي الجهاز التنفسي، وينشط الدورة الدموية، وينعش الأعصاب، ولا يرهق عضـلات الوجه». لكنه حذر من أن الإفراط في الضحـك، أو الإغراق فيه، قد يكـون قاتـلا، مدللا بمـوت الروماني كراسوس إذ ضحك بعمق عندما رأى حمارا يأكل عوسجا، وموت يوناني اسمه فيلومنيس عندما دخل منزله فوجد حماره يلتهم طبق التـين الذي أعده لنفسه، وموت يوناني آخر هو الرسـام الشهير ذايكسيس لشدة ضحكه وهو يتمعن في لوحة رسمها لعجوز شمطاء، وموت رجل عملاق اسمـه مارغيت عندما رأى قردا يحاول أن ينتعل حذاءه.

اختلطت بعضـ مفاهيم الضحك، على الذات أو على الآخر، أو السخرية التي نهانا القـرآن عنها في قوله عـز وجل: «لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نسـاء من نساء عسـى أن يكن خيرا منهن»، فلعل من المفيد التوقف عند ما نقله د. حسن مدن عـن «إعادة إنتاج الهويـة» الذي كتبه أحمد حيدر تمييزاً للضحك عن التهكم[٣]، حيـث إن الضحك هو استخفـاف بما هو معطـى من قيم ووقائع، أمـا التهكم فتعبير عن إحساسـ بالفارق بـين القيمة المعطاة والقيمة التي ترنو إليها. فالمتهكم حين يتهكم علـى واقعٍ قائم، فـإن في ذهنه صورة بديل هذا الواقع، أمـا الذي يضحك فقط ساذج وجاهل وعاجـز عن فهم الضرورة، وبالتالي عاجز عـن اقتحامهـا. والضحك، والحال كذلك، نوعـان، فإما أنه ضحك الغباء وإما ضحك التواطؤ الذاتي الذي يعفي المرء من مسؤولية الانخراط في تحمل المسؤولية.

وكان لـكارل ماركسـ، صاحب المذهب الذي حكم أتباعـه وأنصاره نصف البشرية عقـودا إلى أن انهـار أول نظـام تبنـاه في الاتحـاد السوفييتي، نصيبه في هذا الشأن. فقد قال ماركسـ: التاريخ ماكر، فهو قادر على جعل بطـل الأمس التراجيـدي، نكتة اليوم الكوميدية.

في المقابـل، اعتـبر الرئيسـ الأمريكي الأسبـق الجنرال دوايت آيزنهـاور أن «روح



الفكاهة جزء مـن فن القيادة، والتعامل مع البشر، وإنجاز الأمور الكبيرة».



تبحث كثير من الكتابات المتمسحة بالطب الجسـدي أو بالطب النفسـي، أو المتلاقية معهما، في التأثـير الإيجابي للضحك على الإنسان. وقد ذكـرت دراسة أنجزها فريق طبي أمريكي من جامعة واشنطن مؤخرا في هذا الصدد أن «فقدان حس النكتة ظاهرة مرضية قد تصيب كبـار السن أسوة بسائر عوارضـ الشيخوخـة مثل تراجـع التركيز وقصـور الذاكرة والوعي. عـزت الدراسة تراجع قدرة كبـار السن على تلمس النكات والتلميحـات الطريفـة إلى خلـل يصيـب مراكـز التحكـم المنطقي في الدمـاغ. قال بروفيسـور الأعصاب برايـن كاربنتر الذي أشرف على فريق الدراسة التي نشرتها مجلة المجمع الدولي لأمراض الأعصاب أن نتائج الاختبارات قـد بينت تفوق قدرة الراشدين الأصغـر سنا علـى كبار السـن في إطلاق عبارات مضحكـة بنسبة ٦٪(!) بينما بلغت نسبة تفوقهم في ابتكار تعليقات طريفة على صور أو رسوم١٤٪.

مضى تقرير تنـاول الأصل الاجتماعي للضحـك نشرته مجلـة New Scientist الأمريكية (٤) بعيدا حيث قال عالم البيولوجيا

في جامعة مانهاتن في نيويورك ديفيد ولسن في ذلك التقرير:

«إن الاستجابة الشعورية للنكتة قد نشأت كمساعد للتنظيم الاجتماعي ولعقد صلات بين أجدادنا القدامى. ولعل الدماغ البشري طور لاحقا ملكات عقلية كاللغة التي استعارت الممرات الشعورية المتصلة بالنكتة» مفترضا أن الضحك وروح النكتة سبقا اللغة .

نقلت نفس المجلة عن العالم الروسي ايغور سوسلوف من معهد كابيتسا للفيزياء في موسكو أن الوظيفة البيولوجية للنكتة هي رفع كفاءة عمليات الدماغ، حيث نضحك نحن بينما تشق أدمغتنا الطريق خارج الوضع المتناقض الذي يثير الضحك ويستدعي النكتة.

❁ ❁ ❁

إذا داعبت طفلاً حديث الولادة فإنه يبتسم، وإذا دغدغته فإنه يضحك. تلك هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، رغم أن معظم الذين تقابلهم في طريقك لا يضحكون ولا يبتسمون، وكأنهم المستهدفون الوحيدون بقرار الولايات المتحدة في نشر الديمقراطية، أو كأن الديمقراطية على الطريقة الأمريكية ستطبق في منازلهم.

والضحك سابق للغة، فالطفل يضحك أولاً، وبعد عدة أشهر ينطق بكلمة «بابا» و«ماما»، وعندما يضحك الإنسان، فإنه يسلم نفسه كلياً لبراءته، ولا يحاول اختيار، أو تنميق، الضحكة، كما يختار كلماته عندما يريد التعبير عن نفسه. ويقول العلماء: إن المناطق الخاصة بالضحك في الدماغ أقدم بكثير من المناطق الخاصة باللغة، وربما بدأ الضحك بمصارعة بين اثنين من رجال ما قبل التاريخ، فلمس أحدهما خاصرة الآخر عن غير قصد، فأحدثت هذه اللمسة لدى الآخر إحساسا بالسعادة حرص فيما بعد على استحضارها عن طريق لمس خاصرته أو إثارة ذلك الإحساس الرائع لدى صديق يقابله في الطريق بلمس خاصرته، وبعد اختراعه اللغة، أعطى للضحك بعداً جديداً، واخترع النكتة، ولكن الضحك سبق النكتة.

وقبل مدة، نشر العالم الأمريكي بولينغ غرين، أستاذ علم النفس في جامعة أوهايو، دراسة في مجلة (ساينس) قال فيها: إن الضحك ليس قسراً على البشر، كما يظن الفيلسوف برغسون الذي أطلق على

الإنســـان لقب «الحيـــوان الضاحك»، إذ إن كل الحيوانـــات تضحك. ويقول البروفيسور غريـــن في دراسته: إن «دائـــرة الضحك في الدماغ شبيهة بتلك الموجودة لدى الحيوان، ولكن الحيوانات لا تجيـــد القهقهة كالبشر لسبب واحد هـــو أنهـــا لا تستطيع التحكم بتنفسهـــا، كمـــا نفعـــل نحن البشـــر». وفي التجـــارب التي أجراهـــا البروفيسور جرين اكتشـــف أن الفئران تلعب مع بعضها بعضا، وأثناء اللعب تصدر صوتا ينطلق من البطن، وهو المكان الذي تنطلـــق منه القهقهة لدى البشـــر، وعندمـــا حـــاول دغدغـــة الفئران أصدرت صوتاً مماثلاً.

ويقـــول البروفيسور تيكومســـي فيتش، أستاذ علم الأعصاب في جامعة سان أندرو في سكوتلندا: «إن الآلية الدماغية التي تتحكم بالمشاعـــر، مثـــل الخـــوف، والألم، والرغبة، والسعادة، والضحك، لدى الحيوانات شبيهة بتلك الموجودة لدى الإنسان». وقبل مدة نشر العالمـــان سوزان ماســـون، وجيفري مكارثي كتاباً بعنوان «عندما تبكي الفيلة» قالا فيه: «إن الحيوانـــات تحســـ وتشعـــر وتعيش كل العواطف التي يعيشها البشر، من الفرح إلى الحزن إلى السعادة بل وحتى إلى الحنين».

ويقـــول البروفيســـور روبـــرت بروفين، أستـــاذ علم النفســـ في جامعة ماريلاند في بالتيمور الذي نشـــر كتابا بعنوان «الضحك – دراســـة علمية»: إن هنالـــك «استمرارية تطوريـــة للضحك لدى البشـــر»، ولكنه كرد فعـــل، موجود لدى الحيوانـــات، بل إن هذه الحيوانات تسعى إليه، ومثال على ذلك فإن الفئران كانت تضحـــك عندما يداعبها، ثم تقبل عليه فيما بعـــد وكأنها تطالبه بتكرار مداعبتها.

وأســـوأ مـــا يفعله الإنسان هـــو أن يكتم الضحك في نفسه، ويستبدله بتكشيرة، فمن يضحك تضحك لـــه الدنيا ومن يعتاد على التكشـــير فإنـــه لا يكون مقبـــولا حتى لدى نفسه عندما ينظر في المرآة.[٦]

ويقول عدة علمـــاء نفس، إن الأشخاص الذين يضحكون عادة مسالمون طيبو القلب لأنهـــم يفرجـــون عـــن طاقتهـــم العدوانية بالضحك.

❁ ❁ ❁

عندما تابعت تطورات انتشار مجموعات منظمة ونـــواد للعـــلاج بالضحك، لاحظت كيف يبـــدأ أعضاء تلك النوادي وأفراد تلك المجموعـــات بافتعال الضحـــك، ثم يندمج

أكثرهم بالضحك، سواء نتيجة العدوى أو عن طريق فقدان السيطرة وتلاشي التحكم بتصرفاتهم. واستذكرت هذا مجددا عندما تابعت أخبار انتشار مدارس متخصصة برياضة مستوردة من الهند هي تعليم الضحك عن طريق اليوغا (!) في أكثر الولايات المتحدة الأمريكية.

❁ ❁ ❁

على الرغم من أن «شر البلية ما يضحك»، لم تضحكني البلايا المتزاحمة في حياتنا. أكثر من هذا كنت قد مارست ضربا من النقد الذاتي، أو شجاعة الاعتراف بالقصور، عندما اعترفت في مقالة نشرت لي قبل نحو عشرين سنة بأنني أمضيت وقتا طويلا أحاول أن أتذكر آخر مرة ضحكت فيها ضحكة حقيقية تعكس سعادة - أي ضحكة من القلب كما يقال - فرحت أمسح الشهور ثم السنين ثم العقود لأكتشف أن نحو ربع قرن قد مر على ضحكة حقيقية لي!

ظللت أرد الأمر كلما فكرت به بيني وبين نفسي إلى غرقي في مقارعة الهم الكارثي العام المتجدد الذي تلاحقت فصوله على أمتنا. خطر لي أحيانا أن هذه حالة طبيعية سببها التزام لا إرادي بما تم تلقينه لي من أن «الضحك بلا سبب قلة أدب»، وأنا لم أعثر على سبب مقنع يدفعني للضحك. بعدما قرأت ملخص الدراسة الحديثة المشار إليها لفريق البروفيسور برايـن كاربنتر (ترجمة اسمه هي:عقل نجار) خطر لي أن ما عانيته منذ آخر ضحكة لي حين كنت في الثانية والعشرين من عمري هو إصابة بشيخوخة مبكرة، وهنا اعتبرت أن هذا الخاطر بحد ذاته ممارسة ساخرة تتحدى تلك الدراسة!

ثم سرعان ما تذكرت أنني بلغت تلك السن في العام ١٩٦٧، وأن المطربة المبدعة فيروز قد تعهدت آنذاك أنها لن تبتسم على مسرح أبدا قبل أن تتحرر القدس خاصة، وفلسطين عامة، ويعود الشعب الفلسطيني إلى وطنه..! فكان قراري منذ ذلك الحين أن لا تكون فيروز في صومها عن الابتسام أكثر مني حبا لفلسطين المحررة وقدسها. وخفف من قلقي إزاء استنكار معارفي في مشاركتي في هذا الصوم ما أكدته عدة دراسات جادة جزمت بأن اليابانيين أكثر شعوب العالم تجهما وتعاسة وأقلها ضحكاً وسعادة على الرغم من طفرة الثراء لديهم.

❁ ❁ ❁

الارتباط مؤكد بين الضحك وكل من السعادة والابتهاج والنجاح وتحقيق الآمال وإشباع حاجات المرء. هناك من اشترط

الحريـة للسعـادة، وهناك مـن اشترط لها صون الكرامة. لكن هذا لا يتوفر غالبا سوى في المجتمعات المستقـرة نسبيا، وفي حالات فردية مستقرة أيضاً. وهكذا قالت دراسات نشرت مؤخـراً أن شعب فنلنـدا من أسعد شعوب العـالم. سئل وزير التجارة والصناعة الفنلندي عمـا إذا كانت سعادة شعبه الذي لا يتعـدى الخمسة ملايين نسمة هي نتيجة لارتفـاع إنتاجيتـه التي تـؤدي بدورها إلى ارتفـاع الدخـل القومي بما يتجـاوز مئتي مليار دولار سنويا، دون أن يكون هناك نفط في تلـك البـلاد المتاخمة للقطـب المتجمد الشمالي، فأجاب الوزيـر راداً سعادة شعبه إلى ستة عوامل:

- العامـل الأول من الله عز وجل، وهو الطبيعة الجميلة جداً لبلاده.

- العامـل الثـاني مـن الشعـب، وهو الاستمتاع بالإخلاص في العمل.

وباقي العوامل من الحكومة، وهي:

- الشفافية وانعدام الفساد الإداري.

- العدالة الاجتماعية الصادقة.

- الاستقلال التام للقضاء.

- توفير التعليم الجيد والضمان الصحي الممتاز للمواطنين.

ولعلـي أضيـف إلى ما عرضـه الوزير عامـلاً آخر لسعـادة الفنلنديـين، أو ربما انعكاسا لها، هو أن الفنلنديين يستعيرون من مكتباتهم العامة أكثر من سبعين مليون كتاب سنويا، أي بمعدل أربعة عشر كتابا لكل فرد. ولكـن إذا راعينا استبعـاد الأطفال الرضع ومن هم دون سن القراءة يرتفع معدل قراءة الكتب المستعـارة من المكتبات العامة -عدا ما يتـم شراؤه واقتنـاؤه- إلى عشرين كتابا سنويـا للفرد الواحد. كما تـوزع الصحيفة اليومية الأولى في العاصمة هلسنكي نصف مليون نسخة. نكرر أن مجموع سكان فنلندا هو خمسة ملايين نسمة!

أليس من حق هؤلاء أن يشعروا السعادة والرضا، وأن يضحكـوا ضحكاً حقيقياً في اللحظـات المتبقية لهم بعـد ساعات العمل المنتج الجاد المخلص والقراءة بشغف؟

❁ ❁ ❁

ربط فخر الدين الرازي السعادة بحصول اللذة لدى الإنسان. لكنه شدد على أن اللذة العقلية أو الروحية أشرف من اللذة الجسدية التي هي لذة بهيمية كلما استولت على المرء فازداد اندفاعه سعيـا إلى الحصول عليها يقترب أكثر من خصائص الحيوان ونزواته.

وبالعكس، يسمو المرء أكثر فأكثر عن مصاف الحيوان كلما سعى أكثر إلى تحصيل اللذة العقلية، أو الروحية. توافق أكثر مفكري الإسلام مع ما ذهب إليه زميلهم فخر الدين الرازي في هذا الصدد.

❀ ❀ ❀

تشاغلت مؤخراً بمتابعة ما يكتب عن طرائف وسخرية الآخرين: استوقفتني محاولة العراقية بدرية قاسم معالجة ألمها بالسخرية والتهكم،إذ قالت في مقابلة إعلامية: «لم يعد في العراق رافدان فقط هما دجلة والفرات، فقد انضم لهما ثالث هو نهر الدم الذي يجري بدماء عراقيين لا يعرفون بأي ذنب قتلوا». ومثلها فعل سائق سيارة الأجرة العراقي أبو أحمد وهو يتذكر سور الصين العظيم، فقال معقبا بسخرية على ندرة البنزين في العراق الذي هو أحد أغنى بلدان العالم بالنفط: «لقد خلق فقدان البنزين سور السيارات العظيم الذي يمتد كيلومترات أمام محطات الوقود.. وهكذا نجح الاحتلال في حل مشكلة الإسكان حيث فر أكثر من ٥ ملايين إلى الخارج» (٧).

وقد لاحظت أن أكثر حالات الضحك المرصودة في مجتمعاتنا العربية هي ضحك على الذات ومنها! كما لا تقتصر السخرية عندنا من الذات الفردية والجمعية على النساء والرجال، وإنما هي أيضا وسيلة الأطفال لإيجاد متنفس يهربون إليه من الاختناق ألما وتمزيقا وتفتيتا وقهرا وامتهانا، بحيث يجعلون السخرية حيزا ولو محدوداً لممارسة تحديهم لعوامل كثيفة طاغية تخيرهم ما بين انتظار قتل قادم في أي لحظة، أو استعجاله بممارسة الانتحار.

من بين نكات ألقاها أطفال مدرسة بغدادية ابتدائية في حفل مدرسي أسئلة وأجوبة بين مدرس وطلابه. تقول لقطة ساخرة:

سأل المدرس: كم عدد سكان العراق؟ فأجابه تلميذ: كان العدد سبعة وعشرين مليونا منذ أربع سنوات، أما الآن فلا أحد يعلم كم بقي منهم سوى الله عز وجل!

ويسأل المدرس مجدداً: ما هي أهم ثروات العراق؟ فيجيبه تلميذ آخر: العراق غني بالنفط، لكنني حاولت ليلة أمس إيجاد زجاجة نفط لملء مصباح الإنارة حتى أكتب واجباتي المدرسية، فلم أجد قطرة واحدة،

ومن بائع إلى بائـع، كان الجواب واحدا: لا تتعب نفسك، فلن تجد قطرة نفط تشتريها في العراق كله!

ظلت الولايـات المتحـدة -صانعة نكبة العـراق الراهنة بدورهـا- موضع سخرية على امتداد العالم منـذ قيامها. ركزت هذه السخريـة المريرة غالبا علـى إبراز جوانب الغبـاء والعنجهيـة الفارغة وعبـادة المال واستشراء الجهـل مصحوباً بالغرور المفرط في السلوك الفـردي والجمعي للأمريكيين، إضافة إلى إبراز الطبيعة المزدوجة المأساوية لأمريـكا والأمريكيـين، المتأرجحـة دائماً «بـين الحريـة والعبودية. بـين الجمهورية والإمبراطورية. بـين سيادة القانون وسطوة رأس المال». لطالمـا سمعت جملة تتكرر في العديد من عواصم عدة قارات، كان أول من أسمعني إياهـا بريطاني جاورني في طائرة، منـذ ثلاثين سنة أو أكثر، حين قال: ليس في العـالم من يحب سياسـات الولايات المتحدة ونمـط حياتها وانحطـاط ثقافتها. الشيء الأمريكي الوحيد الـذي لا يملك الناس إلا أن يحبونه هو الدولار».

❀ ❀ ❀

كان سيمون بوليفار، بطل تمرد الحديقة الخلفية الأمريكيـة للولايات المتحدة وقائد ثـورات التحـرر والاستقـلال في أمريـكا اللاتينيـة، قد قال: «رسـم القدر للولايات المتحـدة مصـيراً يدفعها إلى إنـزال البلاء بأمريـكا باسـم الحريـة». رأى آخرون أن أفضـل ما ينطبـق على حالـة أميركا قول برنـارد شو«مأسـاة الكذاب ليسـت في أن أحـداً لا يصدقه، وإنما في أنـه لا يصدق أحداً»! لكن المفارقـة الساخرة بدورها هي في انطباق مقولـة أخرى لجورج برنارد شو على حالة الولايات المتحدة وعلاقة الآخرين بها، تلك هي قوله: «كلما زادت الأمور التي يخجل منهـا الإنسان، كلمـا أصبح محترما أكثر»! مـاذا إذا أضفنا إلى مـا سبق تأكيد القائلين بـأن العبقري الألماني غوته قد كان يقصد الولايات المتحدة أساسا عندما قال: «ليس هناك أقبح من رؤية الجهل يعمل»!

وقد تـداول الدبلوماسيون من القارات الخمسـ مقولة ساخرة تقول «من كان يريد تخريـب ملف وتبديـد حق وتمديـد أزمة وتعقيد مشكلة وتضييـع أمل فليسلم الأمر إلى الولايـات المتحدة أو يشركهـا به»! أما الكاتـب البريطـاني دونالد بـراون فبعدما أمضى خمسـا وعشرين سنة يقـرأ ويكتب عن أمريكا، اعترف في مقال نشره في مطلع

٢٠٠٧ بأنه بعد كل هذه السنوات الطويلة لم يتمكن من فهم طبيعة أمريكا، ولا كنه الأمريكيين الذين مازالوا بالنسبة له لغزاً داخل لغز.

❁ ❁ ❁

بعد الاشتباكات الدامية والحرائق العاصفة في قطاع غزة، نقلت عدة صحف نماذج من استخدام أهلها السخرية لمقاومة الألم والرعب والموت الذي يحمله الهواء ويخرجه التراب نتيجة الحرائق والرصاص وانفجارات الصواريخ والقنابل. من هذه السخرية المرة المشبعة برائحة الدم والجوع والقهر والألم: «سيسير الراكب من غزة إلى بيت حانون لا يخشى إلا الله، والبنشر (ثقب إطار السيارة)». أصل هذه النكتة عبارة شهيرة سادت في عصر غابر من عصور الدولة الإسلامية تميز بالعدل وردد كلماتها الناس تجسيدا للاطمئنان والأمان: «سيسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه». تأرجحت هذه العبارة المحرفة في غزة بين فريقين: أحدهما مطمئن إلى الأمان والعدالة خلال المرحلة المقبلة بعدما استشرى الانفلات الأمني، وثانيهما كان يعبر عن سخريته بترديد نفس تلك العبارة المتفائلة.

ومن النكات التي أطلقها وتداولها نشطاء حركة حماس وأنصارهم نكتة تقول: «لكل الأمم والشعوب المقهورة والمظلومة والمستباحة دماؤها، وإلى كل الأحرار في العالم: ننصحكم باستخدام مكافح الفيروسات: قسام أنتي فيروس، من إنتاج حركة حماس»!

❁ ❁ ❁

بات الفلسطينيون – بشبه إجماع عالمي- مسيح القرن العشرين الذي صلبته الغزوة الصهيونية، ولكن لم تقتصر عليهم ممارسة مقارعة الألم بالتهكم أو الضحك، بل اشتد اللجوء إلى مثل هذه الممارسة في صفوف قامعيهم وقاتليهم ومغتصبي وطنهم الغزاة الصهاينة والمتواطئين مع هؤلاء الغزاة. ففي أعماق معظم هؤلاء الغزاة يقين بأنهم هم المهزومون آخر الأمر، وأنهم عابرون في هذه الأرض مهما طغوا وبغوا. وهكذا تكاثرت النكات التي تعكس سخرية من الذات مؤخراً بينهم. كتب أليكس فيشمان مثلاً، وهو المراسل العسكري لصحيفة يديعوت أحرنوت، يقول: «ضحكنا مرة وقلنا إن الجيش الإسرائيلي جيش يملك دولة. جاءت لجنة فينوغراد وبينت لنا أننا أخطأنا وأن الوضع

أقسى. وأنه قد كان هنا شخص واحد أدار المستوى السياسي حول إصبعه الصغيرة ومضى بدولة كاملة إلى حرب انتهت إلى فشل»!

أكثر من هذا، عاد تداول النكتة الشائعة جدا التي تداولها الإسرائيليون منذ العام ١٩٤٨ وحتى صبيحة الخامس من حزيران١٩٦٧، عن لافتة في مطار اللد تقول: «على آخر مغادر أن يطفئ الأنوار». تعكس هذه العودة حقيقة أن الجبروت الصهيوني الطاغي المستند إلى دعم أمريكي وغربي هائل - وتعاجز عربي بات أشد هولا- قد أخذ ينحسر منذ انتفاضة الحجارة، ثم ازدادت وتيرة انحساره منذ نهاية تموز ٢٠٠٦.

ناحوم برنيع كبير المعلقين في صحيفة «يديعوت أحرنوت»، الذي توقع فشل إسرائيل في حربها ضد لبنان منذ يومها الأول، استشهد في مقال نشره مؤخراً(٧) بواقعة حدثت للكاتب اليهودي الأمريكي غوردس الذي أخبره أنه ذهب إلى طبيب ليصف له دواء للدوار ومضاعفات أخرى لعزمه السفر جوا، فسأله الطبيب: «ماذا تعمل؟» رد غوردس: «أنا كاتب». فسأله: «ماذا تكتب؟» أجابه: «أكتب عن حياة إسرائيل ومستقبلها». فضحك الطبيب، وقال: «آه فهمت الآن، أنت تكتب قصصا قصيرة!». علق برنيع قائلاً بحق: «هذه حادثة تعكس المزاج العام في إسرائيل التي يفقد الناس فيها الثقة بمستقبلها وبقدرتها على البقاء».



ساد توافق بين العرب لعقود طويلة على أن الإخوة المصريين أكثر المجتمعات العربية براعة في ابتداع النكات والسخرية من الذات - وهنا نشدد على مقولة بعضهم أن السخرية من الذات أول الطريق إلى الحكمة وأبرز المؤشرات على تحدي ما لا سبيل إلى قهره من أزمات وصعاب - فإن هذه الميزة سرعان ما انتشرت إلى أكثر البلدان العربية. بل لعل مما يثير العجب أن مجتمعات عربية اشتهرت تاريخيا بالجدية والتزمت والبعد الشديد عن هذه السخرية التي يعتبرها المصريون خفة دم قد تحولت شيئا فشيئا لتتفوق على المصريين في هذه الخصيصة، تحت وطأة القهر والقمع وإفرازات الفساد من جوع يعم وقلة قليلة تغرف معظم الثروات أو تنهبها، وتدخلات خارجية سافرة في كل

مناحـي الحياة، تتمـادى إلى حد الفجيعة.

قيـل إن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر كان يطلب من أجهـزة الأمن التي اشتهرت مصر بها، قبل أن تتفوق أقطار عربية أخرى في تفريخهـا وتوسيع سلطاتهـا والتفنن في أساليبهـا، أن تقدم له تقريراً دورياً بالنكات الجديدة التي يتداولها عامة الناس، بحيث كانت درجة حدة الانتقادات وشدة الألم الذي تعكسه مؤشـرا على مدى تفاقم الأزمات أو تقلصها.

❁ ❁ ❁

لئـن أصـاب الكاتب الايرلنـدي جورج برنـارد شـو عندمـا قـال: «طريقتي في السخريـة هي قـول الحقيقـة، فقد باتت الحقيقة في عصرنـا أشد النكات سخرية!» فهـل كانت سخريـة أم حكمـة أن يتحدث القصصي الأمريكـي الساخر الأكثر شهرة مارك توين عن الحقيقـة قائلا: «الحقيقة هي أغلى شيء عندنا، ولذلك دعونا نقتصد فيها»! بالمناسبة، مارك توين من أشد كتاب أوربا وأمريكا سخرية منا نحن العرب!

من ناحية أخرى وعلى الرغم من غزارة إنتاج دانتوس وتمايزه، فقد كان دائم الشكوى بقوله: «سحقاً لمن سبقونا فقد قالوا أقوالنا كلها».

وكثيرا مـا يلجأ القادة الكبـار إلى مثل هذه السخريـة للتخفيف من ثقل الضغوط التـي يعانونهـا، أو للتملص من مـآزق أو أخطاء يرتكبونها. كان جواهر لال نهرو، أول رئيس لوزراء الهند بعد استقلالها ومؤسس معجزة المحافظـة على وحدتها على الرغم من التنوع الثقافي والديني واللغوي والفوارق الطبقيـة والاجتماعية والمتناقضات الهائلة بين سكانهـا وشريك الرئيس المصري جمال عبد الناصـر والإندونيسي لأحمد سوكارنو واليوغسلافي جوزف بـروز تيتو في إطلاق مبـدأ الحياد الإيجابي وعـدم الانحياز في العلاقات الدولية ومأسسته، قد رفع شعارا في أوائل الستينيـات يقول:(الحرب النووية لن تقـع).. وعندما سئل نهـرو عن مصدر ثقته الكبيرة بعدم وقـوع الحرب، برغم أن العـالم كان يرتعـد رعبا آنـذاك وهو على شفـير الهاويـة النووية، قـال: لم أكن واثقاً على الإطـلاق. لكن لو وقعت الحرب فعلاً، هـل كان سيبقى أحـد لمحاسبتي على خطأ حساباتي ؟

أما ونستون تشرشل، أشهر رؤساء الوزارة البريطانيـين في القرن العشرين، فقد قالت له نانسـي آستور، الأميركيـة التي تزوجت

اللورد آستور وأصبحت عضواً في البرلمان البريطاني: لو كنت زوجي لوضعت سمّاً في قهوتك. فردّ تشرتشل: لو كنت زوجتي لشربت ذلك السم!

كما قالت بيسي برادوك، وكانت بدورها عضوا في مجلس العموم لتشرشل: ونستون أنت سكران. وردّ عليها فورا: نعم يا سيدتي هذا صحيح، أنا سكران وأنت بشعة. إلا أنني سأصحو غدا، أما أنت فتظلين كما أنت!

❁ ❁ ❁

قبل عقود، كثرت التعليقات الساخرة مع اشتداد حمى زيارات مبعوثين أمريكيين وفرنسيين إلى لبنان لترتيب أمر انتخاب رئيس جديد له، وقد انضم إلى زحام هؤلاء المبعوثين وزراء ودبلوماسيون ومسؤولو استخبارات من روسيا وإيطاليا واسبانيا وبلدان أخرى لا تريد أن تفوتها فرصة المساهمة في توتير الأجواء وتعقيد الأزمة للمشاركة في اتخاذ القرار، ثم في قطف الثمار، بمن فيهم مبعوثون من الشطر اليوناني في جزيرة قبرص! من تلك التعليقات الساخرة حادثة واقعية تحدثت عنها عدة صحف لبنانية في سياق انتخابات سابقة كانت الولايات المتحدة قد التزمت فيها بدعم مرشح حلفائها بقوة.لكن مفاجأة صدمت أبرز هؤلاء الحلفاء عندما استدعاهم المبعوث الأمريكي دين براون وأبلغهم أن تفاهما قد تم لترئيس مرشح آخر. كظم الحضور غيظهم ولم يملكوا سوى الالتزام بهذه التعليمات التي يسمونها «كلمة السر»، إلا أن أحد الحضور من السياسيين اللبنانيين لم يضبط أعصابه فقال لدين براون بحزن وحرقة وأسى: «وهكذا، أنتم بعتمونا مجددا!» استبدل براون سريعاً علائم الغضب على وجهه وأطلق ضحكة مجلجلة وهو يقول: لا، لا، هذه المرة اكتفينا بتأجيركم فقط، لا ببيعكم»!

❁ ❁ ❁

اقترح جمعة اللامي يوماً عربياً للضحك! وقال إن هذه الفكرة هي ابنة ساعتها، وهي إحدى نتائج صبر طويل، وقرون من الصمت والدموع الحرى:«كنا في تلك العقود، كما في تلك القرون، نبكي لأننا شجعان، بينما كان الجبناء يضحكون، كما في مقولة رائعة للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه. الشجاع يبكي، نعم، لا شك في ذلك، خصوصاً عندما يعرف أنه شجاع، ويعرف من حوله أنه شجاع، ويعرف عدوه أنه شجاع، لكن الجبناء الذين يتحكمون

بمصائـــر الناس يمنعون هذا الشجاع بطرق شتى حتى من البكاء..»[٨].

لكـن الكاتبــة خنســاء بنــت المثنــى عملــت بمقولــة «إذا أردت أن تطاع فاطلب المستطاع»، فلم تطمع بيوم عربي للضحك، بل قصرت طلبها في حلقتي مقالتها ليومين متتاليين علــى الابتسام[٩]، بل إنها هاجمت الضحــك في ترويجها للابتســـام إذ قالت: «تعتبر الابتسامة أجمل لغة في الحياة، فهي الإضاءة الطبيعية لوجه الإنسان، والإشراقة المنيرة لطريق سعادته وصحته، وهي الشعور النفسي العميق النابع من القلب بالطمأنينة والســرور والبهجة، والرضا وراحة الضمير. وهي إصلاح لمــزاج الإنســـان والتوازن بين عناصــر جسمــه، بل هي خير عـــلاج لعقل الإنسان الباطن ولقلبــه والابتسامة أفضل وأصعب من الضحك؛ لأن الابتسامة هي رد فعل للسرور، بينما الضحك هو رد فعل للألم أحياناً، والابتسامة هي فعــل إرادة واقتناع وقناعـــة ورضا، أما الضحكـــة فهي تتفجر للحظـــة أو لحظات كما يتفجر البالون، وما تلبــث أن تتلاشـــى يقول بعضــ خبراء علم النفس، إنـــك إذا لم تضحـــك لنكتة أو تهتز لها بعـــد أن ضحك منها الآخـــرون، فلابد أن تراجـــع الطبيـــب الاختصاصي بالطب النفســـي، لأن خلايا الضحك والسرور التي تستقـــر في النصف الأيمن من الدماغ يكون قـــد أصابها التلف! أو علـــى أقل تقدير قد شاخت أو تبلدت عـــن الاستجابة، وهذا ما يفقدك القدرة على تذوق النكتة والإحساس بها والتمتع بمعناها والضحك منها».

مرة أخرى، ينقل هذا وذاك، وهذه وتلك، عن أطباء قولهم أن الضحك يحرِّك عضلات البطـــن والصدر والكتفـــين، وكذلك ينشط الـــدورة الدموية بصورة عامـــة، والضحكة الواحدة تعـــادل ممارسة الرياضة لمدة عشر دقائـــق، ولقـــد شبَّه أحد العلمـــاء الضحك بالهرولـــة وأنت جالس. والضحك أيضا، في تدرجاته ما بـــين الابتسامة والقهقهة، يعزز المناعة النفسية والمعنوية للإنسان.

وفي عـــودة إلى الابتسامـــة التـــي تروج خنســـاء بنت المثنـــى لها، نجدهـــا تعتبر أن الابتسامة شعاعاً من أشعة الشمس، وبلسماً حقيقياً للشفاء من الأمراض، ومتنفساً هادئاً لأصحاب التوترات العصبية والاضطرابات النفسيـــة. كم يود المريض أن يرى وهو على سريـــر المرض، ابتسامة الطبيـــب المعالج أو الممرضة المشرفة على علاجه، أو حتى على شفاه أصدقائه وأهله.



عجيب تصنع كثــير من الأطباء العبوس في وجــوه المرضى، بل وصراخ بعضهم زجراً وتعنيفاً لمرضاهم دليلاً على الجدية (!) أو - كما يقسم على ذلك كثير من أولئك المرضى - اتّباعاً لتقنية حديثة تتعمد إرعاب المريض وإرهابــه من أجل تهيئته نفسيا لتقبل تكرار قدومه إلى عيادة الطبيب وما سوف يجريه مــن عمليات جراحية بأسعــار يضطر أكثر أولئــك المرضــى إزاءها إلى بيــع مساكنهم وأثاثهــا وحتى ثيابهم، أو قــد يضطر أهل المريضــ إلى الاقتراضــ أو التسول لسداد نفقات علاج مبالغ فيها وفيه، بينما المريض أحوج النــاس إلى ابتسامة من الطبيب تشد أزره وترفــع معنوياته، وكلمــة طيبة هادئة تلاطفه وتخفف من توتره وقلقه. الابتسامة تساعد المريضــ في التماثل إلى الشفاء من الأمراض وهي خير علاج للقلب المريض أو المتعب. الابتسامة هي غذاء للنفس والروح، بل إنها تساعد على الهضم وتحفظ الشباب وتطيل العمر، وتنعش الأحاسيس، وليغضب الأطبــاء العابسون. وهكــذا، لجأ عدد من مستشفيات الأطفــال في أوربا إلى استقدام مهرّجين لتسلية نزلائهــم المرضى والترويح عنهم. فحتى إذا لم يساعد في شفاء الأطفال، فإنه يعينهم على نسيــان آلامهم، ويمنحهم دفئاً معنوياً يزيد من صمودهم ويعزز قدرة تحملهم.

كمــا تزيــد الابتسامة مــن نشاط ذهن صاحبهــا ومــردوده، وتقوي القــدرة على تثبيــت الذكريــات وتوسيع ساحــة الانتباه والتعمق الفكري، وبالتالي يصبح المرء أقدر على التخيــل والإبداع ودقة التفكير، وتبعث الابتسامة السعادة الداخلية، فيزداد إشراق الوجه مجددا بحيوية ونشاط. وفي الضحك سلوى أكيدة للقلوب المفجوعة، ودواء لجروح النفس. كمــا أكدت دراسات عن (الحملات الانتخابية) أن البشوشــ أقرب إلى القلوب وشعبيتــه أكبر بكثير مــن عابس يفوقه مالا وعلما. مع ذلك يتبارى موظفون وسياسيون ومشاريع مسؤولــين عندنا في شدة العبوس زجــراً للمواطنين وإثــارة لرعبهم، متمثلين سيافي القرون الوسطى وجلاديها!

لخص العالم الفرنســي بيير فاشيه بعد سنــين مــن أبحاثه بعض فوائــد الضحك، فقال إنه يوســع الشرايين والأوردة، وينشط الــدورة الدموية، ويعمّــق التنفس، ويحمل الأكسجــين إلى أبعــد أطــراف الجســم. ويــؤدي بنفس الوقــت إلى زيــادة إفرازات

الغــدد الصم مثل غــدة البنكرياس والغدد الكظرية والدرقيــة والنخامية والتوتة، وفي مقدمة تلــك الغدد القلــب لأن القلب غدة صماء أيضــاً ويفرز هرمون الببتيد الأذيني المدر للصوديوم. وقــد اكتشف عالم آخر أن الضحك يزيد بصورة خاصة من إفراز مادة البيتــا إندورفين، الهرمــون الذي يصل إلى خلايــا الدماغ، ويعطي أثراً مخــدراً شبيهاً بأثــر المورفــين، فيخلد الإنســان إلى النوم الهادي السعيد. هــذا اكتشاف يهم المبتلين بالكآبة الذين يعانون الأرق والقلق والكوابيس أثناء النوم.

الضَحِــكُ والابتسامــة هبة من الله عز وجــل للطبيعــة البشرية، لإنعاشــ أعضاء الجسم واسترخائها. وفي الضحك حركة آلية ذاتية تدلك الكثير من العضلات، وبالأخص بواسطة الحجــاب الحاجز الذي يؤثر على الرئتين، فيساعد على دخول وخروج الهواء بسرعــة، وبصورة أعمــق إلى الحويصلات التي لا يصلها هواء في أغلب الأحيان. يقوم الحجاب الحاجــز لدى الضحــك بتدليك فيزيائي للكبد والمعدة والأمعاء، فيساعدها علــى تنشيط عمليتي الإفــراغ والإفراز في المعــدة والكبد. كما يدلــك الضحك القلب فينشط الدورة الدموية بصورة عامة.

قيل قديماً: «اضحــك تصحَ»، وهذا ما أكدته التجارب والأبحاث، حيث إن للعاملين الحركــي والنفسي اللذين يرافقان الضحك أثر كبــير في إنعاش الجســم والقلب وبعث النشاط في الضاحكــين. في المقابل، يحتاج العبوســ إلى تحريك أكثر من أربعين عضلة في الوجه، بينما لا تحتاج إلا لتحريك خمس عضلات من عضلات الوجــه لكي تبتسم. وثبت طبيــاً أن طول فــترات الحزن والغم والقلــق والتفكــير الضاغط علــى الصدر يتعب عضلة القلــب، ويسبب ارتفاع ضغط الــدم الشرياني.من هنا كان الحديث النبوي الشريف خير نصيحة طبية نفسانية، تجدد راحة روح الإنسان وحبه للحياة، إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلّت عميت). بل إن النبي (ص) قد قرر أن «ابتسامة المرء في وجه أخيه صدقة»!

وللضحــك حيــز لا بأس بــه في تاريخ العــرب بالذات فقــد كان العــرب يحبون الضحــك بشكل تلقائي وعفــوي، ويعرفون تأثيراته النافعة. ورد هذا من خلال نوادر أو قصص طريفة، كنــوادر جحا والبخلاء من

كتابات الجاحظ، وما ورد في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني إذ قال القاضي عياض مثلا: (التحدث بمُلَح الأخبار، وطُرف الحكايات تسلية للنفس، وجلاء للقلب).

لقد تم الاعتراف بعلم نفس الضحك في بداية القرن العشرين وبات يشغل حيّزاً من الرسائل الفلسفية، وأشار عالم النفس الشهير سيغموند فرويد إلى فوائده. واليوم عندما يضع العلماء الخطوط الأولى لفيزيولوجية الضحك فإنهم يعزون له نتائج إيجابية ومميزات علاجية أيضاً. فالضحك تمرين عضلي وتقنية تنفسية، ومنشط نفسي مهم أيضاً. كما يعزو إليه علماء النفس مفعولاً مزيلاً للتسمم المعنوي والجسدي، لأنه يساعد في التخلص من نوبات الاكتئاب البسيطة والمخاوف، ويشير الباحثون الأوروبيون حالياً إلى أن الضحك يساهم أيضاً في تخفيف آثار التوترات الضارة بصورة ملحوظة.

إن جوهر الأدب الساخر، من شعر ونثر وصحافة كاريكاتير ومقالة مرحة هادفة، هو السعي إلى زرع البسمة في النفوس، مع إيصال فكرة ما، أما كوميديا التمثيل المسرحي فتشاغب الضحكات وتعابثها غالباً، من خلال مواقف تبعث على الترويح عن النفس في إطار (الضحك للضحك) الذي هو فن وليس فلسفة؛ في لحظة (تنفيس) وليست لحظة (تأملات فكرية). ولكل من الأدب الساخر والتمثيل الهزلي دوره وفرسانه.

ورغم كل فوائد الابتسام والضحك في حياة الإنسان فلابد أن يكون للضحك والإضحاك آدابهما.

ففي كثرة الضحك المبتذل والمليء بالقهقهة ضرر مؤكد متعدد الجوانب. وقيل أن القهقهة ليست من صفات الإنسان المتحضر، بل هي صفة تنفرد بها القرود. أما الضحكة الصفراء الزاخرة بالتشفي من آخرين والتعالي عليهم والسخرية من نقص عقلي أو جسدي بهم، فويل لأصحابها!

وإذ نتذكر هنا مقولة «أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وقلة الشبع وقلة الحسد»، فلا أظن المقصود هو الضحك الذي يخفف من وطأة المشاكل والهموم والأحزان، ولا حتى الضحك الذي يمتهنه موهوبون بفن الإضحاك مادام أحدهم يحافظ على توازنه. وقد قال الممثل الهزلي الأشهر شارلي شابلن في هذا الصدد: «إن الناس يتعاطفون معي بحق حينما يضحكون لأنه بمجرد ما يزيد

الطابع التراجيدي عــن الحد، فإنه سرعان ما يصبح موقفاً باعثاً على الضحك».

ولكن، كثيراً ما يواجــه الإنسان مواقف من الهلــع والقلق، فينفجر ضاحكاً. في مثل هــذه المواقــف الخطرة، يضحــك الإنسان لمواجهتهــا، لأنه يحــاول بالضحك أن يرفع مــن روحــه المعنويــة أو أن يستجمع بعض شجاعته.إنمــا الضحك بغــير هدف يميت القلب ويجعله كصخرة صماء.



أكثر ما في حياتنا أيــام قررتها قرارات محليــة أو دولية أيام احتفــال بكذا أو كذا، حتــى لم يبق في تقويمنا يــوم واحد لم يعتمد لاحتفــال أو ذكرى، بل من الأيام ما تراكمت في كل منهــا عــدة أعيــاد (!) أو مناسبات، فلمــاذا لا نجرب يوما للضحــك الذي عز كثــيراً؟ لعل العرب دون سواهم، أو أكثر من سواهم، يسعدون بالبلايا ليضحكوا.. أليست مقولتهم المأثورة: شر البلية ما يضحك!؟ مع الاعتراف بطغيان فيضانــات البلايا، يبدو أن شرها لا يزال قيــد القدوم، ولذلك ندر الضحك، إلا ضحــك المرء على نفسه. وإذا كان بعضنا لا يزال يهاب الضحك تأثرا بما لقنــه في طفولته من أن «الضحك بلا سبب قلة أدب»، فليبحث حوله عما بقي من فتات أدب!

الهوامش

1- **مجلة العربي، الكويت، العدد ٣٣٢، فلسفة الضحك، ص٦٦.**
2- **العربي، افتتاحية العدد ٣٢٩، نيسان ١٩٨٦.**
3- **الخليج، ٢٠٠٧/٧/٣.**
4- **في عددها الأخير لعام ٢٠٠٧.**
5- **أبو خلدون، الضحك،الخليج ١/٢٧/ ٢٠٠٨.**
6- **الخليج،٢٠٠٧/٣/٢٠.**
7- **يديعوت أحرونوت، ٤/١٩ /٢٠٠٨.**
8- **تعالوا نضحك، الخليج، ٢٠٠٨/٧/٢٤**
9- **ابتسم.. فقط ابتسم، الشرق، الدوحة، ٥-٢٠٠٨/٨/٦.**





آفاق المعرفة



الهوية وأزمة المجال المعرفي

د. أحمد طه *

دائماً الهويـة، الحفاظ عليها والذود عنها، استعادتهـا والتأكيد عليها، استكشـاف عناصرها والتعبئة بها ومـن أجلها، فهي الركيزة بالمعنى الثقافي وهي الحمى بالمعنى السياسي وهي الذات عندما تحيل إلى ذاتها، وهي نقيض الآخر تسمو عليه (أو يسمو عليها)، وهي أيضاً اللاتاريخ واللاواقع، فقط هي الجوهر والتعالي والرمـز، أي أنها ما ليس «نحن» في الواقع والتاريخ، وهي أخـيراً المعيار والضابط لكل ممارسة، وهكذا تبدو وكأنها عصا سحريةترمز

* باحث سوري

العمل الفني: الفنان زهير حسيب.

إلى كل شيء وتحـــدده، ولكنها عندما تحيل إلى ذاتهـــا لا تلتقي مـــا أي شيء وهنا تكمن المفارقـــة، وعندما تطرح علينا قضية صراع الحضـــارات، فإننـــا نستحضـــر، عفوياً أو إدارياً، عنصر الهوية ضمن وضعية جبهوية ساحتها الثقافـــة، حيث تأخذ القسمة شكل الوافد/ الموروث، الـــذات الآخر، الأصالة/ المعاصـــرة.. إلخ، ويدور الصـــراع في حرب ثقافيـــة طويلة المدى شغلت الساحة الفكرية والثقافية منذ حوالي قرنين من الزمان وما زالت لم تحســـم بعد. وعلى طول الخط كان يجري التعامـــل مع «الهويـــة» بوصفها نوع مـــن الشرف الثقـــافي أو الحضـــاري. على طـــول الخط أيضاً، لم تكـــن علاقة المجتمع بهويته علاقة تماهي بل تنافر بحكم خضوع المجتمع لمنطق التاريخ وتحولاته والتي تجعل من الواقع ضـــداً لهويته (بحكـــم الغفلة أو حتـــى الخيانة)، ومن هنـــا كان على أعضاء الهوية دائماً خوض حروب داخلية من أجل مطابقة الواقع بالرمز، وبالتالي فإن علاقة الهويـــة بالمجتمـــع لم تكن تمر عـــبر المعرفة والعلم، فالمجتمـــع ليس موضوعيـــاً للهوية إلا من باب الوصايـــة السياسية أو الدينية، حيث تستخدم أساليب مثل التنشئة، التربية، الجهـــاد (النفسي والمجتمعي) وأخيراً الحلم بالعـــودة إلى ما ليس هم ولا نحن في الواقع وهذا هو أضعف الإيمان.

ومـــع ذلك، لو سلمنا بـــأن الرمزي حتى وإن تعالى على الواقع فهو أحد منتجات هذا الواقـــع، فإن عملية «إنتـــاج» الهوية ليست بمنأى عن الأثر التاريخي والاجتماعي، تعبر عنه وتعكـــس تناقضاته وتؤثر فيـــه أيضاً، وبالتالي فإنـــا لو أعلمنـــا إحداثيي التاريخ والاجتماع فسوف نتحدث عن هويات وليس هوية واحدة، سواء اتخذت تعبيرات طائفية أو عائليـــة أو قبلية أو طبقية أو سياسية في هـــذه التشكيلة المتحولـــة والمتصارعة، يبدو خطـــاب الهويـــة وكأنه محاولـــة لإنتاج ذاته ورســـم حـــدوده الخاصة عوضـــاً عن رسم حدود موضوعة.

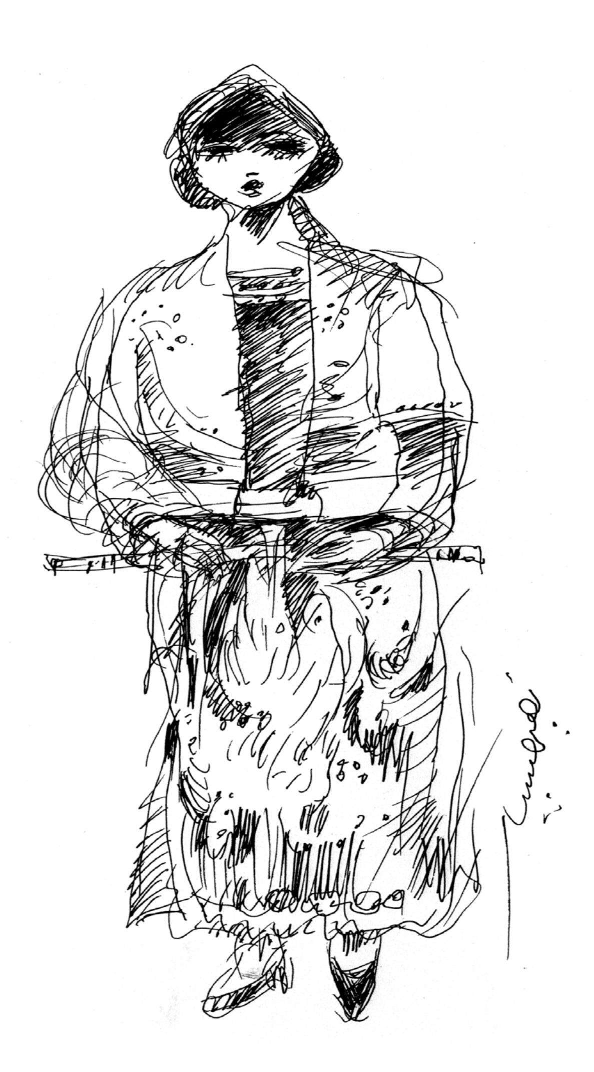
أزمة المجال الاجتماعي والسياسي

لا شـــك أن بدايات القـــرن التاسع عشر كانت نقطة تحول مفصلية في سيرورة إنتاج الخطـــاب حول الهوية، وهـــو إنتاج لا يمكن إرجاعه إلى معطيات ثقافية وفقط، بل لا بد من اعتبار المعطيات السياسية والاجتماعية الجديـــدة، يقـــول برتـــران بـــادي: «تكونت السياسة الحديثة» في العالم الإسلامي، على

أسس نسبية، لم يكن الأمر يتعلق بالانفصال عن نظام سياسي مضى وابتكار آخر جديد فقط، بل بتجديد الذات بالنسبة لقدرة سياسية غربية اعتبرت متفوقة، و لم يكن هذا يعني التجديد بقدر ما كان يعني التكيف، فكانت مجازفة القرن التاسع بأكمله تستند إلى إعداد العلاج وتناول الدواء من مكان آخر، أكثر من استنادها إلى إدارة لإعادة تحديد النظام السياسي أو البنيان الاجتماعي، وإذ يؤكد بادي على أن عمليات الانتقال لم تكن تتم دون قيد أو شرط، فإنه يشير إلى مسألة هامة تتعلق بمفارقات داخلية خلقت نوعا من التحالفات (التاريخية) بين التقليدي والحديث «أولاً وقبل كل شيء- اضطر العمل من أجل تدعيم المركز (السياسي) إلى مواجهة قوى اجتماعية، وخاصة نخبة قوية من الأعيان التي لم تكن راضية عن إعادة بناء مركز قوي، ووجدت في ذلك سببا للغضب الذي كانت قادرة للتعبير عنه، إضافة إلى أن هذا المشروع لم يستطع الاستفادة من منافسة بين نخب اجتماعية- اقتصادية، أو على الأقل من استراتيجيتها المتشابكة، وأخيراً لقد واجه في طريقة الدور النشط لأقليات ثقافية قبلت أحياناً بمنعها مساندة انتقالية، ولكن مقابل ثمن باهظ للغاية، حيث أن هذا التعضيد كان في أغلب الأحيان يعرض للخطر مزاعم النظام بشموليته، أي جزءاً هاماً من هويته».

ما يعنيه ذلك بالنسبة لموضوعنا أمر بالغ الأهمية، لأنه يتعلق بحدود تماسك النظام السياسي الحديث المعبر عن الوحدة السياسية أي: الدولة، الوطن، والمواطنة، وهي التعبيرات الحديثة للوجود السياسي، علينا دائماً أن نبحث أسباب تصاعد مفهوم الهوية داخل فراغات هذا الحيز السياسي، أي في العلاقة بين الدولة الحديثة والمجتمع، والتي أصبح الطابع الوطني علامة وجودها، أي الدولة الوطنية الشعبية. وهكذا كان على المركز السياسي إعادة رسم حدوده وبناء منظومات العلاقات الاجتماعية الجديدة، ونشر تقنيات السلطة والسيطرة الحديثة، ولا جدال في أن الدولة الحديثة كانت قد شرعت فعلياً في هذا الاتجاه ولكن ضمن إخفاقات لا تنكر، كان أهمها إخفاق هذه الدولة عن تحقيق طابعها الوطني الشعبي، وأركز هنا على فكرة المواطنة، والتي يقابلها الإبقاء على توظيف علاقات قبلية وطائفية وعائلية كوسيلة للاستتباع والسيطرة،

مما يعني إنتاج وإعادة إنتاج اللاتجانس السياسي والاجتماعي بل والثقافي، لقد جاءت فكرة المواطنة ذاتها مبتورة حيث بدت الدولة ذاتها وكأنها طائفة، فقد شهدت الأعوام ١٨٧٠ إلى ١٨٨٠ في مصر، «عملية إعادة تنظيم لذلك النظام القضائي المعقد نتجت عنها مراكز قانونية متباينة حيث أصبح الوضع القانوني للأفراد مرتهناً بالمحاكم التي يدخلون في اختصاصاتها في كل أمور الحياة، ومع وجود الخلفية المتمثلة في الجنسية العثمانية، فإن مجموعة الإسنادات الأخرى التي نشأت بالتوازي بدءاً من عام ١٨٩٠ قد عرفت «بالنفي» وضع السكان الأصليين، ويتحدد هذا المفهوم، الذي يعد مشروعاً أولياً للجنسية، وفقا للمنهجية التي يشغلها الفرد، وخدمته للدولة، وانتمائه للمجتمع السياسي. صحيح أن تطور البنى التعليمية والإدارية والقانونية قد حدد بمرور الوقت وضع المواطنة (بدرجات متفاوتة)،



ولكن ظل التجانس الاجتماعي والسياسي والقانوني قائماً حتى وقتنا هذا، وعلى مستوى الواقع الاجتماعي والطبقي حيث يلعب الاقتصاد دوره، وحيث تتفاوت الهوة بين الفئات والطبقات الاجتماعية، وحيث تتزايد معدلات التهميش، فإن فكرة المواطنة

تتعرض للانتهاك يوماً بعد يوم بسبب تزايد مساحة «اللاشرعية». ولا يخفى على أحد عدم تحقق المواطنة عنه استبدال الوضع السياسي- الحقوقي بأوضاع أخرى (طائفية، وقبلية، وعائلية)، وهو ما يعني انقسام الداخل على ذاته، في داخل هذا الانقسام واللاتجانس تنتعش أفكار الهوية وصراعاتها وليس من قبل الجماعات المتعددة ولكن أيضاً من قبل الدولة ذاتها، والتي عليها أن تنتج خطاباً سياسياً متعدد الأوجه يخاطب ويقاطع ويمنع ويستقطب، لأن الأيديولوجية السياسية ليست كالأيديولوجية الدينية، فلا يمكنها إهمال التفاصيل اليومية والواقع المعلمن، ولذا فإنها تعطي للديني والطائفي مجرد مساحة داخل خطابها كضرورة من ضرورات السيطرة تزيد أو تنقص، ولكنها تظل قائمة كمعامل أيديولوجي.

يحتل الغرب جزءاً هاماً داخل هذا المعامل الأيديولوجي من قبل الجماعات الدينية التي تتهم الدولة باعتبارها امتداداً للغرب، ومن قبل الدولة ذاتها لنفي التهمة وكسبيل للالتئام وصنع الوحدة بوسائل تعيد إنتاج الانقسام والذي هو أداة الدولة للسيطرة والهشاشة أيضاً. لاشك أن هذا المعامل الأيديولوجي كان موجوداً طوال الوقت، ولكنه أيضاً لا يقع خارج التاريخ، فهو يعكس تناقضات وتحولات المجتمع، فيأخذ الصبغة السياسية تارة والدينية تارة أخرى، ففي فترات التحرر الوطني وبناء الدولة كان له طابع سياسي بالأساس، أملته ظروف التحرر وأدواته من أحزاب ولجان وتنظيمات سرية، وهو الميراث الذي ورثته واحتكرته أنظمة ما بعد التحرر ودعمت البعد الديني فيه، والذي نما فيما بعد ليعكس حالة من «الاضطراب العميق الذي شهده المجال الثقافي في مختلف بلدان العالم العربي، كما تشهد على ذلك المواقف والمناقشات الدائرة حول المسألة الدينية، ومسألة البحث عن الهوية والأصالة، في الحين الذي انتقلت فيه الآفاق التاريخية التي فتحتها التجربة الوطنية من الصعيد السياسي - الاقتصادي (مهام البناء الوطني) إلى الصعيد الاجتماعي- الثقافي المتمحور حول مسألة الأصالة، وإصلاح أخلاق المجتمع، ولا سيما فيما يتعلق بموضوع المرأة والتشريع، والاجتهاد..» ثمة عوامل عديدة لعبت دوراً كبيراً في تصعيد المجال الثقافي ليست نكسة ١٩٦٧ سببها الرئيسي كما تزعم الغالبية،

بل هناك الثقافة النفطية، وكذلك علاقات السوق الجديدة والذي هو خلق أزمة كبرى على مستوى الفرد، فمن ناحية كانت عملية التفريد تتهم بوتيرة سريعة وعشوائية على المستوى الاقتصادي، في حين لا يقابلها أي تطور في فكرة المواطنة، بل تراجع وتراجع خطير، فبدا المجتمع وكأنه بلا اجتماعية ولا فردية، ولذلك أعتقد أن الانفجار الحادث الآن في الخطاب حول الهوية هو من ناحية تعبير عن أزمة اجتماعية وسياسية كبرى، وتعبير عن أزمة مفهوم الهوية ذاته الذي كان يرتكز على جماعات موجودة في الواقع الآن في طور التحلل، لم يبق منها غير الجماعة الدينية البرغماتية، والتي تشهد انقسامات داخلية عميقة، ليس بسبب معطيات ثقافية بل مادية، يتلاقى ذلك مع أوضاع طبقية مائعة لا تعبر عن وحدتها على مستوى العمال مثلاً إلا من خلال إضرابات سريعة وعابرة ومحدودة جغرافياً حفاظاً على جماعة اقتصادية تسمى القطاع العام تتضافر الجهود الآن لتفكيكها. باختصار فإن نظرة إلى الداخل، تكشف عن أزمة المجال، وما خطاب الهوية إلا أحد أعراض الأزمة، وإذا كانت أزمة المجال تتمثل في أزمة الدولة، المواطنة، الإنتاج وكل الأشكال الجماعية الأخرى، الأحزاب، النقابات، اللجان.. إلخ، فإن تصعيد الخطاب الثقافي حول الهوية يحرف النظر عن مثال هذه الأزمات الواقعية، وهنا يكون للمعامل الأيديولوجي أثر عازل تتجلى خطورته على الصعيد الاجتماعي والمعرفي أيضاً.

أزمة المجال المعرفي

نتوهم إذا تصورنا أن الهوية داء يصيب مجتمعاتنا المقهورة فقط، وأن ما يسمى بالآخر (الغرب) براء من هذا الداء، وأن مجتمعاته تخلو من الانقسامات والتناقضات التي تتطلب خارج توجه إليه هذا التناقضات وتخلق التمايز بين الذات والآخر، ولكن ما يعنينا هنا على المستوى المعرفي هو كيف تعامل الغرب الحديث مع ما اعتبره آخر له، ومع ذلك تجدر الإشارة إلى منطق اللعبة والتي جمعت لأول مرة السلطة والمعرفة في علاقة عضوية محكمة، يقول ميشيل فوكو «بقدر ما كانت تكنولوجيا الحروب، توجه (هذه الحروب) نحو مرحلة الدمار الشامل، كانت في الواقع مسألة مجرد البقاء تملي قرار شن الحروب، وقرار وقفها، فالحالة الذرية هي اليوم نهاية هذا السياق،

فالقدرة علــى تعريض شعب ما لموت شامل هي نقيض القدرة علــى ضمان بقاء شعب أخر، إن مبدأ: إمكان القتل لإمكان العيش، الذي يدعم تكتيك المعارك، غدا اليوم مبدأ استراتيجيا بين الدول، لكن الوجود المعني لم يعد هو الوجود القانوني للسيادة، بل الوجود البيولوجــي لشعب ما، إذا مــا كانت الإبادة الجماعية هي حلم السلطات الحديثة، فليس ذلك بفعل عــودة راهنة لحق القتل القديم، إنمــا لأن السلطة غدت تقــع وتمارس على مستوى الحيــاة والبشر والعرق والظاهرات السكانية الضخمة».

وبصرف النظر عــن أي تقييم أخلاقي يتعلق بهذا المنطق الحديث الذي يرتكز على موت الآخــر، في مقابل الوجود البيولوجي للــذات، فإن ما يعنينا هو أنــه يرتكز أيضاً ويمر عبر معرفة دقيقة وقابلة للقياس كأداة للصراع والوجود، وبالتالي لم يعد الأمر يتعلق فقــط بالإحالة إلى أصــول أو السباحة في فضــاء الرمز (كما يفعل أعضــاء الهوية). بل إنتاج معــارف حول الآخــر، وقد لعبت الاثنولوجيــا والأنثروبولوجيــا والاستشراق دوراً لا يخفــى على أحد في هــذا السياق، تمامــاً مثلمــا تم إنتــاج العلــوم الإنسانية لكشف الداخــل ومعرفته. وعلى الرغم من كل الانتقادات التي وجهت إلى هذه المعارف لكونهــا عنصرية ومنحــازة وعلموية.. إلخ، إلا أنــه لا يمكــن أن ننكــر فعاليتهــا فهي وبكل تأكيد، ليس مجرد خطاب أيديولوجي مسيســ، يستخــدم للتعبئة كمــا هو الحال بالنسبة لخطــاب الهوية- ويعــرف إدوارد سعيــد في دراستــه الرائــدة الاستشراقــي قائلاً: «إن الاستشــراق ليس مجموعة كبيرة ومنتشرة من النصوص حول الشرق، كما أنه ليس معبراً وممثلاً لمؤامرة إمبريالية «غربية» شنيعة لإبقــاء «الشرقي» حيث هــو بل إنه بالأحــرى، تــوزع للوعي الجغــرا- سياسي إلى نصوص جمالية، وبحثيــة واقتصادية، واجتماعيــة، وتاريخية، وفقــه لغوية، وهو إحــكام لا لتمييز جغــرافي أساسي وحسب بــل وكذلــك لسلسلة كاملة مــن «المصالح» التي لا يقوم الاستشــراق بخلقها فقط، بل بالمحافظة عليهــا أيضاً بوسائل كالاكتشاف البحثــي، ولاستبناء فقه اللغــوي، والتحليل النفســي والوصف الطبيعــي والاجتماعي، وهو إرادة، بــدلاً من كعونه تعبيراً عن إرادة معينة أو نية معينة لفهم ما هو، بوضوح، عالم مختلــف (أو بديل أو طارئ) والسيطرة عليه

أحيانــاً والتلاعب به، بــل حتى ضمه، وهو قبل كل شيء إنشاء ليس على الإطلاق على علاقــة تطابقية مباشرة مع القوة السياسية في شكلهــا الخام، بل إنــه لينتج ويوجد في وضع تفاعل غير متكافئ مع مختلف أنماط القوة، وبالفعل فإن منظومة الحقيقة هي أن الاستشراق لا يمثــل ببساطة بعداً هاماً من أبعاد الثقافة السياسية- الفكرية الحديثة. بل إنه هو هذا البعد، وهو بهذه الصورة أقل ارتباطــاً بالشرق منه بعالم «نــا» و«نحن» إن مثل هذا التعــرف في واقع الأمر، في كشفه عــن طبيعة المعرفــة الاستشراقية من حيث كونهــا معرفة تدخل في علاقة تضامنية مع السلطة الحديثة يوضح لنا أيضاً أن إنتاجنا الفكــري حــول الآخر مــا هــو إلا نوع من الخطاب الأيديولوجي المسكون بالسياسي أو الديني، ولذلك فهو يبدأ وينتهي عند الهوية، ويترك الزمــن ليبحث عن أصول، ويخاطب الوجدان لا العقول، ويرتد نحو الذات التي أنتجتــه، وما علاقته بالآخــر سوى علاقة إقصاء وتطهر.

وهنا تظهر وظيفة أخرى كابحة للمعامل الأيديولوجي عندما يسكن الخطاب المعرفي فيقعــده لتكــون الأولويــة دائمــاً للوعظ والإرشاد والتنبيه، من خلال الإحالة الدائمة إلى مرجعية نصية أو كاريزماتية، عوضاً عن أي مرجعية مؤسساتية، كما أن هذا المعامل الأيديولوجــي لا يخص الخطاب الإسلامي وحده، بل نجده الآن وبقوة عند الاتجاهات السياسية العلمانية والتي باتت- خاصة فيما يتعلق بالصــراع العربي -الإسرائيلي- تميل إلى الارتكاز على مصطلــح الهوية كمعامل سياســي مــع الإحالة إلى الماضــي الوطني القريب الــذي يحمل بين تضاعيفه إحالات إلى الماضــي البعيد. تتزامــن هذه الأنماط الخطابيــة مع ضعف مؤسســي واضح على صعيد المجتمع المدني السياسي يصل إلى حد الهشاشة وفي هذا الفراغ المؤسسي علينا أن نتعلق بالرمز والنوايا الحسنة وكلاهما نسبي وليس لهما رصيد كبير داخل حركة التاريخ.

مــن فكريــة الاستقلال الذاتــي إلى فكرية الاستقــواء الذاتي: تحمل فكرية الاستقلال الذاتي في تفصيلاتها كل الكوابح التي أشرنا لها سياسية كانت أم أيديولوجية، وهو الأمر الذي يقف حائلا بينها وبين إمكانية التحول إلى أرض خصبة لإنتاج معرفة واقعية قابلة للقياس حول «الذات» و«العالم» تلك الفكرية التي لا تعــرف ســوى التمجيــد، التعبئة،

الإقصاء..إلـخ كأدوات لرؤيـة العالم، وهي أيضـاً التي استلبت الوجـود الفردي باسم الوجـود الجماعي، بل وسلبـت التنظيمات الجماعيـة الداخلية أسـس وجودها باسم الوحـدة والتحالـف الاجتماعـي، فبقيت الأحزاب، النقابات، الجمعيات مجرد هياكل فارغـة من كل محتوى وكانت وسيطاً للسلب والاستـلاب، حتى بدا هـذا المجتمع، بفعل شعارات الوحـدة والتوحـد وكأنه «مجتمع بـلا اجتماعيـة»، إلا الأشـكال التقليدية والتي أخـذت في التحلل هي الأخرى تحت وقع السوق، والتحولات السكانية والطبقية والهجرات الداخلية والخارجية. هل آن لنا أن ندرك بأننا خاضعون لسلطة أيديولوجية ننتجها وتنتجنـا؟ وهل لنا أن نـدرك بأننا نبتغي وحدة ترتكز على الانقسام والهشاشة؟ وهل لنـا أن ندرك أولاً وقبـل كل شيء أن بنـاء السلطـة الآن لم يعد يعنـي الحماسة أو الأخـلاق، بل يعنـي ببساطـة المؤسسة والمعرفـة اللذين هما الأصالـة والمعاصرة؟ لقد تمحـورت المؤسسـة والمعرفة الحديثة حول الفرد (المواطـن)، والذي أصبح ركيزة الألعـاب السياسيـة والاقتصادية الحديثة سـواء كانت تنميـة أم استغلالا، ولكن يظل هذا المواطن «حقيقة تاريخية لم يتم تجاوزها بعـد لا مـن قبـل الـرؤى «الأصولية»ولا «التقدمية» (بما فيها الاشتراكية ولا حقا ما بعـد الحداثية) ومع ذلـك فثمة نقد عميق وجـه إلى الديمقراطيـة البرجوازية راعية المواطـن والمواطنـة لا يمكننـا تجاهله، إن ما نريـد أن نؤكد، عليه هو أن الحيز (حيز المواطنـة) الذي أصبح صيغـة عالمية تعاني من إخفاقات ومفارقات عديدة- هو بمثابة نقطة ارتـكاز لاستراتيجيـة واسعة لاتزال مطروحة على المستوى الوطني لبناء وإعادة بناء نظام اجتماعي قـوي ومتماسك ضمن أفق يسمح بتجاوز فكـرة المواطنة، وبالتالي النمط الديمقراطـي السائد. إن كل القوى والاتجاهـات العاملة علـى الساحة لم تعط هـذه القضية حقها بدايـة من الاتجاهات الأصوليـة التـي ترفضـ فكـرة المواطنة وتعاديهـا أحياناً، وحتـى بعض الاتجاهات الماركسية التـي لم تفكر في المواطنة عن ثقة في اضمحلال الدولـة الرأسمالية وزوالها، مروراً بالاتجاهـات الليبرالية والتي لا ترى سوى السوق وتقدسه، يضاف إلى ذلك أيضاً حـركات حقوق الإنسان عالمياً ومحلياً والتي إذا تغاضينـا عن أشكال التوظيف السياسي

الــذي تلعبه بعضــ هذه الحــركات، فإنها تتحدث عن المواطنة بلغة المؤسسات الدولية متجاهلة تمامــاً أي نقد يقدم هذه الفكرة، إلا ذلك النقد الذي يفيد في تقديمها كتعبير عن نهاية التاريخ.

أعتقد أن طــرح استراتيجيــة تاريخية واسعة حــول المواطنة، لن يتم إلا من خلال إعــادة طرح تساؤلات تاريخيــة أيضاً حول مؤسســات المجتمع ككل شاملــة المجتمعين السياســي والمدني، بما فيهــا تلك الأشكال التي تعكســ تعبيرات طبقيــة مثل الحزب والنقابة والحــركات النوعية الجديدة. وفي هذا السياق ستدخــل المعرفة من جديد في علاقــة تضامنية مع السلطــة وفق موازين القــوى الاجتماعيــة، وستكــون النظرة إلى الداخل، هي نقطة عبور النظر إلى الخارج، بهدف بنــاء استراتيجية واعيــة للاستقواء الذاتي تــترك صراعات اللغة نحو صراعات الواقــع والتاريخ، ولكن يظــل سؤال أساسي ينبغي الإجابة عليه قبــل كل شيء وهو من هم الفاعلون الجدد؟ أعتقد أن الإجابة على هــذا السؤال ليست واضحة، وعلى أي حال يمكن تقديم إجابة بسيطة على هذا السؤال وهــي: أن الفاعلين الجدد هم أولئك الذين يحررون ذاتهم ومجتمعهم بل وربما الإنسانية من الكوابح الأيديولوجية والسياسية وهم في الغالب ليسوا محترفي سياسة، بل هم أي فرد أو جماعــة في أي تخصص شرط أن يعرفوا أن بناء المجتمع ليســ لعبة أيديولوجية، بل استراتيجية معرفية ومؤسسية ومن هنا يكون بناء السلطة، وتشــترط هذه الدولة تنظيماً خاصــاً للمجال السياسي، الذي تتحقق فيه ممارسة السلطــة السياسية، وترسخ الدولة (المركــزة والمبقرطة..إلخ) هــذا التذرير، وتمثل (الدولة التمثيلية) وحدة هذا الجسم (الأمة والشعب) المقســم شكلياً إلى جواهر حقيقيــة متساويــة في الحقــوق (السيادة القومية، الإدارة الشعبية) وتؤثر مادية الدولة وأجهزتها على جسم اجتماعي مقسم. ولكنه متجانس رغــم انقسامه، وموحد رغم عزلة عناصره ونذرها».

المراجع :

١- برتــران بــادي، الدولتــان: السلطــة والمجتمع في الغرب وفي بــلاد الإسلام، ترجمــة لطيف فرح، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط٢، القاهرة، ١٩٩٨.

٢- فريدريــك أبيقسيس وآلوجــان كازازيان، الهوية في مرآة القانون، حــال الأشخاص في مصر والعالم

العربي (نهاية القرن التاسع عشر- منتصف القرن العشرين)، مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية القانونية والاجتماعية، القاهرة.

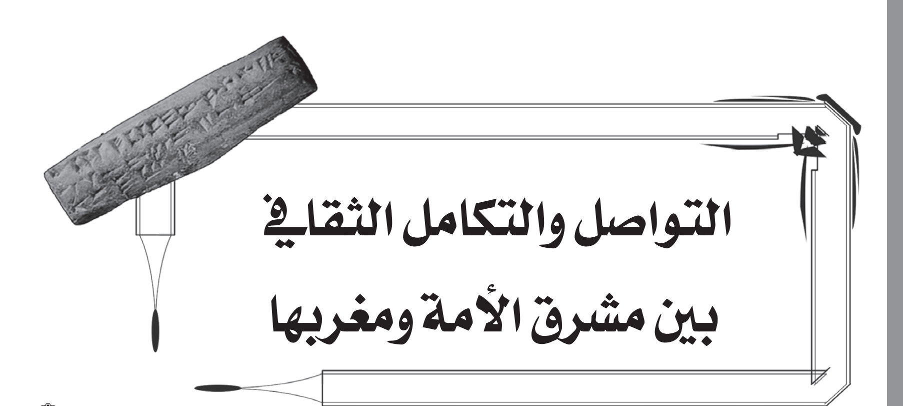
٣- ميشيل فوكو، إرادة المعرفة، ترجمة مطاع صفدي وجورج أبي صالح، مركز الإنماء العربي، بيروت، ١٩٩٠.

٤- إدوارد سعيد، بيروت، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.





آفاق المعرفة



التواصل والتكامل الثقافي في بين مشرق الأمة ومغربها

د.محي الدين عميمور*

إن تقسيم دار الإسلام إلى مشرق ومغرب لم يكن على أساس جغرافي كما هو الآن، وكما يقول الباحث المصري الدكتور محمود إسماعيل، بل كان حسب وجود العاصمة، التي انتقلت من المدينة إلى دمشق ثم إلى بغداد فالقاهرة، وهكذا كانت المنطقة التي تقع شرق العاصمة تسمى المشرق، وكان مصطلح المغرب يعني الأقاليم التي تقع غربها، وانطلاقاً من هذا فإن الشام ومصر في العصر العباسي تعتبر من بلاد الغرب، حسب التقسيم الإداري الذي أخذ به جغرافيو ذلك العصر.

* أديب ومفكر جزائري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

وحتى في العصر الحديث اختلفت النظرة إلى المشرق والمغرب، فقد كان مفهوم المغرب العربي خلال مرحلة الحركة الوطنية التي تميزت بلقاء طنجة في ١٩٥٨ يعني الأقطار الثلاثة، تونس والجزائر والمغرب الأقصى، أو مراكش آنذاك، وجرى تجاهل ما يقع إلى جنوب المملكة المغربية وحتى نهر السنغال بما في ذلك شنقيط التاريخية، وما يمتد نحو الشرق حتى الحدود المصرية ليشمل طرابلس وبرقة وفزان.

وتعقدت الأمور بعد استرجاع دول المغرب لاستقلالها نتيجة للتعقيدات التي قاد إليها استقلال موريتانيا، ثم نتيجة لنظرة سياسية معينة كانت ترى في تعبير المغرب العربي شيئاً مشابهاً لتعبير الهلال الخصيب، أي أنه فكرة استعمارية لإجهاض الوحدة العربية، وهو ما تميز به الخطاب المتحمس للأشقاء في ليبيا، وعانينا منه في السبعينيات، لكن الوضع تغير عندما انضمت ليبيا إلى اتحاد المغرب العربي.

وإذا عدنا إلى السؤال حول الحدود، فسنجد أن البعض يُقحم قناة السويس لتكون خط الاستواء العملي الذي يُقسم المنطقة إلى مشرق ومغرب، وربما كان هذا المبرر السياسي الظاهري للفكرة التي انطلقت منذ سنوات واستهدفت إلحاق مصر بالمغرب العربي.

لكن.

سأبدأ من البدايات، وهو التكوين السكاني لشعوب منطقة المغرب العربي، حيث يرى مؤرخون كثيرون، ممن يعتقدون بأن الجزيرة العربية هي خزان الهجرات المتعاقبة، أن أصل السكان في الشمال الإفريقي يعود إليها، ويعتبرهم البعض من العرب العاربة بينما يرى آخرون أنهم هم العرب البائدة الذين بدا وكأن الأرض انشقت وبلعت جموعهم، في حين أنهم انطلقوا بكل بساطة غرباً ليستقروا غرب وادي النيل وحتى المحيط الأطلسي.

ولقد كان الباحث السوري الكبير الأستاذ محمد علي مادون في طليعة من يرون أن البربر في الشمال الإفريقي هم عرب قدامى، ويؤيده في ذلك باحثون من الجزائر وتونس، ويرفضون الأصل الشمالي لمجموع السكان، وكان منطلقهم في ذلك أن أوروبة كانت عند تكون المجموعات البشرية الأولى في الشمال الإفريقي، مجرد مساحات جليدية واسعة.

وأهمية هذه النظرية هي أنها تثبت

الوحدة الديموغرافية لمشرق الوطن العربي ومغربه، وتفسر السرعة التي تم بها تقبل اللغة العربية في الشمال الإفريقي، مقارنة بشبه الجزيرة الهندية وبلاد فارس التي فتحت في نفس الوقت، ولكن العربية لم تصبح لغة البلاد لوجود لغة محلية بعيدة في النسب عنها، بينما كانت لهجات الشمال الإفريقي جزءاً من اللغة العربية تطورت بعيداً عنها ولكنها لم تفقد انتماءها لها.

وأتوقف هنا لحظات لأوضح أمراً أتصور أنه يغيب عن الكثيرين. فلقد كانت المنطقة الواقعة غرب مصر تسمى لوبيا (بالواو) وكانت لها في الأزمنة الساحقة علاقات وثيقة بالممالك الفرعونية، وهناك من يقولون بأن شينينق الأول ملك الأسرة الثالثة والعشرين هو من أبناء المنطقة التي أصبحت تعرف فيما بعد بالجزائر، وبغض النظر عن تناقض الروايات بالنسبة لظروف وجود الملك هناك وعما إذا كان مهاجراً أو فاتحاً وأهمية الأمر هنا هي أن العلاقات بين غرب المشرق العربي وشرق المغرب العربي تعود إلى أزمان غابرة.

وقد أطلق الرومان على الشمال الإفريقي تعبير بارباريا، المشتق من كلمة البربر (Barbare) التي كانت تعني بالنسبة لروما غربة المكان واللسان والخلق والطباع، وحرفت الصفة تدريجياً إلى أن أصبحت تنطق بالفرنسية بربر، واعتبر حمقى كثيرون بتأثير الفكر الاستعماري الرافض لأي علاقة بين المشرق والمغرب، أن الصفة تعني جنساً متميزاً ذا أصل آري ولا يرتبط بأي حال من الأحوال بالشعوب السامية، هذا إذا قبلنا فكرة السامية والحامية التي اخترعها اللغويون الألمان، ويرى كثيرون أنها خرافة تاريخية.

وتأتي هنا الأهمية الثانية للأمر والتي فرضت علي أن أتوقف عنده، فعدد سكان المنطقة الواقعة غرب مصر وحتى المحيط الأطلسي كان عند حدوث الفتح الإسلامي، في حدود خمسة أو ستة ملايين، جاء إليها مع الفتح عرب يحملون رسالة الإسلام ولا يتجاوز عددهم عدة آلاف، ولو أضفنا إلى ذلك عدداً لا يتجاوز ثلاثمئة ألف وفدوا إلى المنطقة فيما سمي بالغزوة الهلالية فإننا سندرك بأن عدداً من الوافدين العرب، لا يصل إلى نصف مليون نسمة، لا يمكن أن يُغير الطبيعة العرقية للمنطقة، بل إنه سيذوب فيها، وهو ما حدث بالفعل.

ومن هنا يأتي اليقين بأن الأغلبية الساحقة لسكان الشمال الإفريقي هم بتعبير اقتبسه الرئيس الجزائري الأسبق الشاذلي بن جديد عن العلامة المصري الشيخ محمد الغزال. هم بربر عرّبهم الإسلام، ومن هنا كانت سعادة الرئيس البالغة عندما اقترحت عليه في بداية الثمانينيات استبدال صفة «الأمازيغية» التي لم تكن متداولة شعبياً، بتعبير كان الاستعمار وعملاؤه يتمسكون به، وهو صفة «البربرية»، التي يجب أن تحذف نهائياً من قاموس التداول، وهو ما حدث فعلاً، وباختصار شديد، الأمازيغية في الجزائر ليست صفة الأقلية ولكنها هي العمق التاريخي للأغلبية، التي تتمسك بتعبير رسول الله عليه الصلاة والسلام بأن العربية هي اللسان، وهكذا أعطت الجزائر للعروبة والإسلام فاتحين



من طراز طارق ابن زياد، ونحويين من طراز ابن معطي الزواوي. كما انطلقت منها نواة الفاطميين الذين أقاموا دولتهم في مصر، وكانت أول مبادرة منهجية لاستعمال اللغة العربية ما عرفته أجهزة الدولة الرسمية في تيهرت في القرن التاسع الميلادي، رغم أن أمير الدولة كان فارسياً وأسس دولته في بيئة بربرية.

وهنا تتضح الأهداف الحقيقية لمن يحاربون العربية في الجزائر، حيث يتأكد

أنهم يحاربون من خلالها الإسلام، كحضارة وكثقافة وكرباط مع المشرق العربي.

وأرجع بضعة عقود إلى الوراء لأذكر بأن المسيحيين في بلادنا كما أتصور تلقوا الدين المسيحي في بداياته عن المشرق، إذ برزت في الجزائر على وجه الخصوص، الدعوة الدوناتية، نسبة لقسيس جزائري يدعى الأب «دونا»، وكانت فيما يقال، مسيحية أقرب إلى القبطية في ارتباطها بالوطن وبالأرض، وأقرب إلى النظرة التي يراها الإسلام للمسيحية، خصوصاً فيما يتعلق بقضية التثليث؛ لكن الغزو الروماني قلب المعطيات واتجه نحو التخلص من الدوناتيين لوطنيتهم، واستعمل في سبيل ذلك رومياً ولد في الجزائر يسمى «أوغستان»، وتعرضت المسيحية الأصلية إلى اضطهاد رهيب لمصلحة الكاثوليكية المستوردة من روما، وهو ما دفع الكثيرون من أبنائها في القرن الميلادي السابع إلى الترحيب برسالة الإسلام ثم إلى اعتناقه.

وأصبح الراهب الروماني بعد ذلك مرجعية مسيحية للغرب الاستعماري، وحمل لقب «سانت أوغستان».

هذا ما جعل الجنرال شارل ديغول يعود إلى الأمر وهو يواجه الثورة في الخمسينيات ويبذل كل الجهود العسكرية والاقتصادية والسياسة لتكون الجزائر لفرنسا ما كانته لروما القديمة، عقيدة دينية وتبعية ثقافية وامتداداً جغرافياً.

وسأحاول الآن، وباختصار شديد أن أركز على العصور الحديثة حيث عرفت العلاقات الثقافية بين المشرق والمغرب خلال العلاقات الحوارية بما يؤكد ما ذهب إليه الدكتور جابر عصفور، من ضرورة الالتزام بالحوار الخلاق الذي يثري الثقافة العربية، ويبتعد بأهل الفكر في المغرب العربي عن المشاعر السلبية التي يمكن أن يقود لها ما ينقل من تعليق للمشارقة على إنتاجهم الفكري، بالقول إنها «بضاعتنا ردت إلينا»، التي قالها الصاحب بن عباد حين عُرض عليه كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، وللأمانة فإن هذا التعبير يُقال أحياناً خارج سياقه، حيث أن الصاحب كان عن حق يريد أن يقرأ أدباً يمثل المغرب العربي والأندلس بدلاً مما جمعه الصاحب من النصوص المشرقية، كالحيوان للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة.

وربما كانت هذه الخلفية جزئياً وراء

الصــراع بين الفكــرة الإقليميــة التي تريد أن تجعل لكل إقليــم طابعه الفريد والمتميز عــن طابع إقليم آخر وبــين الفكرة القومية التي اندفع إليها ساطع الحصري ومفكرون آخرون من منطلق تأكيد وحدة الأدب العربي والثقافة العربية.

لكــن لا بد من الاعــتراف بوجود حجم كبير من الحساسيات المرضية، ربما أكدتها المراسلات بين التونسيين أبي القاسم الشابي ومحمد الحليوي، والتي تنازعت فيها النظرة الدونية مع الإحساســ بالتفوق، وتصل إلى حد البارانويا عندما نقرأ للحليوي بأنه: «لا شك أن مصر ستردمنا بكتبها ومجلاتها فلا نعود نجد مكاناً نتنفس فيه الهواء أو يدخل لنا النور، أما تونس فهي باقية على جمودها وخمودها ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وهنا نجد أن من أطرف التعبيرات الدالة على الوضع مــا رواه الأستاذ السوري طيب تيزيني مــن أن البعض أعلنوا بأن ما يقرب بين المشرق والمغرب إنما يقوم على ما يُباعد بين المشرق والمغرب.

لكن هنــاك من توقفوا عنــد التأثيرات المتبادلــة لفلاسفــة المشــرق والمغرب، ومن بينهــم الأستــاذ المصري الدكتــور عاطف العراقــي الذي عمل للكشــف عن المؤثرات المشرقيــة في فكر المغرب العربي، من خلال النقد الذي وجهه ابــن رشد للفارابي، أكبر الفلاسفــة والمعلم الأول بعد أرسطو، والذي كان كتابــه «الحروف» موضع تأثر ابن رشد، الذي تأثر أيضاً بابن سينا.

ولعلي أتوقــف هنا عند ما قاله الأستاذ التونسي عبد السلام المسدي من أن المغرب العربــي شهــد ظهور ابن رشــد، الذي قال عنه أعلام النهضــة الأوروبية منذ انبعاثها الحديث: «لئــن استطاع أرسطــو أن يفسر الطبيعة وما وراءهــا، فالذي فسر أرسطو إنمــا هو ابن رشد»، وبــدون أن أعود للغط الذي ثــار حول فيلم يوسف شاهين عن بن رشــد والذي يشكل نقطــة خلاف بين كثير من المثقفين، فإنني مضطر للتحفظ على ما يقوله المسدي من أن الخلفيتين الأساسيتين المتحكمتــين في الثقافة المعاصرة هما المورد الأنغلو ساكسوني بالنسبــة للمشرق العربي والمرجعيــة الفرنسيــة بالنسبــة للمغــرب العربي.

فبالنسبــة للمشــرق العربــي نجــد أن المرجعية الفكرية بالنسبة لأكبر بلاده، مصر والتي تأثرت بالحملة الفرنسية لا بالاحتلال

البريطاني، وتمحورت حول المرجعية الفرنسية منذ كتاب رفاعة الطهطاوي عن /الإبريز في وصف باريز/، وهو ما أخذ صورة أكثر عمقاً مع طه حسين الذي لم يتأثر بأي مرجعية أنغلو ساكسونية، ولعل الأمر نفسه ينطبق على بلاد الشام أو على جزء منها.

أما بالنسبة للمغرب العربي، وللجزائر تحديداً، فالنخبة التي اعتمدت المرجعية الفرنسية ظلت دائماً محدودة التأثير الفكري على الساحة الثقافية، وإن كانت السياسة أعطتها أحياناً أكبر من حجمها الحقيقي، ويكفي مثالاً لذلك التعبير المتميز الذي روي عن أروع الكتاب الجزائريين بالفرنسية وهو المرحوم مالك حداد، حيث قال: «الفرنسية هي منفاي».

ثم إن معظم المثقفين الوطنيين لم يعرف عنهم انتماءهم للثقافة الفرنسية، وسواء تعلق الأمر بالإمام عبد الحميد بن باديس أو بتلاميذه من بعده، أو بالمعاصرين من الأدباء ومن بينهم عبد الله ركيبي وزهور ونيسي وبلقاسم سعد الله وعبد الله شريط وطاهر وطار وأحلام مستغانمي، وظل التعامل بالفرنسية أداء نخبوياً مغلقاً، ضاعف من عزلته أن كثيراً من المثقفين بالفرنسية لا يقرؤون ما يكتب بالعربية، بعكس العديد من المثقفين باللغة العربية، سواء كانوا من خريجي المشرق العربي أو ممن لم يعرفوا إلا معاهد المغرب العربي.

ولقد أشرت إلى الدور السياسي في الترويج لأسماء معينة اعتمدت المرجعية اللغوية الفرنسية، وبرز ذلك عبر أسماء مثقفين يستعملون اللغة الفرنسية، ابتداء من الأمير خالد مروراً بكاتب ياسين وآسيا جبار ووصولاً إلى ياسمينة خضرة، وبدون أي حكم قيمة.

والجدل متواصل حول ما إذا كان ما يكتب بالفرنسية يمكن أن يعتبر تعبيراً عن الحضارة العربية الإسلامية التي تنتمي لها الجزائر مقدماً بلغة غير عربية أم أنه صورة أدبية تعبر عن واقع مرحلي جاء به الاستعمار، ويمكن أحياناً أن تنزلق فيه الفرانكوفونية إلى الفرانكوفيلية.

ولعل هذا هو سبب رفض البعض لما يمكن أن يفهم من حكم محمد عابد الجابري بوجود قطيعة معرفية بين الفكر الفلسفي المغربي والفكر الفلسفي المشرقي، حيث إنهم يرون في هذا الحكم رأياً منسجماً

مع اتجاهات عرقية، ترى أن أقطار المغرب العربي محكومة بإثنيات غير عربية وأن آفاقها موصولة بفضاء الفكر الأوروبي، وهو للأمانة وكما يقول الباحث المغربي كمال عبد اللطيف، ما لم تحدث الإشارة له في نصوص الجابري المعروفة.

وسنلاحظ هنا أمراً أحب أن أتوقف عنده للحظات، وهو استعمال البعض لتعبير: الحضارة العربية، في حين أن حضارة العرب ارتبطت أساساً بالإسلام، ولدرجة أن زعيماً مصرياً شهيراً قال يوماً بأنه مسيحي الدين ولكنه مسلم الحضارة، وهكذا كان مكرم عبيد أول من لفت النظر إلى الحقيقة التي يعيشها المغرب العربي الذي يرى في العروبة والإسلام وجهان لعملة حضارية واحدة.

وهنا ندرك الأهمية الاستراتيجية لحديث الرسول الكريم محمد بن عبد الله(ص) الذي قال بأن العربية هي اللسان، نازعاً منها كل صفة عرقية، ومؤكداً بذلك أن العرق والسلالة هي مما تختص به الحيوانات، فهذا حصان عربي أو قط سيامي وذاك كلب ألماني أو فيل هندي وهلّم جرا.

لكن هناك أمرٌ كان له دور كبير في تعميق الروابط بين المشرق والمغرب وهو الديار المقدسة التي كان جل المفكرين في المغرب العربي حريصين على زيارتها، وحملهم ذلك بالتالي على زيارة أقطار مشرقية أخرى، وخاصة بلاد الشام، خصوصاً إثر انتقال الحركة العلمية من بغداد إلى دمشق نتيجة للتخريب التتري الذي أصاب الأولى، وسنجد من بين من عرفتهم دمشق في القرن الثالث عشر الميلادي، كما يقول الأكاديمي الكويتي الدكتور نواف عبد العزيز، أبي عبد الله اللواتي، الذي عُرف بابن بطوطة، كما عرفت مصر قبل ذلك، في القرن الحادي عشر، الرحالة ابن جبير الأندلسي.

والطريف هنا هو أن نلاحظ أن جل الأولياء والصالحين والمتصوفة الذين عرفهم المشرق العربي قدموا من المغرب العربي، ولعل في طليعتهم الأمير عبد القادر بن محي الدين، الذي احتضنه في دمشق ضريح محي الدين بن عربي الأندلسي، قبل أن تنقل رفاته إلى العاصمة الجزائرية في١٩٦٦.

وسنجد في مصر أضرحة السادة أحمد البدوي في طنطا والمرسي أبو العباس في الإسكندرية وأبو الحسن الشاذلي في صحراء مصر الشرقية وعبد الرحيم القنائي، أو

القنـاوي في الصعيـد ولعلي هنـا أتوقف لحظات أخرى عند الشعور العام في المغرب العربي من أن المشرق العربي هو مكبّر الصوت الـذي يضمـن للأديب: المغاربـي الانتشار والرواج، وهو أمر حقيقي، حتى بين أقطار المغرب العربي نفسها، والجزائريون يذكرون بكل مـرارة أغنية فريد الأطرش عن بساط الريـح الذي لم تذكر فيه الجزائر أبداً بينما ذكـرت بلاد النيل ولبنـان كما ذكرت تونس ومراكشـ، ويدعي البعض أن هذا هو سبب ضرب الفنان الكبير بالطماطم في قسنطينة قبل الثورة الجزائريـة. والأديب الجزائري واسينـي الأعرج يشير إلى هذا الأمر بمرارة وهو يقول بأنه «إذا أراد الكاتب المغاربي أن يُقرأ في المشرق ويعرف فـإن عليه أن يبقى على تماس معه»، وهـو أمر صحيح ويجب فهمه وتفهمه والتصالح معه.

فالقضيـة هنا قضيـة منابـر ثقافية عريقـة أعطتها الأبعـاد السياسية بريقاً لا جـدال فيه، والقضيـة ليست قضية مشرق أو مغـرب، فالنهضـة الإعلامية المصرية انطلقت على أكتـاف اللبنانيين، تماماً كما أثرى الساحـة الغنائية والمسرحية القاهرية وجود الفنانـين الشوام مثل جـورج أبيض وأسمهان وفريد الأطرش وأنور وجدي ونور الهدى وفايزة أحمـد، والذين ما كان يمكن أن يتألقوا لولا وجودهم في مصر، ولحق بهم العراقي نجيب الريحاني والجزائريين فؤاد الجزائـري وأخته ليلـى الجزائرية وأخيراً وردة.

ولقـد ظللت أكتـب في الجزائر عقدين بدون أن أسمع صدى لما كنت أكتبه، باستثناء ما كانـت بعض الوفـود الجزائرية تسمعه مـن الرئيس جمـال عبد الناصـر –رحمه الله– وبعضـ كبـار معاونيـه، الذين كانوا يركـزون على قسوة ما كنت أكتبه عن بعض الممارسـات المصريـة، ولم يعرفني القراء في الوطن العربي إلا عندما بدأت أنشر مقالاتي في مجلـة العربي الكويتية والأهرام المصرية والشـرق الأوسط الصادرة مـن لندن، وهو ما يجب أن يتمعـن فيه كل من يتحدث عن التكامل بين المشرق والمغرب.

واختتاماً لهـذه المداخلة، التـي أردتها جهـداً يماثل سـير النمل الـدؤوب، فإذ به ولكثرة المعطيـات وتشابكها ولتعدد المصادر وتناقضها، يتحـول إلى حركة كأنها قفزات البرغوث، تتوقف عند أمر وتتجاهل أموراً. يبقـى أن أقـول: إن العلاقـات بين المشرق

والمغــرب فيما يتعلق بنا في الجزائر، عرفت ثــلاث محطات كبرى، أولها الفتح الإسلامي الــذي أكــد الروابــط الديموغرافيــة بين الجناحــين، وثانيها: التحركات الفكرية بين الشرق والغــرب والتي عرفت إنجازات عبد الرحمــن ابن خلدون، الــذي ولد في تونس وكتب مقدمته في الجزائر، وعاش في دمشق مــع بدايات القــرن الرابع عشــر إثر الغزو المغــولي حيــاة مضطربة جعلــت المسرحي سعد الله ونوس يُشنع عليه ويكاد يُخّونه، ثم استقر في القاهرة وفيها لقي ربه.

وثالثهــا: الوجــود الفكــري والروحي وأحيانــاً السياسي للأمير عبــد القادر في المشــرق، وفي الشام على وجــه الخصوص، وتنــاول دوره هنــا في الربط بــين المشرق والمغرب يحتــاج إلى ساعات وساعات ولقد عــرف المشرق العربــي في القــرن الماضي علاقات فكريــة كان من بينهــا زيارة عبد الحميــد بــن باديســ إلى الحجــاز ومصر ووجود الطيب العقبــي وأحمد رضا حوحو ثــم محمد البشــير الإبراهيمي في الحجاز، ودشــن ذلك الوجود الأدبي الجزائري الذي كان قــد بدأ في حدود القرن التاسع بذهاب بكــر بن حماد مــن تيهــرت الجزائرية إلى بغداد، حيث احتك بأكبر شعراء ذلك العصر كما يقــول الدكتور عبد الملك مرتاض، ومن بينهم أبي تمام وأبــي العتاهية وأبي نواس، وتواصل سفر العديد من القيادات الفكرية والدينية إلى البقــاع المقدسة التي أعطتهم الفرصة للاتصال بالعلماء في مصر والشام والحجاز.

ولكــن ما يجــب أن يسجل هنــا هو أن العلماء المغاربة حاولــوا أحياناً التفوق على أساتذتهم المشارقــة، وهو ما أدى كما يقول مرتاضــ، إلى تفردهــم بتأسيســ مدرسة نحويــة ولغوية، وكان مــن بينهم ابن معطي الذي ألف أول منظومة في النحو العربي من ألــف بيت نسج عليها ابــن مالك فيما بعد، وكان مــن بينهم أيضاً ابــن آجروم صاحب مــتن الأجرومية الشهير، وهــي أول كتاب يطبع في إيطاليا باللغة العربية.

ولعل مــن الطريــف أن أذكــر هنا بأن المذهب الديني الذي يستقطب جل المغاربة هو المذهــب المالكي الذي أخــذ عن موطأ ابــن أنس، ابن المدينة المنــورة، وهو مذهب اقتصر في بداية أمره في الأندلس وإفريقيا الشمالية على العبادات ثم انتقل إلى المستوى اللاهوتــي، فانتقل الناس، كمــا يقول عبد

الملك، من مجرد الحفظ والفهم إلى مستوى الإبداع والنقد.

وما ينطبق على الفقه ينطبق أيضاً على الفلسفة وعلم الاجتماع حيث تناول عبد الرحمن بن خلدون للمرة الأولى في التاريخ الثقافي نظرية العمران، وهو ما يعني أن الثقافة في المغرب العربي بدأت تلميذة لثقافة المشرق الذي جاء منه نور الإسلام، ثم بلغت مرحلة الاستيعاب والتفهم لتنطلق نحو إبداع حقيقي أضاف إلى الثقافة العربية في مجالات الفلسفة والطب والفقه والنحو والتاريخ وغير ذلك.

ويجب ألا ننسى هنا الدور الذي قام به أبناء المشرق قبل ذلك في ازدهار الأندلس، بما في ذلك النهضة الموسيقية التي أنجز فيها زرياب الوتر الخامس للعود.

وخلال كل ذلك التاريخ المتواصل عرف المغرب العربي بعد هزيمة شارلكان، أو شارل الخامس في خليج الجزائر، مرحلة بالغة الخطورة اضطر فيها الجزائريون إلى الاستنجاد ببعض قادة المسلمين الخبراء في فنون القتال البحري، وهكذا تولى خير الدين بربروس وإخوته قيادة الأسطول الجزائري الذي تحمل مع الثغرين عبء مواجهة الهجومات الإسبانية طوال ثلاثة قرون، وظل الأسطول الجزائري سيداً في المنطقة إلى أن تحطم، بعد تحالفه مع الأسطول المصري، في معركة نوارين البحرية عام ١٨٢٧، وكان هذا هو الذي حرم الجزائر من إمكانية الدفاع ضد الأسطول الفرنسي في يونيو /حزيران ١٨٣٠، وأدى إلى سقوط المغرب الأوسط تحت نير الحكم الاستيطاني الفرنسي.

والواقع إن استعراض العلاقات في العصور الحديثة، يحتاج إلى وقت لا أملكه وجهد لا أقدر عليه، وتوسع لا أظنكم مستعدين لتحمله، لهذا أختتم هذا الاستعراض بالإشارة إلى الزيارة الفاشلة التي قام بها الشاعر المصري الكبير أحمد شوقي للجزائر في مطلع القرن العشرين، والتي كان فيها سجين قمقم فرنسي لم يُمكنه من الاتصال بالشعب الجزائري وبمثقفيه، وعندما عرف الجزائريون أنه اتهمهم بجهل اللغة العربية ردوا عليه بأنه لم يلتق من الجزائريين إلا بماسحي الأحذية (وربما كان هذا التعبير هو الذي دفع الرئيس الأسبق أحمد بن بله إلى منع امتهان الجزائريين لمسح الأحذية، ولعل الجزائر اليوم هي الدولة الوحيدة في

العالم التي لا يوجد فيها ماسحو أحذية).

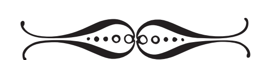
وعكس ما حدث للشاعر فإن الإمام محمد عبده، عندما زار الجزائر في عام ١٩٠٥، أقام علاقات مع بعض علمائها وألقى دروساً في مساجدها.

كل تلك كانت مراحل تواصل وتكامل بين جناحي الأمة، لم تخل من شنآن بين العلماء والقادة ولكن آثارها كانت ترسيخاً لمفهوم الأمة الواحدة، وكان استقبال أدباء المغرب العربي لمجلة الرسالة للأستاذ الزيات ولما وصل إليهم من كتب طه حسين والعقاد والمازني وغيرها لا يختلف أبداً عن استقبال الشعب الجزائري لفرقة يوسف وهبة، الذي زار الجزائر خلال الليل الاستعماري وأضاءها بروائعه الفنية.

لكن المؤسف اليوم هو أننا تجاوزنا مرحلة التناقض بين المشرق والمغرب لنصل إلى مرحلة التناقض داخل إطار المشرق والمغرب على حد سواء، نتيجة لصيحة حق أريد بها باطل تتغنى بالجزأرة والتونسة والسعودة على حساب النظرة القومية الواحدة.

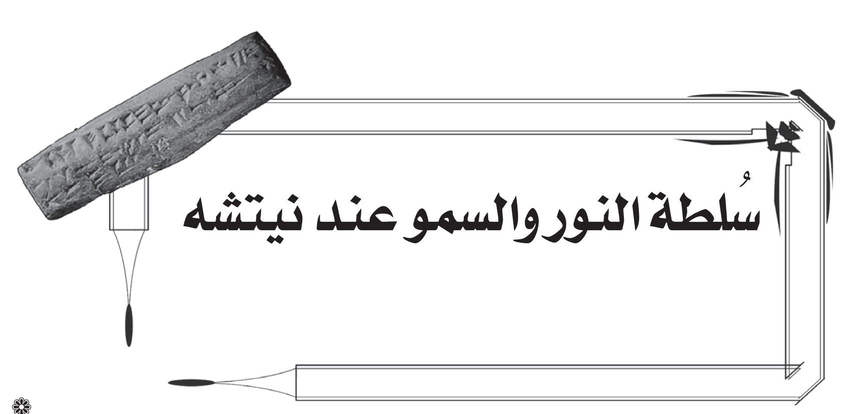
واتخذ الأمر صوراً أقرب إلى الاسكتشات الهزلية، فسمعنا أن ممثلين مصريين لم يرقهم أن يقوم سوري بدور الملك فاروق وسمعت من جزائريين إصراراً على أن يقوم جزائري بدور الأمير عبد القادر، وإلا فلنتوقف عن إخراج الفيلم، في حين كان الليبيون أكثر ذكاء وهم يختارون أنتويني كوين للعب دور عمر المختار.

وأنا أقول وأردد منذ سنوات بأن طريقنا نحو التألق الحضاري مرهون بأمرين، أولهما: توحيد مناهج التعليم في الوطن العربي كله، وثانيهما أن ندرك بأن الدين والقومية هما وجهان لعملة واحدة، وبأن الإسلام الذي يضم قوميات متعددة يزداد تألقها الجوهري والدولي يوماً بعد يوم، بينما لا تجد أهم القوميات طريقها نحو موقف موحد يكفل لها مكانتها، وهي القومية العربية.





آفاق المعرفة



سُلطة النور والسمو عند نيتشه

د. خليل عبد الرحمن (*)

«ترسلُ الطبيعةُ الفيلسوفَ إلى البشرية كسهم، هي لا تصوّب، لكنها تأملُ أن يبقى السهمَ عالقاً في مكان ما»

فريدريك نيتشه- «ولادة الفلسفة»

يـــرى أورتيجا أن الإنسان خلاّقاً لجواهر الكـــون الأخرى غير واثق، ولا يمكنه أن يكون واثقاً بأنه فعلاً إنسان (كالنمر، مثلاً، واثق بأنه نمر، والسمكة واثقـــة بأنهـــا سمكة). إن الإنسان بهذا المعنى لا يعـــدّ إنساناً، وهذا يعني أن يكـــون دائماً على تلك الحافة كي لا يكونـــه، أن يكون قضية نابضة بالحياة ومغامرة خطرة ودراما. فالإنسان هو ذات الشخص، التي لن تتحقق في وقت

(*) كاتب سوري.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

مـــن الأوقات بصورة كاملة إنه دائماً أوتوبيا تحريضيـــة وأسطورة سريـــة يحتفظ بها كل واحد في قلبه.(١)

بحث نيتشه، مثـــل الفيلسوف الإغريقي القـــديم ديوجين، عن الإنســـان، ولكن ليس في صفـــوف العامـــة ولا في الطبيعة ولا في التاريخ، بل في الإنسان نفسه. إن البشر الذين نعيش بينهـــم يواصلون التطـــور الحيواني، إنهم يشبهـــون الشظايا المتكسرة من الرسوم التخطيطية الثمينـــة للغاية، حيث تستغيث: تعالـــوا، ساعـــدوا، أكملوا، حـــددوا، هؤلاء البشـــر لم يصبحوا بشراً بعـــد، بل هم رسوم تخطيطية وكل واحد منا يجب أن ينظر إلى ذاته كمشروع فاشل من مشاريع الطبيعة.

إن الطريـــق إلى الـــذات لا يمر إلا عبر إدراك الذات ولا طريق آخر. هذا طريق وعر وخطر. إن الإنسان بمـــا هو عليه، بمظهره التاريخـــي والسيكولوجي والاجتماعي ليس إنساناً بعد، بل هو طريق فقط نحو الإنسان. وهنا يحاجج نيتشه الفلاسفة الكلاسيكيين، الذين اعتقدوا بأن الإنسان حيوان سياسي، وأن نزعته الاجتماعية وحريته تكمنان قبل كل شـــيء في الدولة. الدولة بالنسبة لنيتشه صيغة معاصـــرة للقطيع، وهـــي غول بارد. أما رجالهـــا فهم صغار وجشعـــون، نكرات ومسمّمون بثقافة سطحية ورغبتهم الوحيدة هي السلطة والثروة.

لا يعـــدّ إنساناً بعد ذلـــك الذي يخضع لسلطة التقاليد، الأديـــان، التاريخ، الدولة، الأخـــلاق، الثقافة وحتـــى الفلسفة نفسها. الإنســـان إنســـان فقط عندما يكـــون حراً. والحر لا يتبع شيئـــاً أو أحداً، إنه يتبع ذاته فقط.

إنســـان القطيع يهرب مـــن ذاته ويضع خططاً واسعة لحياتـــه فقط كي يهرب من المهمة الحقيقيـــة. تتلاشى عنده الشخصية الواعية وتهيمن عليه الشخصية اللاواعية.

ولا يعود هو نفسه وإنمـــا يصبح إنساناً آلياً وإرادته عاجـــزة على أن تقوده. عندئذ يتصـــف بعفوية الكائنـــات البدائية وعنفها وضراوتها وحماستها وخبثها، إنه يشبه حبة رمل وســـط الحبات الرمليـــة الأخرى على الشاطئ، ولو اتحدت هذه الحبة مع الحبات الأخـــرى لتحولـــت إلى قـــوة مدمـــرة ففي الجمهور يتحرر الأبلـــه والجاهل والحسود مـــن الإحساس بدونيتهم وعـــدم كفاءتهم وعجزهـــم ويصيرون مجيّشـــين بقوة عنيفة وعابـــرة ولكن هائلة. يعجـــز إنسان القطيع

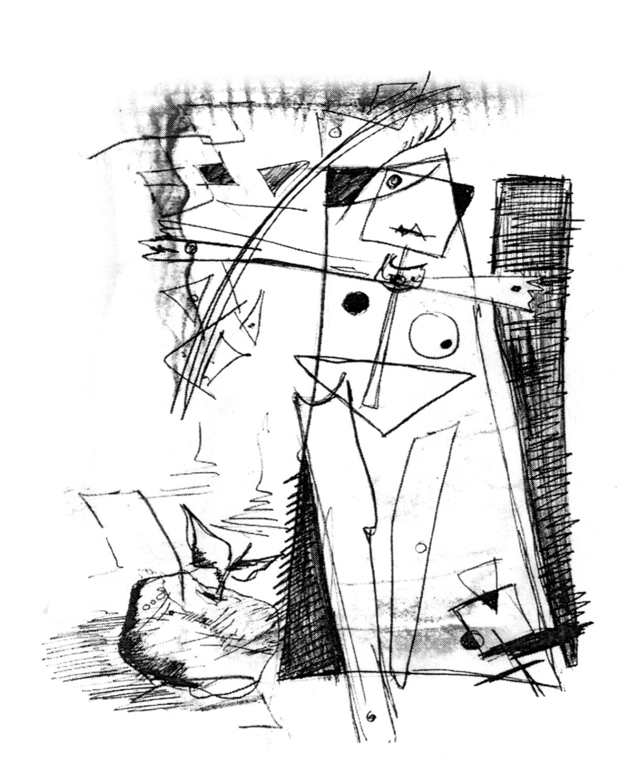
(الجمهور) عن التفكير وعن كل روح نقدية، وعلى التمييز بين الحقيقة والخطأ. والعامل الكبير لتطور التاريخ ما كانت الحقيقة أبداً وإنمــا الخطأ. وبمــا أن إنسان القطيع غير قــادر على المحاكمة العقليــة فإنه لا يعرف معنــى المستحيل، والأشيــاء الأكثر استحالة هي عادة الأكــثر إدهاشاً وتأثيراً وهو لم يكن أبداً عطشاً للحقيقة، بــل فضّل دوماً تأليه الخطأ. ومن يعــرف إيهامه يصير سيداً له، ومن يحاول قشــع الأوهام عن عينيه يصير ضحيــة لــه[٢]. «إن قوة الكلمــات مرتبطة بالصور التي تثيرها، وهي مستقلة تماماً عن معانيها الحقيقيــة. والكلمات التي يصعب تحديد معانيها بشكل دقيق هي التي تمتلك أحياناً أكبر قدرة على التأثير والفعل. نضرب على ذلك مثلا الكلمات التالية: ديمقراطية، اشتراكيــة، مساواة، حرية، ..إلخ.. فمعانيها من الغموض بحيث إننا نحتاج إلى مجلدات ضخمة لشرحهــا. ومع ذلك فــإن حروفها تمتلك قــوة سحريــة بالفعل، كما لــو أنها تحتوي على حل لــكل المشاكل. فهي تجمع المطامحــة اللاواعية المتنوعة، وتحتوي على الأمل بتحقيقها».[٣]

لا يجب حرق الجسور التي تربط إنسان القطيع بهذا الوجود فحسب، بل أيضاً حرق الــذات أيضــاً في لهيب الــذات، وإلا كيف يمكــن للإنســان أن يصبح إنسانــاً دون أن يصبح رماداً.

ولكــن كل منا مشغــول بأشيــاء تافهة ليهــرب من ذاته الحقيقيــة. بالرغم أن كل لحظة من لحظات الحياة تريد أن تقول لنا «كــن مع ذاتك» إلا أننا لا نــود الإصغاء إلى هذه الأصــوات الخفية. نحن نخاف عندما نكون وحيدين في جو من السكينة والهدوء، لأن الحيــاة ستهمســ في آذاننا ذلك الشيء نفسه، لذا نكــره الهــدوء والعزلة، فنهرب لمعاشــرة القطيع. نحن ضعفــاء لدرجة أننا غــير قادرين على تحمل تلــك البرهات من التركيز العميق. والأكــثر إخلاصاً يشعرون بأننا لسنا أولئــك البشر الذين تسعى إليهم الطبيعة بصفتهــم خلاصها، لسنــا أولئك البشــر المستعديــن والقادريــن على تجاوز ذواتنا والتغلب عليها.

يتساءل القطيع: كيف يمكن للإنسان أن يبقى ويحافظ على ذاتــه؟ في الوقت الذي يكون فيه السؤال الأساسي والأخير بالنسبة إلى نيتشــه هــو: كيف يمكــن التفوق على الإنسان؟

مـــع الأســـف أن الناس الصغار والضعفاء هم سادة العصـــر، الذيـــن يدعون إلى الخنوع والتواضـــع والحذر والتحفظ وإلى سلسلة طويلة من الفضائل الصغيرة وهنا يكمن الخطر الأكبر بالنسبة إلى السوبرمـــان (الإنســـان الأعلى)، أي الإنسان المتجدد والناهض من الرماد، والذي أصبـــح «مبدعـــاً» و «نحاتاً» وليســـ مجـــرد «مخلـــوق» و«مادة» و «حطام» و «طين» و «فوضـــى» ويتحلى برجولة حقيقية، إنه يرى الهاوية، إلا أنه ينظر إليها بكبرياء[٤]. يحـــرر السوبرمان الحياة ويزيل أثقالها: لا تحميل الحيـــاة تحت وزن القيم العليا، بل خلق قيم جديدة تكون قيم الحياة، و تجعل من الحياة خفيفة وفاعلة.



تحويل الثقيل إلى خفيـــف والأسفل إلى أعلى والألم إلى فـــرح: يشكل ثالوث الرقص واللعب والضحك ماهية السوبرمان.

من هو السوبرمان الذي ينتظره نيتشه؟

إن مفهـــوم السوبرمـــان مرتبـــط عنده بإرادة القـــوة. والقوة لدى نيتشه هو مفهوم قوة تتعلق بقوة أخرى. وبهذا المظهر، تسمى القـــوة إرادة. إن الإرادة (إرادة القـــوة) هي عنصـــر القـــوة التفاضلي. وينتـــج من ذلك تصور جديد لفلسفة الإرادة، ذلك أن الإرادة لا تمارســـ بصورة غامضة على عضلات أو على أعصاب، وأقـــل أيضاً على مادة بوجه عـــام، لكنهـــا تمارس بالضرورة علـــى إرادة أخرى. إن المشكلة الحقيقية ليست في علاقة الإرادة باللاإرادي، بل في علاقة إرادة تأمر بإرادة تطيع، وتطيع إلى هذا الحد أو ذاك.

مــاذا تعني الإرادة بوجــه خاص؟ إرادة القوة لا تعني أنها تريد القوة،أو أنها ترغب في القوة أو تبحــث عنها كغاية،كما لا تعني القوة بأنها الدافع إليها. ليس ثمة عبثية في عبــارة «الرغبة في القوة» أقل مما في عبارة «إرادة الحياة». من المؤكد أنه لم يلتق الحقيقة ذلك الذي كان يتكلم عن إرادة الحياة، فهذه الإرادة غير موجــودة. لأن ما ليس موجوداً لا تستطيــع الإرادة الحصــول عليه، وكيف يمكن مــا يكون في الحيــاة أن يرغب أيضاً في الحياة.(٥)

ما هي صفات الإنســان الميت؟ الإنسان الميت لا يملك صفــة الحياة،لا يتغير، إنه لا يسعــى إلى شــيء. الميت لا يمكــن أن يكون إنسانــاً آخر. «السمكة الميتــة لا تسير ضد التيــار». إذن فقط الإنسان الحي يسعى إلى شيء آخــر، إلى الاجتياز، إلى العلو والسمو، إلى النور.

تتألــف إرادة القــوة من كلمتــين: إرادة وقوة. الإرادة تعني أراد، يريد، سعى،يسعى، رغب، يرغــب. القوة هــي أن يصير القوي سيداً. فالعبد يريــد أن يصير سيداً عندما يعطي الأوامر لإنسان أدنى من مستواه. إذا كنــا نفهم بهذا المعنى إرادة القوة فهي تعني سيطــرة إنسان على آخر. ولكن هذا مفهوم خاطئ لتفسير مصطلحات نيتشه.

الإرادة أمــرٌ في حــد ذاتهــا، صاحبها يعيشــ في الأمر ولا يحتاج لإعطاء الأوامر، وإنما هو يسمع الأمر من فوق، لأنه يخاطر ويغامر بنفسه. وإعطاء الأوامر أصعب بكثير من سمــاع وإطاعة الأوامر. والذي لا يسمع نفســه، يجــب إعطاءه أوامــر خاصة. هذا يعني تسليم النفس كلها للأمر.

أنت تعطي الأوامر لا لشيء غير موجود، بل لشيء موجــود حقيقة. الإنسان يخاطب نفسه والإرادة تأمــر بإرادتها لتعلو بنفسها، وتأمر بأن تفقــد السلطة سلطتها. كي تعلو (تصــير سوبرماناً) يجب عليــك أن تحطم ذاتك القديمة. إذن يخاطب نيتشه الإنسان القابــع في الأعمــاق بــأن يفتح لــه المجال ليتحرر، ليحلق نحو النور.

نودُّ أن نلملم بقايا شرف ونزيل الغبار عن المفهوم النيتشوي الحقيقي للسوبرمان: فهو لا يعني سيطرة شعب علــى آخر، أو إنسان على آخر، أو دولــة على أخرى، ولا سيطرة أمــة على أمة أخرى، بل يعنــي أن الإنسان يجــب أن يسيطر على ذاته ليعلو على ذاته. فالإنسان الأعلى ليس كائناً مفارقاً ولا حلقة

جديدة أخيرة في سلسلة تطور الكائنات الحية بالمعنى الذي يقصده داروين، ولا بطلاً تاريخياً أو سياسياً أو عسكرياً. السوبرمان هو من لحم ودم ويحمل معنى الأرض، «ذلك الذي سيعلم الناس الطيران يوماً سوف يكون غير كل الحدود، بالنسبة إليه، سوف تطير الحدود بحد ذاتها في الجو، وسوف يُعمَّد الأرض من جديد».(٦)

عبّر نيتشه عن أفكاره بالصرخات والمطارق وليس بالتحليل والنقد فهو الذي قال يوماً: «لستُ فيلسوفاً، بل ديناميت، إنني أتفلسف بالمطرقة». ولهذا دفع الثمن غالياً، ليس فقط حياته، بل وما بعد حياته. إنه كالمسيح صُلبَ على الصليب الذي حمله بنفسه، ولكنه صُلب مرتين: مرة في حياته ومرة بعد موته.

في مظاهرات طلبة باريس ١٩٦٨ كتبَ الطلاب على جدران الجامعة «مات الإله، وكذلك نيتشه»، ولكن هل مات نيتشه فعلاً؟

لم يكن نيتشه ملحداً قط، فهو قصد بجملته المشهورة هذه بأن الإنسان قد مات وليس الإله، ذلك الإنسان الحي الميت، الذي يلقي بكل همومه وآلامه وفشله وأيضاً نجاحاته على عاتق الإله، هذا الإنسان قد مات وعلينا أن ننتظر الإنسان الجديد. وبهذا لم يمتْ نيتشه قط، فنحن نجد تأثيره واضحاً وجلياً في كل ثقافة القرن العشرين من فن وأدب وفلسفة.

وأخيراً، حين يسأل أحدهم ما فائدة الفلسفة، يجب أن يكون الجواب عدوانياً، لأن السؤال يريد أن يكون ساخراً ولاذعاً. لا تصلح الفلسفة للدولة ولا للكنيسة اللتين لهما هموم أخرى. لا تخدم أية قوة سائدة. تصلح الفلسفة لإثارة الحزن. فالفلسفة التي لا تحزن أحداً ولا تعادي أحداً ليست بفلسفة إنها تصلح للإضرار بالحماقة، تجعل من الحماقة شيئاً مخجلاً. ليس لها من استخدام غير هذا. أن تفضح سفالة الفكر بكل أشكالها. هل هنالك نظام، خلا الفلسفة، يطرح على نفسه نقد كل المخاتلات، أيا يكن مصدرها وهدفها؟.. صُنعَ أناس أحرار، أي أناس لا يخلطون بين غايات الثقافة واستفادة الدولة أو الأخلاق أو الدين التغلب على النائي وأمجاده الزائفة. من له مصلحة في كل ذلك عدا الفلسفة؟ تقول لنا الفلسفة كناقدة أكثر ما فيها من إيجابي: عملية إثابة إلى الرشد. يجب علينا ألا نسارع بالإعلان عن إخفاق الفلسفة. مهما تكن الحماقة

والسفالة كبيرتين، ربما تكونـــان أكبر أيضاً لو لم يبق قليل مـــن الفلسفة يمنعهما في كل حقبـــة من أن تمضيا بعيداً قدر ما تشاءان، يحظر على كل منهما، ولو بالسماع، أن تكون حمقـــاء أو سافلة إلى الدرجـــة التي تتمنى بلوغهـــا. بعض التجاوزات محظورة عليهما، لكن من غير الفلسفـــة يحظر عليهما ذلك؟ من يجبرهما على التنكر، ومن غير الفلسفة تصنع النبل والذكاء، والتفكير؟(٧)

قـــال نيتشـــه في «ولادة الفلسفة»: «لقد ألقى الفلاسفة القدماء موعظة ضد الغباوة مـــن المؤكد أن الفلسفة جـــردت الغباوة من راحة ضميرها، لقد أضـــر هؤلاء الفلاسفة بالحماقة».

الهوامش:

١- اورتيجا. ج- التعمق في الذات ونزعة التوجه إلى الخارج- في: (العلوم الفلسفية- العدد٥- موسكو ١٩٩١- ص ١٦٨). (باللغة الروسية).

٢- غوستـاف لوبـون- سيكولوجية الجماهير- ترجمة هاشم صالـح- دار الساقي- ط ح- بيروت ١٩٩٧- ص٦٠، ٧٤، ٨٦، ١٢٢.

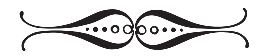
٣- نفس المصدر- ص ١١٦.

٤- نيتشه. ف- غسق الآلهة- موسكو ١٩٠٢- ص ٨٦. (باللغة الروسية).

٥- جيـل دولوز- نيتشه والفلسفـة- ترجمة أسامة الحاج- المؤسسة الجامعية للدراسات- بيروت ١٩٩٣- ص١٢، ١٠٢، ١٠٣.

٦- نيتشه- هكذا تكلم زرادشت- في كتاب جيل دولوز- نيتشه والفلسفة- ص ١٠٢.

٧- جبل دولوز- ص ١٣٥، ١٣٦.





آفاق المعرفة



جماليّات اللفظة بين السياق ونظريّة النظم

عدنان شاهين*

مثلمـا لا بُدَّ للفلسفة من براهـين، كذلك لا بُدَّ للّغة مـن ألفاظ تتآلف مستجيبةً لارتداء المعاني لَبُوسَ الدلالات المُرصَّع بالخيال الجميل، فـ (الأسلوب هو ميدان خَلْع الجمال والمعنى على ضروب التفرُّد اللغويّ) ص٧ هـذا التفرّد المشغول ببراعة الكاتب الذي ينتخب الألفاظ التي تتّسق مع المعاني، والتي لابدّ أن تصير شكلاً باتّحادها العضويّ، ولن يكون ذلك مقدوراً عليه إن لم يكن الكاتب صاحب موهبة، ويمتلك ذخيرة لغوية غزيرة، تَضمَنُ

* أديب سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

قابلية استقبال النصوص الأدبيّة بإطلالات جماليــة، تنطلق بسرعــة إلى صميم العقل، والغاية بعواطف النبل، فوراء حجاب المعنى أدوارٌ رسولية.

ولأن قــراءة النصوص الأدبيــة جسرٌ ومعــبر، لذلك لا بدَّ من التحرّر من الارتهان للطرائق التي تُثقِل الأدب، وتساهم في نفور الأجيال، في الوقت التي هي بأمسّ الحاجة إلى استمالتهــا بالهوى، فأدبنا تتدفّق ينابيع تعبــيره جمالاً، وإيقاعــاً، وعواطف إنسانية نبيلة.

وإذا كان علينــا أن نقرّ بهندسة الألفاظ المستقلّــة بإيقاعها المبدئــيّ، والمتفجّرة في موسيقــا التركيب دون التخلّــي عن دورها في التشكيــل، يحســن بنا وضــع مصطلح للّفظة، فاللفظة هي الرقم الأوّل في نظرية النظم، وعلم الألسنيات شكّل موقعاً متقدّماً للدراسات اللغويــة إذ هو (يعالج النصوص بوصفهــا وقائع لغوية) طَمُوحاً إلى الاقتراب من جوهر الأدب فـ (قد بات الكشف الجديد للألسنيــات مدخــلاً لا بدَّ منــه للدراسات الأدبية التي لا تتردّد في أن تتّخذ من التحليل الألسني للكلام نقطــة للانطلاق إلى رصد الــدلالات الجزئية، والمعنــى الكليّ) ص١٧

وليس هــذا بجديد فلقد اشتغــل اللغويون قديماً على أنظمة الــكلام، والمهارات التي ميّزت بــين مبدع وآخر، فالألفاظ منهلٌ ثرّ، أما الموهبــة فتتحكّم بها براعــة الاختيار، ودهشــة الائتــلاف، دون التضحية بالمعنى حتى لا يكون الكلام أيّ كلام.

ومــا غفــل الأقدمون عن ذلــك عندما وجــدوا في الظواهــر البلاغيــة تجميــلاً للمعــاني، لا بــل سخروا ممّــن لا يستطيع الصمــود أمام سجعة مطربة، وإن كان ذلك علــى حســاب المعنى، فالبلاغــة الواضحة والفصاحة لا تستقيمان باللفظ وحده، وإلا امتطى صهوتيهما كلّ راغب في الكلام.

وقد أرجعهــا الدكتور علي إبراهيم إلى وحدتين (صوتيــة) و(لغوية) واجداً في ذلك تجسيــد المادة التي تشكّل الوجود الظاهري للعمل الأدبي ومستعيراً قولة (ايتين سوريو) E. souriau (مثلما يستحيل وجود تصوير غــير مرئيّ، وموسيقا غير مسموعة، وتمثال يتعذّر لمسه، كذلــك يستحيل وجود قصائد من دون تعبير لفظيّ) ص ١٤ غير أنّ اللفظ يمتلــك طاقــات متغايرة، فاللفــظ منفرداً في الحقــل الدلاليّ، غــيره في تركيب يضجّ بالإيقــاع، وغيره في صورة يسير بالخيال إلى

رحاب التأمّل، وهو في كلّ تشكيل، وتحوّل يأخذ نَفَساً حياتياً متجدّداً. فكم من لفظة لا يُؤبه بها مستقلّة، تكون مرتكز الصياغة في جملة موسيقية بارعة، أو قافية مُتقنة.

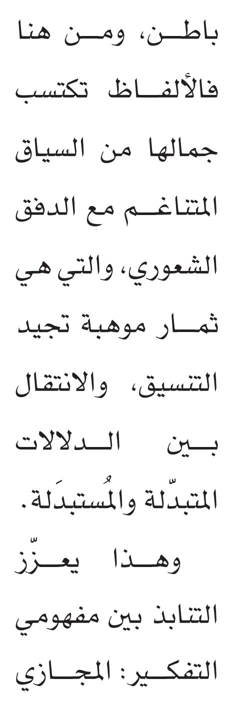
واللفظة باستقلالها الحياديّ، وتجاورها المتشابك في التركيب، فتحت الباب لتنظير اللغويين والنحويين منذ القديم، فإذا كانت نظرية نشوء اللغة ترجع إلى محاكاة أصوات الطبيعة- من ابن جنّي إلى زكي الأرسوزي- لتشابهت الألفاظ عند الأمم جميعها. غير أنّ دلالات الأوزان والاشتقاق في العربية لا تنتصر للاستنتاجات السابقة.

ويحاور الباحث علي إبراهيم الدكتور تامر سلّوم الذي: يرجّح أن يكون ما قاله الجاحظ في تفضيل اللفظ المُتخيَّر على المعنى المطروح في الطريق انعكاساً لقيام النقد والفقه على اتباعية تنفي عن الإنسان- أشاعراً كان أم فقيهاً- صفة الإبداع واجداً في نظرة الدكتور سلّوم أنها (لا تعطي صورة صحيحة متكاملة عن أسلوب الشاعر ما دام معيار عبقريته وقفاً على مضارعته للأقدمين من دون أن يكون سارقاً لأفكارهم) ص٢٥.

فالألسنية ترى للفظة ثلاثة مستويات (صوتي) يعين الأديب على التوظيف الدلاليّ والجماليّ،و(نحوي) يتداخل مع البلاغة واستثماره من دون مخالفة القواعد، و(معجمي) يرى دلالات المفردة في انشعاباتها المختلفة.

وأهمية المفردة تكمن في تعديل معاني الانزياح بالتحايل المُتقن الذي يزيد من ألق التعبير غير أنّ (الكاتب المبدع هو القادر على تعديل نظام اللغة بغية توليد المعاني الجديدة) ص ٣٦ وعلى هذا فـ (المعنى في الأدب خلاصة جرس لغوي، وفحوى صورة موحية) ص ١٥ أساسها الكلمة كمرتقى وإشارة، وهو لا يسبق النص، ولا يأتي لاحقاً له، وإنما يتحقّق بنسيج الكلمات المفتوح، فالتعبير الذي لا يحتاج إلى تأويل قليل الشأن في الشعر، فـ « نحن لا نصنع الأبيات بالأفكار، وإنما نصنعها بالكلمات» كما يقول الشاعر الفرنسي (مالارميه) Mallarmé لكنّ التوظيف المجازي ليس الاختراق الأوحد على مستوى الأسلوب، بل حُسْن تجاور المفردات الذي تنسكب موسيقاه إيقاعاً جميلاً، محقّقاً قدرة الأسلوب على الجذب بالهندسة اللفظية، كما التصوير منفتح على التصوير، فلكلّ معنى نبعُه، ولظاهر الكلمات





باطـن، ومـن هنا فالألفـاظ تكتسب جمالها من السياق المتناغـم مع الدفق الشعوري، والتي هي ثمـار موهبة تجيد التنسيق، والانتقال بـين الـدلالات المتبدّلة والمُستبدَلة.

وهـذا يعـزّز التنابذ بين مفهومي التفكـير: المجـازي والعقلي، وبين مرتكـزي: العقل والعاطفة، ومـا بينهمـا من جفـاف العلـم وخصوبة المشاعر.

واللفظـة في السيـاق الشعـري أميـل إلى الانزيـاح، فبعـد الانتقاء يكـون النظم بالتداخـل الذهنـيّ، الذي يؤهّـب لمخاضٍ يتكشّـف عن نتـاج العبقريـة، متناسقاً مع المستويات الصوتيـة، والمعجمية، والنحوية، والبلاغية التصويرية.

ومـكان اللفظـة في الصـورة مسألـة خلافية منذ القديم، فاللفظة قبل الصورة- تفاضليّاً- هـي غيرها بعد الصورة، فقرينة المشابهة تحمّل اللفظة دلالة خاصة، فتسحب من اللفظ دلالتـه لذاته. وعلى هذا فتذوّق الشعر مجازيـاً يفتح أمامنا بوّابات الجمال، أما المنطلقات المنطقية فمتنافرة مع الحسّ الجمـاليّ، و(عيشـ التجربـة الجمالية في الشعر يـدور في فلك المجـاز المفتوح الذي يرسله الشاعر ويخلـق نظامه وإيقاعه. إنه فلك إبداعيّ جماليّ لا مكان فيه للاستقراء والاستنتـاج إذ يستغرقه التـذوّق والتخيّل والمتعـة) ص ٤٩ فالتفسير الفيزيائي للأدب يجرّد الصورة من عناصر الجمال ففي:

ورنـوةٌ لكِ راحَ النجمُ يَرشفُها
حتى ترنَّحَ سكرٌ في مُحَيَّاهُ

للشاعر بدوي الجبل لا نستطيع أن نطلّ عليهــا إلا مــن شرفة العامل المجــازي لأنّ الصورة كما يقول بيير روفيردي Reverdy P :(هــي الإبداع الخالص للروح) وقد بيَّنتُ أن الرابطة الفيزيائية في الصورة لا منطقية، غــير أن مخزون الدلالة فيها كبير، فالشاعر يجعــل مسيل عواطفه يتدفّق عبر عناصرها المعنوية، ومساراتهــا البصرية، لذلك لا بدّ من الأخذ بمبــدأ الكليّة الجمالية في تناول النصوصــ، وذلــك في مقالــة لي نُشرتْ في صحيفة تشريــن بعنوان (التفسير الفيزيائي للأدب) العدد ٩٩٥٢ تاريخ ٢٠٠٧/٨/١٥.

أمــا دور اللفظــة في القــراءة الشعرية فواضــح، ونستطيــع التصريح بــأن الشعر مَدين للقراءة المتقنــة في التأثير ف (المنغوم الشعــري) ارتفاعاً وانخفاضاً توقّعه القراءة على أوتــار الإنشاد، لذلك يعــرّف الكاتب القراءة الشعرية (إنها طريقة لفظ الأصوات والمقاطــع والألفاظ داخل الجمل والتراكيب تبعــاً لطبيعة التنسيق اللفظــي المؤتلف مع الدلالات والمعاني) ص٥١.

وإجادة القراءة تنظمها عوامل: الإشباع، والفصل والوصل بين الوحــدات الملفوظة، والوقف المُستَحسَن بقيادة التوزيع الموسيقي الذي بغيابه تتكســر الرؤية، ويصير المشهد إيماءً عجيباً.

وينقل عن الدكتور إبراهيم أنيس محاولة النحاة العرب التفريق بين «اللفظ، والكلمة والقول ». فاللفظ (هو عملية النطق وكيفية صدور الصوت، فإذا ربط بين هذه الأصوات المنطوق بها وما يمكن أن تدلّ عليه من معنى، تكوّنت في رأيهم الكلمة. أي أنّ الكلمة أخصّ لأنّها لفظ دلّ على معنى) ص ١٣.

وهذا يعيدنا مجدّداً إلى التساؤل إن كان الشعر معنيّاً بألفاظ والنثر بألفاظ، وقد أقرّ الكاتب مسبقاً (بأنه ليس ثمة ألفاظ شعرية وأخــرى غير شعريــة) وربما يشــكّل النهج الاستعاريّ أو الاستبداليّ مخرجاً مقنعاً.

فالقراءة الشعرية غايتها التأثير الجمالي، وللوزن الشعــري دور هام، والعامل اللفظي متداخل في الشعر والنثر، أما جودة التنسيق فتسهم في نجاح طريقتي التعبير.

وانتقــال الألفاظ من الدلالات المعجمية إلى استطاعــات جديــدة، وترميــز مُفعّــل بالمجــاورة والائتــلاف تنسيقاً وفــق سياق طارىء، يعيد صوغَه حسٌّ جماليّ قد يتطوّر بالإغنــاء إلى ابتــكار صــورة شعرية تجرِّد اللفــظ من دلالــة ذاته، وتكسبــه بالقرينة مدلــولاً جديداً، وهذا المعيار يخلّص اللفظ

مــن الأوهــام الشائعة التي تــوزّع الكلمات علــى ضفاف متقابلة، متناسيــةً أنّ الجملة الموسيقيــة يتفجّر إيقاعهــا ببراعة التنسيق حتــى يستحيل التجــرُّؤ علــى المواقع التي بها يتشــكّل الإعجاز، فــكلّ محاولة مفلسةٌ لاستبــدال أو تحريك مواضــع الكلمات في مطلع أبي تمام مثلاً: (لا أنت أنت ولا الديار ديارُ) فالمفردات عاديّة بذاتها، ومتفرّدة بقوّة نسيجها، وتخصيب دلالاتها.

وإذا كانت دلالات الألفاظ قابلة للتفكّك، وربما تقارب الكمال بالبراعات، فهذا يجيز أن نقول بالمنتــج الصناعي للغة، وقد وصل الكاتب إلى الإقرار (بأن اللغة أضحت بفعل الحداثة مادة تُصنَع، وأصبحت الكتابة نوعاً من التقنية) ص٧٩.

لذلــك فالتسيّب السائــد في استسهال الكتابــة، وتبرير الضعف، لــن يكون جديراً بالألقــاب الأدبيــة، ومنطــق الموهبــة دون احتراف صار من منسيّات الأحكام والمبادئ، فالتحديث له أصول، والاندفاعات العشوائية ستــار تهرّأت عُــراه، وباللغــة تُرسم دروب الضلال، ويتــمّ التحايل على المعاني، ومهما حَذِقَ منشئُ النصّ مهارة التلاعب بالألفاظ، فــإنّ الانحراف يزيد الهوَّة بين جسد النص وإهابــه، وعند ذلك لن تُــرمِّم الألوانُ سُقْمَ الفــراغ، وحذلقات الأساليــب، و(على هذا لم يكن إصرار عبــد القاهر الجرجاني على دور النحــو في صواب النظــم ووضوحه إلا احترازاً من الإسراف اللغوي اللفظي الفارغ من الدلالة) ص٨١.

فالإسراف مستهجنٌ في الأدب، ومعادلة التناســب بين اللفظ والمعنى مُسلَّمٌ بها، فأيّ انزياح بين الأطراف يخــرّب مذاق التلقّي، ويتعــدَّى على جمال اللغــة العربية المجبول بالسحــر. ولــن يكــون بمقدورنــا تجاهل التداخل اللفظي بين الشعر والنثر، فوظيفة الشعــر الإيحاء، ووظيفة النثر المطابقة، من خلال الترابــط اللفظي عن طريق التجاور، لذلك يَنْضَحُ النثرُ بالجمال، ومهما تحايلنا علــى مصطلــح الشعر المنثــور، أو قصيدة النــثر، فهذا لن ينتقل بهــا إلى حَرَمِ الشعر، لأن ما بين شكلي التعبير في كلّ منهما طبيعة مختلفة، وتوصيل متباين، فالتفاعل اللفظي في السجع يستنجــد بالإيقاع لتمكين النص من التأثير، وربمــا يلجأ السَّجَّاعُ إلى التنويع أمــلاً في تماوج الإيقاع لاستدامة الأثر، وفي هذا يطاول السجعُ الشعرَ دون اللحاق به، أو النفخ بمزاميره الخالصة.

وقد خصّ الكاتب الخطوات التطبيقية بقسم تناول فيه فعالية المعطى النظري في دراسة دور اللفظة في الشعر، واللفظة في النص النثري، راصداً اللفظة والإيقاع في خطبة قسّ بن ساعدة، وأثر الجرس الموسيقي في النص القرآني، وقرابة الألفاظ والصورة في قصّة (ليلى الناعطية) للجاحظ من كتابه (البخلاء).

ففي مقارباته للفظة والإيقاع في خطبة (قسّ بن ساعدة): «أيها الناس! اسمعوا وعوا. من عاش مات، ومن مات فات، وكلّ ما هو آت آت، ليل داجٍ، ونهار ساجٍ، وسماء ذات أبراج..» يجد أنّ: (لفظة «مات» تأتي بمثابة قفلة منطقية لمدلول لفظة «عاش» وذلك على سبيل المطابقة بين الحياة والموت) ص ٥٩.

أما البعد الدلالي للفعلين الماضيين في إطار العلاقة الشرطية، فيخلص إلى أن الحياة تنتهي بالموت. وظواهر الطبيعة المتقابلة محكومة بصراع الفناء.

وعلى الرغم من خصوبة الأبعاد والدلالات يضع «عبد القاهر الجرجاني» السجع على النقيض من الطبع، ولا يجد فيه أكثر من ضرب من الخداع والتزويق.

بينما غاية الكاتب علي إبراهيم (استبصار البعد الإيقاعي للسجع، وكيف يمكن من خلاله توظيف الخصائص الصوتية للألفاظ توظيفاً يناسب المعنى، ويشيع موسيقا مؤثّرة في النصّ) ص ٦٢ بعيداً عن الارتهان لآراء النقاد والدارسين من الجرجاني إلى المحدثين، فيرى في خطبة قسّ بن ساعدة (أن للسجع المرسل تركيباته الإيقاعية المتنوّعة التي تمّ استغلالها بعيداً عن الصنعة والتكلّف) ص ٦٢ مدفوعاً بالإعجاب، وحرصاً على التراث، وبحثاً عن طريقة لقراءة النصّ الأدبيّ القديم.

ونادراً ما يكون التطبيق أصعب من التنظير، وهذا ما توحي به الدراسة، فلقد أغرق كثيراً في الجانب الأكاديمي، والمفهوم الذي تُعنى به النخب المتطلعة إلى التحصيل العالي، والتي تساير الأنماط الغربية في الدراسات الأدبية، ولا غرابة فالدكتور كتب بحثه في باريس حيث يعمل مُدرِّساً في جامعاتها، لكنّ أسلوبه المتميّز يشهد بمقدرة احترافية يتمنّى الكثيرون مطاولتها، غير أنه يجب أن يظلّ ماثلاً أمامنا أننا نتطلّع إلى

تكويــن ذوق جماعي (وهــذه رؤية الكاتب) لا تتحكّــم به التقلّبات التــي تتناقل به وفق الرؤى المتقاذفة حتى الاستقامات المنصهرة في مراجل الإبداع .

أمّا العلاقة بين القديم والحديث، وآليات التواصل فهي من ضرورات المناهج الحديثة، وكثــيرةٌ هي العلامات التي تدلّ على امتداد الجذور في الفــروع، فالاستخدام المتواصل للكلمــات والتراكيــب التي تمّــت محاولات سبكهــا منذ آلاف السنــين، وما تزال تتردّد في أعمال المعاصرين مــن الشعراء والأدباء إلى الحدّ الذي يجعلنا نظنّ بأنّ المتنبي يعيش بيننــا، وأنّ أبا نواســ كتب (دع عنك لومي) الأسبــوع الماضي، وهذا يحقّــق لنا (اكتفاءً ذوقياً قلّ مثيله في ثقافات الشعوب الأخرى) صــ٨٠ ومن هنا فالتعاطي مع مبادئ النقد العربي القديم يجــب أن ينطلق من (أنّ أيّ تناول جــادّ لنصوص تراثنــا الأدبي ينبغي أن يطــأ أرضــ الحداثة من معــبر الأصول المتضمّنة في التراث نفسه)ص٨٠.

بعيداً عن التفكيكية والبنيوية واستعراض المصطلحات التــي هجرها أصحابها بعدما مــلّ الساحرُ السحرَ، وانقلــب السحرُ على الساحر، فلكي تكون صاحب موقف عليك ألا تستسلمَ لا لموروثٍ قابلٍ للنقاش، ولا لصرعةٍ يبدأ عدُّها العكسي لحظة إعلان وجودها، فمعانقة الحياة، ودرب التواصل مشغوفةٌ به الروح، ومنعطفاته حدائــق تظلّل أشجارها المثمــرات تــوق اليقين بالجمــال والحرية، فلكي يكون كلّ شيء مُجَلّلاً بالتسامي، علينا أن نُوشِّــي إزار المعاني بالبيان الجميل الذي يتشبّث بجوهر الأشياء، كي لا يبتعد عنها،

فيصير لغواً خارج الموضوعْ

ومتاهةً لا نستطيع إلى بدايتها الرجوعْ

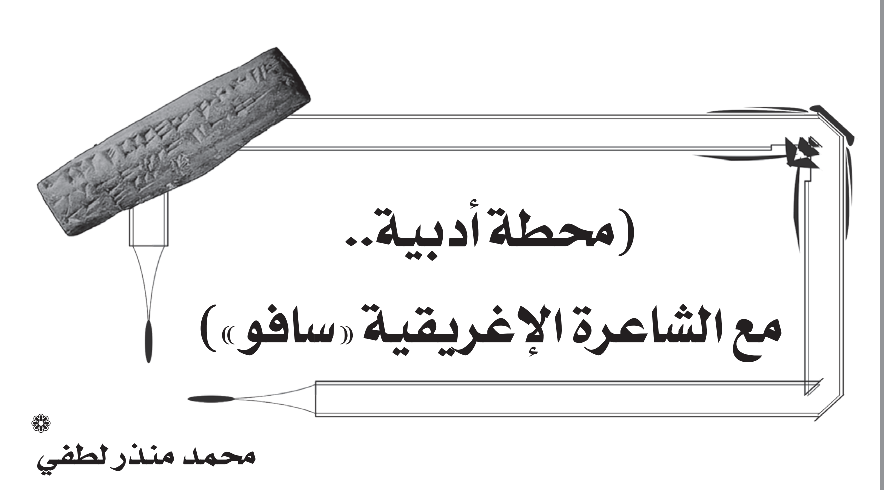
المراجع :

- **د. علي نجيب إبراهيم، جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم، دار كنعان، الطبعة الأولى، دمشق ٢٠٠٢.**









(محطة أدبية.. مع الشاعرة الإغريقية «سافو»)

محمد منذر لطفي *

-١-

في عـــام «٦٠٠» قبل الميلاد.. وفي مدينة «ميتلـــين» من أعمال «لسبوس» في بلاد اليونان القديمة.. أبصرت عينا الشاعرة الإغريقية الذائعة الصيت «سافـــو» النور مـــع صباح يوم رائع مـــن أيام نيسان الفاتنـــة، وتُجمع معظم الروايـــات على أنها ابنة لإحدى الأسر النبيلة العريقة التي كانت تنعم بحياة الدعة والترف، مما كان له أكبر الأثر فيما بعد على شعرها..

* شاعر وأديب سوري.

العمل الفني: الفنان محمد غنوم.

فجـاء رقيقـاً كنبـع صـاف.. متألقاً كسلاسل الذهـب.. محباً للحياة والإنسان.. عاشقاً للطبيعة والجمال.. جياشاً بالعواطف المتدفقـة الناعمة.. ذا أسلوب غنائي بسيط محبب ومميز يرفل بالألق والعبق.. والتفاؤل والأمل، إلا أنه من نوع السهل الممتنع، وهذا ما جعل قدامـى الشعراء والأدباء والمؤلفين يقتبسـون من شعرهـا ويضمنونه أعمالهم الأدبية، فكان ذلك الاقتباس سبباً رئيسياً في وصول شعرها إلينا وبقائه حتى اليوم.

-٢-

وقـد تم مؤخـراً ـــ مع بدايـة القرن العشرين.. وعلـى امتداد خمسين عاماً ـــ اكتشاف بعض المخطوطات من ورق البردي والرق، ولدى قراءتها تبـين أنها تضم أروع القصائد التي نظمتهـا الشاعرة الإغريقية المبدعـة «سافو»(١) إضافـة إلى قصائدها السابقـة المعروفـة والمتداولـة بين جمهور الأدبـاء والشعـراء والنقاد، وهـذا ما عزز مكانتها الأدبية وجعلهـا تُعتبر بحق شاعرة الإغريق الكبرى والأولى دون منازع.

وجميع القصائد المكتشفة حديثاً تدور في فلك الحـب والإنسان.. والطبيعة والجمال، وتتميـز بالانسجـام التـام بـين العواطف الجياشـة الحارة وبـين الأسلـوب الناعم الحريري الموشـى بألف قوس قزح وقوس.. المضمخ بالأطياب والأنوثة والعذوبة والعشق، وهذا ما يميز شاعرية «سافو» على الدوام.. وبالتالي يعطـي قصائدها نكهة جمالية ولا أحلى.. وظلالاً عاطفية ولا أندى.. وأنفاساً إنسانية ولا أغلى..!

-٣-

وعلـى الرغم مـن شهرتهـا التي عمت الآفاق، وخاصـة بعد اكتشـاف قصائدها الحديثـة الآنفة الذكـر، تم اكتشاف قبرها مؤخـراً، إلا أننـا لا نعرف الشـيء الكثير عـن حياتها الخاصة والعامـة، فقليلة جداً هي التفاصيـل التي وصلـت إلى الباحثين والدارسين حـول هذا الموضـوع، وهذا ما جعله أشبه بالأسطورة.. وأرخى عليه وشاحاً من الألق والعبق.. والسحر والفتون.

مـن بين تلـك التفاصيـل القليلة قصة إبعادهـا عن مدينتها «ميتلين» التي أبصرت النـور فيها مـع من تم إبعادهـم من طبقة

الأرستقراطيين به حدوث انتفاضة ثورية ديمقراطية في تلك المدينة.

وتذهب بعض الروايات إلى القول بأن «سافو» يممت شطر مدينة «صقلية» واتخذتها مكاناً دائماً لإقامتها، حيث أخذت تُدرِّس فنها وشعرها في مدرسة «للعذارى» هناك، وكانت تكن لأولئك الصبايا الحسان حباً جماً ذوب نفسها الشفافة من خلال قصائد حالية حالمة.. منداة بأرج الصبا والجمال. عابقة بالحب والغزل.. ذات أنغام دافئة شجية أخاذة كأنغام «سيمفونية» رائعة حارة بعد منتصف ليلة فاتنة من ليالي تموز.

-٤-

حتى إن بعض تلك الروايات تقول: إن «سافو» كانت تنظم قصيدة لكل واحدة من أولئك العذراوات الحبيبات إلى قلبها وذلك إثر مغادرتها المدرسة من أجل الزواج.

وقد عاشت «سافو» حياة مرحة.. أقرب إلى التفاؤل منها إلى التشاؤم على الرغم من جميع ما أصابها من محن، وهي صاحبة المعاني الإنسانية الرائعة التي أوردتها في إحدى قصائدها المشهورة، والتي تغني من خلالها حبها العظيم للبحار «فايون» الذي ملأ نفسها وحياتها.

تقول في تلك القصيدة التي تحمل عنوان: (الطريق إلى كوكب السعادة):

(لقد اكتشفت يا حبيبي «فايون» أن كوكب التفاؤل هو التوأم لكوكب السعادة، ورغم بعدك عني أيها الحبيب البعيد القريب.. فسأبقى أعيش فوق ذلك الكوكب المضيء الذي لا بد وأن يجذبك إليه ثانية ذات يوم ليتحقق لقاؤنا من جديد.. وعندها فإن التفاؤل وحده يثبت مجدداً أنه الطريق الرئيسي إلى كوكب السعادة.. إن لم يكن هو كوكب السعادة ذاته..!).

بينما تقول في قصائد أخرى هذه النماذج الشعرية الرائعة:

-١-

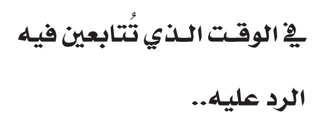
يبدو لي أن ذلك الرجل الوسيم الذي يجلس

إلى جانبك.. شبيه بالآلهه..

إنه يجلس بالقرب منك.. يكاد يلتصق بك..

وهو يصغي بنشوة غامرة

إلى نغم صوتك المفعم بالحلاوة و الوداد..



في الوقت الذي تُتابعين فيه

الرد عليه..

وقد ارتسمت فوق شفتيكِ

الرائعتين ابتسامةٌ مترعة

بسحر الأنوثة..

والصِّبا.. والجمال..!

-٢-

من الناس من يحب المال..

ومنهم من يحب جيوش

الفرسان..

وهي عائدةٌ من ساحات القتال

لتعلن النصر على الأعداء..

ومنهم من يعتقد أن أجمل

شيء على الأرض هو رؤية

جحافل المشاة..

أو السفن الحربية..

أما أنا..

فإن أجملَ شيء عندي هو ما يحبه القلب..

هو أنتَ.. أنتَ وحدكَ يا حبيبي «فايون» الذي

أحلم أن أكون معه..

و بجانبه على الدوام..

لنقضي العمر سوية.. و إلى الأبد..!



-٣-

لقد غاب القمر الآن.. و كذلك الكواكب

السبعة..

وانتصف الليل.. و فات زمن الانتظار.. و لم

يأت حبيبي..

سوف أنام الليلة وحدي بدونه..

سوف أنام.. وهو بعيدٌ عني.. وأنا بعيدةٌ عنه..

آه يا أمي الحلوة..

لم أعد أستطيع تحريك المغزل.. ولا القيامَ بأي عمل منزلي آخر

لأنني أكاد أموت شوقاً إليه..

إلى ذلك الرجل الوسيم.. الذي هو حبيبي..!

لقد رحل بعيداً.. وربما يعود.. أو لا يعود..

وأنا راضية بما قدرته لي الربة «أفروديت».

-٤-

عندي طفلة جميلة.. شبيهة بالوراد الذهبية..

«كلايس».. هو اسمها..

وهي كل شيء بالنسبة لي.. كل شيء..

ولا أبدلها بثروة «ليديا» الفاتنة..

ولا «لسبوس» الرائعة الجمال..

فيما إذا خُيِّرتُ بينها.. وبينهما..!

إنها كل شيء بالنسبة لي.. وستبقى كل شيء على الدوام..!

-٥-

إذا كان القدر قد حرمني من جمال الجسد..

وطول القامة.. وبياض البشرة..

يا حبيبي.. البحار الجميل «فايون»..

فإن نبوغي في الشعر يعوضني عن هذه العيوب جميعاً..

وإذا بدا لكَ أنَّ قَوامي ضئيل..

أو أنني أحمل مقياس اسمي الصغير..

فلا تنظر إليَّ نظرة الاحتقار..

ذلك أنني حقاً ضئيلة الحجم.. سمراءُ البشرة.. قصيرةُ القامة.. متوسطة الجمال..

إلا أنني أُتقن فن الحب.. أيَّما إتقان..

وأعرف كيف أجعل من ضجيعي عاشقاً تغمره المتعة والنشوة..

فيهيم بي حباً حتى الجنون..!

كما أعرف أني بلغت باسمي مجداً شعرياً ساطعاً..

ملأ البلدان جميعاً..

ملأ القلوب جميعاً..

ملأ الأرض والسماء.. على حد سواء(٢)..!

-٥-

أمــا فيما يتعلــق بموت هــذه الشاعرة الخالدة.. فــكل ما نعرفه في هــذا المجال هــو ما ورد في الأسطورة الخاصة بالشاعرة «سافــو» ذاتهــا.. والتي تقــول إنها شغفت

حباً بالبحــار فايون، ولكن فشل ذلك الحب أدى بها إلى الانتحــار في نهاية المطاف عن طريق إلقاء نفسها من فوق صخرة «لوكيدا» الشاهقة إلى البحــر لتتخلص من شقائها، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث على الإطلاق، ولا سيما بعــد أن تم مؤخراً اكتشاف قبرها بجانــب طريق ترابــي قــديم حسبما ذكر سابقــاً.. وقرب واحدة مــن أجمل وألطف ضواحــي مدينــة «أثينــا» ذات الحضــارة الضاربة في أعماق الزمن والإنسان.

الهوامش:

١- انظر كتاب «مع الخالدين» للأديب «سمير شيخاني» الصادر في لبنان عام ١٩٦٦.

٢- انظــر كتــاب «سافو: شاعرة الحب والجمال عند اليونان» للدكتور «عبد الغفار مكاوي» الصادر عن دار المعارف بمصر.



آفاق المعرفة



تداعيات ديمقراطية

أيمن الدقر *

قبـل سنوات وبحكم العمل في ذلك الوقت، قمت بزيارة التجمع الصيفي لطلاب كلية الفنون الجميلة في إحدى قرى الساحل السوري الجميلة (المتن) حيث كان الطلاب والطالبات يقيمون في إحدى مدارسها، وفوجئت بأنهم قد أطلقوا على هذا التجمع اسم (معسكر طلاب كلية الفنون الجميلة)! فسألت أحـد مسؤولي هذا التجمع: لماذا تسمون مكان العمل الصيفي الذي يقوم به طـلاب الكلية (معسكر الفنون الجميلة) وهـم يرسمون وينحتون ويتعاملون

* كاتب وفنان تشكيلي سوري.

العمل الفني: الفنان زهير حسيب.

مع الألوان، ويحلمــون ويترجمون أحلامهم خطوطاً وألواناً، ويرتدون الجينز ويرقصون شباباً وشابات، ويقيمون معاً في مكان مبيت واحــد..؟ لمــاذا تسمونه معسكــراً، وهم لا يتدربــون لا على قتال أو ســلاح أو يرتدون الزي العسكري، ولا يمارسون أي طقس من الطقوس العسكرية؟

فأجابنــي باستغراب شديد: ماذا نسميه إذن! إنه معسكر فني نقيمه لطلبتنا كل عام وهــو معسكر كما تــرى، سألته: هل سمعت في حياتك عــن شيء اسمــه معسكر فني؟ قال: نعم هو هذا المعسكــر الفني السنوي! وفي الحقيقــة أدهشنــي استغرابه وشعرت حينها أن ليس لديه تسمية بديلة، ولم يتبادر إلى ذهنــه موضوع التسمية نهائياً، وكان من الواضــح أنه يمتلك عقــلاً مغلقاً غير قادر على مناقشــة الأفكار والجمــل والمفردات الجاهــزة المعشعشــة فيــه، وأن داخل هذا العقل تسكن ثوابــت اتخذت مكاناً لها دون أي تفكير أو اعتراض من قبل صاحبه، وأكد لي ذلك جحوظ عينيه فجأة، وكأنه يخاطب كائناً فضائيــاً هبط للتو بقولــه متابعاً في محاولــة منــه لإقناعي: إنــه معسكر وماذا نسمي معسكر الطلاب إذا عسكروا؟

شعرت أن كلمة معسكر تمثل لديه رديفاً طبيعيــاً لاسم أي تجمّع ســواء كان فنياً أو عسكرياً أو إنتاجياً أو مهما كان نوعه..

قلت له لنقــل ملتقى طلاب كلية الفنون الجميلــة، أو تجمع فنــاني المستقبل، فقال: لكنــه معسكــر.. أجبتــه إن هــذا التجمع لا ينتمــي إلى العسكريــة بشيء فلــمَ تراه معسكــراً؟ وبالطبع لم أسألــه اعتراضاً على كلمة (معسكــر) فأنا كأي سوري أدى خدمة الوطــن، ويعرف معنــى العسكريــة، ويكن للمقاتلين كل احترام ومحبــة، لكن التسمية كانت لا تنطبق مع الحالة الفنية والطقوس الإبداعيــة (رغم أن العَسكَــرة يقصد فيها التجمــع) لكنها أصبحت مــع الزمن تحمل معنى وحيــداً يتعلق بحياة الجيش والعسكر والتدريب والإقامة إلخ..، والفرق شاسع بين ما يتــم في معسكرات الجيشــ من نشاط، وبين ما يتم في هذا التجمع أو الملتقى الذي يحمل صبغة فنية تشكيلية مطلقة، لا تنتمي إلى العسكرية بشيء.

لم يكــن عنــده إجابــة ســوى علامات الاستغراب التــي ارتسمت على وجهه كردة فعــل بلهــاء، جواباً علــى ما قلتــه، ثم بدأ يرتجــف وكأنني اقتربت مــن المحرَّمات،

فأحسست وقتهـا أني أحاور رجلاً قد أعيرَ رأســ (خروف) ركّبه بين كتفيه، ونسيه فوق رقبته منذ زمن طويل، ولا علاقة له لا (بالفن ولا بالفنون) لا من قريب ولا من بعيد.

وعلــى ما يبدو فــإن بعضــ الناس قد أدمنوا علــى أشياء ومفاهيم وأفكار وأسماء وتقبلوها دون تفكــير، واعتبروها دون إرادة منهم صحيحة وتعاملوا معها وكأنها (منزلة) لا يمكن المساس بها أو حتى الاقتراب منها، وظنوا أن التفكير فيها من المحرمات، وكأنها تحولت مــع الزمن إلى يقينيات (وبتصوري) فإن القضيــة برمتها تتعلق بالتربية القائمة علــى النهي والأمــر وتقبل الأشيــاء بالقوة منذ الطفولة، فينشأ البعض لا يفرقون بين (الخــوف) من الأب مثــلاً، وبين (احترامه) فيدمن البعض تنفيذ الأوامر دون مناقشة، في حال كان الخــوف مسيطراً على تربيته، ويتحول الخوف مع الزمن إلى مَلَكَة، فيحرم الإنسان من متعة التساؤل مما يؤدي إلى عدم الاستنتاج ويضعف القدرة على الاختيار، كما يضعــف المحاكمة العقلية عند المرء في حال تأصــل هذا النوع من التربية، ويقتل الإبداع في المستقبل.

وعلى سبيل المثال أذكر أن أحد المسؤولين في الثمانينيات حاضَرَ في أحد النوادي وتحدث عن (الديمقراطية) بإسهاب، وقال في نهاية محاضرته بأن الديموقراطية الحقيقية التي تبني الأوطان هي (الديمقراطية الموجهة!) و(قــرر) في محاضرتــه أن (الديموقراطية الموجهة) هــي (الديموقراطيــة المثالية!!!) ويومها كانت مجموعة من الشباب والشابات تستمع إليه، وأبدت هذه المجموعة إعجابها (بالديمقراطية الموجهة) بل اعتبروها كأنها كلام (مُنَزَلاً) وكان بــاب النقاش مغلقاً بعد المحاضرة، ولم يتساءل أحد من هذه المجموعة، لماذا كان مغلقاً! بل لم يخطر لهم هذا السؤال أصلاً، لكنهم صفقــوا للمحاضر كثيراً، دون أن ينتبهوا إلى أن كلمة (موجّهة) قد أفرغت كلمة (ديمقراطية) التي شرحها لهم في بداية محاضرتــه من معناها الحقيقــي، والإفراغ الأول لها كان هو إغلاق باب النقاش.

حالهم كحال أحد أعضاء الأحزاب حينما يذهــب ليصوّت في انتخابــات ما، فيعطيه حزبــه قائمة فيهــا (مثلاً) عشــرة أسماء، ويطلب منــه أن يمارس حريته في الانتخاب من خــلال انتقاء أي خمســة منهم يروقون لــه، فيذهب الناخب بشــكل تلقائي وينتقي (خمســة) ويشطب (خمسة) مــن القائمة،



ويخرج من الغرفة السرية فخوراً لأنه مارس حقه الانتخابي بكل ديمقراطية، ولا يخطر في باله أبداً أنه لم يمارس الديمقراطية مطلقاً، كونه لا يدرك بأنه (إن أراد له حزبه أن يمارس الديمقراطية) لأعطاه الأسماء العشرة وطلب إليه أن ينتخب خمسة أو أربعة أو ثلاثة من القائمة أو من خارجها أو لا ينتخب أحداً إن لم يعجبه أي مرشح..

وعلى ذكر الانتخابات فقد حكى لي أحد الأصدقاء أن إحدى المدارس الابتدائية قررت إدارتها أن تعلّم تلامذة المدرسة أصول الديمقراطية منذ نعومة أظافرهم (والمدرسة في دمشق) فقررت معلمة الصف (الثالث الابتدائي) إجراء انتخابات يتم من خلالها انتخاب (عريف) للصف، وما حصل في انتخابات الصف أن رشح عدد من التلاميذ أنفسهم لحمل لقب الـ(عريف) وتم إفراغ المقاعد الثلاثة في آخر غرفة الصف لتكون بمثابة غرفة سرية، وأعطيت لكل طفل ورقة ليكتب عليها اسم مرشحه، وطلبت المعلمة من التلاميذ أن ينتخبوا اسماً (بعينه) لأنها تشعر أنه قادر على ضبط الصف في حال خروجها منه، والأرجح بسبب ضخامة جثّته.

أعلنــت المعلمة عــن بــدء الانتخابات، فذهب الطلاب بالتتالي إلى المقاعد الخالية في آخر الصف، وكتب كل طفل بمفرده اسم الطفــل الذي طلبت معلمتهم منهم انتخابه، وطوى الورقة حفاظاً على (سريتها) ووضعها في علبة المحارم الورقية الفارغة المخصصة للأصــوات المكتوبة، وبعد انتهاء الانتخابات قامــت المعلمة بفــرز الأصــوات وبحضور جميع المرشحــين والناخبين، وفاز مرشحها ضخم الجثة، وصفق لــه الأطفال لأنه فاز، ولم تنسَ المعلمــة أن تقول لمــن لم يحالفهم الحظ في انتخابات هــذا العام، بأن الفائز (فــاز) بناء على رغبــة زملائه! وتمنت لهم أن يحالفهــم الحظ في السنــة القادمة! ثم خاطبت الفائز قائلة: (أتمنى أن تكون قدوة لزملائك في الصف، وإلا سأعيد الانتخابات مــرة ثانية، وأطلــب من زملائــك انتخاب واحد غيرك) وعاد الأطفال (المنتخبون) إلى بيوتهم فرحين بإجراء انتخابات في صفهم، وازدادت فرحتهــم بأنهم انتخبوا جميعاً من (طلبت المعلمــة أن ينتخبوه) وبأنهم أطاعوا أولي الأمر منهم وفاز ضخم الجثة بـ(منصب العريف) وحققت المعلمة (بعبقريتها) الدرس الأول بنجاح، إذ علّمت تلامذتها كيف تُقَرَرُ وتدار وتُلغى الانتخابات، وكيف يتم الترشيح والتصويــت والفــرز وكل شــيء.. ماعــدا الديمقراطية!





آفاق المعرفة



الخطاط خالد الساعي في معراج الحرف

معصوم محمد خلف *

يعـد الفن الذخيرة التي يقف عندها المرء مصطبغاً برداء الجمال، حيث يتكامـل لديه الرؤية في الدخول إلى عوالم خفية لم تكن في الحسبان، ونتيجة للحبكـة الفنيّة تتدرج تلك العوالم لتشـكل رافداً آخر يعطي للجوهر الثقافي الصورة الأكثر قرباً إلى الوجدان.

فالفن هو وعاء ثقافة البشرية منذ درجت أقدامها على الأرض.. وبه عبّر الإنسان عن أغوار روحه.. وأشواق قلبه.. وخلجات شعوره، وسواء كانت أداة

* خطاط وباحث سوري.

الفنان، أحرف اللغة أو انسياب الصوت، أو حركة الريشة، فإنه يظل حامل رموز الأمّة في قلبه.. والمعبر عنها عبر أداته.

وقد أظهر لنا تاريخ العلم أن الأفكار والآداب والفنون سبقت العلوم المادية وتقنياتها، وأن الأدباء جاءوا قبل المخترعين، وأن قصائد الشعراء سبقت آلات العلماء، وأن موناليزا دافنشي أضاءت الأنفس قبل أن يضيء مصباح أديسون الطرقات!!

وقد كان لحضارتنا الإسلاميّة تفرّدها المتألق في تاريخ الفن الإنساني.. وشواهد ذلك شاخصة فيما خلّفته من أبنية معمارية فذّة لمساجدها وقصور سلاطينها، وما احتوته تلك المنارات من روائع فنيّة سواء كانت، نقوشاً خطيّة على جدرانها، أو زخارف تحفل بها حواشيها، أو تحفاً تتيه بجمالها على غيرها.. وقد مهّد ذلك الإبداع العربي المسلم لحضارة أوروبة الحديثة وملأ فراغاً هفت إليه النفوس البشرية في شتى مناحي الحياة الإنسانية.

فلكل أمة في التاريخ مرآة عاكسة لعقلها وذوقها في عالم الفكر والثقافة، وكلما كان العقل والإبداع أكثر تألقاً وعطاءً، كانت المرآة أكثر صفاءً وجلاءً فلا قيمة لأمة لا تمتلك إرثاً فنياً وإبداعياً وحضارياً، لأنها أمة بلا جذور وبلا هوية، والخط العربي يقف اليوم موقفاً ثابتاً وسط التيارات المختلفة والمفاهيم المتعددة التي ظهرت في الآونة الأخيرة كالحداثية والعولمة وغيرها، ورغم ذلك كله فهو يتمركز في ذروة العطاء الحضاري الإسلامي وفي قمة الإبداع لأنه واسطة نقل العلوم والمعارف، فكيف لا والخط لسان اليد ،ويد اللسان ،ورسول الفكر، وميزان العقل وترجمان القلب، ومعيار الإرادة، وبهجة الضمير، ومزمار المعاني، ومرآة الروح، و سلاح في المعرفة وحجة في العلوم وسند للحضارات، وهو يخفي الأسرار في نفسه، وتفوح من جسده روحانيات تسر العيون وتنتعش النفوس.

فالخط العربي يعد من أرقى أدبيات الحياة، وهي أشرف الفنون البصرية في حضارتنا الإسلاميّة.

فمن جملة (رب يسّر) تنطلق الحروف مرات ومرات بحيث ينقش ذلك في الذهن واليد بأدق تفاصيلها، ومتى ما تربت روح الطالب ويده، فإنه يعني في ذاته أنه بات مستعداً لتقديم الآثار التي تخاطب الأرواح والقلوب.

ومشاهــدة الخــط تشبــه الخزامى في جماله وبعده، وقراءته تشبه إشمامه، والتواؤم والجمــال في فن الخط يسبقان قراءته، ولا يعني ذلك التواؤم والموازنة والجمال الإخلال بالمعنى، ففن الخط هو الحصول على ذلك الجمــال دون تنــاول التفاصيــل الدقيقــة والمقاييس المحددة، وهذا من أصعب الأمور فيه، وهو الذي يضفي عليه طابع الإحساس بالعبــادة لمن يتعلق قلبه بالخط، فالخط هو الكتابــة الموزونة التي تعــبر عن فكر معيّن، لكنه ليس تعبــيراً رمزياً مجرداً فقط، وإنما هــو أيضاً تعبير جمالي مدهش يصوِّر القيم الدينيــة والاجتماعية والأدبية في أبهى حلة وأجمــل منظر، وعندما يقــول plotion : الجمال المادي تعبــير عن الجمال الروحي، يريــد أن يقول «إن الجمال الروحي يشع في الفنون كما يشع في الكائنات».

وفن الخط كفن الرســم يتشكل أولاً في الذهــن ثم يظهر إلى الوجــود باليد والعين والإرادة مستوحياً تزييناته ليس من الطبيعة، بل من الروح الإنسانيّة.

وقد يكون الحرف العربي هو آخر جدار نستند إليــه تشكيلياً وفنياً، قبــل أن تبلعنا دوّامات العولمة والحداثة من خلال الخطوط الحديثة التي ظهــرت في الحواسيب لتكسر من حدة المفارقة ما بين القواعد الكلاسيكية والأساليب التطويرية الحديثة.

فالاهتمام بالمظاهــر الجمالية والفنية تعتبر مــن الكماليات لبعضــ الناس بينما نجد أنهــا من ضروريات الحيــاة للآخرين وإن الإنسان المثقف يدرك الجمال ويتذوقه أكثر من زميلــه غير المثقف، ولو أننا حاولنا أن نتصور حياتنا خالية من الفن (الموسيقى والتصوير والرســم والخط والغناء والمسرح وغــير ذلك مــن الفنون) لرأينــا الحياة قد فقــدت كل قيمتهــا وأصبحــت لا لون و لا طعــم لها، وكلمــا ارتقت هــذه الأنواع من الفنون زدنا استمتاعا بالحياة واغتباطا بها واطمئنانــاً لها وارتياحــاً فيها، وهذه نقطة أخرى في صلة الفن بالحياة الاجتماعية، إذ إن الفــن مظهر من مظاهر الحضارة ودليل من دلائل ازدهارها لأنه مقياس درجة الرقي ـــ فكلما ارتقت فنونهــا واعتبرها أبناؤها من الضروريات، ومما لا شك فيه أن حاجة مجتمعنــا الحديث إلى الفن تزداد كل يوم لما نلاحظه من تقدم ورقي ورخاء وأمن وأمان وحرية.

فهل يستطيــع الحرف - هــذا الكائن

النبيل - أن يصد فوضى الشخبطة ودعاة الحداثة والمهرولون وراء مبدأ التغيير، هؤلاء الذين يجمعون النفايات ويعرضونها على الناس في المعارض المحلية والعالمية بدعوى التطوير والتجديد وما يصاحبها من مصطلحات ومرادفات، فالحرص على مدى قدرة الفنان العربي والمسلم على تفجير طاقات الجمال داخل الحرف ومنحه أبعاداً أخرى عديدة هي من الأولويات المهمة التي تقع على عاتق الفنان وهي جزءٌ هام من رسالته التنويرية لهذا الفن الجميل.

فالروحانية والشاعرية ميزة هامة وأساسية عند الخطاط والفنان خالد الساعي، فهو يعشق الخط ويتسامى معه إلى أعلى درجات الحب والانعتاق فنجد لديه الحروف متعانقة متراصفة وتبوح بعوالم شفافة في غاية الروعة، حيث لا نراه يتعامل مع أعماله من الناحية الحرفية وحسب بل يجعل من لوحاته وخلفياتها حقلاً غنياً بالألوان والنقوش والتفاصيل التشكيلية، والتي من ضمنها هالات شفافة تتراءى من الخلف لتحجب الفراغ المترامي عبر حقل مليء بالأبجدية المنمقة .

ويستعيد في كل حواراته قول الشاعر الفرنسي برنار نويل «ما من لغة تملك خطاً تشكيلياً يرتبط المعنى بالشكل فيه كاللغة العربية».

والفنان والخطاط خالد الساعي يعد واحداً من أهم الحروفيين العرب، الذين يمزجون مابين الكلاسيكية الصارمة ومابين الأسلوب الحداثي في تطوير اللوحة الخطية، إضافة إلى الأبعاد الفنية الجميلة التي تتداخل مع اللوحة عبر التدرجات اللونية التي تكسب اللوحة ألقاً وحيوية.

ولا يقتصر إبداعه في تجلّيه الرفيع على مستوى جماليات الخط وموسيقيته وإيقاعه، بل هو أيضاً مليء بموضوعه على المستوى النظري، من حيث فهمه العميق للخلفيات الروحية والفلسفة الصوفية للخط العربي، حيث اُختير ضمن أفضل ١٠ خطاطين في العالم.

ويؤكد الخطاط الساعي أنه ليس مع أولئك الفنانين وخاصة العرب المقيمون في أوروبة إلى استعمال قيمة الحرف أو الكتابية أكثر من الخط، كونهم يستوحون من روح الكتابة النص وليس من قاعدة الخط، للهروب من قوة الخط أو إلى الناحية التصميمية للخط. وهذا يلغي الإبداع، ويحوله إلى

حرفة. فهــو ضد وجهة النظــر هذه، لكنه مــع الحرف كقيمة إبداعية كلاسيكية. وهو قادر كذلك أن يعبر خارج السياق الذي كان فيــه. وكأمثلة على ذلك نرى اليوم نوعا من السرياليــة الجديدة مستنــدة إلى السريالية القديمــة كجذور وكقاعــدة وكتأسيس لكن لها قراءاتها الثانية للمستقبل، كما لا يمكن أن تكــون لغة الشعر هي ذاتهــا التي قالها المتنبي، أو هي ذاتها لغة الشعراء الجاهليين أو حتــى ما قبل ذلك لأن مفــردات الحياة تغيرت في عالم أصبح مفضوحا، وقد عبّرعن قدرة الحــرف في أن يعيش مناخات أخرى غــير المناخ الكلاسيكي، وهذا إثبات على أن الحرف ثري وباستطاعتــه القيام برحلات مختلفة عن الرحلات التي يقوم بها في شكله التقليدي، لكن بكل الأحوال يجب أن يستند الفنان الــذي يعتمد الحرف علــى تأسيس قــوي جدا. هذا يذكّــرني بمثل ما حكي في العهد العباسي عن علــي الجارم أن اذهب واحفظ ألف بيت من الشعر ثم انسها. هذا مــا يسميــه المنسي الفعال الــذي يرجع في إعادة نفســه بصياغة أخرى وبلا املاءات. وهكذا عندما تكون مؤسسا كلاسيكيا بشكل قوي تستطيــع أن تستثمر الشكل، أما الذي لا يملك رصيدا جيدا بفهم الحرف ستكون رسالتــه بلا شك ضعيفة وغــير قادرة على التعايشــ، لذلك فالفنــان والخطاط خالد الساعــي أشبــه بنحلة دائبــة التجوال بين أزهــار الحدائق تحمل رحيــق الفن وشهد الإبداع، وحبيبات اللقاح الحضاري الداعية إلى التآلــف والتفاعل المنتــج، والمنفتح على شتى الاتجاهــات الإنسانيّــة والتي تمتزج مع الشعــور الإنساني الحي لــكل الشرائح والمذاهب.

وإذا نظرنــا إلى مسمّــى الحروفيــة فالخطاطون بمجملهم حروفيون لأن أداتهم الحــرف الــذي يبنــون من خلالــه الكلمة والمبنى إلا أن الحروفية كمدلول اصطلاحي تسمية تطلق علــى الفنانين الذين استفادوا من الكتابات أو الحروف العربية كأدوات أو عناصر لبناء أعمالهــم التشكيلية، ويرى أن الاختلاف بينهم واضح وجلي إذ إن للخطاط معاييره الخاصّة لبناء الخط وهذا ما يفعله الفنــان التشكيلــي والذي يمتلــك معاييره الخاصــة أيضــاً، وكلا الطرفــين يختلفان عن بعضهمــا، ولكن إذا تعمقنا نجد أن من المفروضــ أن يكون هناك تــلاق بل تلاحم في التوجهــات دون خــلاف بينهما والعمل

في الإطـــار الفني يدفع باستمرار للاشتراك والتوحد، وإذا عنينا بالخط العربي الكتابة التبليغية فلا بـــد أن نميّز بين العمل الفني المنجز بوساطة الكتابة والأمور الأخرى.

فقد قـــام هذا الفنان بجـــولات عديدة ناجحة في كل من أوروبة وأمريكا، وكانت له فيها محطات احتضنـــت أعماله وطروحاته الجديـــدة في فن الخط العربي، حيث لاقت إقبـــالاً ملحوظاً مـــن الجمهـــور الأمريكي خاصة على تجربته المتميـــزة التي رافقتها محاضـــرات وورش شكلت إضاءات لافتة إلى هذا الفن الأصيل في ظروف استهدف فيها العرب كوجود ثقافي وبنيان فكري وحضاري، الأمر الذي فتح قنوات للحوار وجسراً للعبور والتفاعل مع ثقافات الآخرين.

لم يهدأ خالـــد الساعـــي ولم يتوقف عن العطـــاء الإبداعـــي بـــل كانت لـــه جولات جديدة، حيث توّج في منطقة الخليج العربي فحلَّ ضيفـــاً عزيزاً على المرئـــي والمسموع في دورتـــه السادســـة، عرضـــ فيهـــا آخر إنجازاته في تجربته الحروفية الغنية بالتألق والانبهار مبرزاً فيه أسلوبه الجميل وتقاناته المستقـــاة من الموروث التقني بشقيه الخطي والتصويري، فكانت مدينة الخبر في المملكة العربية السعودية محطة أخرى لعروضه في صالة إنما (inma gallery) رافقتها ورش تعريفية امتدت ظلالها إلى مدارس الظهران الأهلية والجهات المهتمـــة فيها، وفي حدث فني بـــارز عرض الخطـــاط والفنان خالد الساعي عـــام ٢٠٠٣م بقاعة (العدواني) في ضاحية عبـــد الله السالم بمدينـــة الكويت، وبدعوة من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أعمالاً رائعة مـــن الشعر العربي، وبعضـــ الأعمـــال المستقـــاة مـــن المناخات الشرقيـــة والمقامات البصريـــة والموسيقية، وقدّم فيها - كعادتـــه - ورشاً فنية، وكانت له محاضرة في جمعية الكويت للفنون التشكيلية في حولي بعنوان «الحروفية والهوية» تطرق فيها إلى مشروعية اللوحة الحروفية - لوحة الخط العربـــي المعاصرة وتحديات الحداثة وإملاءات المـــوروث والأصالة - وأعقب تلك المحاضـــرة الموثقة بعروضـــ السلايد جدلاً ونقاشاً واسعان، أثـــرى فيها خالد الساعي الجمهـــور والمختصين، وأعطى جرعات من الأمـــل بإمكانية التطويـــر والخروج بأعمال ركيزتها الحـــرف العربي توازي قمم أعمال التشكيليـــين المحدثـــين، إضافـــة إلى كيفية تطوير مفاهيم تناول العمل الخطي الحديث وأسلوب قراءته.

وكانت آخر محطة من محطات الساعي الخليجيـــة ـ في جرين آرت كاليري (Green art gallery) بمدينة دبي في دولة الإمارات العربيـــة المتحدة بتاريـــخ ١٧/ ١ / ٢٠٠٤م، حيث قدّم فيها آخر إنتاجاته في نسيج عالي التقنية ورفيع الأداء والدقة في معرفة خفايا وأسرار فني الرسم والخط على حد سواء.

ولخالــد الساعــي لغتــه الخاصــة في الحروفيـــة لأن الحرف عنده مفهوم مفتوح، وعالم لا ينتهي. كذلــك فهو مؤمن بالحرف وبقدرتـــه علـــى محـــاكاة الواقـــع والطبيعة والشعر، وقد نهلــت الأعمال المعروضة من معين الشعـــر العربي الأصيل كشعر المتنبي، وابن الفارضــ، وأدونيســ، ومحمد صارم، وغيرهم كمـــا نهلت من موسيقـــا فيفالدي والمقامات الشرقية كالنهاوند والراست، وبعض الأعمال ذات المفاهيـــم الجدلية كالثنائيات والثلاثيات التي لا تخلو من إشارات فلسفية ومعرفيـــة عميقـــة، وبعض الأعمـــال كانت كالسجـــاد والبســـط والخزفيـــات في جمل بصرية غنية دعـــت إلى فتح المنتج البصري الشرقي بأكمله وإعادة نسجه بنول القصب وســـداة الضوء. والشـــيء اللافت للنظر في تجربـــة خالد الساعـــي أنهـــا لا تقف عند حدود، فهو باحث دؤوب في مجالات الفنون والعلـــوم، وداع دائماً إلى فتح الحواس لتقبل الجمال، والحوار مع الثقافات الأخرى على أرضية صلبة من الدراية والثقة والمعرفة.

المراجع :

. مجلة الصدى .

. مجلة الحياة التشكيلية

ــ جريدة القبس الكويتية تاريخ ١٢/ ٥/ ٢٠٠٧م فهد المطيري ومحمد النبهان.

ــ صنعتنا الخطيّة. تأليف، محي الدين سرين، ترجمة: مصطفى حمزة، دار التقدم والنشر، سورية.

ــ الزخارف الكتابية، فوزي سالم عفيفي، مكتب ممدوح، طنطا جمهورية مصر العربية .











© DW







آفاق المعرفة



مقاربة في «نظرية النظم» بين سيبويه والجرجاني

وهدان وهدان *

اكتسب سيبويه شهرة عظيمة في تاريخ المعرفة الإسلامية بكتابه في النحو، لما اشتمل عليه من قواعد نحوية، أصبحت ضرورية لضبط اللغة العربية والحفاظ على سلامتها، معرفة وأداء.. والحقيقة أن كتاب سيبويه، كان وما زال أخلد كتاب في نحو العربية وصرفها وأصواتها.. إلا أن تصفح بعض ما أنجز حول الكتاب من دراسات وبحوث، يوحي بأن جوهر جهد الرجل لم يفهم، فوقف التقييم لجهوده عند حدود اعتباره مسجلاً لأصول

* كاتب سوري

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

النحـو العربي وقواعـده وحسب!.. وبذلك يتم الإجهاز علـى مضمون أخطر مصطلح يشتغل عليه سيبويه وهو النحو.

والنحو عند سيبويه، كما أريد له، لم يكن مجـرد إعراب لأواخر الكلمات وما فيها من رفـع، ونصب، وجر، وجـزم.. بل كان ينظر إليـه في ترابط مـع بقية العلـوم وخاصة البلاغة، ومن ثم يكتسب النحو روحاً مشعة لها جلالها وقيمتها الفنية والجمالية، وهذا مـا سيطـور إلى أقصى درجاتـه التعبيرية مـع الإمام عبد القاهـر الجرجاني، والذي سيتحـول معه النحـو إلى وسيلة من وسائل التصويـر اللفظـي، ومظهراً مـن مظاهر البراعة البلاغيـة، لا إعراباً جافاً كما نجد في كتـب النحو الخالصة، فمحـور سيبويه - الجرجـاني إذن، متكامل، ومنسجم يكمل الأول فيـه الثاني ومن هنـا تأتي مشروعية الورقة في الحديث عـن النظم بين سيبويه والجرجاني.

وموضوعنا هـذا، باعتبـاره ورقة، من مهامه المنهجية، على إثارة أسئلة استفزازية أكثر ممـا يحاول تقديم معلومات، أو يعطي أجوبـة تقريرية، ويرمي بمـا توفره له من قدرة على الحشد والبنـاء الاستدلالي، إلى الإجهاز علـى بعض المسلمـات، الصريحة والضمنيـة، التـي حكمت المسـار النقدي والبلاغي العربي، مـن نحو أن عبد القادر الجرجاني هو مبتكر نظرية النظم، وأنها من بنات أفكاره، وحتـى إذا ما أشير إلى جهود سابقيـه، كالجاحظ (٢٥٥هـ)، أو القاضي عبد الجبـار (٤١٥هـ) فكثيراً ما يغيب رجل عظيـم، كان في اعتقادنا، المؤسس الحقيقي لنظريـة النظم، والواضع الأول لمفرداتها في صمت: إنه سيبويـه عمرو بن عثمان (١٨٠ هـ)، إمام النحاة.

النظم عند سيبويه:

حقيقـة، كان اهتمـام سيبويه الأول في الكتاب هـو وضع القواعد العلمية النحوية، وليس الوقوف على الأسس الفنية البلاغية، وحتـى في إشاراتـه البلاغيـة المتناثرة في الكتـاب، لم يذكرها كقوانـين ومصطلحات كما عرفناها بعده. إلا أن نظرية النظم كما اكتملت مع عبد القاهر الجرجاني أو كادت، ساهم فيها سيبويـه بقسط وافر، بما ذكره مـن موضوعات تدخـل في صلب ما عرف فيمـا بعد بعلم المعاني، مـن حذف وزيادة، وذكر وإضمار، وتقـديم وتأخير، واستفهام، وقصر، وفصـل ووصل.. هذه المباحث، كما

جاءت في الكتاب شكلت «النصوص الغائبة» أو «المواجهة» للجرجاني وهو منكب على صياغة نظريته.

وإذا كان اهتمام النحاة القدماء منحصراً في أثر العوامل وما يعقبها من حركات الإعراب.. ففي مواضع كثيرة من الكتاب(1) نلمح سيبويه يهتم بالتركيب، والتأليف بين الكلمات والجمل، وصوغ العبارات والحسن والقبح فيها. إن سيبويه إذاً، لا يكتفي بتسجيل قواعد النحو، وإنما يلاحظ ويتأمل، ويقدم تحليلاً رائعاً، يبين دقة حسه بفقه اللغة، وأساليبها وأسرار بلاغتها وتراكيبها.. ويحاول الوقوف عند خواص معانيها. وفي إطار هذه الدراسة المقارنة بين سيبويه والجرجاني سنكتفي بالإشارة إلى بعض الأمثلة التي ساقها كلا العالمين، دليلاً على اهتمامهما المشترك بالنظم، دون أن يعني ذلك أننا استقصينا الأمثلة كلها والأماكن جميعها، أو حتى استوعبنا ذلك أو تمثلناه.. وعذرنا ضعفنا وقصورنا.

سيبويه والجرجاني.. من النحو إلى النظم:

إن تدبر «دلائل الإعجاز» الذي وضع فيه عبد القاهر نظرية النظم، وفصلها واحتج لها، يجعلنا نخرج بخلاصة تقول: إن «النظم» عنده يعني: «معاني النحو وأحكامه» فالنحو إذا يعد من أهم أسس منهجه وأخطرها، بل وأغمضها في أذهان الكثيرين، حتى صعب تصور ما يقصده عبد القاهر بهذا المصطلح، يقول في المدخل إلى «دلائل الإعجاز» هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة، وكل ما به يكون النظم دفعة (2) هذا هو مسوّغ اختيار عنوان «سيبويه والجرجاني: من النحو إلى النظم» فالعلاقة بين النحو والنظم، تصادفنا في عدد كثير من صفحات «دلائل الإعجاز» فقد استفاد عبد القاهر إذن من النحو، وهو من شيوخه، في إرساء قواعد نظريته، واعتبره أصلاً ضرورياً في النظم، بل ويشدد النكير على من يزهد فيه، يقول: «وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتعاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم، وأشبه بأن يكون صداً عن كتاب الله، وعن معرفة معانيه، ذلك لأنهم لا يجدون بداً من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه» (3).

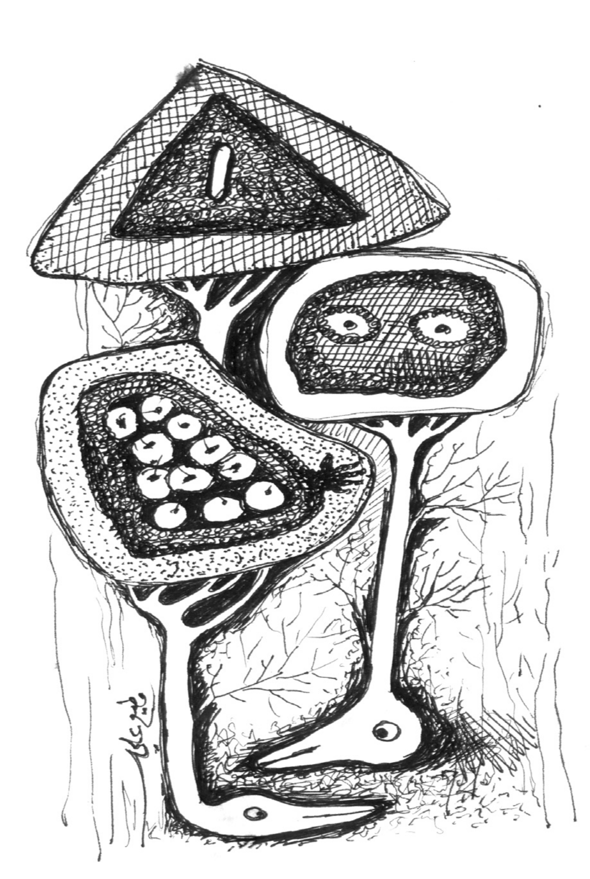
وممن استفاد منهم الجرجاني، في مجهوده من النحاة سيبويه (4) فقد أخذ عنه

خصائص التعبير، وما يصلح به الكلام ويفسد، إلا أن براعة الجرجاني تتجلى في استفادته من جهد سيبويه وغيره من النحاة وتطويره، فأسس بذلك مشروعاً جمالياً يستمد عمقه من النحو، سرعان ما سيجهض بفضل النحو عن البلاغة، لتدخل هذه الأخيرة في تعقيدات فلسفية، وأقيسة منطقية، سيفقد النص، بموجبها، قيمه الفنية والجمالية، ويصاب بالجفاف والعقم في زمن الانحدار [٥].

ورغم أن كتاب سيبويه يتميز، في عمومه، بإيجاز العبارة وغموض الفكرة، مما يسبب بعض التعب والملل أثناء القراءة، إلا أنه يشتمل على عدد غير قليل من الالتفاتات البلاغية والغنية، ذكر الجرجاني بعضها صراحة منها:

ظاهرة الحذف:

قال سيبويه في «باب يحذف منه الفعل لكثرته في كلامهم حتى صار بمنزلة «المثل» في قول الشاعر:



فكرت تبتغيه فوافقته
على دمه ومصرعه السباعا

وقول آخر:

لن تراها ولو تأملت إلا
ولها في مفارق الرأس طيبا

قال: «وإنما نصب هذا لأنه حينما قال: وافقته وقال: لن تراها، فقد علم الطيب والسباع قد دخلا في الرؤية والموافقة، وأنهما قد اشتملا على ما بعدهما في

المعنـــى»[٦]. إن سيبويـــه في تناوله للحذف، لا يكتفي بعرضه عرضـــاً شكلياً محضاً، بل يضيف بأنه فصيح تحدث به الفصحاء من العـــرب، ويحتوي على أســـرار بلاغية، فهم يحذفون مرة إيجازاً، وأخرى تخفيفاً، ويشير أيضـــاً إلى أن عادة العرب جرت على إلحاق التنويـــن بالخفيف من الكلمات، وحذفه من الثقيل، لأن التنوين يزيـــد الكلام ثقلاً، ولا يريـــدون أن يزيدون ثقلاً على ثقل، والعرب على العمـــوم -حسب سيبويه- تحذف طلباً لخفة اللســـان، واتساعاً في الكلام.. فيكون بذلك سيبويه من الرواد الذين مهدوا لتناول الحذف، وبيان مواضعه وأسراره. كما أشار إلى الذكر والإضمار في التعبير الكلامي.

أما الجرجاني فقد عقد فصلاً للحذف في «الدلائـــل» مسترشـــداً بـــآراء سيبويـــه، مناقشا بعضها، ويقول في الحذف: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تـــبن»[٧]. ويفصل عبـــد القاهر القول في حذف المبتدأ، وحـــذف الفعل وإضماره، ويمثل لذلك، وكذا حذف الفاعل والمفعول، وكذا الحذف الخفـــي، والزيادة في الكلام. ويرى عبـــد القاهـــر، على غـــرار سيبويه، أن افتقـــار المخاطـــب إلى التأكيد والتقوية، حينما يكون متردداً في الحكم، أو منكراً له، ويستدعي زيادة واضحة المغزى، ذات غرض بلاغي دقيق.

التقـديم والتأخـير بـين سيبويـه والجرجاني:

يعتـــبر سيبويه أول مـــن كشف عن السر البلاغي في التقـــديم والتأخير، فالنحويون قبلـــه كانـــوا يقفـــون عند حـــدود الوصف الشكلي المحض لعملية التقديم والتأخير، أما سيبويه فكان يراها طلباً للعناية والاهتمام، وأطـــال الحديـــث في التقـــديم والتأخير في بـــاب ظـــن وكســـي، وإن، وكان والظروف، وكشف عن نكـــت بلاغية في الموضوع، ظلت معتمـــد البلاغيين الذين أتـــوا بعده. يقول: «والتقـــديم ههنا والتأخير، فيما يكون ظرفاً أو يكون اسمـــاً، في العناية والاهتمام، مثله في ما ذكرت لك في بـــاب الفاعل والمفعول، وجميـــع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير، والإلغاء والاستقرار، عربي جيد، فمن ذلك قوله عز وجل «وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ»، وأهل الجفـــاء من العـــرب يقولـــون: ولم يكن كفواً

له أحد كأنهم أخروها حيث كانت غير مستقرة» [٨]. قد نلاحظ للوهلة الأولى قصور تصور سيبويه لسر التقديم، وهذا ما دفع الجرجاني بالفعل للاستدراك عليه، واستكناه الأسرار البلاغية البعيدة للتقديم، فيكون بذلك جهد الجرجاني تتمة لما ابتدأه سيبويه: جاء في «الدلائل» في فصل «القول في التقديم والتأخير»: واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل، غير العناية والاهتمام، قال صاحب الكتاب، وهو يذكر الفاعل والمفعول: (كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم)، ولم يذكر في ذلك مثالاً (..) وقد في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال (إنه قدم للعناية وذكره أهم) من غير أن يذكر، من أين كانت تلك العناية؟ وبم كانت أهم؟ ولتخيلهم ذلك، قد صغر أمر (التقديم والتأخير) في نفوسهم وهونوا الخطب فيه، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلف»[٩] وبعد هذا التعقيب، ينطلق الجرجاني في تفصيل مواضع التقديم والتأخير، في الاستفهام، والنفي والخبر، ويختم بفصل عن النكرة وتقديمها في الاستفهام، أو الخبر ومعناه، حيث يلتقي في الأخير مع سيبويه ويقول: «وإذا اعتبرت ما قدمته من قول صاحب الكتاب (إنما قلت «عبد الله» فنبهته له، ثم بنيت عليه الفعل) وجدته يطابق هذا، وذلك أن التنبيه لا يكون إلا على معلوم، كما أن قصر الفعل لا يكون إلا على معلوم، فإذا بدأت بالنكرة فقلت «رجل» وأنت لا تقصد الجنس، وأن تعلم السامع أن الذي أردت بالحديث رجل لا امرأة، كان محال أن تقول (إني قدمته لأنبه المخاطب له)، لأنه يخرج بك إلى أن تقول: إني أردت أن أنبه السامع لشيء لا يعلمه في جملة ولا تفصيل، وذلك مالا يشك في استحالته، فأعرفه» [١٠].

إن التقديم والتأخير إذن يأتيان عند سيبويه والجرجاني، للعناية والاهتمام، أو للتأكيد والتنبيه، وقد يأتيان لغير علة بلاغية، ويكونان سبباً في قبح الكلام، واختلال التركيب، فكثيرة إذن، هي الإشارات البلاغية «الغفل» عند سيبويه، تلقفها الجرجاني، وأعمل فيها ذوقه وحسه، وصاغها في قالب جمالي رفيع. إن ضيق مجال الورقة، لا يسمح بطرق كثير من المجالات البلاغية التي كان لسيبويه السبق والريادة فيها، من نحو خروج الاستفهام عن معناه، والنداء عن

أصله وإفادته الاستغاثة والندبة.. واستعمال الخبر بمعنى الإنشاء والطلب موضع الخبر والعكس، واختصر سيبويه الكلام في القصر بما يفيد، فتحدث عن النفي والاستثناء والعطف، وذكر الفصل والوصل، ولم يكن حديثه نحوياً جافاً، ولكن بلاغياً مرهفاً، نحس فيه ذوقاً وجمالاً وروعة.. مما سيستفيد منه عبد القاهر أيما استفادة، فيعمقه ويخرجه في صورة أخاذة. ولا يفوتنا أن نشير إلى أن سيبويه اهتم بالحسن والقبح في التعبير، ففي حديثه عن الفصل، ذكر مواضع يحسن فيها، وأخرى يقبح فيها، فلو قلت: «كان زيد هو منطلقاً، كان قبيحاً»، كان يراعي تأليف الكلام وحسن النظم القائم على توخي معاني النحو، يقول في «باب الاستقامة من الكلام والإحالة»: «فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب».[11] إن وضع الألفاظ في غير موضعها دليل عند سيبويه على قبح النظم وفساده، ونجد في مواضع كثيرة من الكتاب حديثاً عن تأليف العبارة، وتركيب الكلام وكلاماً كثيراً له علاقة بالنظم، مما يعسر تعقبه في هذه العجالة، كل هذا يجعلنا نخرج بخلاصات كالآتي:

١- النحو عند سيبويه، كما عند الجرجاني، لم يكن مجرد إعراب أواخر الكلمات.

٢- انطلق سيبويه والجرجاني من إطار تصوري واحد، وهو عدم الفصل بين النحو والبلاغة.

٣- لم يتعد النحو عند سيبويه والجرجاني، البحث في الجملة وكلماتها.

٤- يلتقي كتاب سيبويه ودلائل الإعجاز منهجياً في ضعف الارتباط بين الأجزاء، والتكرار الممل، والخوض، في بعض الأحيان، في الجدل العقلي وبناء الأمثلة المصنوعة.. مما يقلل من جمالية التحليل.

خلاصة عامة:

إذا كانت نظرية النظم، قد عرفت اكتمالها مع عبد القاهر الجرجاني، كنظرية جمالية (استيطيقية) متميزة في النقد العربي، فإن سيبويه هو واضع حجرها الأساس، ومبتكرها بدءاً. إلا أن قوة شخصية الجرجاني، وشهرة كتابه «دلائل الإعجاز» غطيا على سيبويه ومجهوده في النظم، ليتراجع إلى الخلف في صمت.

الهوامش :

١- سيبويـه، الكتـاب (سيكـون تركيزنـا على الجـزء الأول فقط، لعـدم قدرتنا على تتبـع كل مباحث الكتـاب) انظـر الجـزء الأول صفحـات: ٢٥، ٢٦، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٧٠، ٨٠، ٨١، ٩٦، ١٢٠، ١٢٧، ١٣٨، ١٧٥، ١٧٦، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٥٣، ٣٣٤، ٣٤٣.

٢- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المدخل ص٣.

٣- نفسه ص٢٨.

٤- انظر حضور سيبويه في دلائل الإعجاز في الصفحات: ١٠٧، ١٣١، ١٤٥، ١٤٦.

٥- انظر السكاكي. مفتاح العلوم، القسم الثالث: علما المعاني والبيان (ص١٦١-٤٣٢).

٦- سيبويه، الكتاب ج ١، ص٢٨٤-٢٨٥.

٧- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٤٦.

٨- سيبويه، الكتاب ج ١، ص٥٦.

٩- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٠٧-١٠٨.

١٠-نفسه ص١٤٤.

١١-سيبويه الكتاب ج ١، ص٢٥-٢٦.





آفاق المعرفة



ديك الجن الحمصي شاعر لم ينصفه التاريخ

الياس الفاضل*

من المؤكد أن التاريخ، قد أغفل ذكر الكثير من الشعراء المبدعين أو أنه تعامل معهم بطريقة هامشية، إذ كانت شهرة الشاعر وخاصة في العصور السالفة، تتوقف إلى حد بعيد على علو مرتبة المقامات التي يمدحها فتعتز به وتعزه ويهتم الأدباء والرواة بجمع أشعاره ونقدها وروايتها. ومن بين هؤلاء الذين لم ينصفهم التاريخ الشاعر السوري الحمصي عبد السلام بن رغبان الذي غلب عليه لقب ديك الجن.

* أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان دلدار فلمز.

لقد كاد التاريخ ينسى شاعر العاصي، لأنه لم يتكسب بشعره ولم ينافق ولم يتملق، ولم يتسكع على أبواب السلاطين والولاة بل صان نفسه عزيزة، وأخلص لرسالة الشعر. فما نطق منه إلا ما كان تعبيراً صادقاً عن خلجات نفسه. ولهذا لم يصل إلينا إلا القليل من أشعاره وأخباره، وبما لا يتناسب مع عبقريته وأصالته الشعرية.

لقب ديك الجن

ولد عبد السلام بن رغبان في العام ١٦١هـ في مدينة حمص، ويقول بعض الدارسين أن لقب ديك الجن أطلق عليه ربما لغرابة أطواره أو لشدة احمرار وجهه، وشروده الدائم على البساتين والكروم ومعاقرة الخمرة فيها. وقد فسر الاسم الغريب بأنه يعنى الحباحب (سراج الليل) أو كما يقول القزويني في كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) دويبة تفتك بالأرصة وهي حشرة كنصف العدسة تقرض الخشب إذا ما ألقيت في خمرة عتيقة وتركت في صدفة ودفنت في وسط الدار.

ترعرع ديك الجن في حمص. أما أصله فمن (سلمية وهي مدينة قريبة من حماه، أما مسكنه فيقول أدهم الجندي في كتابه أعلام الأدب والفن، أنه كان في دار واقعة في حي باب الدريب بحمص بدخلة حارة الشرفا بالساحة المعروفة بصليبة العصياني وهي ما زالت معروفة بدار ديك الجن حتى الآن.

دفعه حبه الشديد لبلاده إلى البقاء في حمص مدى حياته، متنقلاً بين رياضها الغناء وحوانيتها الصاخبة الحمراء، مخالفاً بذلك معظم شعراء عصره الذين كانوا يتنقلون بين بغداد ومصر سعياً وراء الشهرة والمال، وهو وإن غادر حمص كما يذكر صاحب الأغاني فلكي يزور سلمية منبع أصله أو دمشق تهرباً من عقاب السلطان، غير أن الدكتور أسعد طلس يذكر في كتابه (مصر والشام في الغابر والحاضر[٢]) ما يخالف مع ما أجمع عليه المؤرخون. فيقول نقلاً عن السيوطي أن ديك الجن «أنه زار مصر بعد رحلة أبي نواس عنها، فوجد له أشعاراً كثيرة لا يعرفها غير المصريين».

شعره قليل جداً

إن ما وصل إلينا من شعر ديك الجن قليل جداً بالنسبة لما وصل من شعر معاصريه وقد ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان(٣) أن أبا بكر الخرايطي ذكر في كتاب (اعتلال القلوب) حديث ديك الجن وشعره وأن للشاعر كل معنى حسن. غير أن الكتاب المشار إليه مفقود.

وهكذا لم يبق من شعر ديك الجن إلا

القليل المبعثر في أمهات الكتب غير أن هذا القليل، فيه الصدق كله، فهو مرآة صافية تعكس حياة الشاعر بكل تجاربها وتعطينا صورة واضحة لعبقريته بإبداعه الأصيل وإحساسه المرهف وخياله المبدع المجدد. وخاصة من خلال استعراض قصة حبه المثيرة والفريدة والتي استنفزت معظم شعره وأجوده.

ولعلنا لا نخرج عن حدود الحق حين نقول إن شعر ديك الجن في حينه كان على درجة كبيرة من الإبداع والسمو. ففي المرحلة الأولى حين كان شعره تعبيراً حياً عن حب صادق عميق يفجر ينابيع الشعور في نفسه، فتأتي أبياته خفيفة مثيرة مشحونة عاطفة ورقة وجمالاً وفي المرحلة الثانية إلى الألم المبدع يعصر قلبه فيأتي شعره قطعاً من الذات الإنسانية. وبهذا استطاع ديك الجن أن يأتي بتجربة شعرية. إنما هي تجربة صادقة ومخلصة لتجربة حياتية تكاد تكون فريدة ويتيمة طوال عصور عديدة.

حكاية حب حقيقية

ذلك إن حكاية حبه حكاية حقيقية تتميز عن غيرها بكونها واقعاً لا تلفيق خيال.

وحبيبة ديك الجن حبيبة حقيقية لها أوصافها الخاصة، وهي متميزة عن غيرها وما قال فيها مبتكر وجديد لم نسمعه من قبل.

يروي لنا التاريخ أن ديك الجن أحب فتاة نصرانية من أهل حمص يسميها أبو الفرج الأصفهاني (ورد) ويدعوها ابن خلكان (دينا). وقد هام بها الشاعر هياماً شديداً حتى لم يعد يطيق الحياة بدونها.

فلما اشتهر بها دعاها إلى الإسلام ليتزوج بها، فأجابته إلى طلبه، لوقوعها بحبه لها ورغبته فيها وأسلمت على يده فتزوجها (الاغاني).

ويبدو أن الشاعر عانى كثيراً قبل أن يكسب قلب محبوبته، فاعتل جسمه وإذا جاء الطبيب لمعالجته سخر منه لأنه يبحث عن مكان الداء في جسمه والداء في قلبه.

جسّ الطبيب يدي جهلاً فقلت له
أن المحبة في قلبي فخل يدي

وراح طيفها يلازمه في يقظته ومنامه، ويشغله في حله وترحاله ومع ذلك فهو باق على حبها.

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت الهجوع
كي أستريح وتنطفي نار تؤجج في الضلوع
دنف تقلبه الأكف على فراش من دموع

ويصـــرخ ديك الجن مستحلفـــاً الحبيبة بالمسيـــح أن تريح قلبه المضني، وهو ما كان أولــع بالصلبـــان والرهبان. ومـــا كان دخل الكناس لولاها:

عساك بحق عيساك مريحة قلبي الشاكي

فإن الحس قد ولاك احيائي واهلاكي

وأولعني صلبان ورهبان ونساك

ولم آت الكناس عن هوى فيهن لولاك

وكذلـــك يستحلفها بمـــكان الصليب في صدرها وبالخصر الاهيف والخال في الخد والحاجب البهي:

لا مكان الصليب في النحر منك ومجرى الزنار في الخصر

والخال في الخد اذا اشبهه وردة مسك على ثرى تبر

وحاجب قد خطه قلم الحسن بحبر البهاء لا الحبر

واقحوان بعنيك منتظم على شبيه حدائق الخمر

إن طريقة القسم في هذه الأبيات مثيرة، فهـــو لا يقسم بالصليب بـــل بالصدر الذي احتـــوى الصليـــب، ولا يحلـــف بالزنار، بل بمجرى الزنار على الخصر الأهيف، كذلك تشبيه الخال في الخد بوردة مسك على تراب من ذهب، والحاجب الذي خطه قلم الحسن بحبر البهاء. كلها تشابيه مبتكرة نلمس فيها جدة الخيال وروعة الصورة.

وينجح ديك الجن باستمالة قلب محبوبته فيجتمـــع بها، ويبوح لها بحبـــه فتبادله حباً بحـــب، وتنصرف محـــاذرة أعـــين الواشين عاضـــة من غيظهـــا لفراقه علـــى أصابعها العنابية بأسنانها:

ودعتها لفراق فاشتكت كبدي

وشبكت يدها من لوعة بيدي

وحاذرت أعين الواشين وانصرفت تعض من غيظها العناب بالبرد

فكان أول عهد العين يوم نأت

بالدمع آخر عهد القلب بالجلد

في تلـــك اللحظة عرفت عين ديك الجن الدمـــع لأول مرة، وعـــرف قلبه نفاذ الصبر

لآخر مرة.

المؤامرة

(إلا أن الزمـــان الغادر شـــق عليه هناء قلبـــين متحابين فراح يتآمـــر عليهما ليختم تلك الحكاية الغراميـــة المثيرة بفاجعة يهتز بها ضمير كل إنســـان فقد كان لديك الجن ابن عم يدعى أبـــا الطيب يعظه وينهاه عن حياة اللهـــو والمجون، ويدخـــل على مجلسه فيستخـــف به وبندمائه، فتـــأذى ديك الجن منه وهجاه بقصيدة مطلعها

مـولاتـنـا يـا غُـلام مبـتـكـرة

فـبـاكـر الـكـأس لي بـلا نـظـرة

(ويظهر أن هـــذه القصيدة قد شاعت، وانتشـــرت كثـــيراً، فأقضت ابـــن عمه فراح يتربصـــ به ليوقعـــه في حبائلـــه، وكانت إن أتـــت الفرصة المناسبـــة، فأعسر ديك الجن واختلـــت حالـــه، ورحل إلى سلميـــة قاصداً لأحمد بن علـــي الهاشمي، فأقام عنده مدة طويلة، ووجـــد فيها ابن عمه فرصة سانحة ليشيع علـــى (ورد) امرأته أنها تهوى غلاماً له وتخونه، وقرر ذلك عند جماعة من أهل بيته وجيرانه وإخوانه، وشاع ذلك الخبر حتى أتى عبد الســـلام، فكتب إلى أحمد بن علي الهاشمـــي يستأذنـــه في الرجوع إلى حمص، ويعلمه ما بلغه من خير المرأة، فأذن له فعاد إلى حمص، وكان ابن عمـــه أرصد له قوماً يعلمونـــه بموافاته باب حمصـــ، فلما وافاه خرج إليه مستقبلاً ومعنفاً على تمسكه بهذه المرأة بعد مـــا شاع ذكرها بالفســـاد وأشاد عليه بطلاقها وأعلمه أنها أحدثت في غيابه حادثة لا يحمل به معها المقام.

ودســـ الرجل الذي رماها به وقال له إذ أقدم عبد السلام ودخـــل منزله فقف على بابـــه كأنك لا تعلم بقدومه ونـــاد باسم ورد فـــإذا قال من أنت فقل أنـــا فلان فلما نزل عبـــد السلام منزله وألقـــى ثيابه سألها عن الخبر. وأغلظ عليها، فأجابته جواب من لا يعرف عن القصة شيئاً، فينا هو في ذلك إذ قرع الرجل البـــاب فقالت من هذا!؟ فقال: أنا فـــلان، فقال لها عبد الســـلام، يا زانية زعمت أنـــك لا تعلمين عن هذا الأمر شيئاً. ثـــم اخترط سيفـــه فضربها بـــه حتى قتلها وبلـــغ السلطان الخـــبر فطلبـــه، فخرج إلى دمشق فأقام فيها أياماً وكتب أحمد بن علي الهاشمـــي إلى أمير دمشق أن يؤمنه ويتحمل عليه بإخوانه حتى يستوهبوا خيانته. فقدم إلى حمص وبلغه الخبر على حقيقته وصحته واستيقنه، فندم ومكث شهراً لا يستفيق من البكاء ولا يطعم مـــن الطعام إلا ما يقيم به رمقه (الاغاني).

ويذكر ابن خلـــكان أنه كان لديك الجن

غلام اسمه وصيف لفقوا حوله تهمة خيانة سيده في غيابه وقد قتله ديك الجن مع امرأته.

أثر الفاجعة

لا شك أن هذه الفاجعة قد صقلت نفس الشاعر، فالدم أرهف إحساسه وجعله لا ينقر وتراً إلا يهز أوتار القلوب كلها، كذلك رقت عبارته وسلست فانسجم المعنى والمبنى انسجاماً تاماً.

بعد قتل الحبيبة مر شعر ديك الجن في طورين الأول وفيه كانت الإشاعة مازالت تنشر سمها في عروقه. فهو مصدقها ومقتنع بها والثاني انقشعت غمامة المؤامرة ضده.

في الطور الأول يظهر الشاعر بنفس أبية، يتغلب فيها الخلق على العاطفة والشرف على الألم الوضيع. إنه مقتنع بما حصل وأن حبيبته نالت جزاءها.

لك نفس مواتية والمنايا معاديه

أيها القلب لا تعد تهوى البيض ثانية

ليس برق يكون أخلب من برق غانيه

خنت سري ولم أخنك فموتي علانية

ويتمنى لو لم يتزوجها. ويعلن أنه لا يبكي على ما ارتكبت يداه بل يبكي على ما ارتكبت من إثم:

ليتني لم أكن بعطفك نلت وإلى ذلك الوصال وصلت

فالذي مني اشتملت عليه العار ما قد عليه اشتملت

لائم لي بجهله ولماذا أنا وحدي أحببت ثم قتلت

سوف آسى طول الحياة وأبكيك على ما فعلت لا ما فعلت

بعد معرفته الحقيقة دخل ديك الجن مرحلة جديدة فجرت في أعماله ينبوع شاعرية فذة فإذا قصائده موحدة الموضوع تتآلف أبياتها وتتحسن وتتحد أعضاؤها وتلتئم فتشعر أن الحياة تدب فيها إضافة إلى أن صفاءها المشرق والعاطفة المخلصة المادة التي تلهبها تمسان أعصاب القلب فينتفض ويرتعش.

ويتذكر الحادثة المشؤومة فيصف كيف هوى بحبيبته بحد السيف، وقلب يرتجف من فظاعة ما عمل وكيف خرت صريعة كالمهاة:

وزنبقة عذب الثنايا وجدتها على خطة فيها لذي اللب كاف

فاصلت حد السيف في جروحها وقلبي عليها من جوى الوجد يرجف

فخرت كما خرت مهاة أصابها اخوقنص مستعجل متعسف

إن النفس الحساسة لا يمكن لها إلا

أن تهتـز عند قراءة هـذا المقطع ففيه أكثر مـن كلام شعري جميل، فيـه حقيقة أزلية جسدهـا الشاعر السـوري الكبير في واقع شعري فائق السمو:

ويتوجه ديك الجن إلى حبيبته يخاطبها ويسألها أن تعاينه، حتى يتيقن أنه عن قريب سيجتمع بها في القبر.

اساكـن حفـرة وقـرار لحد مفـارق خلد من بعد عهد

أجيبينـي إن قدرت على جوابي بحق الود كيف ظللت بعدي

أما والله لو عانيـت وجودي إذ استعبرت في الظلمات وحدي

إلى أن يقول:

يقول قتلتها سفها وجهلاً وتبكيها بكاء ليس يجدى

كصيـاد الطيـور لـه انتحـاب عليهـا وهـو يذبحها بحد

ختامـاً يقول صاحب الأغـاني إن ديك الجن شاعر مجيـد يذهب مذهب أبي تمام والشاميين في شعره، وطريقة الشاميين تقوم على الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة أما خليل مردم فيرى في كتابه شعراء الشام، أن شعر ديك الجن على العموم يوافق هواه، جزل منسجم وصنعتـه اللفظية أخف على النفسـ من صنعة أبي تمام لأنها مع حسنها لا نجد للكلفـة أثراً ظاهراً عليها، فقد كان مقتصداً فيهـا وتشبيهاته واستعارته حسنة سائغة.

ويـرى غـازي بركسـ أن أهميـة شعر ديك الجن تعـود إلى صـدق العاطفة وإلى المعاني الجديدة التي سبق في ابتكارها وإلى الأسلوب الثـوري الجديد الذي أدخله على الشعر مع زميله أبو نواس.

المراجع والمصادر:

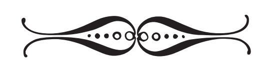
أعلام الأدب والفن أدهم الجندي.

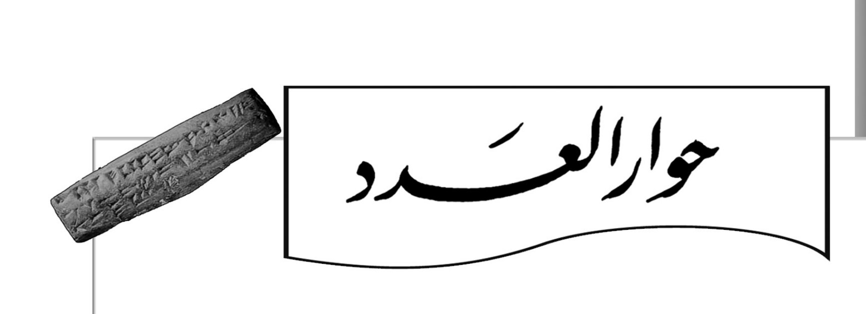
مصر والشام في الغابر والحاضر د.أسعد طلس.

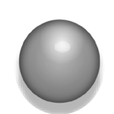
وفيات الأعيان ابن خلكان.

الأغاني لأبي فرج الأصفهاني.

شعراء الشام خليل مردم بك.







مع نبيل سليمان:

روائي وناشر بارز

حـــوار: عادل أبو شنب



حوار العدد

نبيل سليمان: روائي وناشر بارز

حـــوار: عادل أبو شنب (*)

يعيشـــ في اللاذقية، عروس الساحل السوري، وهو لم يفعل ما فعله أدباء وكتّاب سوريون، ما إن شعروا بمواهبهم تتفجر، وأقلامهم تتحفز للانقضاض على الـــورق الأبيض، حتى هجـــروا مدنهم وقراهم وجـــاؤوا إلى العاصمة، ليسهموا في الحركة الأدبية الناشئة أكثر في دمشق.. مكث في مدينته، وانتشر منهـــا، وصار روائياً بارزاً، ولم يكتف بذلك، بل افتتح داراً للنشر في اللاذقية.

(*) أديب وقاص سوري.

سماها دار الحوار، ربما لإيمانه بأن المكان لا يخلق الأديب، بل الموهبة هي التي تخلقه.

إنه الروائي السوري البارز الصديق نبيل سليمان الذي سرني أن أوجه إليه الأسئلة عن بعد ويجيب عن بعد.

المولد، النشأة، الدراسة؟

• ولدت في صافيتا عام ١٩٤٥، حيث كان والدي يعمل في الدرك، ولأنه كان ينقذف من مخفر إلى مخفر في أنحاء سورية، فقد نشأت متنقلاً.

من صافيتا لا أذكر شيئاً، إذ غادرناها إلى عامودة وأنا في الثالثة. من عامودة ومن الدرباسية ومن العضامية ومن قبور البيض، أحتفظ بذكريات ضبابية ماتعة، وهي أماكن الإقامة الأربعة في أقصى الشمال الشرقي من سورية (الجزيرة). ومن هناك طرت مع أسرتي إلى عين ظاط التي عرب اسمها فصار عين النسر، وهي من ريف حمص، فإلى حديدة من ذلك الريف أيضاً، فإلى تلكلخ.

في تلك الأماكن الثلاثة أنهيت دراستي الابتدائية. وبين الدريكيش وطرطوس أنهيت دراستي الإعدادية. وفي اللاذقية أنهيت دراستي الثانوية، ومنها حملت البكالوريا الصناعية، ولأنني كنت في السابعة عشرة، لم أتمكن من وظيفة. وبسبب الفقر، لم أتمكن من متابعة الدراسة في دمشق، فقضيت سنة أنتظر في القرية التي ينتمي لها والدي (البودي- ريف جبلة) وبنهاية تلك السنة حملت البكلوريا العامة- الفرع العلمي. وبسبب الفقر ثانية لم أتمكن من حلمي بدراسة الهندسة في دمشق، فعملت معلماً بالوكالة في قريتي، وتابعت الدراسة الجامعية عام ١٩٦٣ في كلية الآداب- قسم اللغة العربية. وقد ظللت أخطط ثلاث سنوات للتوفير ومتابعة الدراسة في الهندسة ففشلت، وهكذا تخرجت من الجامعة عام ١٩٦٧، وتقدمت لمسابقة المدرسين، وكان أن عينت في الرقة، حيث سجلت أيضاً في الجامعة اللبنانية في قسم اللغة الفرنسية لسنة واحدة، وحيث تقدمت عام ١٩٦٨ لمنحة للدكتوراه في فرنسا، لكن طالباً من ذوي الحظوة المكينة يومئذ حلّ محلي، الله لا يسامحه.

- هل صرت روائياً بالموهبة، أم بالجهد والمثابرة، أم بالاثنين معاً؟ وكيف؟

• في صيف ١٩٥٩، بعد امتحانات الشهادة الإعدادية، قضيت أياماً مع الصديق

إسماعيل سلامة. في قريته (القمصية) من ريف طرطوس. هناك اشتريت دفتراً (أبو عشرين صفحة بفرنكين) وهناك كتب ابن الأربعة عشر عاماً ما حسبه رواية، عنوانها (غزالتي مها) واسم بطلها (نبيل) والحوار فيها بالعامية المصرية، وقد انتهيت بنهاية الدفتر، وبانتحار العاشقين نبيل ومها، ورسم المراهق الذي يحلم بأن يكون كاتباً، عدة رسوم في صفحات الرواية، تماماً كما كان يرى في الروايات المصرية التي يقرأ.

مازلت أحتفظ بذلك الدفتر في حرز حريز. وكنت في تلك الفترة اقرأ لتوفيق الحكيم -لا أنسى: الرباط المقدس- ومحمد عبد الحليم عبد الله- لا أنسى: شجرة اللبلاب- وإحسان عبد القدوس- لا أنسى: أنا حرة.. ولئن كان أرسين لوبين في قراءاتي آنئذ، فقد كان فيها (نقائض جرير والفرزدق)، وهو ما استكبره علي الشاعر الراحل حامد حسن حين رآني أستعير من مكتبة إعدادية دريكيش، وأنا في الصف الثامن، عشية الانتقال إلى طرطوس.

هل كانت الكتابة المراهقة (غزالتي مها) إشارة إلى موهبة أم إلى جهد؟ هذا ما لا أعرفه. لكن ما أعرفه هو أنني أثناء دراستي الثانوية الصناعية، كنت مدمناً على المطالعة في المركز الثقافي، مثل إدماني على السينما. وفي دفتر صغير للمذكرات يعود إلى عام ١٩٦١ -كنت في الثاني الثانوي- أنني كتبت هذا اليوم قصة (الحذاء) التي لا أحتفظ بها ولا أذكر شيئاً منها.

من المفترض أن تكون ميول طالب الصناعة والحالم بالهندسة، ميولاً علمية، ولكن هذا الذي انتهى إلى دراسة الأدب العربي على يد أساتذة أجلاء (شكري فيصل وصبحي الصالح وسعيد الأفغاني وشاكر الفحام وعبد الكريم الأشتر و..) سيشرع وهو في السنة الثالثة بكتابة رواية، ولن يتمكن من إكمالها. وبعد التخرج من الجامعة، سيكرر المحاولة، وستكتمل بعنوان (نحو الصيف الآخر). لكن هذه المحاولة لا تزال طي الأدراج، في حرز حريز. وفي عام ١٩٦٩ كررت المحاولة، فكانت الرواية الأولى (ينداح الطوفان) التي صدرت عام ١٩٧٠.

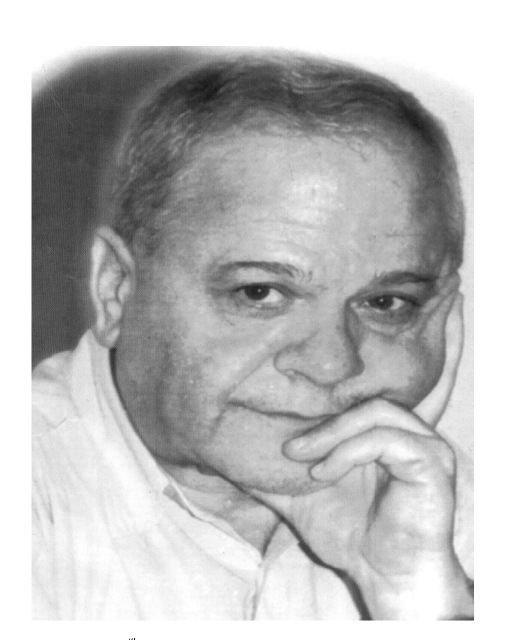
والآن، وبعد قرابة أربعين سنة، وبعد سبع عشرة رواية، بينها رباعية نافت صفحاتها على الألفين وثلاثمئة، بعد كل ذلك، أدرك أنني ما كنت لأعيش لولا الرواية، لولا قراءة الرواية وكتابتها، فهل هذا من جماع الموهبة

والجهد؟ ها هو السؤال يعود لك يا أستاذ عادل.

- عرفت كروائي سوري بارز، فما هو أقرب أعمالك إليك؟ وما هو أهمها برأيك؟ ولماذا؟

• من ثمانينيات القرن الماضي، يستوي لدي أن أقول إن الرواية (المسلّة) أو (هزائم مبكرة) هما الأقرب إليّ. فإذا كان في رواية أو أخرى، لكاتب ما، قدر أو آخر من روحه، فإن رواية بعينها قد تكون هي الأقرب إليه، لما فيها من اللحظات أو المفاصل السيرية الأهم من حياة الكاتب. وقد يكون سبب (القرب) هو ما في رواية بعينها من المغامرة الفنية الحاسمة للكاتب. وهذا متوفر أيضاً، بالنسبة لي، في رواية (المسلّة) التي غامرت بأن يحمل اسم الشخصية المحورية فيها اسمي الأول (نبيل)، كما غامرت باستثمار الوثيقة في كل ما يتصل بحرب ١٩٧٣، وبالحفر في واحد على الأقل من المحرمات، يتعلق بالمؤسسة العسكرية وبالأحزاب السياسية.

من جهة أخرى، ومما صدر لي في السنوات العشر الأخيرة، تبدو (مجاز العشق-١٩٩٨) والروايات الأربع التالية التي صدرت



بين ٢٠٠٠ و٢٠٠٦، هي الأقرب إليّ. ففي كل من هذه الروايات من اللحظات والمفاصل السيرية الحاسمة والحساسة، روحاً وجسداً، فضلاً عن المغامرة الفنية في (مجاز العشق) حيث اختفت علامات الترقيم، ما عدا النقطتين المتعامدتين وكذلك كانت مغامرة استثمار الرحلة في رواية (في غيابها) والحفر في المحرم تلو المحرم، من السجن السياسي والجنائي للمرأة في رواية (سمر الليالي) إلى انهيار سد زيزون وإلى حرية الاعتقاد في رواية (درج الليل درج النهار) إلى صياغة النموذج الديكتاتوري (شليطا) في روايتي الأخيرة (دلعون)..

وبعد كل ذلك، ليســت أي من الروايات السابقــة هي الأهــم بين ما كتبــت، فيما أحسب. فالأهم هو ما أحسبه مشروع العمر الذي استنزف سبع سنوات ونيف من عمري، إنه رباعية (مدارات الشرق). أما لماذا؟ فليس لديَّ جــواب إلا أنه الجنــون. لولا الجنون يا أستــاذ عادل، هل يعمــل كاتب في رواية سبــع سنوات ونيف، وبمــا لا يقل عن اثني عشر ساعة يومياً، وغالباً ما يبلغ أربع عشرة ساعة؟ لولا الجنون هل يكتب كاتب في هذا الزمن، رواية بألفين وثلاثمئة صفحة؟

- أيـن تضح نفسك كروائـي، أي إلى أية مدرسة تنتمي؟

• سألجــأ إلى الجــواب التقليدي الذي أحســب أنه يصدق هذه المــرة: النقد أدرى بتصنيفــي في هذه المدرسة أو تلك. غير أني أضيــف أنه من حسن حظــي وحظ الرواية التي أحاولها، أن عهــد التصنيف المدرسي قد ولّى، أو أنه، على الأقل، قد تراجع وهان، حتى بات بلا شأن.

عندمــا جئت إلى عــالم الروايــة لم أكن مدرّعــاً بالنقــد الــذي يصنــف الروايات وكتّابهــا. لم تهيئنــي الجامعــة لذلــك، ولا غرارة السن، فقد ظهرت (ينداح الطوفان) وأنــا في الخامسة والعشريــن. لكن المدرسة الواقعية النقدية والواقعية الاشتراكية كانتا مهيمنتين على المشهد الروائي السوري وغير السوري. وكنت أرغب بأن أكون تحت مظلتي المدرستين معاً، لكنها رغبة محدودة الوعي، أو غــير واعية إن شئــت، نقدياً. وقد بدأت ريــاح الواقعية السحرية تهب علينا آنئذ من أمريــكا اللاتينية. كما بــدأت قراءاتي في النقد الأدبي تفعــل فعلها، مثلها مثل الفكر النقــدي بعامــة. ولا ريــب أن بقائي خارج التنظيمات الحزبيــة الماركسية والمتمركسة وسواها وعلاقتــي ببوعلي ياسين الماركسي النقدي غير المتحزب، وبأمثاله، كل ذلك قد ساهــم في اختيار رواياتــي لأن تكون خارج التصنيف المدرســي. وأظن أن ذلك قد بدأ يعبر عن نفسه بقــوة منذ رواية (جرماتي)، وذلك عــبر التخفف من الجلجلــة الثورية والرطانة الطبقية والصخب اليساري، ولكن -استطراداً- ليــس على الطريقة الصفيقة التــي راجت بعدئــذٍ، بعد سقــوط الاتحاد السوفياتــي وكواكبه وبعد حــرب الخليج، أعنــي طريقة تبديل العمائــم بالأمركة وما أدراك ما الأمركة.

- أعرف أنك كاتب رواية واقعية، فهل أنت محافظ على هذا الخط؟ وما رأي النقاد؟

• يعيدني هذا السؤال إلى سابقه، من جهة، ومن جهة أخرى أقول: ربما كنت كما تذكر، ولكن فقط في الخطوة الأولى، في رواية (ينداح الطوفان). ومن المؤكد، في زعمي، أن جذراً (واقعياً) ما قد ظل قائماً في رواياتي. لكن الأهم أنني لم أشغل نفسي إطلاقاً بأن أكون واقعياً، أو بأن أحافظ على خط واقعي. هذا الأمر لم أفكر فيه قط، ولم أسع إليه. لكنني سعيت إلى أن تكون رواياتي لساناً للعوام والمهمشين أو تاريخاً فنياً للمسكوت عنه في التاريخ. وعبر هذا السعي حاولت أن أجرب في بناء روائي مختلف، وغامرت في استثمار التراث السردي وفي التفاعل الروائي مع الفنون (الموسيقا والفن التشكيلي)، وسوى ذلك من تلوين الشكل وتفتيقه ومن الاقتراحات الجمالية. وبين النقاد من أشار إلى ذلك مراراً، مثلما أشار آخرون إلى الحداثة في بعض رواياتي وإلى الكلاسيكية في بعضها الآخر، وإلى ما بعد الحداثة في بعض ثالث.

- ما رأيك بالحركة الروائية في سورية، من سبقك ومن واكبك ومن تبعك؟

• الحركة الروائية في سورية هي أولاً رائدة. فبعد أن راج لوقت طويل أن الرواية العربية الأولى هي (زينب) لمحمد حسين هيكل، تبين أن البداية كانت مع فرنسيس المراش في (غابة الحق-١٨٦٥). وإذا كانت البداية الآن تناط باللبناني خليل الخوري في روايته (وَيْ إذن لست بإفرنجي- ١٨٦٠) فالإشارة هنا تذهب بقوة إلى ما كانت عليه سورية ولبنان في العهد العثماني في القرن التاسع عشر، وحتى تقسيمات سايكس وبيكو. والإشارة تذهب بقوة أيضاً إلى قرب العهد بين فرنسيس المراش وخليل الخوري، وربما كان لا يخلو من الدلالة أن الفضاء الأكبر لرواية الخوري هو حلب التي كانت كذلك فضاء رواية المراش الرائدة.

وقد تواصلت ريادة الحركة الروائية في سورية من بعد، وهنا تذهب الإشارة بقوة إلى ميخائيل الصقال ومعروف الأرناؤوط وشكيب الجابري، على اختلاف ما بينهم.

فيما أسميه بالولادة الثانية للرواية العربية، والتي يتوجها نجيب محفوظ، دأبت خلال السنوات الماضية على التذكير بما كان

مــن مساهمة روائية سورية في تلك الولادة. ومن أمثلة ذلك (المصابيح الزرق) لحنا مينة و(مكاتيب الغــرام) لحسيب كيالي. على أن الأهم هــو أن الحركة الروائيــة في سورية قد بــدأت تخصــب على يــد الجيل الذي سبقنــي مباشرة، كما تجلى في روايات هاني الراهب (المهزومون) وكوليــت خوري (أيام معه) ووليد إخلاصي (شتاء البحر اليابس). ولا ننســ هنا كتاب القصة من ذلك الجيل، في الخمسينيات من القــرن الماضي، ثم في الستينيــات، والذين شرعوا يكتبون الرواية، مثل صدقي إسماعيل وعادل أبو شنب.

لقد حاولت منذ عــام ١٩٨٢ أن أضيء كل هذه الجهود الروائية التي سبقت جيلي، والتــي نالها من التعتيــم أو الغبن ما نالها. ومن حســن حظي أنني دخلــت إلى المشهد الروائي في مطلــع السبعينيات التي شهدت فورانــاً ثقافياً متنوعاً. وهــا هو الزمن قد دار دورتــه سريعاً جــداً، وعنيفاً جداً، على أي مستــوى شئت، في الإبــداع أو النقد أو السياســة أو الفلسفة أو الحــب أو.. وعبر هــذه العقود الأربعة التــي انصرمت لم تفتأ الحركة الروائية في سورية تزدهر، ويا لكثرة الأسماء التي ظهرت واندثــرت روائياً، من جيلي وممن سبقوني.

لقــد غيب الموت عبــد السلام العجيلي وأديب نحوي وهــاني الراهب –مثلاً– لكن آخرين أحياء غادروا المشهد الروائي لسبب أو لآخر. وبالطبــع، لا يمكن أن أصف ذلك المغــادرة بالنهائية مادام هؤلاء أحياء، ولكن أيــن هــو مثلاً عبــد النبي حجــازي اليوم كروائي؟

في الآن نفســه، ظهــرت أسمــاء كثيرة وجديــرة خلال العقــود الأربعــة الماضية. وكالعهــد دومــاً، يعلو الصخــب مع تعاقب الأجيال، ويظهر كثيرون وكثيرات، ويحصدون ويحصــدن الجوائــز، ويعلــو الهديــر في الشاشــات والمؤتمرات والصحف، ثم يذهب الزبد جفاء.

لقد تابعــت الأصوات الروائية الجديدة خلال السنوات العشــر الماضية، من سورية ومن كافة البــلاد العربية تقريبــاً. وكتبت مراجعــات لمئات الروايات ممــا كتبت تلك الأصــوات. وأنا كبــير الاعتــزاز بالأسماء التــي التمعــت في سمــاء المشهــد الروائي الســوري مثل فواز حداد وخــيري الذهبي وسمــر يزبك وعمــر قدور ومنهــل السراج وغالية قباني وفيصل خرتش وخالد خليفة وآخرين وأخريــات، وحيث للصوت الأنثوي

حضوره الخاص، وإذا كان لي ما آخذه على بعض أولاء من الاستسهال أو الاستعجال أو الجعجعة والغطرسة، فـإن اعتزازي بإنتاج هذا الجيل لا يقل عن اعتزازي بغرر ما أنتج السابقـون، من حسن صقـر وحيدر حيدر وعـادل أبو شنب إلى غـادة السمان وأحمد يوسف داوود وصباح محي الدين و.. إضافة إلى من سبق ذكرهـم، وعلى كل حال، ليس الحصر بوسعي.

- أراك تكتب للصحافة، فهل العمل رديف للقص الروائي أم هو جهد مستقل، لماذا؟

• منذ البدايـة توجهت للصحافة، سواء لنشـر ما حاولتـه في النقد الأدبـي، أم لما كتبته في غير ذلك، وهو الأقل. على أن فترة كانت تطـول أو تقصر، كنت أغيب فيها عن الصحافة اليوميـة أو الأسبوعية، لأقدم في الدوريات الشهريـة أو الفصلية دراسة ما. وكنت ولم أزل أتـوارى عن الصحافة عندما أغرق في مشـروع روائي ما. بل إنني أحياناً أهيـئ مـواد للصحافة تكفـي لشهرين أو ثلاثة، كي أتفرغ لمشروع روائي تماماً.

لقـد أفادتني الصحافة جداً. فمن جهة أولى كانت مجالاً خصيبـاً للحوار والسجال والصراع الفكري والثقافي. ومن جهة أخرى وفـرّت فرصة للتفاعل مع رهط من القراء. ومن جهـة ثالثة، شكل الكثير مما نشرته في الصحافة، جوهر أو كل أو بعض الكثير من كتبي النقدية وغير النقدية. فلولا الصحافة ربمـا مـا كان كتابي (الثقافـة بين الظلام والسلام) مثلاً. ولولا الصحافة ما كان كتابي النقدي الأخير (شهرزاد المعاصرة). ولا ذلك الكتاب العزيز علـيّ، والذي ضمّ الكثير من البدايات، أعني كتاب (سيرة القارئ).

- مَن مـن الروائيين السوريـين تحب أن تقرأ؟ لماذا؟ ومن الروائيين العرب؟

• لأن القائمـة تطول، وهي لا تفتأ تتنوع من سنـة إلى سنة أو من مرحلة إلى مرحلة، حسبي أن أذكر من سورية فواز حداد وخليل الرز وسليـم بركات، وأهداف سويف ورجاء عالم والميلـودي شغموم من مصر والسعودية والمغرب علـى التوالي. والأسبـاب عديدة، من النفس الكلاسيكـي الأصيل لدى الأول والثاني، إلى الروح الفلسفي لدى الأخير إلى اللغة لدى سليم ورجاء إلى أسلوب الحفر في التاريخ لدى أهداف التي تكتب بالإنكليزية،

ووافـق حسن الحـظ أن تكـون المرحومة والدتهـا فاطمة موسى هـي التي ترجمت لها.

- ما رأيك برواية ما بعد الحداثة؟ هل لها نصيب من الذيوع في أرضنا؟

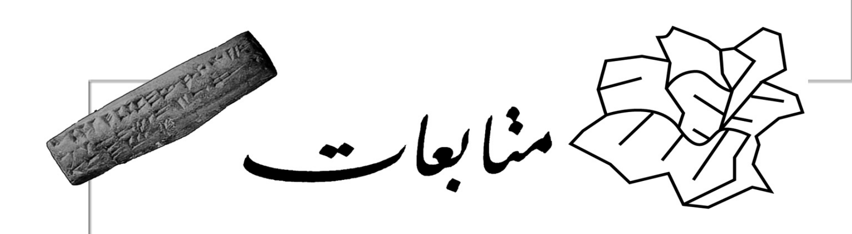
• أخشـى أن أبـدو هنا محافظـاً، على الرغم من كل ما حاولته كي أكون مجدداً أو مجربـاً، فما بعد الحداثة في الرواية (تبدو) جريرة لاستباحة الرواية. وقد سبق لي منذ خمسـة عشر عاماً أن كتبـت حول الحداثة ومـا بعدها في الروايـة العربية، مما شكل فصلاً في كتابي (فتنة السرد والنقد)، ولأنه ليس لدي ما أضيـف، أكتفي بالإحالة على ذلك الفصل.

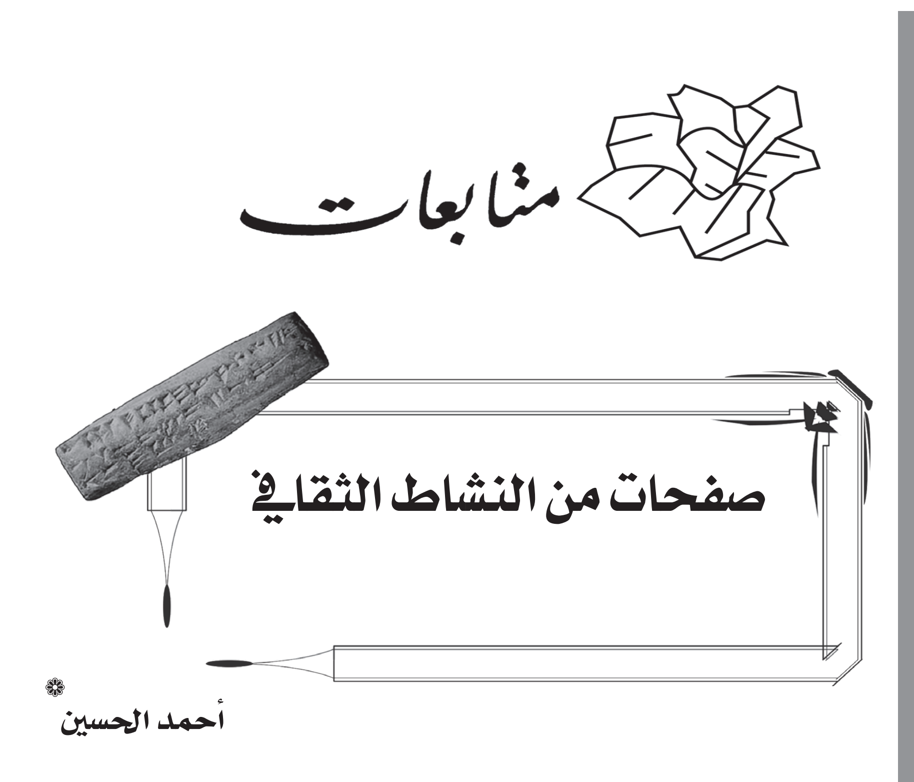
- ماذا تقول لقراء مجلتك (المعرفة)؟

• أقول أولاً: تعالوا نحيي هذا الرائد في القصة وفي الصحافـة والدراما: عادل أبو شنب. تعالوا نحيـي تواضعه ودوره الثقافي منذ أكثر من نصف قرن.

وأقول لقراء المعرفة أيضاً: تعالوا لنعمل ليل نهار من أجل تنقيـة فضائنا من الزبد الذي يطفو على السطـح، سواء في الكتابة المبتذلـة أم في عماء وجهالة رهط غير قليل من القراء.




متابعات



أحمد الحسين*

افتتاح الأيام الثقافية التونسية بدمشق

افتتح الدكتور رياض نعسان آغا وزير الثقافة وعبد الرؤوف الباسطي وزير الثقافة التونسي فعاليات أيام الثقافة التونسية في سورية، التي أقيمت تعبيراً عن مساهمة تونس ومشاركتها في احتفالية دمشق عاصمة للثقافة العربية.

وأكد الباسطي في كلمة له: أن الأيام الثقافية التونسية دليل على

* كاتب وباحث في التراث العربي (سورية)

عمـق العلاقـات الأخويـة بـين البلدين، وأن مضمونهـا تعبير عـن الأصالة العربية المشتركـة، والمتجـذرة بين تونـس وسورية، وقال: ها هي الثقافة العربية تزهر في سماء دمشق لتنعكس في التعاون المشترك، مضيفاً أن أرض قرطاج والقيروان تسعى لأن تجعل من ثقافتها منبراً لثقافات الشعوب جميعها، والحوار مع الآخر عنوانـاً لها، وهي تسعد أن تقـدم للأشقاء السوريين باقة من تراثها وإبداعها.

من جهته قـال الدكتور رياض نعسان آغـا: تمكنا هذا العام من أن نرى في دمشق أشقاءنـا العـرب احتفاء بكونهـا عاصمة للثقافـة العربية، وها هي الأسابيع الثقافية تختتـم بالأيـام الثقافية التونسيـة لتكون مسك الختـام، ولتؤكد العلاقـات الوطيدة بين البلدين الشقيقين عـبر التاريخ، والتي أرسى دعائمها أجدادنا الكنعانيون، ونشروا ثقافتهـم في أرجـاء الوطن العربـي والعالم الإسلامي.

وتطـرق وزيـر الثقافـة في كلمتـه إلى الروابط الثقافية بـين البلدين عبر التاريخ والهم المشترك الذي يجمع الشعبين الشقيقين والشعوب العربية كافـة، إضافة إلى عظمة الإبداع التونسي القادم إلى دمشق، وقال: إن هذا يعكس التمازج الثقافي والحضاري بين بلدينا عبر العصور.

وفي هذا السياق افتتـح الباسطي وآغا فعاليـات الأيـام الثقافيـة التونسية، التي تضمنت معارض للكتاب،والفنون التشكيلية والآلات الموسيقيـة والاسطوانـات، وصور المساجد التونسية، والأزياء التقليدية والحلي ومتممات الزينة النسائية.

وتخلل هذه الفعاليات عروض مسرحية لفرقة مسرح /فو/، وأخرى سينمائية لعدد من الأفـلام القصيرة والطويلـة التونسية، إضافة إلى حفلات غنائية وفلكلورية قدمتها الفرقـة الوطنيـة للفنون الشعبيـة، وفرقة العازفات، ومحاضرات حول المشهد الثقافي الجديـد في تونـس، ومنطلقـات ووسائل استراتيجيـة الحداثـة التونسية، إلى جانب الأمسيات الشعرية التـي اشتركت بها آمال موسى ومحمـد علي اليوسفـي والجليدي العويني.(1)

اكتشاف مدافن تدمرية

اكتشفت بعثة التنقيب الأثرية الإيطالية التابعة لجامعة أودينـي جنوب واحة تدمر مجموعـة مـن المدافن الأثريـة التي يرجع تاريخها إلى أكثر من ٤٥٠٠ عام، حيث أوضح البروفسور دانييلي موراندي بوناكوسي رئيس البعثـة أنه جرى الكشف عـن هذه المدافن

في مقــبرة واسعة تعود للنصــف الثاني من الألــف الثالثة قبل الميــلاد، تم العثور فيها علــى ٣٠ قبراً، وهي تشــكل أول دليل على سكن الإنســان في تلك المنطقة خلال عصر البرونز القديم.

وأكــد بوناكوسي أن من بين الاكتشافات الاستثنائيــة التــي تم العثــور عليها خلال موسم التنقيــب العاشر للبعثة الإيطالية هو محطة استراحة للمسافرين محفوظة بشكلها الطبيعي ومغمورة بالرمــال كلياً وتعود إلى عصور ما قبل التاريــخ والعصر الحجري، إضافــة إلى مخيمات كانــت تستخدم على الأرجــح لصيــد الغــزلان، مشــيراً إلى أن من بــين الاكتشافــات ما يعــود إلى القرن الثالــث الميــلادي، وإلى الفترتين البيزنطية والإسلامية، إلى جانب طريق روماني رئيسي يربط واحة تدمر بغــرب سورية وعدداً من الأعمــدة الكبــيرة لتحديــد المسافات كتب عليها اسم الإمبراطور الروماني أورليانو.

وحــول المكتشفات الجديــدة للبعثة في مملكة قطنا التي تقع على بعد ١٨ كيلومترا شمــال شرقــي حمصــ قــال البروفســور بوناكوســي: إن البعثة عثرت على قصر كبير وميــنــاء ضخم مبنــي فوق جــدران منهارة لقصــر ملكي في قطنــا بعد دمــار المدينة عــام ١٣٤٠ قبل الميلاد، إضافــة إلى اللقى الأثريــة الثمينة من القرن التاسع عشر قبل الميلاد، إحداها للإلهــة عشتار إلهة الحب والحرب لدى السوريين القدماء، وقطع من السيراميك الفاخرة من إنتاج سوري وأختام أسطوانية وكتابــات مسمارية، لافتاً إلى أن أعمــال التنقيب تركزت للسنــة العاشرة في القصــر الملكي الذي شمــل أكثر من ١٥٠٠ مــتر مربع حيث تم اكتشاف القصر الشرقي الــذي يعــود إلى الألف الثــاني قبل الميلاد بشكل جزئي، ويتكــون من أكثر من٢٥غرفة حول ساحة واسعــة، إضافة إلى العديد من المكتشفــات التي تسلــط الضوء على عصر البرونز الوسيط في القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

وأكد بوناكوســي الأهميــة الاستثنائية لهذه المكتشفات واللقــى الأثرية التي تشير إلى تمازج سكان تلك الحقبة مع سكان مابين النهرين والمصريين، فضلاً عن اللقى الأثرية والنقوشــ والكتابات المسماريــة التي تقدم معلومات مهمة عن تلك الفترة التي بقيت غير معروفة، مشيراً إلى العثور على وثيقة بتوقيع سومو ايبوخ ملك مملكة يمحاض وعاصمتها حلب، كما أشــار بوناكوسي إلى العثور على اكتشافات أثرية ذات قيمة عالية في المنطقة الشرقية من القصر الملكي كصناعة البلاط، وإعادة هيكلة وأعمال ترميم هائلة تشير إلى

استمرار الحياة في قطنا حتى بعد تدميرها عام ١٣٤٠ قبل الميلاد.[٢]

إطلاق بوابة المتحف الافتراضي

بالتعاون بين الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٨، ومنظمة متحف بلا حدود، والمديرية العامة للآثار والمتاحف، تم في المتحف الوطني بدمشق إطلاق بوابة الدخول إلى عالم الفن والعمارة والآثار لمتحف بلا حدود، مشروع اكتشف الفن الإسلامي.

وذكرت الدكتورة حنان قصاب حسن الأمين العام للاحتفالية أن الأمانة العامة لاحتفالية دمشق، وافقت على إدخال المشروع في نشاطاتها لأهميته التربوية والفكرية، وللدور الذي سيلعبه في التعريف بالآثار الإسلامية وتقديم صورة وافية عن الثقافة العربية لشعوب العالم المشاركة في منظمة متحف بلا حدود، لافتة إلى الدور الكبير الذي سيسهم به هذا المشروع في تعريف العالم على معالمنا الأثرية والحضارية.

وأوضح الدكتور بسام جاموس المدير العام للآثار والمتاحف أن هدف المشروع هو وضع متحف في كل بيت عبر الإنترنت، حيث أن بالإمكان الدخول إلى المتحف عبر الإنترنت والاطلاع على جميع محتوياته والتجوال عبر الحدود على المتاحف القلاع واللقى الأثرية الموجودة على الموقع.

وقد بينت لونا رجب المنسق السوري لمنظمة متحف بلا حدود أن المعلومات التي يتضمنها المشروع موجودة بأربع لغات: هي العربية والانجليزية والفرنسية والإسبانية، مضيفة أن الزائر للموقع سيتمكن من رؤية المحتويات بصورة ثلاثية الأبعاد، كما يمكنه الاطلاع على إصدارات المنظمة، وهي مجموعة من الكتب التي أعدها مختصون وخبراء في التاريخ والآثار.

يشار إلى أن متحف بلا حدود يهدف إلى تأسيس متحف ضخم عبر الحدود الإقليمية للدول، لعرض الأعمال الفنية والآثار، وتعزيز التكامل بين الثقافات المختلفة وتقديم فرصة للتعلم والاستمتاع بالتراث الحضاري للشعوب المشاركة.[٣]

علاقات ثقافية بين سورية وأرمينيا

أكدت السيدة هاسميك بوغوسيان وزيرة الثقافة الأرمينية أهمية العلاقات الثقافية بين سورية وأرمينيا قائلة: إن السوريين من الأصدقاء الحميمين بالنسبة إلينا في أرمينيا، ذلك الشعب الذي يمتلئ التاريخ بأعماله الجميلة والرائعة خصوصاً على صعيد العلاقات مع أرمينيا، فنحن لا نعمل على تطوير تلك العلاقات فقط، بل نقول

أيضاً: إنه وفي اللحظات العصيبة من حياة الشعب الأرميني شعرنا بأن هناك نقطة آمنة يمكن العيش فيها بهدوء وأمان.. وتلك النقطة كانت الأرض السورية.

ووصفت بوغوسيان الأرمن في سورية بأنهم أناس مخلصون ومتفانون وعاملون مهرة لوطنهم الثاني سورية، وتمنت لهم استمرار تطوير العلاقات الثقافية الأرمينية – السورية، وذلك من خلال دفع الجيل الشاب للمساهمة في تطويرها وإغنائها كي تظل مزدهرة على الدوام.

وأشارت بوغوسيان إلى مجالات التعاون الثقافي بين سورية وأرمينيا، مؤكدة أن تعاونهما المستقبلي في هذا المجال سيشمل الآثار وترميم المخطوطات، والموسيقى، إضافة إلى التعاون في مجال المكتبات، حيث تم توقيع اتفاقية بين مكتبة الأسد والمكتبة الوطنية الأرمينية من أجل تقوية أواصر التعاون والتنسيق بينهما، إلى جانب التعاون المسرحي والسينمائي والمشاركة في المهرجانات المسرحية والسينمائية التي تقام في أرمينيا وسورية، وتبادل اللقاءات والزيارات والنشاطات الثقافية والفكرية والفنية بين المبدعين والمؤسسات الثقافية في البلدين بغية تقوية أواصر الصداقة والحفاظ على التواصل بينهما، والتعرف أكثر على الحياة الثقافية والاجتماعية بما يدعم العلاقات التاريخية بين البلدين والشعبين.

وبمناسبة احتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٨ قالت بوغوسيان: لو أخذنا بعين الاعتبار تاريخ دمشق العريق ودورها الحالي وإسهامها في تطور الثقافة الإنسانية بشكل عام، فإنه من الطبيعي أن تتم إقامة برنامج احتفالي لدمشق كعاصمة ثقافية في أرمينيا أيضاً، وذلك نظراً للمكانة الثقافية الكبيرة لهذه المدينة على مر العصور.

وفي هذا الإطار أي الاحتفال بدمشق عاصمة للثقافة العربية احتضنت مدينة حلب فعاليات أيام الثقافة الأرمينية التي تضمنت العديد من النشاطات الغنية والمتنوعة، حيث أحيت الفرقة الأرمينية الشعبية الحكومية للرقص حفلاً فنياً على مسرح مديرية الثقافة بحلب، قدمت خلالها عدداً من العروض الفنية والرقصات الفولكلورية المعبرة عن التراث الأرميني، وذلك إلى جانب عروض الدمى، والعروض المسرحية والأفلام السينمائية.(٤)

أبو ظبي عاصمة ثقافية وفنية عالمية

أكد محمد المزروعي مدير عام هيئة

أبوظبي للثقافة والتراث أن الهيئة حققت منذ انطلاقتها عشرات المشاريع والأنشطة الثقافية والتراثية الرائدة على الصعيدين الإقليمي والعالمي، وذلك في إطار استراتيجيتها الرامية إلى الحفاظ على التراث الثقافي للإمارة، مثمناً تضافر جهود عامليها لتعزيز وتطبيق سياسات وخطط ومشروعات الثقافة والتراث.

وأوضح المزروعي أن خطة الهيئة الخمسية الاستراتيجية ٢٠٠٨/٢٠١٢ تعنى بحماية وحفظ وتشجيع المشاريع المعنية بالتراث والثقافة في أبوظبي، ونوه بأن آليات تنفيذ استراتيجية الهيئة تعتمد على تعاونها والجهات الحكومية الأخرى والمجتمع المدني والقطاع الخاص، وصولاً إلى مواجهة التحديات التي تواجه تحقيق ثقافة وتراث مستدامين في أبوظبي.

وتهدف استراتيجية الهيئة إلى حفظ وتنمية التراث الثقافي المادي إلى جانب توثيق ودعم وتعزيز التراث الثقافي المعنوي للإمارة، وتطوير مؤسساتها الثقافية والتراثية واستحداث مؤسسات جديدة، فضلاً عن تعديل التشريعات المتعلقة بحماية التراث الثقافي وإدارته والترويج له وتطوير القدرات المهنية وتشجيع الإبداع في هذا المجال وإدخال الثقافة والتراث في المناهج التعليمية العامة والأكاديمية وفي النشاطات الأسرية، إضافة إلى الترويج لثقافة الإمارة وتراثها إقليمياً ودولياً، وصولاً إلى إثراء الأجندة الثقافية،و تزويد الهيئة ببنى تحتية تمكّنها من تطبيق استراتيجيتها وتنفيذ برامجها الثقافية.

كما تسعى الهيئة إلى إنشاء منطقة ثقافية فريدة ومتميزة حول قصر الحصن الذي يعد أهم معلم تاريخي وثقافي في إمارة أبوظبي، إلى جانب سعيها لحفظ مواقعها وقلاعها التاريخية، فضلاً عن إنشاء مركز للمعلومات السياحية في قلعة الجاهلي في العين ومعرض للرحالة مبارك بن لندن، وإطلاق جائزة الشيخ زايد للكتاب وإنشاء متحف البداوة وإحياء وتطوير الصناعات الحرفية التقليدية.

وإلى جانب سعيها لإحياء الشعر النبطي، والترويج للشعر الفصيح عبر إنتاج برنامج أمير الشعراء وإنشاء أكاديمية الشعر وبيت العود العربي وإطلاق أكاديمية نيويورك للسينما في الإمارة وتأسيس شركة «كتاب» لدعم وتطوير صناعة الكتاب في إمارة أبوظبي والمنطقة، فإن الهيئة أطلقت عدة مشاريع ثقافية للترجمة، واكتشاف المواهب الأدبية الشابة، ومهرجان الشرق الأوسط السينمائي الدولي.

وتقوم الهيئة حالياً بتطوير قانون حماية الموارد الثقافية في إمارة أبوظبي وحفظ وتأهيل المواقع التاريخية والثقافية، وتعزيز وتعميق هويتها من خلال إنشاء شبكة من المتاحف التي تعرف بمواقع الإمارة الثقافية والطبيعية بهدف إدراجها ضمن قائمة التراث العالمي لمنظمة اليونسكو العالمية، وقد قدمت الهيئة منذ تأسيسها وحتى اليوم العديد من البرامج والفعاليات الثقافية والفكرية، والموسيقية والسينمائية، ونظمت العديد من الندوات والمحاضرات، ومعارض الكتب والفنون التشكيلية، واستضافت المئات من العلماء والمبدعين والمثقفين من مختلف دول العالم. (٥)

مؤشرات التنمية الثقافية العربية

صدر مؤخراً في القاهرة تقرير التنمية الثقافية الأول، الذي أعدته مؤسسة الفكر العربي بالتعاون مع المؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا ومركز دراسات الخليج.

وفي هذا السياق، قال الأمير خالد الفيصل بن عبد العزيز، مؤسس ورئيس مؤسسة الفكر العربي: إن هذا التقرير يعد أول تقرير يصدر في المنطقة العربية، وبشكل سنوي، عن مؤسسة أهلية عربية وبتمويل عربي، لرصد واقع التنمية الثقافية في ٢٢ دولة عربية، مشيرا إلى أن التقرير يغطي ٥ ملفات أساسية هي: التعليم، والإعلام، وحركة التأليف والنشر، والإبداع بتجلياته الأدبية، والسينمائية، والمسرحية، والموسيقية، والغنائية، إضافة إلى جزء خاص عن الحصاد الثقافي السنوي في العالم العربي خلال عام ٢٠٠٧.

وأضاف الأمير خالد الفيصل أن حركة التأليف والنشر تم فيها إعداد قائمة بيانات بإجمالي ما نشر من كتب في العالم العربي خلال عام ٢٠٠٧، وبلغ الرقم نحو ٢٧ ألفا و٨٠٩ كتب. وتضمن التقرير تحليلا لمضمون هذه الكتب، ونسبة ما نشر في مجالات المعرفة المختلفة. واشترك حوالي ٤٠ باحثا ومتخصصا في إعداده من مختلف الدول العربية، مؤكداً أن التقرير اتسم بدرجة عالية من الموضوعية والحياد، ليرصد كلا من المؤشرات السلبية والإيجابية الخاصة بكل المحاور، ومنها واقع التعليم العالي والبحث العلمي، حيث ارتفع عدد الطلبة من ٨٩٥ ألف طالب عام ١٩٧٥، ليصل إلى ٧ ملايين و١٦٤ ألفا عام ٢٠٠٦، بزيادة نسبتها ٨٠٠٪، ورافق ذلك ارتفاع عدد الجامعات العربية من ٢٣٠ جامعة عام ٢٠٠٣، ليصل إلى ٣٩٥ جامعة عام ٢٠٠٨، وارتفاع نسبة الإناث في التعليم العالي من ٢٨,٤٪ من مجموع الطلاب المسجلين لتصل إلى ٤٧,٨٪

عــام ٢٠٠٦، وارتفاع نسبة مشاركة المرأة في التعليم الجامعي من ١٣٪-١٨٪ من إجمالي هيئات التدريس عام ١٩٧٥ لتصل إلى ٢٨٪ عام ٢٠٠٦ بزيادة نسبتها ٥٦٪.

في سيــاق متصل، قال الدكتور عبد الله عبد العزيز النجار، رئيس المؤسسة العربية للعلــوم والتكنولوجيــا، والجهــة المشاركة مع مركــز دراسات الخليــج لمؤسسة الفكر العربي في إصدار هــذا التقرير الثري، إنه من الضروري تحقيــق التكامل بين مختلف قطاعات المجتمع العربي فيما يتعلق بالإبداع الأدبي والابتكار العلمي والتكنولوجي، دون أن نترك أفعال عقلنــا الباطن تتحكم فينا، حتى ننجح في صياغــة رؤى ونظريات تعبر عن واقعنا للحياة والمستقبل الذي نتمناه.

وأضاف النجار: إننا كمجتمع عربي نحتاج إلى تغيير ثقافي يقودنا إلى المزيد من التطور والإيجابية، فالهدف علــى سبيل المثال من زيادة حركة النشر والتأليف العلمي، التوثيق والتسجيل لتطورنا الإبداعــي والابتكاري، وبــراءات الاخــتراع التي يمكــن أن يصل إليها العلماء العــرب، موضحاً أنه من المهم تنــاول حركة التطور العلمــي والتكنولوجي في الدول العربية بجانــب التنمية الثقافية كتنمية فكرية، على اعتبار أن الإنتاج العلمي والتكنولوجــي خاصــة في صــورة براءات الاختراع، إنما هــو تعبير عن حركة الإبداع والابتــكار، التي تعد جــزءاً أصيلاً ومكملاً لحركة التنمية الثقافية، بمعنى إنتاج الإبداع الأدبي.

وأشــار النجــار إلى أن المؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا تعمل على دعم العلماء والمبدعــين العــرب داخل الوطــن العربي وخارجه، وأنها تمتلــك قاعدة بيانات تضم ١٣ ألــف عالمــاً ومخترعاً عربيــاً، وفي هذا السيــاق تدير المؤسسة عــدداً من الأنشطة والبرامــج الخاصة بدعم المجتمــع العلمي العراقي للمشاركة في إعــادة إعمار بلاده. وتدير المؤسســة مشروع منحة عبد اللطيف جميل لدعــم الباحثــين والمبدعين العرب، علاوة على تنظيم التجمعات العلمية الخاصة بالبحــث العلمي والتطويــر التكنولوجي في الــدول العربية، والتي يشــارك فيها ١٥٠٠ عــالم وباحــث في المتوسط، كمــا تم تنظيم ملتقيــات الاستثمــار في التكنولوجيا التي تجمع كلاً من الباحثين والمخترعين وممثلي رأس المال من الشركات.

وأضاف النجــار أن المؤسسة تدير عدداً مــن الشبــكات العلميــة منهــا المهندسين العــرب والنانوتكنولوجــي والبيوتكنولوجي ورابطــة الإعلاميــين العلميــين العــرب والإلكترونيات العربيــة. وفي فاس بالمغرب

أعلنـت المؤسسة عن شبكـة جديدة للطاقة الجديـدة والمتجددة، مشيراً إلى أن المؤسسة تعمل علـى مشروع المرصـد العربي للعلوم والتكنولوجيـا والإبـداع، ومشـروع إنشاء صندوق رأس المال المخاطـر للاستثمار في التكنولوجيا. ويستفيد مـن برامج وأنشطة المؤسسة كل الباحثين والعلماء العرب داخل وخارج الوطن العربي.

وأوضـح النجار أن هـذا التقرير ترعاه مؤسسة الفكر العربي بالتعاون مع المؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا ومركز دراسات الخليج، ونحن في المؤسسة العربية كمؤسسة دافعها العلم والتنمية العلمية والإبداع، نعمل على زيادة معدل بـراءات الاختراع المقدمة لمنتجات تشمل سلع وخدمات بأسعار وجودة تنافسية، ويعمل علـى نشرها إعلام علمي متميز يرمي إلى مد جسور الثقة بين العلماء والقطاعات الاقتصادية والمجتمعية وصانعي القرار.

وأكد النجـار أن مؤسسة الفكر العربي هـي مؤسسـة الأمـة العربيـة، والمؤسسة العربيـة للعلوم والتكنولوجيـا هي مؤسسة كل العـرب وتعمـل علـى تحقيـق التنمية المستدامـة في مجتمعنا العربي عبر توظيف العلـوم والتكنولوجيـا لتلبيـة الاحتياجات الاقتصاديـة والمجتمعية، ومركـز دراسات الخليج معروف عنـه دوره المعرفي والعلمي البناء. من هنا تـبرز أهمية تحقيق التكامل والتفاعـل بين الوسائـل والأدوات والرؤى، وبناء الجسور بـين هذه المقومات، بما فيها الإنسان والمجتمـع العربي، لإحداث التغيير الإيجابـي، عبر التقارب بين هذه المؤسسات الرائدة للمفكريـن والعلماء والتكنولوجيين العرب.

يشار إلى أن تقرير التنمية الثقافية الأول رصد علـى المستوى الإعلامـي تطور نمو بنى المؤسسات الصحفية، حيث بلغ عددها الإجمالي للصحف اليومية في الدول العربية عام ٢٠٠٦ حوالي ٢٦٧ صحيفة، ووصل عدد الصحـف الأسبوعية إلى ٥٠٧ صحف، وبلغ عدد القنـوات الفضائية العربية ٤٨٢ قناة، مضافا إليهـا قنوات التليفزيـون المشفرة، بالإضافـة إلى نمو معـدلات أجهزة توفير خدمة الإنترنت، وارتفـاع عدد مستخدمي الإنترنت في العالم العربي من ٧٠٠ ألف عام ١٩٩٨ ليصـل إلى ١,٥ مليون مستخدم عام ١٩٩٩ بزيـادة ١٠٤٪، علاوة علـى الزيادة الكبيرة في عدد المواقع العربية المسجلة على الإنترنت، بنسبة بلغـت ٣٥٣٪ خلال الفترة من ٢٠٠١ – ٢٠٠٧.

كما رصد تقرير التنمية الثقافية للإبداع العربي عام ٢٠٠٧، انفتاح العواصم العربية

على بعضها البعض، بحيث أصبحت الثقافة العربية وقفاً على العلاقة بين هذه العواصم، ولم تعد أية مدينـــة أو عاصمة عربية قادرة على التخلي عن المدن أو العواصم الأخرى، معتبراً عام ٢٠٠٧ بأنه عام الإبداع بامتياز، الإبداع الشعري والروائي إضافة إلى الإبداع الدرامي والمسرحـــي والسينمائي والموسيقي والغنائي.

أما عـــن المؤشرات السلبية التي رصدها التقريـــر في الملفات المختلفـــة التي تناولها، فقد أشار إلى أنـــه في ملف التعليم نجد أن متوسط معدل التحاق الصافي في التعليم ما قبـــل الابتدائي في الدول العربية يبلغ ٢٢٪، وفي المرحلـــة الابتدائيـــة ٨٤٪ وفي المرحلة الثانويـــة ٦٨٪، وهي معدلات تقل كثيرا عن مثيلاتهـــا في الدول الغربية حيث تبلغ نسبة الالتحـــاق في مرحلة ما قبل الابتدائي ٨٥٪ في اليابان و٧٤٪ في ماليزيا، ولمرحلة التعليم الابتدائـــي ١٠٠٪ في اليابان و٩٩٪ في كوريا الجنوبية و٩٥٪ في ماليزيا وإيران، وللتعليم الثانـــوي ٩٠٪ في اليابـــان وكوريا و٧٥٪ في ماليزيا وإيران وتركيا.

مـــن جانب آخر أشار التقرير إلى ضعف جـــودة التعليـــم في الـــدول العربيـــة بسبب الكثافة الطلابية في الفصول، وضعف الموارد المتاحة (مباني، وتسهيلات علمية، ومكتبات ودوريات وكتـــب)، وتردي أوضـــاع الهيئات التدريسية، وافتقار البحث العلمي للتواصل مـــع احتياجات المجتمعـــات والاقتصاديات العربية بسبب غيـــاب التخطيط الصحيح، وانفصـــال البرامج الدراسية عن احتياجات سوق العمل.

وأوضح التقرير سلبيات الملف الإعلامي في أن نصيب الفرد العربي يقل في الصحف داخل أغلب الدول العربية، فضلاً عن قصور في الصحف المتخصصة. كما أن الكثير من القنوات الفضائيـــة تجاهلت أهمية التركيز على إيجابيات الإعلام المتخصص، وركزت على الترفية والتواصل كدافع أول للمواطن العربي للتعامل مع هذه القنوات والإنترنت، ويأتي دافع الحصول على المعلومة في مرتبة متأخرة.

وتطـــرق تقرير التنميـــة الثقافية الأول إلى أن الكتـــب المنشـــورة، بالنسبـــة لحركة التأليف والنشـــر، في الدول العربية لا تمثل ســـوى ١٥٪ من إجمالي الكتـــب التي نشرت في العالم العربي عام ٢٠٠٧، والتي بلغت ٢٧ ألفـــاً و٨٠٩ كتب، بينما تصـــل نسبة الكتب المنشورة في الأدب والأديان والإنسانيات إلى ٦٥٪ مـــن هذه النسبـــة الإجمالية السابقة. ويصدر كتاب لـــكل ١٢ ألف مواطن عربي، بينما هناك كتاب لكل ٥٠٠ إنجليزي، وكتاب

لـكل ٩٠٠ ألماني، أي أن معـدل القراءة في العالم العربي لا يتجاوز ٤٪ من معدل القراءة في إنجلترا.

وعـن موضوع الصناعـات الثقافية في العـالم العربي، فقد أشـار التقرير إلى عدم توفر إحصائيات دقيقة، وهي مشكلة قابلت الباحثـين في الكثير من أجزاء التقرير. وفي هذه القضية، وجد أن ما بين ٥٪ - ١٠٪ من قيمة المنتجـات في العالم تشكلها الصناعات الثقافيـة، ولفت على سبيـل المثال أن العالم العربـي لا يصنع أكثر مـن ٣٥٪ - ٤٠٪ من حاجته لمادة الـورق بأنواعه، ويستورد ٦٥٪ تقريبـا في واحدة مـن الصناعات الثقافية المهمة المرتبطة بالأمـن القومي، في الوقت الذي يضيق فيه السودان بالمواد الخام التي يصنع منها الورق، بل ويدفع مبالغ للتخلص منها بوصفها نفايات أو مخلفات!!

وحول قضية الحصـاد الثقافي، تطرق التقرير إلى رصد الإشكاليات المعيقة لمسيرة التنميـة الثقافية، ومنهـا إشكالية الثقافة العربيـة الأم والثقافـات الفرعية، والتراث والعصر، وأزمـة الهوية الثقافية، وتحديات الإعلام، وأزمة القراءة والتواصل، والترجمة، ودور المـال في دعم الإبـداع العربي، الفكر القومي وأزمته، والثقافة العربية المتوسطية، وثقافة المنفى أو المهجر.

ومن أبرز التوصيات التـي توصل إليها التقريـر في هذه القضية طرح تساؤلاً حول كيف نذهب بالتنوع الثقافي في العالم العربي والمجتمعـات العربيـة إلى مستـوى القيمة المضافة بدل من أن يكون قيمة سالبة؟ وكيف نحوله من مصدر محتمل للأزمات، ليصبح مصـدراً أكيداً للإبداع الثقـافي والتماسك الاجتماعي. (٦)

الجزائر تحتفي بأميرها عبد القادر

شهدت جامعة وهران الجزائرية انطلاق فعاليات الملتقـى الدولي حول «تراث الأمير عبـد القـادر الجزائري بـين الخصوصية والعالمية» وذلك بحضور باحثين وأكاديميين جزائريين وأجانب.

وقال منظمو هذا الملتقى أنه يهدف من خلال البحث في التراث الفكري للأمير عبد القـادر، إلى إفساح المجال أمـام الباحثين الجزائريين والأجانـب للنظر في ارتباطات هذا التراث والقضايا العالمية في ظل العلاقة غير المتزنة بـين الشمال والجنوب واحتدام الصراع بين الأديان والأعراق.

وشارك في الملتقى الذي تضمن برنامجه محاضرات وندوات فكرية تناولت جوانب من حياة ومواقف وتراث عبد القادر الجزائري أكثر من ٢٥٠ باحثاً وأكاديمياً من ٨ جامعات جزائريـة، بالإضافـة إلى باحثين ومؤرخين من ٨ بلدان أجنبية.

وبالطبع فإن عبد القادر الجزائري أو الأمير عبد القادر كما هو معروف مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، وهو رجل دين مرموق، وشاعر فذ، وفيلسوف وسياسي ومجاهد وقد اشتهر بمناهضته للاحتلال الفرنسي للجزائر، قبل أن يغادرها إلى دمشق ويموت فيها. (٧)

اهتمام ليبي بالترجمة

نظمت أكاديمية الدراسات العليا بليبيا المؤتمر السنوي الدولي الرابع للترجمة بمشاركة عدد من الأساتذة والمتخصصين في مجال الترجمة في ليبيا وبريطانيا وإيطاليا والهند والأردن والعراق.

وشارك في افتتاح المؤتمر الدكتور صالح إبراهيم المبروك أمين عام الأكاديمية ومدير المعهد الثقافي الإيطالي ومدير المجلس الثقافي البريطاني، وحضره المؤرخ والمترجم الليبي خليفة التليسي وعدد من المتخصصين والمهتمين في مجال الترجمة.

وأكد الدكتور صالح إبراهيم المبروك خلال افتتاح أعمال المؤتمر على أهمية الترجمة في تقدم الشعوب وأهميتها في إحلال الأمن والسلام في العالم مشيراً إلى أن الاهتمام بالترجمة وتعلم اللغات مهم جدا للتقدم التقني والعلمي لأي دولة، مشيراً إلى أن أكاديمية الدراسات العليا هي السباقة في ليبيا في الاهتمام بالترجمة واللغة حيث أنها هي أول مؤسسة علمية في ليبيا تفرض تعلم لغة ثانية غير العربية على طلابها كما أنها أول مؤسسة فتحت مجالاً لدراسة اللغة والترجمة بمستوى درجة الماجستير.

ودعا المبروك المؤسسات العلمية العليا في ليبيا ومنها الجامعات والمعاهد العليا إلى ضرورة الاهتمام بدراسة اللغات من قبل طلابها ومساعدتهم على ذلك بخفض تكاليف الدراسة حتى تكون حافزا لهم، كما دعا اللجنة المنظمة للمؤتمر إلى ضرورة التوسع في فعاليات المؤتمر خلال السنوات القادمة حتى يستوعب أكبر قدر من الأساتذة والمهتمين بهذا المجال من حيث عدد المشاركين والامتداد الجغرافي للمشاركين بحيث يتم فتح المجال للمشاركة من مختلف دول العالم.

وقدم المشاركون في المؤتمر عدداً من الأوراق العلمية المتخصصة في مجال الترجمة للحوار والنقاش، والتي ركزت موضوعاتها على دراسة قضايا الاختلاف في الترجمة، وطرق تدريب وتدريس طلبة الدراسات العليا في مجال الترجمة الفورية والأساليب المختلفة لترجمة الاستعارة وطرق تجاوز التداخل في التركيبات اللغوية أثناء الترجمة، والتدريب الذاتي في الترجمة

الفوريــة، واستعرضــت التجربــة الأردنية في ترجمــة الفولكلــور الأردني من العربية إلى الانجليزيــة، وترجمة الرثــاء، وترجمة الاستعارة في القرآن الكريم، والتجربة الليبية في الترجمــة من خلال ما تم في شريط أسد الصحراء عمر المختار. (٨)

فيلم أردني يفوز بجائزة إيمي العالمية

فــاز الأردن لأول مرة بجائــزة «ايمي» العالميــة عــن مسلســل أردني عرضــ عام ٢٠٠٧ حــول قصة حب جرت خلال اجتياح إسرائيلي للضفة الغربية عام ٢٠٠٢.

وفــاز مسلسل «الاجتيــاح»، الذي جرت أحداثه خــلال اجتياح إسرائيل لمدينة جنين الفلسطينية قبل ست سنوات، بجائزة ايمي لأفضل إنتاج عــن فئة المسلسلات الطويلة، وتسلم منتجه الأردني طلال العواملة الجائزة خلال حفل أقيم في نيويورك بهذه المناسبة.

وقال ياســر قبيلات، مديــر النصوص وتطويــر الأفكار في المركــز العربي للإنتاج الإعلامي الذي يملكــه العواملة: إن العمل على المسلسل جــرى بشكل متقن وهو عمل ناجح وشكل لمنتجه مغامرة كبرى، وقد جرى اختيار الفائزين من بين أربعين مرشحا من ١٦ دولــة تنافست على ١٠ فئات من جوائز ايمي، وجرت المنافسة على مدى ستة أشهر وفق ثلاث جولات تحكيم شارك بها أكثر من ٦٠٠ حكم من ٥٠ دولة.

وأكد قبيلات أن هذا الفوز شكل تحدياً كبــيراً له، كشركة إنتاج خاصــة، لإنتاج مثل هذا العمل الذي جــرى تصويره في سورية بمشاركة ممثلين أغلبهم أردنيين إضافة إلى ممثلين سوريين وفلسطينيين.

وكانــت قناة «ال بــي ســي» الفضائية اللبنانيــة القنــاة الوحيــدة التــي عرضت مسلسل «الاجتياح» خلال شهر رمضان عام ٢٠٠٧، وقال مصــدر مطلع يعمل في قطاع الإنتــاج التلفزيوني، فضل عدم الكشف عن اسمه، أن «كل القنوات الأخرى قررت تجاهل المسلسل بسبب موضوعه الحساس بالنسبة لإسرائيــل»، وأضاف أن «العمل لم يعرض في الأردن لأسباب غير معلومة» ولم يعط مزيدا من التفاصيل في حين قدر كلفة هذا العمل بما يفوق ٣ ملايين دولار. (٩)

لا تدعــوا السينمــا الأمريكيــة تــروي قصتكم

دعت الفنانة الانكليزيــة جوليا ارموند التي كرمهــا مهرجان القاهــرة السينمائي الــدولي في دورته الثانيــة والثلاثين العرب إلى أن لا يدعــو السينمــا الأميركية «تروي حكايتهــم» عــبر نشــر وجهــة نظرها من خلال استئثارهــا بإنتاج أفلام عن المنطقة،

موضحة أن اختــلاف الحضارات قد يقدم صــورة مشوهة علينا أن ننظــر إليها نظرة متفحصة، وقالت في معرض ردها على سؤال حول إمكانية قيامها بــدور فتاة فلسطينية أو عراقية استنــاداً إلى تجربة انتوني كوين في تقــديم شخصية القائــد الليبي الشهير عمــر المختار في فيلــم «أســد الصحراء»، لمصطفــى العقاد: «يشرفنــي أن أقوم بمثل هذا الــدور، بالرغم من أنه من الأفضل أن تقــوم به فنانة تعيش سيــاق هذه الحضارة وطريقــة تفكيرها فهــي الأقدر على تقديم مثــل هذه الشخصية مني، لكني لا أمانع في تقديم مثل هذه الشخصية»، وكانت ارموند قد تحدثت عــن تجربتها المسرحية المتميزة فوق خشبــات المسارح البريطانية إلى جانب تجربتهــا السينمائي وخوضها تصوير أربعة أفلام في العام الجاري.(١٠)

تحضيرات تركية للاحتفال باسطنبول عاصمة للثقافة ٢٠١٠:

كشفت اللجنة التركية المكلفة بتحضيرات اسطنبول لتصبح العاصمة الأوروبية للثقافة عــام ٢٠١٠ عن قســم من المشاريــع التي ستواكب هذه التظاهــرة في المدينة التركية الكبرى بعد حوالي عام.

وتتراوح هذه المشاريــع بين التظاهرات الفنية في الشــوارع وترميم القصور، مرورا بإقامــة مهرجانــات موسيقيــة لشوبان أو للموسيقى الغجرية، وتتــوزع على العناصر الأربع تكريمــا للفيلسوف أرسطو الذي رأى أن الوجــود يقوم على أربعة عناصر أساسية هي التراب والهواء والماء والنار.

وقــال نــوري كولاكوغلــو رئيســ لجنة «اسطنبــول ٢٠١٠» خــلال مؤتمر صحافي: هكــذا نفهم اسطنبول، حيث نعتبر أن ثقافة العيشــ المشترك التي استمــرت على مدى قرون في اسطنبول وسمحــت ليوناني مثلا بالعمل مع حرفي ارمني أو رجل أعمال تركي أو تاجــر يهودي، إنما هــي مثال يحتذى به للعالم اليوم.

وذكــرت الجهات التركيــة المشرفة على تنظيم وتنسيــق فعاليات هــذه الاحتفالية أن مــن بين المشاريع الكــبرى بمناسبة هذه التظاهــرة، مشــروع يقضــى بتحويل حي يينيكابى الشعبي لإقامة منتزه أثري جديد، تعرضــ فيــه قطع أثريــة تعــود إلى مرفأ ألفثيريوســ البيزنطي القديم، والمشروع من تصميم بعض كبار أسماء الفن المعماري في العالم أمثال ريمكولهاس ورنزو بيانو ونورمن فوستر، حيــث اكتشف علماء الآثار الأتراك في المرفــأ القــديم الــذي يعــود إلى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول «٣٤٦-٣٩٥» على الضفــة الأوروبية لبحر مرمرة «شمال

غرب» أكثر من ثلاثين سفينة تشكل أسطولاً كاملاً من القرون الوسطى.

على صعيد آخر تتصدر الفنون التشكيلية برامج هذه التظاهرة، التي ستتضمن عشرين معرضاً جوالاً تهدف إلى نشر الفن المعاصر في المدينة البالغ عدد سكانها ١٣ مليون نسمة، وقال بيرال مدرا المكلف قسم الفنون البصرية في تظاهرة «اسطنبول ٢٠١٠»: سندعو عشرة فنانين مشهورين للإقامة هنا في اسطنبول والعمل مع فنانين من الجيل الشاب، كما تمت دعوة ١٦ أديباً بينهم الأميركي بول اوستر والألماني غونتر غراس واللبناني أمين معلوف لشرح رؤيتهم وانطباعاتهم الثقافية والذاتية حول مدينة استنبول، فيما سيعرض عشرة مخرجين عالميين أفلاماً قصيرة عن المدينة.

يذكر في هذا السياق أن الاتحاد الأوروبي اختار عام ٢٠٠٦ اسطنبول لتكون عاصمة أوروبية للثقافة عام ٢٠١٠ إلى جانب ايسن في ألمانيا وبيكس في المجر.[١١]

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW.SANA.ORG

٢- موقع ميدل ايست أن لاين WWW.MIDDLE-EAST.ONLINE.CO

٣- موقع نسيج WWW.NASEEJ.COM

٤- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM

٥- وكالة الأنباء الخليج WWW.JAMAHIRIYANEWS.NET

٦- موقع العرب أونلاين WWW.ARABONLINE.CO

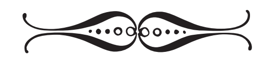
٧- وكالة الأنباء الجزائرية WWW.APS.DZ

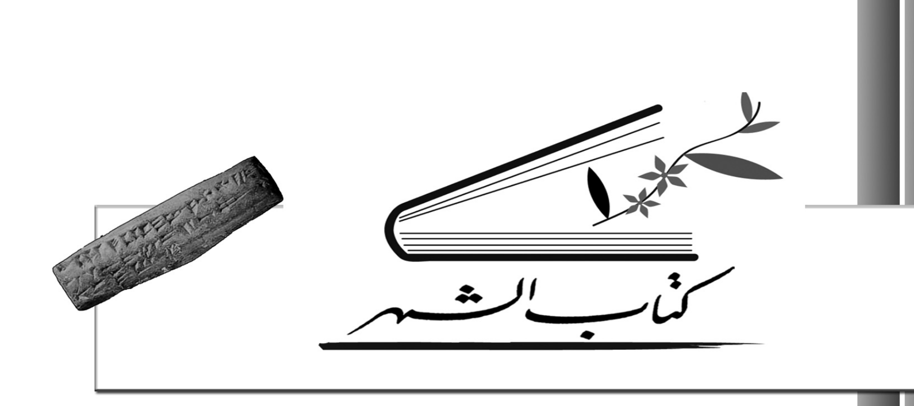
٨- وكالة الأنباء الليبية «جاما» WWW.JAMAHIRYANEWS.COM

٩- وكالة بترا الأردنية WWW.PETRA.GOV.JO

١٠-وكالة أنباء الشرق الأوسط WWW.MENA.ORG. EC

١١-وكالة رويترز WWW.REUTERS.COM





قرطاجة مدينة البونيين

عرض وتقديم : محمد سليمان حسن





قرطاجة مدينة البونيين

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن ❋

إذا ما دخلنا تاريخ العالم، فإن الباحث ينطلق من سورية. وإذا ما بحث عن مدن العالم، فإن البداية سورية. هو هكذا التاريخ. تاريخ حضارات البشرية الأولى من سومر إلى بابل وآشور، انطلاقا من الكنعانيين إلى الآراميين. وعندما نتكلم عن مهد الميثولوجيا والثيولوجيا العقيدية الأولى،فإن سورية تقف في الصف الأول.

❋ باحث من سورية.

من إنانا وعشتار وجلجامش وصولاً إلى عشتروت وأرام. وعندما نبحث عن مدن العالم واقتصادياتها، فإن سورية تقف في الصف الأول أيضاً.

لقد كان للكنعانيين وتجارتهم الدور الأكبر في بناء وتطوير مدن العالم من الساحل السوري اللبناني الفلسطيني إلى بقايا سواحل المتوسط الأخرى وصولاً إلى (لشبونة) البرتغالية ومنها إلى القارة المفقودة التي نسبت زوراً وبهتاناً إلى (كولومبوس) وهي من اكتشاف أجدادنا الكنعانيين.

(قرطاجة مدينة البونيين والرومان والمسيحيين) عنوان الكتاب الصادر عن دار (روافد)بدمشق. الكتاب من تأليف عالم التاريخ واللاهوت الألماني (فينيغرد إلليغر). قام بترجمته إلى العربية الباحث الدكتور (عيد مرعي) أستاذ التاريخ القديم بجامعة دمشق. يقع الكتاب في /٢٧٠/ صفحة من القطع الكبير. ومن إصدارات عام /٢٠٠٨/. نقدم عرضاً له بما يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب.

❁ ❁ ❁

البونيين: هي التسمية الرومانية في اللغة اللاتينية للفينيقيين = الكنعانيين في قرطاجة: Poeni = قرطاجي.

❁ ❁ ❁

قرطاجة البونية = المدينة

من يجول اليوم بنظره من موقع الميناء الحربي القديم، يجب أن تكون مدينة (هاينبال) قد قامت بأزقتها الضيقة ومعابدها الشامخة وأسوارها التي بلغت سماكتها متراً. هنا يجب أن يكون قد نزل فينيقيون شجعان إلى البر من صور من أجل تأسيس مستوطنة لحماية تجارتهم في الغرب. الذين واجهوا الرومان بشجاعة. كان ذلك كشفاً أثرياً مثيراً. بعد التدمير الكامل لقرطاجة ترك (سكييو) المدينة للجنود لعدة أيام. وأرسل إلى روما سفينة سريعة محملة بالغنائم. ولكن بعد نحو مئة سنة من تدمير قرطاجة أعاد الرومان بناءها من جديد، فنشأت فوق المدينة البونية القديمة مدينة رومانية. وهكذا دمرت قرطاجة القديمة بشكل نهائي.

إن الحي السكني الذي كشف عنه آثاريون عند المنحدر الجنوبي، حوالي خمس جزر، بين ثلاثة شوارع متقاطعة بشكل قائم كاملة والباقية بشكل جزئي. وهناك من أجل

التزود بالمياه للأغراض المختلفة، خزانان مدوران لهما شكل الزجاجة. ومن المفترض أن البيوت المسطحة الأسقف كانت تتألف من عدة طوابق. وعليه، يمكن القول إن الأدراج ربما كانت من خشب فقط، وكانت تقود إلى البيوت من الخارج، أما بالنسبة للفخار فكانت بالتأكيد منتجات محلية، ولكن كان يوجد مستوردات أيضاً. كانت شوارع هذا الحي تتألف من تراب مدكوك، وبالتالي، غير متلائمة مع الطقس خاصة. تعطي قطع الفخار معلومات عن نشأة هذا الحي، الذي يجب أن يكون عند نهاية القرن الثالث وبداية القرن الثاني قبل الميلاد. ومن المحتمل أن (هانيبال) الذي تسلم منصب (سوفيتين =أعلى منصب في دولة قرطاجة) عام /١٩٦ ق.م/ هو الذي أمر بالمخطط الجديد لهذه المنطقة.

تعد بقايا الفيلات البونية المكتشفة متواضعة للغاية مقارنة بالمكتشفات في (حي البرهة)، من حيث الكبر وتقسم الحجرات مع باحاتها والخزانات والممرات. وهناك شريط من الأرض بين البيوت والسور البحري خال من العمران. كان بحر تونس الحالي، الحد الجنوبي الطبيعي للمدينة. إن موقع المدينة على شبه جزيرة لها شكل مرساة، تطلب بالطبع طوقاً دفاعياً قوياً. إن الثقوب في الأرضية الصخرية كانت مخصصة للأعمدة الخشبية التي كانت تحمل أبراج الحراسة على السور.

كان هناك خليج طبيعي محمي من الرياح يكفي لرسو السفن أو سحبها إلى البر. الموانئ مرتبطة مع بعضها. الميناء الأول مخصص للتجار، والثاني وسط جزيرة، كانت هناك جزر كموانئ، مزودة بأرصفة موانئ كبيرة. في بداية القرن الرابع قبل الميلاد ملأ المرء القناة بالرمل، وبدأ بالتوسع الاصطناعي للموانئ ويظهر توسع المدينة. إن المبنى السداسي الزوايا، يمكن أن يكون مقر قيادة البحرية. وتقسم الشوارع المتقاطعة إلى قطع مختلفة المساحة. وهو ما يعرف باسم النظام الهيبو دامي الذي يعد أقدم لكثير من مخترعه المليتي هيبوداموس، واستخدم قبله في بلاد الرافدين القديمة. وتتفاوت الأزقة ضيقاً واتساعاً. أما المعابد فكانت تقع خارج المدينة أو في طرقها، مطابقة بذلك الفصل المألوف ما بين الدولة والدين عند الفينيقيين. وينتمي سور المدينة إلى منشآت المدينة البونية.

أسس الفينيقيون في القرن العاشر والتاسع قبل الميلاد كثير من المستعمرات التي تظهر اختلافاً كبيراً عن حركة الاستيطان الإغريقية. كان عليها أن تؤمن سلامة التجارة في المقام الأول. كانت المنتجات الحرفية الفينيقية والمنسوجات مرغوبة. وكان قد تم تأسيس مستوطنتين في مرتبتين في عام /١١٠٠ق.م/ هما (أوتيكا) الواقعة شمال غربي قرطاجة. و(ليكوس) عند الشمال الغربي من أفريقيا.

كانت قرطاجة إحدى هذه المستوطنات التجارية الفينيقية التي أسست من قبل صور. الرواية الأكثر شيوعاً تربط تأسيس المدينة مع (إليسا) ابنة (موتو) ملك صور. وتنتهي الحكاية، مع تأكيد حقيقة أن إليّسا عبدت كإلهة طيلة بقاء قرطاجة. إن اسم (قرطاجة) في اللاتينية و(كرخيدون) في الإغريقية، يرجع إلى (قرت حدشت) الفينيقية الذي يعني (عاصمة جديدة). يذكر (ميغاندر) في (إمنيسوس) = ٢٠٠ق.م كتاريخ تأسيس لقرطاجة العام السابع من حكم الملك بغماليون الذي يقع ما بين (٨٢٥- ٨٢٠ق.م).

❁ ❁ ❁



الآلهة والعبادات..

تبرهن المقابر (مدن الأموات) على أن حدود المدينة، أقيمت على منحدرات التلال الثلاثة الملتفة حول المدينة. وهي أقدم مقابر قرطاجة. وأقدم القبور هي عبارة عن حفرة بسيطة محفورة من الصخر بعمق مترين. وكانت القبور مغطاة بقطع حجرية مسطحة. وكمرفقات كانت هناك قارورة صغيرة أو اثنتان فخاريتان أو إناء. على أن أجمل قبور قرطاجة، بني على شكل شقة للموتى. وقد أسهمت مصر إلى جانب اليونان بقسط في حضارة القبور القرطاجية، بقطع العاج والأمشاط والعلب الاسطوانية والخواتم.

كان سراج الزيت جزءاً ثابتاً من الأشياء التي توضع في القبر. وكان السراج يظل مضيئاً طيلة الليل لإبعاد الأرواح الشريرة، مكتسباً وضعاً دينياً إضافياً. وقد يكون أمراً مفاجئاً وجود ثقوب مدورة صغيرة في المقابر محفورة في الصخر، كانت تستخدم كمستودع لبقايا العظام المحروقة.

من بين الأشياء التي كانت توضع في القبور وتستحق الاهتمام. هما: الأقنعة وأمواس الحلاقة. الغاية من وضع القناع إعطاء حاملها مظهراً آخر، وتحويله إلى إنسان آخر أو جني أو إله أو حيوان. وكانت أقنعة الجن من أكثرها شيوعاً، والبعض منها ذو ملامح زنجية، وذات وشوم متعددة والأغلب أن الصفة القدسية هي للعبادة وليس للموت. فهي مساعدة للميت في حياته الآخرة. أما (أمواس الحلاقة) وهي أمواس قرطاجية بامتياز وهي ليست للاستعمال اليومي. بل لدور عبادي، كانت مفروضة لطقوس تعبدية محددة.

إلى جانب مدن الأموات، هناك ما يسمى (التوفيت Tophet). كان القرطاجيون قديماً يقدمون أضاحٍ سيئة السمعة من الأطفال. وكان يشار إلى موضع القبر عادة بوساطة عموداً أو شاهدة. يقدمون كأضاحٍ إلى (بعل حمّون) ثم إلى (تانيت). وقد كشفت الحفريات الآثارية عن قبور أو مدافن مشابهة في (أوغاريت =رأس شمرا) في اللاذقية السورية. مورس هذا الطقس حتى دمار المدينة العام /١٤٦ ق.م/.

لا تقدم معلومات كاملة عن التضحية بالأطفال. وهو في المجمل العام تضحية للآلهة والملوك وفي الحروب والشدائد والمحن. وقد وجد في (سوسة= تونس) حفرة (توفيت) بين أنصاب القبور. إن خط التطور من الأضحية البشرية عبر الأضحية الحيوانية غير الدموية هو مركب فكري يحتاج إلى برهان.

كان (بعل حمون) السيد الأول وبالتالي الأوحد للتوفيت. وبعض الباحثين يرى فيه (سيد مذابح البخور) واسم (حمن) في الفينيقية يعني (يحترق). ثم ظهر اسم الإلهة (تانيت) وجدت إلى جانب (بعل حمون). وهي ربما أقرب إلى (هيرا) الإغريقية من (عشتروت) السورية.

إن من أهم رموز القرطاجيين، ما نسب إلى (تانيت) وهما: الزجاجة وإشارة

تانيت التي تضم قرص الشمس وإفريز من الأفاعي.

الأوضاع الدينية في قرطاجة كانت مشابهة للأوضاع في الوطن الأم. فبالإضافة إلى (بعل حمون) و(تانيت) كان (ملقارت) إله صور. و(إشمون) إله صيدا و(ريشيب) إله الطقس والحرب الفينيقي. ثم كان هناك (عشتاروت) إلهة الخصب والحب و(شدرابا) إلهة الشفاء.

كانت حالة الخوف البشري من الآلهة قائمة في قرطاجة. بالطبع كان من المفترض أن يكون الإله رحيماً. لكن في قرطاجة كان هناك آلهة للرحمة وآلهة للقسوة. وبالتالي كانت الأضاحي منتشرة بكثافة، كنذور تقدم لراحة الموتى. وهي أضاحي بشرية وحيوانية ونباتية ويقوم بتسلمها نيابة كاهن المعبد.

وكانت المعابد القرطاجية إما كبيرة أو صغيرة. إما طابقية أو بطابق واحد. وكانت تضم عدة غرف من أهمها (المزبح) الذي تقدم فيه القرابين للآلهة.

❁ ❁ ❁

السياسة والتجارة والإدارة

إن قرطاجة بعد تأسيسها، استقرت بسرعة واجتازت مرحلة نمو رفعت المدينة فوق المستوطنات التجارية الأخرى، وسيطرت على المدن الأخرى. وأسست مستوطنات جديدة. من أمثال (قادش، عبدرا وملقا). إضافة إلى مدن في صقلية وسردينيا الإيطاليتين. في القرن الرابع قبل الميلاد وصل القرطاجيون إلى كورسيكا في فرنسا. وأول صدام قرطاجي إغريقي حصل في /٥٨٠ق.م/.

الفينيقيون، ومعهم القرطاجيون، معروفون كتجار وباعة.

كان هناك عدة تقارير عن رحلات القرطاجيين البحرية، نذكر منها: سفراتهم ومدنهم في ليبية، إثيوبيا وبرابرة زنوج. ثم على طول نهر النيل حتى منابع البحيرات. وهناك رحلة إلى بلاد السنغال والكمرون. ثم بعثه (ميميليكو) إلى أراضي بريطانيا.

لم تكن الزراعة مهملة في قرطاجة وقد استوردت العديد من المواد الزراعية: الحبوب والزيت والخمر. ومارست قرطاجة منذ القرن السادس قبل الميلاد سياسة فتح الأراضي وضمها إلى مستعمراتها. فنشأ ارستقراطية من ملاك الأراضي الكبار. من أجل ذلك نشأ مستعمرات زراعية مثل أراضي الزيتون والعنب. وكذلك اللوز والتين والرمان

والتفاح. ولكن لم يكن للحرف القرطاجية نفس الأهمية والقيمة. كانت مواد للإنتاج المحلي وليس للاستيراد. ونشأت حرف عدة مثل: النجارة والصباغة. والسباكة، صناعة الذهب وحرفة الخدمات. وقد أخذت بعض الابتكارات القرطاجية من قبل الرومان.

في المجال القانوني مدح الفيلسوف (أرسطو) القانون القرطاجي. كان الحكم ملكي وراثي. مقارب للتقليد الفينيقي. مع ميل إلى (الأوليغاركية) التعددية. مع التطور السياسي والاجتماعي مال الشعب إلى الارستقراطية غير أن الهيئة الأهم لتوجيه السياسة، كانت المجلس أو مجلس الشيوخ. ثم هناك مجلس الشعب في عهد (آل برقة).

أدى توسع الدولة القرطاجية إلى ظهور تنظيمات اقتصادية واجتماعية ودينية متعددة. وقد تم جمعهم ضمن إطار الدولة الواحدة. فنشأ ما يسمى بالمواطن والمرتزقة والجنود. كانت الجيوش القرطاجية خليطاً ملوناً من جنسيات عدة.

❁ ❁ ❁

قرطاجة وروما

كانت معاهدة سلام العام /٢٠١/ تعني موتاً بالتقسيط بالنسبة لقرطاجة. لقد قام (ميسينا) بصهر الشعوب البدوية في أمة واحدة. كان يحلم بإنشاء إمبراطورية جديدة. وكان على قرطاجة أن تتراجع تدريجياً. لقد حاول الرومان نيل قرطاجة دون الكثير من الدماء. لكن ذلك لم يحصل فكانت الحرب قائمة بين الطرفين. واقتنع القرطاجيون أنه إن كان لابد من إزالتهم فليكن بحرب كبيرة. عند هذا الحد دخل الرومان قرطاجة.

❁ ❁ ❁

قرطاجة الرومانية

بعد تدمير المدينة، ضمّ مجلس الشيوخ الروماني المنطقة القرطاجية. قسمت الأراضي التي يمكن زراعتها. كان بإمكان مجلس الشيوخ أن يُسكن مستوطنين في هذه المناطق. وقسمت الحصص الزراعية.

ثم ضم قرطاجة كمستعمرة رومانية في عهد (غايوس يوليوس قيصر). أسست العديد من المستعمرات باسم قيصر النبيل ومنها قرطاجة. جاء إلى قرطاجة أكثر من ثمانين ألف مستوطن. بعد وفاة (قيصر) تسلم (أوغسطوس) وتابع مشوار سلفه فأعاد ترميم وبناء قرطاجة المستعمرة الرومانية الآن. وأصبحت مركزاً للتمدن الروماني.

كعاصمة جديدة للمقاطعة حوت قرطاجة

كل أنواع أماكن اللهو التي تناسب الذوق الروماني. فأنشأ المسرح المدرج البيضاوي. حسب التقديرات كان بإمكان ثلاثين ألفاً الاستمتاع بما يجري داخل هذه المسارح من عروض مسرحية ورياضية وموسيقية.

ثم كان هناك الحمامات، ليس للصحة فقط، بل للرياضة والتسلية والترفيه. وخاصة حمامات الإمبراطور الرومانية، تحت الأرض وأعلاها.

كما لكل المقاطعات الرومانية بدا أيضاً بالنسبة لإفريقيا في عهد الأباطرة الأوائل عصر رخاء عام، استطاع فيه الاقتصاد والثقافة الازدهار دون تهديد من الخارج أي قرطاجة، كان هناك أباطرة ونواب وقناصل دول. وكانت الحياة تنم عن رغد العيش وترف لا مثيل له. مما حدا بالامبراطور (كركلا) إلى منح قرطاجة وأهلها (الحق الإيطالي).

كانت مقاطعة إفريقية تشمل الجزء الأكبر من تونس الحالية ومنطقة طرابلس والجزائر الشرقي من الجزائر. ثم شكلت مقاطعة (نوميديا) في عهد (سيغيروس). كانت أهم القرارات في اجتماع مجلس المدينة، الذي كان يسمى غالباً (مجلس الشيوخ). وكانت أهم وظائفه المصادقة على قرارات مجلس الشعب. من حيث المبدأ كانت سلطة الدولة توجد في مجلس الشعب.

أول عبادة رومانية في قرطاجة يمكن أن تكون مذبح عائلة (أوغوستا) الذي اكتشف عام /١٩١٦/. بقيت الإلهة الرئيسة لقرطاجة الرومانية (تانيت) حامية المدينة القديمة، باسم جديد هو (كالستيس). إضافة إلى باقي الآلهة الرومانية: أثينا وأفروديت وسيليني وريا وأرتيميس. ولإله قرطاج الفينيقي (بعل حمون) ظهر وريث له هو (ساتورنوس).

إضافة إلى ذلك ظهرت عبادة الإمبراطور في عهد (فيسباسيان) عام /٧١م/. في المجال الثقافي ظهرت شخصيات عدة من مثل (أبولايوس) من أصل جزائري. الفيلسوف الذي درس الفلسفة الأفلاطونية. وكان روائي وموسيقي من الدرجة الأولى.

كما اعتبرت قرطاجة من أهم المدن التي اهتمت بـ (الموزاييك =الفسيفساء). التي تتحدث عن حياة المدينة بكل تاريخها.



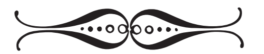
قرطاجة المسيحية

إن بداية المسيحية في شمال إفريقيا

يعود إلى /١٨٠م/. كان بطرس وسيمون وماتيوس من أوائل الوعّاظ وأصحاب الجماعات الدينية. وكانت أعداد المسيحيين كبيرة في قرطاجة. لكن هذا الدين تباطأ في القرن الثالث الميلادي وشهد أعمال تنكيل وملاحقات. كان أهل الدين الجديد أقلية في وسط شعب وثني. حاول جاهداً إيجاد علاقات وثيقة. إن ملفات الشهداء المسيحيين في قرطاجة ومحاضر التحقيق بأعداد كبيرة هي ذات قيمة لا تقدر بالنسبة لتاريخ التدين. وتوالى بعد ذلك ظهور شخصيات مهمة من مثل: تريتوليان وكبريان اللذان لعبا دوراً مهماً في تاريخ مسيحية شمال أفريقيا وقرطاجة على وجه التحديد. أصاب مسيحية قرطاجة ما أصاب غيرها من خلافات داخلية أدت إلى شقاق بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الغربية الأوروبية. وظهرت شخصية كنيسة مهمة من قبل (أوغسطينوس) القديس والفيلسوف الذي لعب دوراً مهماً في اللاهوت الكنسي والفلسفة الدينية.

وقعت قرطاجة تحت حكم (الفاندال) عام /٤٢٩م/ وكانت فترة شديدة الاضطرابات السياسية، ومتخلفة ثقافياً ودينياً. ثم وقعت قرطاجة تحت الحكم البيزنطي حوالي القرن السادس الميلادي. وفي قرطاجة بنيت الكنائس وبخاصة على النظام الكاثوليكي. وعقد مجمع كنسي في قرطاجة عام /٥٣٥/ وثبت أسقف قرطاجة من جديد كأسقف أول لإفريقية.

بقي الأمر كذلك حتى دخول العرب بإسلامهم إلى شمال إفريقيا في العام /٦٤٧م/. ولكن بقي أصحاب ديانات التوحيد من المسيحيين واليهود على دينهم وفق التعاليم الإسلامية مع دفع الجزية ونالوا كل حقوق المواطنة باعتبارهم عرباً من غير المسلمين وأجانب من غير المسلمين في بلاد عربية.



إشكالية الخطاب الثقافي

رئيس التحرير

يقول المفكر والفيلسوف العربي الكبير الراحل زكي نجيب محمود: «شاهد الناس من حولك، تدرك من سلوكهم أي ثقافة يعيشون.. إننا نعيش ثقافتنا في كل ما نراه من تفصيلات..» من هذا القول ينبع السؤال: هل استطاع المثقفون والمفكرون العرب، على اختلاف اتجاهاتهم وميولهم ومذاهبهم، وما

أنتجوه من فكر أن يزرعوا قيماً معينة تظهر في سلوك المواطن العربي، الذي هو محل كل خطاب يطرحه المثقف المنشغل بـ«إشكاليات» العصر وقضاياه؟!

الإجابة عن هذا السؤال، هي المحك في مدى نجاح الخطاب الثقافي العربي المعاصر من عدمه، والجواب جاء من خلال دراسات ومناقشات جرت في ندوة بحثية، شارك فيها نخبة من كبار الباحثين والمفكرين العرب، وعقدت مؤخراً في مدينة الكويت، وكان الرأي فيها بصفة عامة هو لا، حيث عدنا في وقتنا الراهن، رغم مرور قرنين من محاولات «التنوير والحداثة والنهضة» إلى قيم تقليدية بحتة بأفج صورها وسطحيتها، وغير ذلك من مفاهيم مماثلة يبدو أنها لم تتجاوز النخبة التي تطرحها..

نحن الآن في بدايات القرن الحادي والعشرين.. الإنسان مازال يتخبط في أزمات عميقة وإحباطات مريرة على الصعد كافة.. تفكيره لا يزال أسير طروحات وأسئلة منذ بداية «النهضة الحديثة» دون أن يجد أجوبة حاسمة عليها. وضع غريب يعيشه الإنسان العربي بين شعوب العالم.. لم تستطع الثقافة أن تكوّن مرجعية ثابتة توصل للإنسان العربي نظرته إلى المجتمع والحياة والمستقبل وسبب ذلك يعود إلى النخبة المثقفة كانت منعزلة عن حركة المجتمع ذاته، وكانت أفكارهم

وتياراتهم حكراً عليهم، مع بعض شرائح من الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها.

المتابع للخطاب الفكري العربي، على اختلاف تياراته، يلاحظ أن الأزمة هي أزمة مرجعية في المقام الأول، فليس هناك خيط واحد ينظّم هذه التيارات إلا خيط الأزمة والإشكالية، أو الاتفاق على أن هناك أزمة ثقافية. غير متفق على أسبابها، وسواء تحدثنا عن النخب الثقافية والفكرية التقليدية، أو تلك الحديثة، فالأمر واحد تقريباً، فالأوائل (التقليديون) يشيدون تماثيل لثقافة نخبوية ماضوية لا علاقة لها بمتغيرات الحاضر، والأواخر (التحديثيون) يشيدون تماثيل غالباً ما تكون مأخوذة من خارج المكان، ولاعلاقة لها بمتغيرات المكان الخاص، وهنا يصبح المجتمع عرضة «لإيديولوجيات» تحطم الثقافة والمجتمع معاً، وهذا يدفع إلى إعادة التفكير في مسلمات الثقافة العربية المعاصرة، ومناهج الوصول إلى مثل هذه المسلمات، وهي مسلمات وآليات فكريّة، تحكم العقل العربي المعاصر في إدراكه للمحيط من حوله، وتتحكم في نوعية وفاعلية المنتج من فكر، ويبقى العقل الشعبي، بكل أسف، خارج دائرة الفكر والثقافة..

للخروج من هذا المأزق، مأزق النخب الثقافية وآليات إنتاجها، لابد من معرفة المثقف لموقعه في المجتمع، بل معرفة المشتغل بالهمّ العام، والثقافة جزء منه، دون فرضيات وأوهام فالمشتغل بالهمّ الثقافي،

هو جزء من المجتمع، وليس وصيّاً عليه، له دور اجتماعي نابع من كينونته، ودوره الحقيقي، كما هو مقرر في الواقع، وليس بناء على افتراضات ذاتية، وأعتقد أن ذلك يشكّل الخطوة الأولى تجاه نفي تلك الآليات الفكرية، المنتجة لفكر نخبوي مكتّفٍ بذاته ولا علاقة له بما يجري حولنا، وهذا لن يتم إلا عندما يقوم المثقف بتحرير نفسه قبل تحرير الآخرين..

